يوسف القرضاوى

ابْن القريَة والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة

الجزء الثالث



دار الشروق

ابْن القريَة والكُتّاب

الطبعة الأولى ٢٠٠٦
الطبعة الثانية ٢٠٠٨

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

يوسف القرضاوى

ابْن القريَة والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة

الجزء الثالث

دار الشروق

من الدستور الإلهي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الأحقاف: ١٥).

من مشكاة النبوة

«اللهم إني أستعينك، وأستهديك، وأستغفرك، وأتوب إليك، وأؤمن بك، وأتوكل عليك، وأثني عليك الخير كله، نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، إن عذابك الجد بالكفار ملحق».

قنوت ابن مسعود - رضي الله عنه -.

«اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر، فأتم نعمتك عليّ وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة.

اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر».

«يا رب لك الحمد، كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك».

«سبحانك اللهم وبحمدك، عدد خلقك، ورضا نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك».

من الأذكار النبوية المأثورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هداه.

(أما بعد):

فهذا هو الجزء الثالث من مذكرات «ابن القرية والكتاب» وملامح سيرته ومسيرته، التي أسأل الله تبارك وتعالى: أن يجعل فيها دروسا وعبرا، لمن قرأها، موصيا قارئي: أن يقتبس مما يراه فيها من خير، وأن يتجنب ما يلحظه من عثرات، ويلتمس لصاحبها المعذرة، ويدعو له بالمغفرة.

وأود أن أنبه هنا على أن ما كان من جهد وعطاء يجده القارئ في هذه السيرة، فالفضل في ذلك يرجع إلى واهبه سبحانه، ولا أقول إلا ما قال سليمان عليه السلام حين أحضر إليه عرش بلقيس من اليمن - وهو في فلسطين - قبل أن يرتد إليه طرفه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل: ٤٠).

وما كان في هذه السيرة من قصور أو تقصير، أو خطل في الرأي والتفسير، أو شرود في السلوك والعمل، فمرده إلى نفسي، ولا أقول إلا ما قالت امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٣).

ولا يسعني إلا ما وسع أبانا آدم وأمّنا حواء حينما قالا: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٣).

وتشمل هذه المذكرات من سنة ١٩٦٥م، إلى سنة ١٩٧٨م. وقد وقعت فيها أحداث مهمة على المستوى الشخصي، وأحداث جسام على مستوى الأمة. فعلى المستوى الشخصي: رزقت أبنائي الذكور الثلاثة: محمدا وعبد الرحمن وأسامة، ودخلت بناتي ـ كما دخل أبنائي بعد ـ المدرسة، وظهر تفوق الجميع من الصغر، بحمد الله.

وحصلت على الدكتوراه من الأزهر بعد أن كنت أيست منها. وانتقلت من المعهد الديني إلى جامعة قطر، وبدأت أخرج من عزلتي في قطر، لأنطلق إلى آفاق العالم في قارات الدنيا، مدعوا من الجامعات والجمعيات والمؤسسات، ومشاركا في الندوات والمؤتمرات.

وعلى مستوى الأمة: حدثت نكبة حزيران (يونيو) ١٩٦٧، واحتلت إسرائيل ما بين القنطرة والقنيطرة، وحدث انقلاب النميري في السودان، ومحاولة إحراق المسجد الأقصى، وقامت ثورة القذافي ١٩٦٩، وحدثت مأساة أيلول الأسود، ومات جمال عبد الناصر، وتولى السادات الحكم ١٩٧٠، وقضى على مراكز القوى ١٩٧١، ووقعت حرب العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ ـ (٦أكتوبر ١٩٧٣م) التي انتصر فيها جيش مصر على إسرائيل، وعبر القناة، واجتاز خط برليف، وإن لم يكتمل له النصر، بما عرف بقصة «الثغرة» وما أعقبها من أحداث. واغتيل الملك فيصل بن عبد العزيز، وزار السادات إسرائيل في سنة ١٩٧٧، ووقع اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٨م.

وبدأت الصحوة الإسلامية في الانطلاق والظهور، وخصوصا بين الشباب والفتيات، وبدأت مسيرة البنوك الإسلامية، وبدأ الكتاب الإسلامي يكتسح سوق الكتب.

أحداث كبرى وقعت في تلك المرحلة، سيجدها القارئ في مواضعها عند حديثنا عنها إن شاء الله.

وقد رتبت هذه المرحلة من حياتى على نظام (الحوليات) الذى اتبعه مؤرخونا الإسلاميون الكبار، مثل: الطبرى وابن الأثير وابن كثير وغيرهم. وإن كنت قد اخترت أن يكون ترتيبها وفق (السنوات الدراسية) لسهولتها عليّ، وتمايزها عندى بوضوح.

وقد عرضت هذا الجزء من المذكرات (ابن القرية والكتاب) على عدد من الأخوة والأصدقاء من أهل الفكر والعلم، ليبدوا ملاحظاتهم عليها، ويشيروا عليّ بما يرونه، فالمؤمن مرآة أخيه، وليس هناك أحد أكبر من أن يُنصح، ولا أحد أصغر من أن يَنصح، ولكن أصدقائى هؤلاء اختلفوا عليّ كما هو شأن البشر عادة فى الأمور الاجتهادية، فمنهم (المستشار: طارق البشرى، والأستاذ فهمى هويدى) من رأى أننى فى قسم منها تحولت من كاتب مذكرات إلى مؤرخ، كما فى حديثى عن نكبة ١٩٦٧م، وعن عبد الناصر، وعن الهضيبى، وعن سيد قطب، ونحوها، ورأوا أن الأولى أن تُحذف هذه الفقرات الطوال من المذكرات، لتوضع فى مكان آخر، فى كتاب آخر، أو تختصر اختصارا شديدا.

ومن أصدقائى من رأى رأيا آخر (د: أحمد العسال، ود: عبد العظيم الديب، ود: محمد سليم العوا، وآخرين) وهو أن تبقى هذه التعليقات ـ وإن طالت ـ على الأشخاص والأحداث ذات الأهمية، باعتبارها تُمثل رؤية شخص عايش هذه الوقائع، وانفعل بها، وكان لها وقعها وأثرها على حياته وعلى مسيرته، فهو شاهد على عصره، ينتظر الناس شهادته كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ (المعارج: ٣٣)، وقال: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ (الطلاق: ٢)، وقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

وليس المقصود من هذه المذكرات: مجرد الأحداث الشخصية والعائلية

الروتينية، فهذه قد لا تهم الناس كثيرا؛ وإن أهمتهم، فإن أهم منها تفاعل صاحب السيرة مع عصره ووقائعه وأحداثه الكبرى، ورأيه فيها، فلعل فى ذلك ذكرى لمن كان له قلب، وعبرة لمن كان له عقل.

وقد أردت أن أجس نبض جمهور القراء، فسألت عددا منهم عن رأيه فى هذا الخلاف، فكان أكثر من ٩٠٪ مع إبقاء ما نشر على ما هو عليه. والكاتب إنما يكتب لقرائه قبل كل شىء.

ومع هذا، قد اجتهدت أن أوفق بين الرأيين، فحذفت بعض أشياء ممّا اعتبره الأصدقاء تاريخا وليس بسيرة، وقد رأيتها غير ضرورية، وأبقيت الأشياء الأساسية التى لا تمس جوهر رؤيتى للمواقف والأشخاص والأفكار.

ورجّح لى هذا: أن هذه المذكرات قد نشرت فى صحيفة (الوطن) في قطر قبل ذلك فى رمضان ١٤٢٤هـ، كما نشرت فى مصر فى صحيفة (آفاق عربية)، وفى موقع إسلام أون لاين نت. وقد أغضبَ بعضُ ما كتبته عن عبد الناصر: بعض الناصريين والقوميين، وعلقوا على ذلك وأطالوا التعليق. كما أغضب بعض ما كتبته عن سيد قطب: بعض الإسلاميين! وقد أفضى الجميع إلى ما قدم، وما أردت بما كتبته عن هذا أو ذاك: إرضاء أحد ولا إغضابه. أنما أردت بيان الحقيقة كما أراها، وفاء بما أخذه الله على أهل العلم أن يبينوا الحق للناس ولا يكتموه. وقديما قالوا: رضا الناس غاية لا تدرك، وقال الشاعر:

ومن فى الناس يُرضى كل نفس
وبين هوى النفوس مدى بعيد؟

ولهذا لم يعد مجديا: أن أحذف هذه الشهادة، أو هذا التعليق، بعد نشره وإذاعته، على نطاق واسع. وحسبى أنى قلت كلمتى مبتغيا بها وجه الله، وبيان الحقيقة «وإنما لكل امرئ ما نوى».

وليس هناك من قانون ملزم لكتابة المذكرات، بحيث يلام من خرج عليه. وإنما ذلك يختلف باختلاف كل كاتب وموقفه وظروفه.

والحقيقة أني لم أقلد أحدا فيما كتبت، بل تركت قلمي ليخط ما خط على سجيتي دون تكلف ولا افتعال، فإن كان في ذلك خير فذلك فضل الله عليّ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨)، وإن كان غير ذلك؛ فقد اجتهدت فيما صنعت، ولكل مجتهد نصيب، ومن روائع ديننا: أنه لا يحرم المجتهد المخطئ من الأجر. ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ البقرة: ٢٨٦)، على أن الأمر ليس فيه صواب وخطأ، ولكن مألوف وغير مألوف.

وختاما: أسأل الله تعالى أن يجعل عملنا صالحا، ويجعله لوجهه خالصا، ويجعل خير أعمارنا أواخرها، وخير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاه. آمين.

الدوحة في: ربيع الأول ١٤٢٦هـ[1].

إبريل ٢٠٠٥م.

يوسف القرضاوي

---

(١) كان تاريخ هذه المقدمة الأول في شعبان ١٤٢٤هـ (أكتوبر ٢٠٠٣م) ولكن بقي الكتاب للمراجعة والمدارسة والمشاورة حتى التاريخ المذكور أعلاه. وكل شيء بأجل مسمى.

(١)
السنة الدراسية
١٩٦٥ ـ ١٩٦٦م

السنة الدراسية ١٩٦٥-١٩٦٦م

العودة من لبنان إلى قطر:

بعد قضاء شهر في مصايف لبنان الجميلة، كان حافلا بالحركة والنشاط، واللقاءات العلمية والدينية في مدينة بيروت: كان لا بد من **العودة إلى قطر**، مع بداية العام الدراسي، الذي يبدأ عادة في منتصف أيلول أو سبتمبر.

فكان لا بد أن يصيبنا رذاذ من محنة إخواننا في مصر، فإن لم يصبنا وابل فطلّ. فقد حُجز عشرة من إخواننا وزملائنا الذين يعملون في قطر، للاعتقال مع من اعتقلوا من المصريين.

وكان الاعتقال هذه المرة أوسع دائرة من أي محنة سبقت، فكل من اعتقل من قبل في عهد الثورة أو في عهد الملكية: يجب أن يعتقل، ولو كان اعتقاله خطأ، وكل من تحوم حوله شبهة من قريب أو بعيد، ولو بكيد كائد، أو ببلاغ كاذب، يجب أن يعتقل، ويتحقق من أمره فيما بعد، وقد لا تأتي «ما بعد» هذه.

وكان من المفترض أن أكون أنا والعسال في أوائل المعتقلين، وقد سئل إخواننا العشرة المعتقلون من قطر جميعا عنا نحن الاثنين، ولكن الله نجانا بفضله، ولم ننزل إلى مصر هذه الإجازة، وقد ذكرت السبب المباشر الذي دفعني إلى عدم السفر إلى مصر، في الجزء السابق.

كان من المعتقلين العشرة: سكرتير المعهد الأخ أحمد المنيب حسين عبد الغفار، وكان لا بد من ملء مكانه بسرعة، حتى تسير أمور المعهد الإدارية بانتظام، فاخترت أخا كريما من إخواننا الفلسطينيين، كنت قد تعرفت عليه في مناسبات شتى، فنقل إلى المعهد، وظل يعمل في سكرتيريته، حتى انتقلت من المعهد إلى الجامعة، وهو بالمعهد، وهو الأخ يوسف السُّطَري (أو يوسف الحمايدة كما يعرف الآن).

وقد كان من المعتقلين العشرة الأخ الشيخ عبد اللطيف زايد مدرس العلوم الشرعية بالمعهد، وهو عالم وداعية ومرب فاضل. وكان عضدي الأيمن في العمل التربوي مع الطلاب. وكان منهم كذلك: الأخ الأستاذ رشدي عبد الغني المصري، مدرس اللغة العربية المتميز في مادته وطريقته وتحضيره وأدائه وجمال خطه. ومن حسن حظ المعهد: أن أفرج عنه بسرعة وعاد إلى عمله.

أفرج عن الأستاذ رشدي ومجموعة معه، منهم: الأستاذ عبد الحليم محمد أبو شقة، ومنهم الأستاذ عبد الحميد طه. وقد كان الإفراج عنهم أمرا خارقا للعادة، فقد أفرج عنهم وما زال الناس يعتقلون، ويساقون إلى السجن الحربي من هنا وهناك.

أما الشيخ عبد اللطيف، ومعه الأستاذ أحمد المنيب، وكذلك الأستاذ محمد المهدي البدري، فقد بقوا، ولم يفرج عنهم إلا بعد عدة سنوات، بعد نكبة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بمدة طويلة.

طلب السلطات المصرية عودتي:

وقد طلبت السلطات المصرية من حكومة قطر عودتي إلى مصر، ولا سيما أن سنوات إعارتي الأربع إلى قطر قد انتهت، ومن حق الدولة المعيرة أن تسترد معارها بعد انتهاء مدته. ولكن قطر - جزاها الله خيرا - رفضت طلب السلطات المصرية، وأخبرتهم: أنها تعاقدت معي على العمل في وزارة المعارف في قطر بعقد خاص.

ولما قيل للشيخ قاسم بن حمد آل ثاني وزير المعارف رحمه الله: إنهم لن يجددوا لي جواز سفري، قال لمن حدثه: سنعطيه جوازا قطريا.

وانتهت هذه المحاولات بالإخفاق، نتيجة لموقف قطر الشجاع، وتمسكها بي، واستعدادها لأن تمنحني جوازا قطريا، إذا فقدت الجواز المصري، وهذا ما حدث،

فقد كنت أسافر بوثيقة قطرية تجدد كل سنة، ثم في سنة ١٩٦٩م أعطيت جوازا قطريا كاملا. وسنتحدث عن ذلك في حينه.

محنة كبرى للإخوان:

كانت هذه المحنة التي ابتلي بها الإخوان في مصر، من المحن الكبرى في تاريخهم الدعوي والحركي، وقد كانت محنة ثقيلة وقاسية ومرّة على الإخوان، وذلك يرجع إلى عدة أمور:

أولا: من ناحية الكَمِّ شملت أعدادا هائلة، أكبر من أي مرة مضت، حتى إن أجهزة أمن عبد الناصر ومخابراته ذكرت على سبيل المباهاة: أنها اعتقلت ثلاثين ألفا من الإخوان في عدة ليال. فهي تَعُدّ هذا من «الإنجازات» العظيمة (!) التي ينبغي أن تكافأ عليها المكافآت السخية!

ثانيا: من ناحية الكَيْف، فقد جرى فيها من أساليب التعذيب ووسائله الوحشية والحديثة، ما لم يجر في المحنتين السابقتين في عهد الثورة، ولا في المحنة التي مضت في عهد الملك فاروق وحكومتي النقراشي وإبراهيم عبد الهادي.

فقد تعلّم المصريون أساليب استفادوها من الروس والشيوعيين، الذين هم أئمة القمع والقهر والتعذيب في العالم. فقد مورست أساليب لم تعرف من قبل، ومنها: أساليب غير أخلاقية.

ومن ذلك: اعتقال النساء وتعذيبهن، كما حدث مع السيدة المؤمنة الصابرة زينب الغزالي، التي حكت عن تعذيبها في كتابها «أيام من حياتي»: ما يشيب له شعر الوليد، وما يندى له جبين كل إنسان مصري وعربي. وكذلك اعتقلت شقيقتا سيد ومحمد قطب: أمينة وحميدة.

ثالثا: أن هذه المحنة كانت مفاجئة لجمهور الإخوان، فقد داهمتهم على غفلة، دون توقع منهم، ولا عمل قدموه يمكن أن يؤاخذوا عليه. فقد كان أكثرهم منصرفا

إلى عمله المعيشي اليومي، يتقنه ويتكسب من ورائه: الموظف في وظيفته، والتاجر في تجارته، والزارع في زراعته، والمحترف في حرفته، والطالب في جامعته، وبحسبه أن يؤدي فرائض الله، ويجتنب محارم الله، ويتحرى الحلال، ويربي أولاده على طاعة الله، ويدع السياسة لأهلها، والدعوة لربها، على نحو ما قال عبد المطلب لأبرهة: أما الإبل فأنا ربها، وأما البيت فله رب يحميه!

كان هذا هو اتجاه جمهور الإخوان بعد محنة ١٩٥٤م-١٩٦٥م، وهو: الكمون والسكون، حتى تتغير الأحوال، وتواتي الفرصة. والتغير حقيقة كونية، ودوام الحال من المحال، ومداولة الأيام سنة قررها القرآن: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

ولكن الإخوان فوجئوا - برغم اعتزالهم لأي نشاط سياسي أو حركي - بهذه الهجمة العامة التي لم تدع أحدا له صلة بالإخوان إلا امتدت يدها إليه، حتى بعض من ضعف إيمانهم، وتراخت عزائمهم، ولم يكتفوا باعتزال النشاط الدعوي، بل أوسعوا الإخوان ذمّا وتجريحا، عسى أن يشفع ذلك لهم، فلم يغن عنهم ذلك شيئا، وشمت بهم من شمت ممن نالهم أذاهم وتطاولهم من إخوانهم.

ولهذا ينظر الإخوان إلى هذه «المحنة» الهائلة المريرة على أنها من جانب آخر: كانت «منحة» ساقها الله تعالى للإخوان، الذين أرادوا أن ينشغلوا بهمومهم المعيشية عن همومهم الدعوية، وأن يقول كل منهم: نفسي نفسي، فشاء الله تعالى أن يريهم أن اعتزالهم لواجب الدعوة لن ينفعهم، وأنها قد أصبحت مكتوبة على جبينهم، مقروءة في وجوههم، موصولة بحياتهم، لا تنفصل عنهم، ولا ينفصلون عنها. فليحملوها بإرادتهم واختيارهم، بدل أن يحمّلوها رغم أنوفهم. ففي الحالة الأولى يؤجرون على كل ما يصيبهم في سبيلها، وتجد أنفسهم السكينة والروح كلما مسهم قرح، أو نزل بهم بلاء، فهو في سبيل الله. أما في الحالة الأخرى، فلا أجر فيها ولا مثوبة في الآخرة، ولا سكينة ولا راحة في الدنيا.

سبب هذه المحنة:

ولقد فكرت وتأملت في سبب هذه المحنة الهائلة التي فتحت فيها النار على جماعة الإخوان من كل جانب، وسلطت عليهم آلات التعذيب الجهنمية، تحطمهم ماديا، وتحطمهم نفسيا، آلات تأكل من لحومهم، وتشرب من دمائهم، وتهشم من عظامهم.

لقد قلت: إن جمهور الإخوان لم يمارسوا أي نشاط، وهذه حقيقة لا ريب فيها، وقد كان بعضهم لم يزل في سجون عبد الناصر يقضون المدد المحكوم عليهم فيها بالأشغال الشاقة بعيدا في «الواحات» بعد أن وقع ما وقع في «ليمان طرة» من مذبحة تحدثنا عنها في الجزء الثاني.

ولكن أجهزة عبد الناصر، أعلنت أنها اكتشفت «تنظيما سريا» خطيرا جدا، يقوده «سيد قطب» ومعه مجموعة من الإخوان، منهم: الشيخ عبد الفتاح إسماعيل، ومحمد يوسف هواش، وعدد قليل آخر، منهم شخص اشتروه بالإغراء، والتأثير بالوعد والوعيد، والعفو عنه من حبل المشنقة ـ وهو ع . ع . ع ـ فخارت قوته، وانهزمت إرادته، فسقط في أيديهم فريسة سهلة، وأمسوا يلقنونه ما يجب أن يقول، فيذعن لهم، ويصبح رجع الصدى لما يقولونه. وهذا الطريق من وقع فيه، فقد وقع في حفرة لا ينجو منها إلا إلى حفرة أشد منها عمقا، ومن مضى فيه خطوة لم يستطع الرجوع عنها، ومن سقط السقطة الأولى ظل يسقط ويسقط، إلى ما لا نهاية، فقد غدا لا يملك من أمره شيئا، غدا مسيّرا لا مخيرا، زمامه بيد غيره. لأن الذي يبيع نفسه للطاغوت، قد خسرها بالمرة، وهذا لون من الشرك بالله، الذي ينحط به الإنسان إلى أسفل الدركات ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ (الحج: ٣١). ونعوذ بالله من الفتن، ما ظهر وما بطن.

هذا التنظيم المحدود العدد، المحدود الإمكانية ـ الذي يقوم في الأساس على

التوعية والتثقيف والإعداد الفكري والنفسي - قد هولت أجهزة عبد الناصر من أمره، وجعلت من الحبة قبة، ومن القط جملا، كما يقول المثل. وأعتقد أن هذه الأجهزة هولت الأمر لعبد الناصر نفسه، وعرضت عليه الأمر عرضا يضخم الواقع أضعاف ما هو عليه، فكأنما يراه بمجهر مكبر (ميكرسكوب). وذلك لتستخرج منه القرار المشؤوم بإشعال تنور الأذى والعذاب.

وكثيرا ما تصنع الأجهزة الأمنية ذلك للقادة السياسيين، فتضللهم، وتدفعهم دفعا، ليشعلوا معارك حامية لا لزوم لها، ولا فائدة منها.

والمشكل في الأجهزة الأمنية: أنها لا ترتاح إلى مناخ الهدوء والاستقرار، فهي لا تبرز ولا تعمل ولا تتحرك بقوة إلا في جو التوتر والسخونة، فإذا برد الجو اجتهدت أن توقد تحته حتى يسخن وتشتد حرارته.

وهي دائما تشعر الحاكم والقائد السياسي بالخطر الواقع أو المتوقع، حتى يشعر أبدا بحاجته إليهم، وأنهم الذين يحمونه من تغير الجو الهادئ، إلى جو الريح العاصف، والرعد القاصف، والبرق الخاطف، وأنهم الذين يعدون له في هذا الجو سفينة الإنقاذ، وطوق النجاة.

حاولوا أن يضفوا المبالغات على هذا التنظيم المحدود، فقالوا: إنه كان يخطط «لنسف القناطر الخيرية»! وهل يفكر في ذلك عاقل؟ وماذا يستفيد من ذلك إلا الهلاك والخراب؟ وإذا كان يريد أن يحكم البلاد، فكيف يخربها قبل أن يستولي عليها؟

وقالوا: إنهم يريدون «اغتيال أم كلثوم» وهل يفكر في ذلك من له ذرة من عقل؟ وماذا ارتكبت أم كلثوم من جرائم تستحق عليها القتل؟ وهل يقتل عاقل إنسانة يحبها جماهير الشعب المصري - بل العربي كله - ويعرض نفسه لسخط عام دون حاجة لذلك؟!!

المهم أن الحكومة كانت تملك من أجهزة الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، ما

تستطيع به أن تغير الرأي العام إلى صفها. ولا سيما أن الخصم لا يملك أي وسيلة إعلامية يستطيع بها أن يدافع عن نفسه، ولو بأدنى دفاع.

ومن المعروف: أن الصحف كلها في مصر قد «أمّمت» وأصبحت ملك الدولة، فهي الناطقة باسمها، والمدافعة عنها، والمهاجمة لخصومها، ولا يمكن أن يعين رئيس تحرير، أو سكرتير تحرير، أو يظل في منصبه، إذا شُك في ولائه للثورة ورجالها، ولو مثقال ذرة.

ولا يوجد أي صحف معارضة، إذ لا يسمح بوجود أي حزب أو قوى سياسية، غير الحزب الواحد الذي يحكم البلاد، وهو «الاتحاد الاشتراكي». فلتقل الحكومة ما تشاء، فلن يعارضها أحد، ولن يسائلها أحد. والمثل المصري يقول: هل يستطيع أحد أن يقول للغولة: عينك حمراء؟

وقد بدأت هذه الجولة بالقبض على الأستاذ محمد قطب يوم ٣٠ يوليو سنة ١٩٦٥م ثم القبض على الأستاذ سيد قطب في ٩ أغسطس التالي، وانطلقت بعد ذلك جحافل عبد الناصر تلقي القبض على آلاف الإخوان، وافتخر عبد الناصر فيما بعد بأنه قبض على ثلاثين ألفا في نصف ساعة!

وكان القبض على الإخوان المسلمين بتهمة أنهم يدبرون مؤامرة للعدوان على عبد الناصر وقتله. ويذكر الأستاذ موسى صبري - وهو كمسيحي لا يمكن أن يكون ضالعا مع الإخوان - أن كل الثقات يؤكدون أن قضية الإخوان التي أعدم فيها سيد قطب: كانت من اختراع شمس بدران، وزبانية البوليس الحربي، وأنها مؤامرة وهمية، وأن التعذيب في هذه القضية هو قمة المأساة[(١)].

ويقرر الأستاذ محمد حسنين هيكل: أن المعتقلين في هذه القضية وصلوا إلى عدة آلاف، وأن زوار الفجر كانوا يجمعونهم بغير رحمة، وقد تعرض الكثيرون منهم للتعذيب، وكان عبد الناصر يعرف ذلك، وقد أشرت إلى ما كتبت في

---

(١) وثائق ١٥ مايو ص٣٢١.

الأهرام آنذاك إلى زوار الفجر، وانتقدت أعمالهم، فاستاء عبد الناصر مما كتبته في هذا الشأن، واتصل بي ليذكر أنني كنت قاسيا فيما كتبت، وأن شمس الدين بدران الذي كان يشرف على تحقيقات الإخوان المسلمين وقتها غضب وقدَّم استقالته(١).

ويتحدث الرئيس أنور السادات عما أصاب الإخوان المسلمين في هذا العام فيقول: هُيئ للسلطة الحاكمة في ذلك الوقت: أن الإخوان يتآمرون ليقوموا بثورة مضادة، وقد ذهب ضحية هذا التصور الكثيرون ممن يحصون بالألوف، وصدرت ضد الكثيرين منهم أحكام، وظل الجميع في المعتقلات أو السجون إلى أن صفيت العملية كلها، فأغلقت مباشرة بعد القضاء على مراكز القوى في سنة ١٩٧١. أما المحكوم عليهم - سواء من الإخوان أو أي قضية سياسية أخرى - فقد أطلقت سراحهم مباشرة بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣م(٢).

ويورد سامي جوهر في كتابه «الصامتون يتكلمون»: تفاصيل أوسع عن هذه الحركة الوهمية وعن التعذيب الذي ارتبط بها فيقول: في سبتمبر سنة ١٩٦٥ كانت أجهزة المباحث الجنائية العسكرية التابعة للمشير عامر وعلى رأسها أحد أعوان شمس الدين بدران - وهو العقيد حسين خليل - ادعت أنها كشفت مؤامرة يديرها الإخوان المسلمون برئاسة سيد قطب، لقلب نظام الحكم بعد القيام بعمليات تخريب وتدمير في مختلف أنحاء البلاد، وتم القبض على الآلاف وزُج بهم في السجون، وبدأت عمليات تعذيب بشع لهم ليعترفوا بكل ما يملى عليهم(٣).

وتأكيدا لما نقلناه عن هيكل بأن عبد الناصر كان يعرف ما يجري من صور التعذيب، يؤكد موسى صبري: أن عبد الناصر كان يعلم بصور التعذيب قبل وقوعها وبعد وقوعها، وكان يحاط علما بأن البعض مات خلال التعذيب!

---

(١) لمصر لا لعبد الناصر ص ٤٣.

(٢) البحث عن الذات ص١٧٩.

(٣) الصامتون يتكلمون ص٧٧.

وينقل موسى صبري عن صلاح الشاهد واقعة نقلها صلاح الشاهد إلى جمال عبد الناصر. وخلاصتها: أن سيدة فاضلة وقع عليها تعذيب مرير، وجيء لها بوحش في صورة إنسان ليهتك عرضها... ويقول صلاح الشاهد: إن عبد الناصر لما سمع منه تلك الشكوى: نظر إليه بضيق شديد، وقال له: مالكش دعوة بالحاجات دي. هو حد من أقاربك اتعذب. الحاجات دي يشوفها سامي شرف[1].

حملة إعلامية ضخمة:

لم تكتف السلطات الحاكمة باعتقال عشرات الآلاف من الإخوان، وإيداعهم في السجون المختلفة، وتعريضهم لألوان شتى من التعذيب البدني والنفسي، ومحاكمة أعداد منهم أمام محاكم عسكرية، وإصدار أحكام جائرة وقاسية على الكثيرين.. لم تكتف بذلك، بل سلطت أجهزة الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ـ وكلها تملكها ـ على جماعة الإخوان ودعوتهم وقيادتهم وقواعدهم وتاريخهم، لتفتري عليهم الكذب، وتشوه صورتهم وسيرتهم، أمام الشعب، ولا سيما الأجيال الناشئة التي لا ترى ولا تسمع إلا ما تريده الحكومة. ولا يملك الإخوان أن يردوا ولا أن يكذّبوا، ولا أن يدافعوا عن أنفسهم، فالحكومة هي الخصم وهي الحكم. وقد جعلت كل السلطات في يدها، وهي سلطات عسكرية مائة في المائة (١٠٠٪) من الادعاء والتحقيق والقضاء والتنفيذ.

وكنت أتابع هذه الحملة الظالمة، وأراها تتعمد الكذب على البرآء، والتزوير في الوقائع، ولا أملك إلا أن أحَوْقل وأسترجع، وأنشد قول الشاعر:

لي حيلة فيمن ينمّ
وليس في الكذاب حيلة

(١) وثائق ١٥ مايو ص٣١٧، ٣١٨. وانظر موسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور أحمد شلبي (٩/ ٦٧٩-٦٨٧).

مــن كـــــان يخلق مـا يقـــــو

ل، فـــحـــيلتي فـيـــه قـليلة

مجلة «منبر الإسلام»:

وكان من أشد ما ساءني وآذاني: ما رأيته في مجلة «منبر الإسلام» التي كانت تصدر من وزراة الأوقاف قديما، وكنت أكتب فيها بتوقيع «يوسف عبد الله» وقد أمست تصدر الآن عن «المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية» الذي يديره الضابط المعروف توفيق عويضة أمينه العام (الذي كان يلقب بحوت وزارة الأوقاف)، والذي كانت تعلو كلمته على كلمة وزير الأوقاف إذا تعارضتا.

أصدرت المجلة ملحقا خاصا مثيرا، عنوانه «رأي الدين في إخوان الشياطين»! وقد كتب فيه عدد من العلماء والمشايخ، كنت أربأ ببعضهم أن ينساقوا في هذا التيار، ويُستخدَموا أدوات في أيدي الظلمة الجبارين[1]. وقد قال تعالى: ﴿ولَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ (هود: ١١٣).

وجاء في حديث جابر بن عبد الله: «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكعب ابن عجرة: أعاذك الله من إمارة السفهاء! قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: أمراء يكونون بعدي، لا يهتدون بهديي، ولا يستنُّون بسنتي، فمن صدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني، ولست منهم، ولا يَرِدُون عليَّ حوضي»[2].

(١) من الأسماء التي ساءني أن أراها في هذه القائمة: أستاذنا الشيخ عبد الله المشد، والأستاذ أنور الجندي، والمعروف أنه من الإخوان. ولكن يبدو أن الضغط كان شديدا!

(٢) رواه أحمد واللفظ له والبزار ورواتهما محتج بهم في الصحيح، ورواه الترمذي (٢٢٥٦) وقال: حسن صحيح غريب.

ولهذا كان السلف يحذرون من مجرد الدخول على الظَّلَمة، أو السلام عليهم، أو الدعاء لهم. وقال الحسن البصري: من دعا لظالم بطول البقاء، فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه!

ورأينا القرآن أشرك ـ مع فرعون وهامان ـ جنودهما، فقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص: ٨)، إذ لولا جنود فرعون، ما أمكنه التسلط على خلق الله، وقهرهم والتجبر عليهم.

والجندية قد تكون بالسيف، وقد تكون بالقلم، ولعل جندي القلم أشد خطرا من جندي السيف، لأنه بقلمه يضلل الكثيرين عن الحق، ويزين لهم الباطل.

رأيت من كتب كتابة علمية عن الحركات السرية والباطنية في التاريخ، ولم يذكر كلمة عن الإخوان، وهو الدكتور أحمد شلبي، وقد ذكر أنهم لاموه على ذلك، بل عنفوه.

ورأيت من كتب كتابة يقارب فيها ويجامل، ويبدو أنه مضغوط عليه، وأنه تحت سياط الخوف كتب ما كتب. وكأنما يعتذر بقول الله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ (النحل: ١٠٦).

ورأيت من كتب طامعا في رضا فرعون وملئه عنه، ولم يجعل لله ولا للآخرة نصيبا فيما يذكر. فهو يقول السوء، ويشيع الزور، ويلبس الحق بالباطل، ابتغاء زينة الحياة الدنيا، ومتاعها الأدنى. وقد قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٥، ١٦).

كم غلى صدري، وتقطع كبدي، وأنا أقرأ لبعض هؤلاء الذين يلبسون لبوس علماء الدين، وحملة القرآن، وما لهم من الدين إلا اسمه، ولا من القرآن إلا

رسمه، ولا من العلم إلا قشوره، فليسوا من الراسخين في العلم، ولكن من الذين في قلوبهم زيغ.

هؤلاء هم الذين قال فيهم الحسن البصري: والله، لقد رأيناهم صورا ولا عقول، وأجساما ولا أحلام، فَراش نار، وذبّان[1] طمع، يغدون بدرهمين، ويروحون بدرهمين، يبيع أحدهم دينه بثمن العنز[2]!!

فويل لهؤلاء مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون!

تنبيه على أمرين مهمين:

وأود أن أوضح هنا أمرين:

أحدهما: أن جماعة الإخوان التي يرأسها الأستاذ الهضيبي المرشد العام، لم تؤسس هذا التنظيم، وليست هي المسؤولة عنه، وإنما يسأل عنه العدد المحدود الذين دعوا إليه ونظموه.

ومن الظلم أن تحمل جماعة كبيرة كالإخوان وزر فئة محدودة منها، لم تلتزم بخطها، ولم تأخذ إذنا من مرشدها العام.

كما أن جماعة الإخوان غير موجودة قانونا، ومحلولة رسميا، فلا يجوز أن ينسب إليها أي عمل. والأفراد ينبغي أن يحملوا جزاء ما عملوا بصفتهم الفردية.

والثاني: أن هذه الأشياء التي ذكروها في اتهام هذا التنظيم، إن افترضنا صحتها: لم ينفذ منها شيء على أرض الواقع، وقد قيل: إن بعضهم كتبها على ورقة، بوصفها أشياء يفكر فيها، أو مقترحات قد يعرضها على غيره، أو نحو ذلك.

---

(١) ذبّان: جمع ذبابة، وهي التي ينطقها العامة: دبّان، بقلب الذال دالا.

(٢) ذكره أحمد في مسند النعمان بن بشير، تعليقا على الحديث (١٨٤٠٤).

والإنسان إنما يسأل ـ شرعا وقانونا ـ عما يعمله بالفعل، أو يشرع في عمله، ويأخذ في ذلك خطوات للتنفيذ. أما أحاديث النفس وخواطرها، وما يدور بتفكيرها، فلا يحاسب عليها الدين، ولا يحاسب عليها القانون.

وفي الحديث الصحيح: «إن الله عفا عن أمتي ما حدثت بها أنفسها، ما لم تعمل به أو تتكلم»[1].

علام حوكم سيد قطب؟

الحقيقة أن سيد قطب وتنظيمه: لم يحاكما من أجل «الأعمال الخطيرة» التي ارتكبها، ولكن حوكم كلاهما من أجل «الأفكار الخطيرة» التي اعتنقها أو دعا الناس إليها. ولو أنصفوا وامتلكوا الشجاعة، لقالوا: إننا حاكمنا الرجل ـ بل حكمنا عليه بالإعدام ـ من أجل أفكاره لا من أجل أعماله.

والعجيب أن الذي كان يحاكم أفكار سيد قطب: ضابط محدود الثقافة، قليل البضاعة من العلم والفكر، وإن كان لواء في الجيش. فإن كان ولا بد من محاكمة فكر سيد قطب، فلتكوَّن له لجنة من كبار العلماء والمفكرين، تناقشه فيما ذهب إليه.

لقد أخطأ عبد الناصر ورجال أجهزته من شمس بدران ووزارة الدفاع، وأجهزة المخابرات العامة، والمخابرات العسكرية، وغيرهم، حين ظنوا أن «الأفكار» تحارب بالاعتقال والسجن والتعذيب والإعدام. إنما تحارب الفكرة بالفكرة، والحجة بالحجة، واللسان باللسان، والقلم بالقلم، ولا تحارب الفكرة بالقوة، ولا الحجة بالسجن، ولا اللسان بالسنان، ولا القلم بالسيف.

لقد حوكم سيد قطب على أخطر كتاب ألفه، وهو كتاب «معالم في الطريق» فهو الذي تتركز فيه أفكاره الأساسية في التغيير الذي ينشده، وإن كان أصله ـ في

---

(١) رواه البخاري (٤٨٦٤) ومسلم (١٨١) عن أبي هريرة.

كثير من فصوله - مأخوذا من تفسيره «في ظلال القرآن» في طبعته الثانية، وفي أجزائه الأخيرة من طبعته الأولى.

كان الكتاب قد طبع منه عدد محدود في طبعته الأولى، التي نشرتها «مكتبة وهبة» ولكن بعد أن حكم بإعدام سيد قطب، وبعد أن كتبت له الشهادة، أصبح الكتاب يطبع في العالم كله بعشرات الآلاف. وصدق ما قاله عليه رحمة الله: ستظل كلماتنا عرائس من الشمع لا روح فيها ولا حياة، حتى إذا متنا في سبيلها: دبّت فيها الروح، وكتبت لها الحياة!

فهم في الحقيقة لم يقاوموا أفكار سيد قطب، بل ساهموا مساهمة فعالة في إذاعتها ونشرها!

أما تقويم هذا الكتاب (المعالم) وما فيه من صواب أو خطإ، فنرجئه إلى حديثنا عن «سيد قطب» واستشهاده رحمه الله في سنة ١٩٦٦م.

الحكم بالإعدام:

حوكم سيد قطب أمام «محكمة عسكرية» تتكون من ضباط كبار، والأصل في المحاكم العسكرية: أن تحاكم العسكريين من الضباط والجنود فيما خالفوا فيه النظام والقوانين العسكرية. وهذا طبيعي ومنطقي: أن يحاكم العسكريين عسكريون مثلهم، وهم أولى بهم.

ولكن المشكلة تكمن حين يحاكم العسكريون المدنيين في تهم لا تتعلق بالجانب العسكري، فهذا ما تلجأ إليه الأنظمة الديكتاتورية - تحت شعار الأحكام العرفية أو أحكام الطوارئ - ليحكموا على خصومهم السياسيين أو العقائديين، بما لا ترضاه المحاكم المدنية.

وأكثر من ذلك: أن يحاكم العسكريون كبار رجال العلم والفكر والشريعة

والقانون، كما رأينا قائد الجناح جمال سالم، يحاكم أمثال: حسن الهضيبي، وعبد القادر عودة، ومحمد فرغلي.

ورأينا اللواء فؤاد الدجوي، يحاكم سيد قطب، **فإن من العجب حقا أن يحاكم** رجل عسكري - مهما تكن خبرته ومعرفته - رجلا في **حجم سيد قطب الأديب الناقد العالم الداعية المفكر!!**

وفي نهاية المحاكمة التي راقبها الكثيرون في كل مكان: فوجئ الناس بالحكم على ثلاثة من المتهمين بالإعدام، وعلى آخرين بأحكام متفاوتة.

وقد قوبل الحكم بالإعدام على سيد قطب وصاحبيه بالدهشة والاستغراب والإنكار، بل الرفض والاحتجاج من أنحاء العالم العربي والإسلامي. وقامت مظاهرات، وأرسلت برقيات، وحدثت وساطات لدى عبد الناصر، وكان الكثيرون يتوقعون أن يستجيب لها، فلم يفعل، وسد أذنا من طين، وأذنا من عجين، كما يقول المثل.

لقد شنق ستة من قادة الإخوان سنة ١٩٥٤م من أجل تهمة شروع في قتل عبد الناصر في ميدان المنشية، وإن كنا أثبتنا بالأدلة القاطعة براءة جماعة الإخوان من هذه التهمة، وقول الكثيرين: إن هذه «تمثيلية» وليست حقيقة، إلى آخر ما ذكرناه في الجزء الماضي. ولكن هناك في الظاهر تهمة شروع في قتل رأس النظام.

أما هنا، فلم يحدث قتل، ولا شروع في قتل، فعلام يعدم هؤلاء؟ وبأي جريمة تقطع رقابهم؟

وقد ذكروا هنا أمرا عجيبا ينبغي أن نسجله: ذلك أن شمس بدران وحسين خليل مدير المباحث الجنائية عرضا على عبد الناصر خلال محاكمة الشهيد سيد قطب الأحكام التي سيصدرها الدجوي، ومن بينها حكم الإعدام على سيد قطب، واتفقوا مع عبد الناصر على تخفيف حكم الإعدام عليه إلى السجن، أو العفو مع

تحديد إقامة، أو نحو ذلك؛ لينال عبد الناصر كسبا شعبيا يغطي كل ما قيل عن التعذيب، وما سيُقال عن العقوبات التي ستفرض على الآخرين. ولكنهم فوجئوا بعبد الناصر يصدق على حكم الإعدام وينفذه![1]

إن دم سيد قطب ورفيقيه، سيظل لعنة على من سفكوه بغير حق، وسيظل يطاردهم، حتى يثأر له القدر من الطغاة الظالمين، ويستجيب لدعاء المظلومين، الذي يرفعه الله فوق الغمام، ويفتح له أبوب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين.

سهام الليل لا تخطي، ولكن
لها أمد، وللأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربي
ويرسلها إذا نفذ القضاء

من المسؤول عن هذه الدماء؟

كان المسؤول الأول عن دماء الإخوان في المرات السابقة، وعن محنتهم بصفة عامة: وزارة الداخلية المصرية، وأجهزة الأمن فيها، وبخاصة «المباحث العامة» التي سميت فيما بعد «مباحث أمن الدولة». كانت هي التي تعتقل، وهي التي تتهم، وهي التي تحقق، وإن شاركتها وزارة الحربية ببعض الأشياء، مثل السجن الحربي بزنازينه وزبانيته وقائده المتجبر: حمزة البسيوني.

أما المسؤول الأول عن دماء الإخوان ومحنتهم في هذه المرة، فهو «وزارة الحربية» ووزيرها: شمس بدران، وإن شاركتها الداخلية بالمساعدة في القبض والاعتقال وغيرها.

---

(١) «العشاء الأخير للمشير» لعبد الصمد محمد عبد الصمد ص١٥٠.

ولكن ما مدى مسؤولية جمال عبد الناصر في هذه المحنة وتبعاتها؟

لقد حاول بعض الناصريين أن يقلل من مسؤوليته ويخفف منها، لأنه في هذه الفترة من الزمن لم يكن هو الذي يحكم مصر في الحقيقة والواقع، إنما كان الحاكم الحقيقي لمصر هو المشير عبد الحكيم عامر، الذي جمع السلطات كلها في يديه: العسكرية والمدنية، وأصبح ناصر لا يبرم أمرا من الأمور إلا بعد أن يمر على عامر، وبات عبد الناصر بمثابة الملك الذي يملك ولا يحكم. وكان عامر يفعل ذلك بحكم نفوذه في القوات المسلحة، حتى قالوا: إن عبد الناصر عرض عليه مرة: أن يعينه نائبا لرئيس الجمهورية، ويدع الجيش والقوات المسلحة، ولكنه رفض، ليقينه أن من يملك القوات المسلحة يملك البلد كله.

وهذا الذي قاله الكثيرون أكده السيد حسين الشافعي عضو مجلس قيادة الثورة في أحاديثه مع أحمد منصور في برنامج «شاهد على العصر» الذي تقدمه قناة «الجزيرة».

ومع تصديقي بهذه المقولة، لا أعفي عبد الناصر من مسؤوليته التاريخية عن هذه المأساة، فهو الذي أعلن عنها من «موسكو» وذكر في خطابه الشهير هناك قائلا: إننا سنضرب بيد من حديد، وإننا لن نرحم هذه المرة. كأنه قد رحم في المرة السابقة!

وقد أكد الكثيرون من المعتقلين ـ الذين كانت السياط تشوي جلودهم في زنازين التعذيب ـ أنهم رأوا بأعينهم عبد الناصر، يحضر بعض مشاهد التعذيب مع رجاله. ومن ذلك ما ذكرته الأخت المؤمنة الصابرة المحتسبة الحاجة زينب الغزالي، التي ذكرت في كتابها: «أيام من حياتي» ما لاقت من الأهوال، التي لا تكاد تصدق من بشاعتها، وقالت: إنها رأت جمال عبد الناصر، في إحدى مرات التعذيب.

وهو ـ على كل حال ـ الرئيس المسؤول دستوريا وقانونيا عما تفعله حكومته،

وهو الذي صدق على حكم إعدام سيد قطب، وهو الذي رفض أي شفاعة فيه، وأصم أذنيه عن استغاثات العرب والمسلمين ألاّ ينفذ حكم الإعدام، وأصر على أن ينفذ في الرجل الأديب العالم المفكر الداعية الكبير: حكم الإعدام.

فمهما يحاول محامو الناصرية أن يبرئوا الرجل من التبعة، فإن الثابت بيقين: أنه مسؤول عنها أمام الله سبحانه، وأمام الشعب، وأمام التاريخ.

على أنا سنثبت عند حديثنا عن «النكسة» كما سموها: أن المسؤول عن كل تجاوزات عامر وانحرافاته هو عبد الناصر!

الإخوان في خارج مصر:

كان الإخوان في داخل مصر ما بين معتقل في السجن الحربي، أو في مزرعة طرة، أو في سجن القناطر، أو في سجن القاهرة (أرميدان) أو في سجون الأقاليم والمحافظات.. وبين معتقل في بيته ممن لم يصبه الاعتقال، من غير المعروفين، فهو في منزله أشبه بالسجين، لا يستطيع أن يتحرك، ولا أن يساعد أسرة أحد من إخوانه، لأن الأجهزة له بالمرصاد.

وكان على الإخوان خارج مصر عبء لا بد لهم أن يحملوه، دفاعا عن إخوانهم، وتعبئة للرأي العام العربي والإسلامي والعالمي، ليقف معهم، ويؤازرهم في شدتهم.

وكان على الإخوان المصريين - بالخصوص - عبء أكبر من غيرهم. فعليهم أن يتحركوا على الصعيد السياسي، وعلى الصعيد الإعلامي، ليعملوا شيئا لنصرة إخوانهم، فقد نجاهم الله من هذه المحنة التي تصهر إخوانهم في أتونها، فعليهم أن يشكروا الله على النجاة منها، بعملهم لمساعدتهم بكل وسيلة.

ولما كانت هذه المحنة سببا في إحياء الجماعة - فكرا وشعورا - داخل مصر، فقد كانت سببا في إحياء الإخوان كذلك خارج مصر. وتحرك الإخوة هنا وهناك للمّ

الشمل، وجمع المساعدات المالية، ومحاولة توصيلها لعائلات المعتقلين، برغم وعورة الطريق، وخطر المحاولة، ويقظة رجال المباحث، لأي طارق يطرق هذه البيوت المنكوبة. ولم ينس الإخوان ما حصل في محنة ١٩٥٤ من محاكمات لما سموه «أجهزة التمويل» التي حكم على بعضهم فيها بعشر سنوات، وأكثر من ذلك.

ومع هذا، لا بد من المخاطرة، ولا يسعنا بحال أن ندع زوجات إخواننا وأطفالهم وأبناءهم وبناتهم جياعا، كما تريد السلطات المصرية: أن تذل أسر الإخوان، ولا يذل الإنسان مثل الجوع، والجوع كافر، ومثل مد الكريم يده إلى اللئيم يسأل القوت. ولا يقهر الأم شيء مثل أن ترى فلذات أكبادها يتضورون من الجوع، وتصرخ بطونهم من الطوى، بين أيديها وهي لا تملك لهم شيئا!!

أيّ شيطان لَبس الإنسان، فجعله يقسو على مواطنيه هذه القسوة؟ وهب أنه أذنب، فما ذنب أمه وأبيه، وصاحبته وبنيه؟

ما بالنا اليوم ننكر على إسرائيل ما تفعله بأسر الفدائيين، حيث تهدم بيوتهم، وتدع أهليهم في العراء؟! على حين نجد ٩٥٪ من هؤلاء المعتقلين، ليس لهم في الثور ولا في الطحين، ولا في العير، ولا في النفير.

تجاوب الإخوان مع نداء الواجب، ولم يتخلف عن ذلك إلا المهازيل الذين ترتعد فرائصهم فَرَقا من الطواغيت، وهم على بعد آلاف الأميال! وهؤلاء كانوا قليلا، أو أقل من القليل، أو الذين آلوا على أنفسهم: ألاّ يتصلوا بالدعوة من قريب ولا من بعيد. والدعوة في غنى عن هؤلاء الذين ضنوا عليها بأنفسهم وأموالهم، ورضوا أن يعيشوا حياة الفارغين من الطموح إلى مراتب العلا في الدنيا، أو درجات النعيم في الأخرى، فأولى أن يخاطبوا بقول الحطيئة:

دع المكارم لا ترحل لبـغـيـتـهـا

واقـعـد فـإنك أنت الطاعم الكاسي!

على أن المهم ليس مجرد جمع الأموال. فالباذلون من الإخوان كثير، والحمد لله، ولكن المهم هو توصيلها إلى الأسر المحتاجة والمستحقة للعون العاجل. وهي محفوفة بالمخاطر، مليئة بالأشواك، على نحو ما قال الشاعر العاشق قديما:

كـيف السـبيل إلى سـعـاد، ودونهـا

قـمم الجـبـال، ودونهن حـتـوف؟

الرجل حـافـيـة، ومـالي مـركب

والدرب وعـر، والطريق مـخـوف

وهذه الأسر ليست مائة ولا ألفا، بل هي ألوف مؤلفة في القاهرة والإسكندرية وسائر محافظات مصر في الصعيد والوجه البحري. حتى العريش والواحات كان منها معتقلون. إنها في حاجة إلى شبكة كبيرة ممن لا يبالون ما يصيبهم في سبيل الله، فإنهم إذا ضبطوا اتهموا بأنهم على صلة بدولة أجنبية، يقبضون منها الأموال، ويوظفونها في تخريب البلاد، وإفساد العباد.

ولم تمنع المخاطرة من الاتصال بالإخوان الذين نجوا من الاعتقال، الذين استطاعوا أن يوظفوا عددا من الأخوات المؤمنات الصادقات في هذا الأمر، فقمن بدورهن خير قيام، على قدر الإمكان. فلا شك فى أن هناك أسرا في مدن وقرى مختلفة من أنحاء مصر، لم يستطع أحد الوصول إليها، وظلت صابرة على البأساء والضراء، تشكو إلى الله الرحمن الرحيم: قسوة الإنسان على أخيه الإنسان، بل قسوة المصري على أخيه المصري!

إلـى اللـه نشكـو، إننـا بمواطـن

تحكّـم فـي آسـادهـن كـلاب!

وقــد صـــار هذا الناس - إلا أقلهم -

ذئابا على أجـــســـادهن ثيـــاب!

ولم تسلم أسرتنا من آثار هذه المحنة، فقد كان شقيق زوجتي - الأستاذ سامي عبد الجواد - أحد المعتقلين، الذين سيقوا إلى مزرعة طرة، ولقي فيها من المتاعب ما لقي، حتى اضطر إلى إجراء عملية جراحية، وهو في المعتقل، في مستشفى غير مؤهل لمثل هذه العمليات، وقد عانى فيها ما عانى، وما زالت آثارها معه إلى اليوم.

جفوة بين حركة «فتح» والإخوان في قطر:

كان من أبرز الأحداث التي وقعت في مطلع سنة ١٩٦٥ : الإعلان عن حركة وطنية فلسطينية تقاوم المشروع الصهيوني، وتقوم بأعمال عسكرية ضد إسرائيل، وشعارها: ثورة حتى النصر. وكان انطلاق هذه الحركة في (١/ ١/ ١٩٦٥م) حيث قامت بأول عملية لها.

وقد أطلقت الحركة على نفسها اسم: «فتح» إشارة إلى الحروف الأولى من كلمة: حركة التحرر الفلسطيني، بعد قلبها، لأن الحروف تكوّن كلمة «حتف» فقرئت مقلوبة، لتتحول إلى «فتح» وإن كان فيها حتف الأعداء.

كان الشائع في الأوساط العربية المختلفة: أن الحركة ذات اتجاه إسلامي، ونسب إخواني، وإن لم تعلن عنه بوضوح، مراعاة للظروف السياسية المحلية والعربية والدولية.

ومن المؤكد: أن نصيب أبناء الحركة الإسلامية الذين أنشأوا حركة فتح: كان ملحوظا ومعروفا، ابتداء من زعيم الحركة ياسر عرفات، الذي كانت صلته بالإخوان معروفة. وقد تحدثت عن شيء من ذلك، فى أثناء معارك الإسلاميين مع الإنجليز في القناة.

وكـان من هـؤلاء : أبو إياد (صـلاح خلف) وأبو جـهـاد (خليل الوزير) وهـاني الحسن، وأبو يوسف (محمد يوسف النجار) الذي كـان شعلة من الحركـة والسعي والنشاط، وكان يعمل بمكتب وزير معارف قطر. ومنهم: أبو شاكر (رفيق النتشة) وكـان يعمل مـديرا لمكتب الوزير الشيخ قاسم بن حمد، الذي أيد بقوة نضال فتح. كما كان في قطر: أبو مازن (محمود عباس) الذي كان يعمل مدير شؤون الموظفين بوزارة المعارف في قطر. وكمال عدواني، الذي كان يعمل في إحدى الدوائر في قطر.

والواقع أننا استبشرنا خيرا بتأسيس هذه الحركة الجهادية. فأرض فلسطين المغتصبة لا يمكن أن تسترد بالكلام أو بالشعارات أو بالمناورات، أو بالاستجداء من هيئة الأمم ومجلس الأمن، أو بالسعي لدى الدول الكبرى مثل أمريكا أو روسيا، أو دول أوربا، فكلهم أعلنوا من أول يوم لقيام دولة إسرائيل: أنها خلقت لتبقى.

ومن قديم عرف الناس: أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، وأن مقاومة السيف المسلول باللسان المعسول لا تجدي، ولا يمكنها أن تهزم باطلا، أو تنصر حقا. ولقد ساهم الإخوان بأرواحهم وأعز أبنائهم في حرب فلسطين ١٩٤٨م، وقدموا من الشهداء عند الله ما يشهد لهم، وسجل لهم التاريخ ذلك بمداد من نور، وشهد لهم كبار القادة العسكريين وغيرهم، وإن كان جزاؤهم في النهاية: أن اقتيد مجاهدوهم من الميدان إلى المعتقلات، وحلت جماعتهم، وقتل مرشدهم، وعطلت دعوتهم، فكانوا هم القربان الذي قدم لإرضاء السادة في الغرب: أمريكا وبريطانيا وفرنسا!!

لهذا كان التفكير في حركة جهادية يقوم بها الفلسطينيون أنفسهم، دفاعا عن أرضهم وعرضهم ومقدساتهم، هو الأمر الواجب، والحل العملي والضروري. فأصحاب الأرض أولى الناس بالدفاع عنها، وعلى كل من حولهم من العرب والمسلمين أن يناصروهم، ويساعدوهم بالمال والسلاح والخبرات العسكرية

والفنية، حتى ينتصروا على عدوهم. فالمؤمنون إخوة، والأمة الإسلامية أمة واحدة، والمسلمون يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

ومضت مدة من الزمن والعلاقات بين حركة فتح والإخوان في قطر، على ما يرام، تفاهما وتعاونا وتناصحا، ثم أخذت العلاقات يشوبها شيء من التعكير، بدأ يتسع شيئا فشيئا، حتى حدث بين الطرفين في قطر ما يشبه الجفوة.

فقد لاحظ الإخوان في قطر: أن حركة فتح بدأ يغزوها اتجاه علماني، لا يبالي بالدين، ولا يركز عليه، ولا يستفيد منه. وظل هذا الاتجاه يقوى بالتدريج، حتى بدا وكأنه الغالب على الساحة، وهو الموجه للفكر والسياسة.

وأصبحنا نقرأ نشرات لفتح لا يذكر فيها اسم الله، ولا تشم فيها رائحة لأي معنى رباني، بل بدت وكأنها تتعمد البعد عن الدين، أو تَعُدّه تهمة تبرئ نفسها منها. وكأن هذا الاتجاه غلب على الجانب الإعلامي منها فترة من الزمن.

وكان بعض المسؤولين في فتح يقول: نحن لا يهمنا إلا من يحمل البندقية، وإن لم يركع لله ركعة واحدة، أو لم يصم رمضان، أو كان ممن يشرب الخمر، أو يقترف الموبقات في نظر الدين، ما دام يشهر السلاح على العدو!

ومن ناحية أخرى: أرادت فتح أن تدوس كل شيء في طريقها، وأن تخضع الإخوان لإرادتها وسياستها. وظهر هذا الضغط على الإخوان الفلسطينيين أكثر من غيرهم، ولكن الإخوان جميعا - فلسطينيين وغير فلسطينيين - رفضوا الخضوع والانحناء، وسياسة ليّ الذراع، ولم يقبلوا أن يسيّروا أو يسخّروا لأي أحد كائنا من كان.

ومع هذه الجفوة بين الإخوان وفتح: اقتضت الحكمة ألاّ يطفو هذا الخلاف على السطح، ويظهر للجمهور، تقديرا من الإخوان للموقف، وحتى لا يشمت بهم العدو المتربص بالجميع، والذي يعنيه أن يكيد بعضهم لبعض، وأن يضرب بعضهم بعضا، وهو قرير العين بما يحدث.

والحقيقة أن الإخوان لم يكن لهم ذنب في هذه الجفوة، ولكن الطغيان جاء من قبل فتح، التي غرتها الأماني، وزين لها الغرور بالقوة البغي على أقرب الناس إليها، كما قال القرآن الكريم: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق: ٦، ٧)

على أن هذه الجفوة بدأت تخف حدتها، لأسباب شتى، ولا سيما بعد خروج العناصر القوية في فتح من قطر، لتذهب إلى بيروت، وغيرها من العواصم، فقد غادر قطر: أبو يوسف النجار، وأبو شاكر النتشة، وأبو مازن وغيرهم.

زيارة موسى الصدر للدوحة:

كان من أبرز الأحداث في تلك السنة: زيارة الإمام موسى الصدر - رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان - إلى قطر، ضيفا على الإخوة (الشيعة) في الدوحة، الذين رحبوا به غاية الترحيب، وكرموه أوفر التكريم، وأقاموا له الولائم الكبرى في منازل أعيانهم وتجارهم الكبار. وقد حرصوا على دعوتي ودعوة فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، لنشاركهم في الاحتفاء بالرجل وإكرام وفادته. وقد استجبنا لدعوتهم، وشهدنا ولائمهم، وكانت فرصة لنتحدث مع الرجل الذي اشتهر بعقله السياسي، أكثر مما اشتهر بعقله الفقهي. ومن المعروف: أن في قطر أقلية شيعية، منسجمة مع الأغلبية السنية، ولا توجد بين الفريقين أي مشكلات مقلقة، والحمد لله.

وكنت أعرف بعضهم من قبل، ولم أكن أعرف أنهم شيعة، بل بوصفهم تجارا أو موظفين أو مواطنين قطريين يؤدون دورهم في المجتمع، كما يؤدي غيرهم، يقومون بواجباته، ويأخذون حقوقهم. وصلاتهم بالحكام من آل ثاني طيبة وحميمة.

وهذا يدل على أن الفتن التي تثار في بعض البلاد بين السنة والشيعة، غالبا ما

تكون أسبابها خارجية، تريد أن تضرب المسلمين بعضهم ببعض، أو يكون هناك ظلم كبير وقع على أحد الفريقين، لا يمكن احتماله أو الصبر عليه. وما عدا ذلك فالعلاقات تجري على ما يرام.

وقد تحدثنا عن أهمية التقريب بين السنة والشيعة، حتى لا ندع مجالا للذين يصطادون في الماء العكر، وينتهجون سياسة «فرق تسد»، وأن نركز على «القواسم المشتركة» بين المذهبين، ونوسع قاعدتها ما أمكننا ذلك، وأن يضع كل منا يده في يد أخيه في القدر المتفق عليه، ويسامحه فيما لا يمكن الاتفاق عليه، وفقا لـ «قاعدة المنار الذهبية» التي أطلقها العلامة المجدد السيد محمد رشيد رضا رحمه الله، وهي التي تقول: نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه. وقد طبق إمامنا الشهيد حسن البنا هذه القاعدة في حياته وعلاقاته، ورحب بدار التقريب بين المذاهب، التي أقيمت في القاهرة.

وكان مما تذاكرنا فيه مع موسى الصدر: الأشياء الصارخة، مثل: الشهادة الثالثة في الأذان: (وأشهد أن عليا أمير المؤمنين ولي الله)، فمن المؤكد: أن هذه الشهادة لم تكن من جملة الأذان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا على عهد الخلفاء الراشدين، حتى في عهد علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه.

وقد أقرني على ذلك، وقال: إن هذا هو المعروف عند علمائنا، ولكن هناك أموراً تصطدم بعواطف العامة، وتحتاج معالجتها إلى الرفق والأناة والحكمة.

ومما تناقشنا فيه: «الحصاة» التي يضعها الشيعة في قبلتهم عند كل صلاة، ويتحرون السجود عليها، ويشيع أنها من «طينة كربلاء». وفي هذا رائحة تقديس للحجارة والحصى، وهو من رشحات الوثنية التي يرفضها الإسلام، ويسد الذرائع إليها.

وكان من جوابه: أن تحري وجود هذه الحصاة أو الطوبة ونحوها في موضع السجود: مبنيّ على حكم شرعي عند الشيعة من أحكام الصلاة، وهو: أن السجود

لا يجوز إلا أن يكون على الأرض أو شيء من جنسها، فلا يجوز السجود على منسوج كالسجاجيد، أو ملبوس كالثياب. ونظرا لأن معظم المساجد اليوم مفروشة بالسجاد (أو الموكيت) ونحوها، يجتهد الشيعة في حمل الحصاة معهم، ليسجدوا عليها، وليس من اللازم أن تكون من كربلاء ولا من غيرها.

بقي الإمام موسى الصدر أياما في الدوحة معززا مكرما، ثم غادرها عائدا إلى لبنان، وقد قيل يومها: إنه جاء طالبا المساعدة من إخوانه تجار الشيعة، لينهض بأعمال المجلس الإسلامي الشيعي ومشروعاته في لبنان. وقيل: إن إخوانه في قطر، لم يخيبوا ظنه، وأنه حصل على عدة ملايين من الروبيات.

والشيعة لا يرون زكاة عروض التجارة واجبة، بل مستحبة، ولكنهم يرون وجوب الخمس في أرباح التجارة، وكل ما يأتيهم من دخل يفيض عن حاجاتهم الأصلية لهم ولمن يعولونه طوال العام. أي أنهم يدفعون ضريبة عن «صافي الدخل» مقدارها الخمس، أي عشرون في المائة (٢٠٪) فهم يفسرون قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (الأنفال: ٤١). بأنه يشمل كل ما يقتنيه المسلم ويستفيده من دخل، وليس مقصورا على الغنائم الحربية، كما يفيده سياق الآية، وكما هو مذهب أهل السنة.

وهم يدفعون هذا الخمس لمراجعهم الدينية، الذين ينوبون عن الإمام في زمان غيبته. ومن المعلوم: أن أهل البازار في «طهران» كانوا هم الممولين الأساسيين لحركة الإمام الخميني.

لا جديد في هذه السنة في قطر:

وما عدا هذين الأمرين: ما يتعلق بفتح، وزيارة الصدر: في هذه السنة الدراسية (١٩٦٥-١٩٦٦) لم تقع في قطر أي أحداث غير عادية، فقد مضت الأمور في المعهد الديني، وفي وزارة المعارف، وفي قطر كلها، على السنن المعتادة. ولا أذكر شيئا يستلفت النظر حدث في تلك السنة. غير أن الدفعة الثانية من طلاب المعهد قد دخلوا امتحان الشهادة الثانوية وكانت نسبة النجاح مائة في المائة.

ابنتاي إلهام وسهام تدخلان المدرسة الابتدائية:

وبالنسبة لعائلتي، فقد دخلت ابنتي الكبرى إلهام المدرسة الابتدائية، وهي لم تكمل السنة السادسة، ولكن الوزارة كانت تسامح في قبول مواليد سبتمبر وما بعده، وإلهام من مواليد سبتمبر ١٩٥٩م، لم تكن هناك مشكلة في قبولها.

ولكن المشكلة ظهرت بالنسبة لأختها سهام، وهي أصغر منها بسنة (سبتمبر ١٩٦٠) وقد تعلقت بشقيقتها، وأرادت أن تكون معها في المدرسة، وجاء «باص» المدرسة ليحمل أختها، فأصرت على الركوب معها وبكت، فركبت وانطلقت معها، ولكن مديرة المدرسة اعتذرت بأنها لا تستطيع أن تقبلها، لأنها دون السن المطلوبة بكثير.

وهنا لم أجد بُدًّا من أن أكلم وزير المعارف الشيخ قاسم بن حمد، راجيا منه أن يستثنيها، رعاية لظروف البنت ومشاعرها، فاستجاب رحمه الله. وظلت البنت مع أختها طوال مراحل الدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية، حتى نجحتا بامتياز في كلية العلوم، الأولى في قسم الفيزياء، والثانية في قسم الكيمياء، وعينتا معيدتين بالكلية، وتزوجتا معا في أسبوعين متتاليين. وحصلتا على الدكتوراه من إنجلترا واحدة تلو الأخرى. والحمد لله رب العالمين.

تعاطف مع الإخوان في مصر:

وكان أكبر ما يشغلني ويشغل إخواني في قطر، هو محنة الإخوان في مصر. وكثيرا ما كنا نجتمع لنتشاور فيما يجب عمله: أنا والإخوة: الشيخ عبد البديع صقر، والدكتور عز الدين إبراهيم، والشيخ عبد المعز عبد الستار، والشيخ علي جمَّاز، وغيرهم، حتى كثير من الإخوة الذين بعدوا عن الجماعة، عرضوا خدماتهم لمساعدة إخوانهم. فالأخوّة الحقة إنما تظهر عند الشدائد، أما في الرخاء والعافية، فكل يدعي أنه أخوك. وقد قال الإمام علي رضي الله عنه:

ولا خــيــر في ود امــرئ مــتلون

إذا الريح مــالــت مــال حــيث تميل!

جواد إذا استغنيت عنه عن أخذ ماله

وعند زوال المال عنك بخيل!

فما أكثر الإخوان حين تعدهم

ولكنهم في النائبات قليل!

ولذا قال العرب في أمثالهم: إن أخاك من واساك.

وكيف يطيب لنا عيش، أو يهنأ لنا نوم، أو يهدأ لنا خاطر، والأخبار تصبّحنا وتمسّينا بما يقاسيه إخواننا في السجون من ألوان العذاب، وما تعانيه أسرهم وذراريهم من بعدهم من ضيق وعسر، حتى كاد بعضهم يتكففون الناس؟!

وقد قال الشاعر:

إن أخاك الحق من كان معك

ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك

شتت فيك شمله ليجمعك

ولهذا فكرنا أن نجمع بعض المعونات من الإخوان في قطر ومن أحبائهم، لنوصلها إلى الأسر المنكوبة، بطريقة أو بأخرى، وإن كان في ذلك من المخاطر ما فيه، ولكن لا بد مما ليس منه بد. ومن الدعاء المأثور: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا.

إجازة صيف ١٩٦٦م:

حين أوشكت السنة الدراسية أن تنتهي، واقتربت إجازة الصيف، بدأنا نفكر: أين نقضي تلك الإجازة؟

لم يعد في طاقتي أن أقضيها في قطر، وقد جربت ذلك في الصيف الماضي، فخارت قواي، ولم أستطع المواصلة.

وليس في الإمكان النزول إلى مصر، وقد امتنعت عن النزول إليها في الصيف الماضي، مع وجود احتمال شيء من الخطر، فكيف وقد نزل الخطر، ووقعت الواقعة، وفار التنور؟ وقد سئل عني كل من حقق معهم ممن اعتقلوا من إخواننا العاملين في قطر، وأفرج عن بعضهم، واستبقي البعض الآخر، مثل الأخ الشيخ عبد اللطيف زايد المدرس بالمعهد، والأخ أحمد المنيب سكرتير المعهد. ولا يعقل أن يذهب أحد من الدار إلى النار!

إلى مدينة الخليل:

لذا فكرنا في قضاء الإجازة في لبنان، كما قضيناها في العام الفائت، ولا شك فى أنها كانت إجازة ممتعة وشائقة. ولكن زملاء لنا من الإخوة الفلسطينيين أغرونا بأن نقضي إجازتنا في الضفة الغربية، فنجد الجو المنعش، والجوار المؤنس، والعيش الرخي، والنفس الإسلامي. واقتنعنا فعلا بما عرضوه علينا، وكنا مجموعة أسر من قطر: أسرتنا، وأسرة الأخ الشيخ محمد العوضي العجرودي رحمه الله، وأسرة الأخ سعد مرزوق، وكلنا قد ذهبنا إلى مدينة «الخليل». أما أسرة الأخ الشيخ علي جماز، فقد ذهبت إلى مدينة «البيرة» وسكن في بيت الأخ سالم سمور المدرس في قطر.

وكنا قد اتفقنا مع الأخ الأديب الشاعر محمد فوزي النتشة المدرس في قطر، لنسكن في «فيلا» عندهم مكتملة المرافق، في منطقة «الكروم» أي الأعناب. ومن استأجر بيتا هناك، يقولون: استأجر «كرما» لأنه لا يستأجر البيت وحده، بل يستأجر البيت وما حوله من عنب وفواكه مختلفة، من فواكه الصيف الطيبة، من التين والعنب و«الدُّرّاق» الذي نسميه في مصر «الخوخ»، والخوخ الذي نسميه في

مصر «البرقوق» ويبدو أن أول من أدخله إلى مصر: السلطان برقوق من سلاطين المماليك.

وقد استمتعنا طوال الصيف بهذه الفواكه، نقطفها بأيدينا من أشجارها، من الصباح الباكر، وهي أقرب عهدا بربها، لم تتعاورها الأيدي. وبعد انقضاء المدة قال لنا آل النتشة: إن العنب كله لكم، ويمكنكم أن تأخذوه معكم. قلنا لهم: لقد شبعنا من العنب والفاكهة، والحمد لله. فقالوا: ولكنا نستطيع أن نحول هذا العنب إلى «زبيب» تحملونه معكم. وهذا علينا نحن أن نعده لكم.

أما «الماء» فكان كل منزل له «بئر» خاص به، يملأ بالماء، أيام نزول المطر بغزارة في الشتاء، ويظل الناس يشربون منه طوال العام، بما يشبه الشادوف.

الحقيقة أن هذه الصيفية كانت صيفية ممتعة. فمدينة الخليل: مدينة تاريخية عريقة، لها أريج خاص، وسحر وجمال، وفيها قبر الخليل إبراهيم أبي الأنبياء عليهم السلام. وإن كان إخواننا الفلسطينيون يريدون أن يحتكروا كل قبور الرسل والأنبياء في بلدهم. ففي بلد: وجدنا قبر نوح عليه السلام! وفي بلد آخر: قبر هود عليه السلام. وفي أخرى: قبر يونس.

وفي مدينة الخليل، ومع قبر إبراهيم عليه السلام: نجد بجواره قبر يعقوب حفيده، وقبر يوسف عليهما السلام. قلت لهم: أليس يعقوب ويوسف انتقلا إلى مصر وماتا فيها، كما يدل على ذلك القرآن الكريم؟ فما الذي جاء بقبريهما إلى هنا؟

وقال الإخوة: يقال: إنها نقلت بعد مدة من مصر إلى هنا. وهذا يحتاج إلى دليل.

وقد قال الحافظ ابن حجر: إن قبور الأنبياء الموجودة في بلاد مختلفة لا يثبت منها شيء، إلا قبر محمد عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، وقبر إبراهيم عليه السلام في مدينة الخليل، لا في مكان القبر بعينه.

ولقد زرت مدينة الخليل ومدن الضفة الغربية من قبل سنة ١٩٥٢م في رحلتي إلى لبنان وسورية والأردن، وقد تحدثت عنها في الجزء الأول، ولكني لم أقم بها غير يومين أو ثلاثة. أما في هذه المرة فسنقضي فيها نحو شهرين ونصف الشهر. وفي هذه المدة أنسنا بالمدينة وأنست بنا، واسترحنا إليها واستراحت إلينا، وأحسسنا بالفرق بين التصييف في الخليل والتصييف في لبنان. فنحن في لبنان عادة نصيف في مناطق الدروز والمسيحيين، حيث لا نجد مسجدا، ولا نسمع أذانا. أما في الخليل فالأمر مختلف تماما. المساجد من حولك، والأذان يطرب سمعك عند كل صلاة، والصلوات في هذه المساجد ميسرة، والمسلمون فرحون بها، مسرورون بإقامتنا بينهم، يلقوننا متهللين مستبشرين.

وأنا في هذه الفترة أخطب الجمع في المساجد المختلفة، ومنها مسجد الخليل إبراهيم، ومسجد السنّة، ومساجد أخرى لا أذكرها. كما ألقيت عددا من الدروس فيها، وحضرنا أعراسا ومناسبات شتى، واستجبنا لدعوات المحبين، وهم كثر، وخصوصا لآل عبد النبي (النتشة) الذين عرفتهم وعرفوني وتوثقت صلتي بهم منذ زيارتي الأولى سنة ١٩٥٢: الحاج عيسى، والحاج عبد الغني، والدكتور حافظ، والحاج صالح، وغيرهم.

لقد مرت بضع عشرة سنة على زيارتي القديمة للمدينة، ولكنهم لا يزالون يذكرونها، ويرددون كلمات مما قلته في تلك الزيارة، والكلمة الطيبة لا تموت أبدا.

وزرت المخيمات القريبة من الخليل، ومنها: مخيم «العرّوب». كما زرت مدينة «دوره» وأذكر أننا وقفنا على منطقة عالية في البلدة، وأطللنا منها على فلسطين المغتصبة التي سموها «إسرائيل»! وذرفت الأعين الدموع، كما قدحت بالشرر على الدرة المغصوبة!

كما زرنا «حلحول» وغيرها من المدن المحيطة بالخليل.

زيارة القدس ومدن الضفة الغربية:

وأهم من هذا كله: زرنا مدينة «القدس» وزرنا المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وكان معي الأسرة: زوجتي وبناتي الأربع الصغيرات، وكبراهن إلهام، لم تكمل السابعة بعد، وصغراهن أسماء لم تكمل الثالثة. ولكني حرصت على أن أصحبهن إلى المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة، ليصلين فيهما، ولو بالمحاكاة لتنغرس في نفوسهن قيمة هذا المسجد، ويرتبطن معه بذكريات لا تنسى.

وقد تجولنا بمدينة القدس القديمة وحاراتها، وزرنا كنيسة القيامة، ومسجد عمر ابن الخطاب بالقرب منها.

وإخواننا الفلسطينيون يسمون المسجد الأقصى وما حوله «الحرم القدسي» تقليدا للحرم المكي، والحرم المدني. ولهذا يقولون عن المسجد الأقصى: أولى القبلتين، وثالث الحرمين.

ولكن من المعلوم: أنه لا يوجد إلا حرمان فقط، الأول: حرمه الله تعالى، وهو حرم مكة، والثاني: حرمه رسوله، وهو حرم المدينة، ولا يوجد حرم ثالث بعدهما. ولهذا نرى الأولى أن يقال عن الأقصى: أولى القبلتين، وثالث المسجدين العظيمين، وهما المسجد الحرام، والمسجد النبوي، فقد صح الحديث: أن هذه المساجد الثلاثة هي التي لا تشد الرحال إلا إليها، كما روى ذلك أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه.

كما زرنا مدينة «البيرة» القريبة منها، ومدينة «رام الله» بجوارها. وفي مدينة البيرة يسكن أخونا وزميلنا الشيخ علي جماز عند آل سمّور.

وكان معنا في زيارة القدس: الأخ سعد مرزوق وأسرته. وقد سجلنا هذه الزيارة بالكاميرا، والتقطنا بعض الصور التذكارية للرحلة، وإن كان التصوير وأدواته في ذلك الوقت لم يزل بدائيا، ولم يتطور كما تطور في يومنا هذا.

وعدنا إلى مدينة الخليل لنستقر فيها أياما، ثم نبدأ جولة أخرى لزيارة مدن الضفة الغربية، مصطحبا أسرتي معي.

زيارة مدينة نابلس:

زرت مدينة نابلس وألقيت فيها محاضرة، شهدها جم غفير، ولقيت عددا من الإخوة هناك، أذكر منهم آل البشتاوي وآخرين، أنستني الأيام والليالي أسماءهم.

وفي اليوم التالي دعانا عالم نابلس الجليل الشيخ مشهور الضامن على الغداء في بيته، ودعا عددا من العلماء ووجهاء البلد. وكانت جلسة طيبة تبادلنا فيها الحديث عن قضية المسلمين الأولى، وعن هموم الأمة، وما أكثرها!

زيارة قرية صانور:

وزرت قرية «صانور» من قضاء جنين، وهي قرية الأخ الحبيب الأستاذ حسني أدهم جرار، الذي يعمل معي في المعهد الديني. وكان الأخ حسني يعمل أمينا لمخزن المعهد، حيث كان يحمل الشهادة الثانوية، ككثير من إخواننا الفلسطينيين، ولكنه انتسب إلى جامعة بيروت العربية - مثل الأخ يوسف السطري سكرتير المعهد - وحصل على الإجازة أو الليسانس في اللغة العربية.

وكنت ألمح في الأخ حسني قدرات عقلية ونفسية وخلقية تؤهله لأن يكون له دور في خدمة العمل الإسلامي، وبخاصة أنه مربٍّ بفطرته، حسن العلاقة بالشباب، قوي التأثير فيهم.

ولقد صدقت الأيام ظني فيه، فأصدر هو وصديقه الأستاذ أحمد الجدع: موسوعة «شعراء الدعوة الإسلامية» و«الأناشيد الإسلامية». وكتب عن عدد من رجال فلسطين مثل: الحاج أمين الحسيني، والشيخ عبد الله عزام، وأخرج ديواني الأول (نفحات ولفحات) وأصدر كتبا تربوية مثل «الأخوة

الإسلامية» و«الجهاد» وغيرهما، وما زال ينتج ويخرج من ثمرات قلمه النافع المثمر إن شاء الله.

ولا غرو حين دعاني إلى أن أزوره أنا وأسرتي في قريته: أن ألبي النداء، لما بيني وبينه من أواصر الأخوة، وروابط الزمالة، ولما له علي من حق - بل حقوق - أكدتها العشرة.

زيارة مدينة جنين:

زرنا (صانور) وبقينا فيها يومين، ثم زرنا مدينة جنين، ومعنا الأخ حسني، وألقيت فيها محاضرة، وأخذنا الإخوة لزيارة بعض القرى، القريبة جدا من خطوط التماسّ مع إسرائيل، ورأينا بأعيننا مدى الخطر الكامن، والمترقب الذي يهدد هذه القرى. فهي لا تملك أدنى سلاح تدافع به عن نفسها وعن حرماتها إذا انتهكت، وهي تواجه عدوا يملك من أنواع الأسلحة ما يفوق ما يملك العرب جميعا، كمّا ونوعا.

وبعد هذه الجولة عدنا إلى مقرنا في مدينة الخليل.

تنفيذ الإعدام في سيد قطب:

وفي هذه الفترة تم تنفيذ الحكم الذي صدر من المحكمة العسكرية في مصر، بإعدام الأديب والداعية والمفكر الإسلامي سيد قطب. وضرب جمال عبد الناصر عرض الحائط بكل النداءات والتوسلات التي وصلت إليه من بلاد العرب والمسلمين.

وكان لهذا الحدث صداه الواسع في أنحاء العالم، وخصوصا بين العاملين في الساحة الإسلامية، والمهتمين بالشأن الإسلامي، وعلى الأخص بين الإخوان في الخارج، الذين زلزلهم هذا الحدث زلزالا شديدا.

وقرر الإخوة في «عمّان» تنظيم مسيرة احتجاج كبرى في يوم معين، وحرصت على أن أشارك بنفسي في هذه المسيرة، فسافرت من الخليل إلى عمان لألتقي الإخوان هناك، وأساهم مع الإخوة، في رفع الشعارات التي تندد بالظلم والطغيان، وتنادي بالويل للطغاة والجبارين، وبالثأر للشهيد المظلوم.

وكان من الشعارات والنداءات: إلى جنة الخلد يا شهيد الإسلام، إلى جنة الخلد يا صاحب «الظلال».

وربما يعترض بعض إخواننا السلفيين على مثل هذه الأقوال، فإن أحدا لا يستطيع أن يجزم بمصير أحد، إلا من بشر رسول الله بأنه في الجنة، وقد أنكر الرسول الكريم على أم العلاء الأنصارية، حين قالت لعثمان بن مظعون ـ بعد موته ـ وقد كان من السابقين الأولين الذين أوذوا في سبيل الإسلام: أشهد عليك أبا السائب، لقد أكرمك الله! فقال: "من هذه المتألية على الله؟ وما يدريك أن الله أكرمه؟ والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل الله بي؟». [1] وبهذا زجرها عن الجزم بمصاير البشر، ولا يدري أحد بما ختم له؟

ولكن الذين يقولون مثل هذه الأقوال، لا يقولونها على سبيل الجزم واليقين، ولكن من باب التفاؤل، وتحسين الظن بالله تعالى، وبالمسلم المستور الحال، أو الظاهر الصلاح، لهذا جرت عادة الناس أن يقولوا: المرحوم فلان، والمغفور له فلان. يعنون: المرجو له الرحمة، والمرجو له المغفرة، وإن كان المتحرّون يقولون: المرحوم إن شاء الله، والمغفور له إن شاء الله!

وبعد المشاركة في المسيرة عدت إلى الخليل، لأتهيأ لخطبة الجمعة القادمة، وأذكر أنها كانت في مسجد الخليل إبراهيم، الذي يسميه الخليليون: «الحرم الإبراهيمي»! وقد رأينا أنه لا يجوز أن نقول: «الحرم القدسي» مع ما ورد في القدس ومسجدها الأقصى من نصوص شرعية، فكيف يجوز أن نقول: الحرم الإبراهيمي؟

---

(١) رواه البخاري وغيره.

وفي مصر، أرى بعض الناس يقولون عن مسجد الحسين في القاهرة وما حوله: الحرم الحسيني، وعن مسجد السيدة زينب وما حوله: الحرم الزينبي. وهذا توسع في استخدام كلمة «الحرم» وهي لها مدلول ديني معين لا ينبغي التوسع فيه، إلا أن يكون المقصود بكلمة «الحرم»: المعنى اللغوي للكلمة، فيقال: حرم الشيء وحريمه: ما يحيط به ويتصل به، ولهذا غدا من الكلمات الشائعة في المحيط الجامعي أن يقال: «الحرم الجامعي» ويقصد به الكليات الجامعية وما يتصل بها من إدارات ومراكز ومساكن وغيرها. ولكن يلاحظ: أن استعمال الكلمة في هذا المجال لا يوحي بأي مدلول ديني خاص.

المهم أني ألقيت بعد إعدام سيد قطب خطبة شهيرة، هيجت الأشجان، وأثارت الأحزان، وأبكت الأعين الجامدة، وأشعلت النيران الخامدة، وحركت العزائم الهامدة. ذكرت فيها مآثر الشهيد على العلم والأدب والدعوة والفكر الإسلامي، والعمل الإسلامي، وكيف وقف صُلْباً أمام الطواغيت لم تنحن له هامة، ولم تطأطئ له قامة، وكيف قدم عنقه ودمه فداء لفكرته وعقيدته.

وفي مثل هذه الخطب التي تثير الشجون، يذكر المرء ما شابهها من المآسي والنوازل. ويبكي فيها شهداء آخرين سلكوا نفس الدرب، ولقوا مثل هذا المصير.

فلا عجب أن بكينا على سيد قطب، وبكينا معه على حسن البنا، وعلى عبدالقادر عودة، وعلى محمد فرغلي، وعلى يوسف طلعت، وإبراهيم الطيب وآخرين من شهداء الأمة الأبرار. وهكذا كلما سقط شهيد، ذكرنا بإخوانه من الشهداء السابقين.

وقالوا: أتبكي كل قبر رأيته

لقبر ثوى بين اللوى والدكادك

فـقلت لـهم : إن الأسى يبـعث الأسى

دعـوني فــهــذا كله قــبــر مــالك!

وقفة مع الشهيد سيد قطب:

لا يشك دارس منصف، ولا راصـد عـدل، في أن سـيـد قطب مـسلم عظيم، وداعية كبير، وكاتب قدير، ومفكر متميز، وأنه رجل تجرد لدينه من كل شائبة، وأسلم وجهـه لله وحده، وجعل صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شـريك لـه. ولا شك في إخلاص سيـد قطب لفكرته التي آمن بهـا، ولا شك في حماسته لها، وفنائه فيها، وأنه وضع رأسه على كفه، وقدم روحه رخيصة من أجل الإسلام كما يؤمن به.

ولا ريب في أنه قضى سنوات عمره الأخيرة - وهو في السجن - يجلّي الفكرة، ويشرحها بقلمه المبدع، وبيانه العذب، وأسلوبه الأخاذ. كما لا ريب في أن كتبه تعطي قارئها شحنة روحية وعاطفية دافقة ودافئة ودافعة، توقظه من رقود، وتحركه من سكون، لما فيها من حرارة وإخلاص.

مراحل سيرة سيد قطب:

وهذه الفكرة هي التي انتهى إليها تطوره الفكري والعلمي، بعد مسيرة حافلة بالعطاء، في مجال الأدب والنقد، وفي مجال الدعوة والفكر.

ولا بد لمن يريد أن يفهم سيد قطب: أن يحيط بمراحل حياته وتطوره فيها، حتى يعرف حقيقة موقفه الذي انتهى إليه.

مرحلة الأدب والنقد:

أول ما ظهر سيد قطب، ظهر أديبا شاعرا، ثم ناقدا أدبيا.

كان شاعرا رقيقا مرهف الحس، دافق العاطفة، يحسبه الناقدون على «الاتجاه

الرومانسي» في الشعر، وعده د. محمد مندور الناقد الأدبي الشهير، في جماعة «أبولّو» ذات الاتجاهات الرومانسية المعروفة.

ومن المعروف أنه كان في أدبه النثري محسوبا على «مدرسة العقاد». وكان العقاد يمثل «المدرسة الليبرالية» والفكر الحر، ولم يكن قد ظهر توجهه الإسلامي الذي اتضح في كتاباته الأخيرة.

وكان الذي يمثل «المدرسة الإسلامية» في الأدب هو مصطفى صادق الرافعي. وكان بين الاتجاهين أو المدرستين صراع دامٍ، سلاحه القلم، وميدانه المجلات الأدبية كالرسالة والثقافة وغيرهما، والكتب الأدبيّة. وقد هاجم الرافعي العقاد في مقالات نشرت بعد ذلك في كتاب سماه «على السفّود».

لم يكن سيد قطب في هذه المرحلة قد عرف بتوجه إسلامي واضح، برغم أنه خريج «دار العلوم»، وقد عاصر حسن البنا، وإن لم يتعرف عليه وعلى دعوته إلا بعد استشهاده.

وقد توج هذه المرحلة من مراحل مسيرته: عملان كبيران من الأعمال الأدبية الأصيلة التي لم يقلد سيد قطب فيها أحدا، بل كان فيها نسيج وحده.

أولهما: كتابه عن «أصول النقد الأدبي» وهو - باعتراف بعض مؤرخي الأدب العربي - عمل متميز، وإن لم يأخذ حقه من الظهور، ربما كان سبب ذلك هو تحول صاحبه إلى الدعوة الإسلامية، وأمسى محسوبا على عالم الدعاة، لا على عالم الأدباء والنقاد، ولا سيما أن النقد الأدبي قد تطور كثيرا بعد كتاب سيد قطب ونظرياته. كما أن بعض النقاد يرى أن مزية سيد قطب وتفوقه فى التذوق الأدبى والنقد التطبيقى، قد طغت على عمله النظرى التأصيلى.

وثانيهما: عمله الأصيل المتميز في خدمة القرآن، وإعجازه البياني، بمنهج لم يسبق له نظير، وهذا العمل يتمثل في كتابيه الرائعين:

(أ) التصوير الفني في القرآن.

(ب) مشاهد القيامة في القرآن.

والكتاب الأول يجسد النظرية، والثاني بمثابة التطبيق لها.

وهذان الكتابان يمثلان تمهيدا أو همزة وصل للمرحلة القادمة، مرحلة الدعوة إلى الإسلام.

مرحلة الدعوة الإسلامية:

والمرحلة الثانية في حياة سيد قطب، هي مرحلة الدعوة إلى الإسلام، بوصفه عقيدة ونظاما للحياة، يقيم العدالة الاجتماعية في الأرض، ويرفع التظالم بين الناس، ويرعى حقوق الفقراء والمستضعفين، بوسيلتين أساسيتين، هما: التشريع القانوني، والتوجيه الأخلاقي.

وكان هذا التطور له مقدمات وعلامات، منها: اهتمامه بقضية المظالم الاجتماعية في مصر، وسيطرة الإقطاع المتجبر في الأرياف، والرأسمالية الاحتكارية المستغلة في المدن، على الاقتصاد المصري، وضياع الفلاحين والعمال - وهم جل المصريين - بين تجبر أولئك وتسلط هؤلاء.

وقد بدا هذا التوجه واضحا في مشاركته في مجلة «الفكر الجديد» التي كانت تعنى بهذا الجانب الاجتماعي، والتي لم تدم طويلا، وقد أشرنا إلى ذلك في الجزء الثاني من هذه المسيرة.

ولعل كتابيه السالفين في خدمة البيان القرآني، قد مهدا له الطريق، ليطل على «المضامين» الإصلاحية العظيمة، التي اشتمل عليها القرآن، وإن كانت دراسته أساسا تهتم بالشكل والأسلوب والجانب البلاغي والبياني.

ظهر أول كتاب له في هذه المرحلة، وهو: كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» الذي عرض الموضوع بطريقة منهجية، بين فيها أسس العدالة الاجتماعية في الإسلام، وإن كان الشيخ الغزالي رحمه الله له فضل السبق بتناول هذه

الموضوعات، في مقالاته التي كان ينشرها في مجلة الإخوان المسلمين، ثم جمعها في كتبه: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» «الإسلام والمناهج الاشتراكية» «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين»، ولكن هذه الكتب لم تكتب بالطريقة المنهجية التي كتب بها سيد قطب، لأنها في الأصل مقالات، تجلّي جوانب مهمة في هذا الجانب الاجتماعي والاقتصادي في الإسلام.

ولا شك في أن الشهيد سيد قطب قد استفاد من كتب الغزالي، وإن لم ينقل منها بالحرف، وإنما اقتبس كثيرا من الأفكار. ولهذا جعل من مصادره في الطبعة الأولى للكتاب: «الإسلام والأوضاع» و«الإسلام والمناهج». ثم حذفا بعد ذلك مع قائمة المصادر كلها.

استقبلت الأوساط الإسلامية كتاب «العدالة» بالحفاوة والترحيب، باعتباره أول مولود لسيد قطب في عهده الجديد، واستبشروا بأن التيار الإسلامي، قد كسب كاتبا له وزنه الأدبي، وقلمه البليغ، فهو يُعَدّ إضافة لها قيمتها إلى هذا التيار، تعوض الخسارة التي لحقت به بانضمام الشيخ خالد محمد خالد إلى التيار العلماني، فكأن عدالة الأقدار عوضت عن خالد بسيد، وعن كتاب «من هنا نبدأ» بكتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام».

وغمرت الإخوان خاصة فرحة بهذا القلم الجديد، الذي انضم إلى القافلة الإسلامية، وكأنه كان مكافأة لهم بعد خروجهم من معتقلات «الطور» و«هايكستب» وسقوط وزارة إبراهيم عبد الهادي قاتلة حسن البنا، وصاحبة التاريخ الأسود، والعسكري الأسود!

ولم يكتف سيد قطب بهذا الكتاب، بل أتبعه بكتب أخرى: «معركة الإسلام والرأسمالية» و«السلام العالمي والإسلام»، ومقالات عدة كتبها في مجلة «الدعوة» التي يصدرها الإخوان، ومجلة «الاشتراكية» التي يصدرها حزب العمل الاشتراكي، ومجلة «اللواء» التي يصدرها الحزب الوطني، ولكن هذه المقالات

كانت كلها «تحت راية الإسلام». وهي التي جمعت بعد ذلك تحت عنوان «دراسات إسلامية». ومنها: مقال عن «حسن البنا وعبقرية البناء». نقلت خلاصته في كتابي «الإخوان المسلمون: سبعون عاما في الدعوة والتربية والجهاد».

وفي هذه الفترة بدأ يكتب تفسيره الشهير الذي لم يسمه تفسيرا، ولكنه رضي أن يسميه «في ظلال القرآن» وصدق في تسميته، فلم يكن في طبعته الأولى يحمل الطابع الرسمي للتفسير، ولكنها وقفات عقل متدبر، وقلب حي، ووجدان مرهف: أمام القرآن، يلتمس عظاته، ويجلّي إعجازه، ويبين حقائقه، وينبه على مقاصده، بقلمه الدافق، وأدبه الرائق وإن تغير ذلك في الأجزاء الأخيرة، وفي الطبعة الثانية للأجزاء الأولى، فقد بدأ يهتم بالجانب التفسيري، حتى أحسب أنه أفرغ خلاصة تفسير ابن كثير في «ظلاله».

وكان سيد قطب ينشر ما يكتبه من «ظلال القرآن» فى مجلة «المسلمون» التى كان الداعية المعروف: سعيد رمضان يصدرها، وقد علق عليه منوهاومبينا ـ فى أحد أعدادها ـ العالم الأزهرى الكبير. د. محمد يوسف موسى.

وفي هذه الفترة بدأ سيد قطب يقترب من الإخوان، ويرى بعينيه نشاطهم والتزامهم، وما بينهم من رباط وثيق، وإخاء عميق، وما يتميز به كثير منهم من وعي دقيق، وشعور رقيق. وكان المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبي يصطحبه معه في رحلاته، ليرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويحكم بعد ذلك بعقله، ويختار لنفسه.

وقد اختار بملء إرادته الانضمام إلى دعوة الإخوان، ولا سيما بعد أن خاب ظنه في رجال الثورة، الذين علق عليهم في أول الأمر آمالا وأحلاما، فتبخرت وضاعت، كما تبخرت أحلام الشاعر العاشق الذي قال:

كأني من ليلى الغداة كقابض

على الماء خانته فروج الأصابع

وأحيل القارئ إلى ما ذكرته في الجزء السابق عن سيد قطب وانضمامه إلى الإخوان، وتسلمه رئاسة قسم نشر الدعوة في الجماعة، ورئاسة تحرير مجلتهم، إلى أن دخل معهم في محاكمات محكمة الشعب وحكم عليه بعشر سنوات.

مرحلة الثورة الإسلامية:

وهذه مرحلة جديدة تطور إليها فكر سيد قطب، يمكن أن نسميها «مرحلة الثورة الإسلامية»: الثورة على كل «الحكومات الإسلامية»، أو التي تدعي أنها إسلامية، والثورة على كل «المجتمعات الإسلامية» أو التي تدعي أنها إسلامية. فالحقيقة في نظر سيد قطب: أن كل المجتمعات القائمة في الأرض أصبحت مجتمعات جاهلية.

تكوّن هذا الفكر الثوري الرافض لكل من حوله وما حوله، والذي ينضح بتكفير المجتمع، وتكفير الناس عامة، لأنهم «أسقطوا حاكمية الله تعالى» ورضوا بغيره حكما، واحتكموا إلى أنظمة بشرية، وقوانين وضعية، وقيم أرضية، واستوردوا الفلسفات والقيم والمعايير والمناهج التربوية والثقافية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية وغيرها من غير المصادر الإسلامية، ومن خارج مجتمعات الإسلام. فبماذا يوصف هؤلاء إلا بالردة عن دين الإسلام؟

بل الواقع عنده: أنهم لم يدخلوا الإسلام قط، حتى يحكم عليهم بالردة! إن دخول الإسلام إنما مفتاحه النطق بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وهم لم يفهموا معنى هذه الشهادة. لم يفهموا أن «لا إله إلا الله» منهج حياة للمسلم، تميزه عن غيره من أصحاب الجاهليات المختلفة، ممن يعُدّهم الناس أهل العلم والحضارة. ولم يفهموا أن «محمدا رسول الله» تعني الالتزام والتسليم للمنهج الذي جاء به.

أقول: تكوّن هذا الفكر الثوري الرافض، في داخل السجن، وخصوصا بعد أن أعلنت مصر وزعيمها عبد الناصر، عن ضرورة التحول الاشتراكي، وحتمية الحل الاشتراكي، وصدر «الميثاق» الذي سماه بعضهم «قرآن الثورة»! وبعد الاقتراب المصري السوفيتي، ومصالحة الشيوعيين، ووثوبهم على أجهزة الإعلام والثقافة والأدب والفكر، ومحاولتهم تغيير وجه مصر الإسلامي التاريخي.

هنالك رأى سيد قطب: أن الكفر قد كشف اللثام عن نفسه، وأنه لم يعد في حاجة إلى أن يخفيه بأغطية وشعارات لإسكات الجماهير، وتضليل العوام.

هنالك رأى أن يخوض المعركة وحده، راكبا أو راجلا، حاملا سيفه (ولا سيف له غير القلم) لقتال خصومه، وما أكثرهم. سيقاتل الملاحدة الجاحدين، ويقاتل المشركين الوثنيين، ويقاتل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويقاتل المسلمين أيضا، الذين اغتالتهم الجاهلية، فعاشوا مسلمين بلا إسلام!

وأنا برغم إعجابي بذكاء سيد قطب ونبوغه وتفوقه، وبرغم حبي وتقديري الكبيرين له، وبرغم إيماني بإخلاصه وتجرده فيما وصل إليه من فكر، نتيجة اجتهاد وإعمال فكر: أخالفه في جملة توجهاته التي انتهت إليها مسيرته الفكرية الجديدة، التي خالف فيها سيد قطب الجديد: سيد قطب القديم.. وعارض فيها سيد قطب الثائر الرافض: سيد قطب الداعية المسالم، أو سيد قطب صاحب «المعالم»: سيد قطب صاحب «العدالة»، كما خالف فيها كل - أو جل - دعاة الحركة الإسلامية قبله، وعلى رأسهم حسن البنا.

ولقد ناقشت المفكر الشهيد في بعض كتبي في بعض أفكاره الأساسية، وإن لامني بعض الإخوة على ذلك، ولكني في الواقع، كتبت ما كتبت وناقشت ما ناقشت، من باب النصيحة في الدين، والإعذار إلى الله، وبيان ما أعتقد أنه الحق، وإلا كنت ممّن كتم العلم، أو جامل في الحق، أو داهن في الدين، أو آثر رضا الأشخاص على رضا الله تبارك وتعالى.

ونحن نؤمن بأنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل أحد غيره يؤخذ من كلامه ويرد عليه. وأن ليس في العلم كبير، وأن خطأ العالم لا ينقص من قدره، إذا توافرت النية الصالحة، والاجتهاد من أهله، وأن المجتهد المخطئ معذور، بل مأجور أجرا واحدا، كما في الحديث الشريف، سواء كان خطؤه في المسائل العلمية أم العملية، الأصولية أم الفروعية، كما حقق ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم وغيرهما.

وأخطر ما تحتويه التوجهات الجديدة في هذه المرحلة لسيد قطب، هو: ركونه إلى فكرة «التكفير» والتوسع فيه، بحيث يفهم قارئه من ظاهر كلامه في مواضع كثيرة ومتفرقة من «الظلال» ومما أفرغه في كتابه «معالم في الطريق»: أن المجتمعات كلها قد أصبحت «جاهلية». وهو لا يقصد بـ «الجاهلية» جاهلية العمل والسلوك فقط، بل «جاهلية العقيدة» إنها الشرك والكفر بالله، حيث لم ترض بحاكميته تعالى، وأشركت معه آلهة أخرى، استوردت من عندهم: الأنظمة والقوانين، والقيم والموازين، والأفكار والمفاهيم، واستبدلوها بشريعة الله، وأحكام كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وعلى هذا، ليس الناس في حاجة إلى أن نعرض عليهم نظام الإسلام الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو السياسي، أو القانوني، ونحو ذلك؛ لأن هذه الأنظمة والشرائع إنما ينتفع بها المؤمنون بها، وبأنها من عند الله. أما من لا يؤمن بها، فيجب أن نعرض عليه «العقيدة أوّلا» حتى يؤمن بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، وبالشريعة حاكمة.

وهذا ما أشار إليه في كتابه «المعالم» وفصله في كتاب «الإسلام ومشكلات الحضارة». وشبه مجتمعاتنا اليوم بمجتمع مكة في عهد الرسالة، وأن الرسول لم يعرض عليه النظام والتشريع، بل عرض عليه العقيدة والتوحيد.

كما رأى عليه رحمة الله: أن لا معنى لما يحاوله المحاولون من علماء العصر لما

سموه «تطوير» الفقه الإسلامي أو «تجديده» أو «إحياء الاجتهاد» فيه. إذ لا فائدة من ذلك كله ما دام المجتمع المسلم غائبا، يجب أن يقوم المجتمع المسلم أولا، ثم نجتهد له في حل مشكلاته في ضوء واقعنا الإسلامي.

وقد ناقشت ـ بكل أدب واحترام ـ أفكاره عن «الاجتهاد» وعدم حاجتنا إليه قبل أن يقوم المجتمع الإسلامي: في كتابي «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية» وبينت بالأدلة خطأ فكرته هذه.

وكما ناقشت الشهيد سيد قطب في رأيه حول قضية «الاجتهاد»: ناقشته في رأيه في «الجهاد» وقد تبنى أضيق الآراء وأشدها في الفقه الإسلامي، مخالفا اتجاه كبار الفقهاء والدعاة المعاصرين، داعيا إلى أن على المسلمين أن يعدوا أنفسهم لقتال العالم كله، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد، وهم صاغرون.

وحجته في ذلك آيات سورة التوبة، وما سماه بعضهم «آية السيف» ولم يبال بمخالفة آيات كثيرة تدعو إلى السلم، وقصر القتال على من يقاتلنا، وكف أيدينا عمن اعتزلنا ولم يقاتلنا، ومد يده لمسالمتنا، ودعوتنا إلى البر والقسط مع المخالفين لنا إذا سالمونا، فلم يقاتلونا في الدين، ولم يخرجونا من ديارنا، ولم يظاهروا على إخراجنا.

هذا ما تدل عليه الآيات الكثيرة من كتاب الله مثل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠، ١٩١).

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٩٠).

﴿ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ (النساء : ٩١).

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (الأنفال : ٦١).

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة : ٨).

والأستاذ سيد رحمه الله يتخلص من هذه الآيات وأمثالها بكلمة في غاية السهولة : أن هذه كان معمولا بها في مرحلة، ثم توقف العمل بها، والعبرة بالموقف الأخير. وهو ما يعبر عنه الأقدمون بالنسخ، وقولهم في هذه الآيات : نسختها آية السيف.

ولا أدري كيف هان على سيد قطب ـ وهو رجل القرآن الذي عاش في ظلاله سنين عددا يتأمله ويتدبره ويفسره ـ أن يعطل هذه الآيات الكريمة كلها، وأكثر منها في القرآن، بآية زعموها آية السيف؟ وما معنى بقاء هذه الآيات في القرآن إذا بقي لفظها وألغي معناها، وبطل مفعولها وحكمها؟!

ويقول الشهيد رحمه الله : إننا لا نفرض على الناس عقيدتنا، إذ لا إكراه في الدين، وإنما نفرض عليهم نظامنا وشريعتنا، ليعيشوا في ظله، وينعموا بعدله.

ولكن بماذا نجيب الناس : إذا قالوا لنا : إننا أحرار في اختيار النظام الذي نرضاه لأنفسنا، فلماذا تفرضون علينا نظامكم بالقوة؟ إن كل شيء يجرّعه الإنسان تجريعا برغم أنفه : يكرهه وينفر منه، ولو كان هو السكر المذاب، أو العسل المصفى!

وما الحكم إذا كنا نحن ـ اليهود أو النصارى أو الوثنيين ـ أصحاب القوة والمنعة، وأنتم الضعفاء في العُدّة أو الأقلون في العدد؟ هل تقبلون أن نفرض عليكم نظامنا ومنهج حياتنا؟ كما هو شأن أمريكا اليوم، وتطلعاتها للهيمنة على العالم؟

ومما ننكره على الأستاذ سيد رحمه الله: أنه يتهم معارضيه في فكرته عن الجهاد من علماء العصر بأمرين:

الأول: السذاجة والغفلة والبله، ونحو ذلك مما يتصل بالقصور في الجانب العقلي والمعرفي.

والثاني: الوهن والضعف النفسي، والهزيمة النفسية: أمام ضغط الواقع الغربي المعاصر، وتأثير الاستشراق الماكر! مما يتعلق بالجانب النفسي والخلقي.

والذين يتهمهم بذلك هم أعلام الأمة في العلم والفقه والدعوة والفكر، ابتداء من الشيخ محمد عبده، مرورا بالشيخ رشيد رضا، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والمشايخ: محمود شلتوت، ومحمد عبد الله دراز، وأحمد إبراهيم، وعبد الوهاب خلاف، وعلى الخفيف، ومحمد أبو زهرة، ومحمد يوسف موسى، ومحمد فرج السنهوري، ومحمد المدني، ومحمد مصطفى شلبي، ومحمد البهي، وحسن البنا، ومصطفى السباعي، ومصطفى الزرقا، ومحمد المبارك، وعلي الطنطاوي، والبهي الخولي، ومحمد الغزالي، وسيد سابق، وعلال الفاسي، وعبد الله بن زيد المحمود، وغيرهم من شيوخ العلم الديني. ممن قضى نحبه ولقي ربه، مثل الذين ذكرناهم، وممن ينتظر من أعلام لهم قدرهم، لا داعي لتسميتهم.

هذا فضلا عن الكتاب والمفكرين «المدنيين» الذين لا يحسبون على العلوم الشرعية، من أمثال: د. محمد حسين هيكل، وعباس العقاد، ومحمد فريد وجدي، وأحمد أمين، وعبد الرحمن عزام، وغيرهم وغيرهم في بلاد العرب والمسلمين.

كما أن من المآخذ التي أنكرت على سيد قطب: قسوته على التاريخ الإسلامي، ورؤيته له من وراء منظار أسود، وحملته الشديدة على بني أمية، وفيهم سيدنا عثمان، وإن كان هذا التوجه قديما عنده، منذ كتب «العدالة الاجتماعية».

على أيّ حال، كانت هذه هي الأفكار المحورية في هذه المرحلة من حياة سيد قطب، وفيها عدل من أفكاره واتجاهه تعديلا جذريا، وأصبح ما كتبه قديما في «العدالة الاجتماعية» وغيرها، يمثل مرحلة من حياته، ولا يمثل الخط الأخير الذي يتبناه ويدعو إليه، ويدافع عنه.

وقد حدثني الأخ د. محمد المهدي البدري: أن أحد الإخوة المقربين من سيد قطب ـ وكان معه معتقلا في محنة ١٩٦٥م ـ أخبره أن الأستاذ سيدا عليه رحمة الله، قال له: إن الذي يمثل فكري هو كتبي الأخيرة: المعالم، والأجزاء الأخيرة من الظلال، والطبعة الثانية من الأجزاء الأولى، وخصائص التصور الإسلامي ومقوماته، والإسلام ومشكلات الحضارة، ونحوها مما صدر له وهو في السجن، أما كتبه القديمة فهو لا يتبناها، فهي تمثل تاريخا لا أكثر.

فقال له هذا الأخ من تلاميذه: إذن أنت كالشافعي لك مذهبان: قديم وجديد، والذي تتمسك به هو الجديد لا القديم من مذهبك.

قال سيد رحمه الله: نعم، غيرت كما غير الشافعي رضي الله عنه. ولكن الشافعي غير في الفروع، وأنا غيرت في الأصول!

فالرجل يعرف مدى التغيير الذي حدث في فكره. فهو تغيير أصولي أو (إستراتيجي) كما يقولون اليوم.

وهو على كل حال: مخلص في توجهه، مأجور في اجتهاده، أصاب أم أخطأ، ما دام الإسلام مرجعه، والإسلام منطلقه، والإسلام هدفه. وأشهد أن الرجل في المرحلة الأخيرة من حياته، كان كله للإسلام، عاش للإسلام، ومات في سبيل الإسلام! فرضي الله عنه وأرضاه، وجعل الفردوس مثواه، وغفر له ما نحسب أنه أخطأ فيه، وأجره عليه أجر المجتهدين الصادقين. وغفر لنا معه أجمعين ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر: ١٠).

تحامل على سيد قطب في فكرة الحاكمية:

ولقد اتهم بعض الكاتبين سيد قطب بأنه تبنى فكرة «الحاكمية» التي أخذها عن المودودي، وجعلها من صلب عقيدة التوحيد، ورتب عليها أحكاما خطيرة، منها: أن الدولة التي تقوم على أساسها: أشبه ما تكون بالدولة الدينية، التي تقوم على الحكم بالحق الإلهي. وهذا تحامل ظالم على الرجل.

والحق أن فكرة الحاكمية أساء فهمها الكثيرون، وأدخلوا في مفهومها ما لم يرده أصحابها. وأود أن أنبه هنا على جملة ملاحظات حول هذه القضية:

١ـ الملاحظة الأولى: أن الحاكمية التي ركز عليها سيد قطب والمودودي، هي: الحاكمية بالمعنى التشريعي، ومفهومها: أن الله سبحانه هو المشرِّع لخلقه، وهو الذي يأمرهم وينهاهم، ويحل لهم ويحرم عليهم. وهذا ليس من ابتكار المودودي ولا سيد قطب، بل هو أمر مقرر عند المسلمين جميعا. ولهذا حين قال الخوارج لعليّ: لا حكم إلا لله: لم يعترض علي رضي الله عنه على المبدإ، وإنما اعترض على الباعث والهدف المقصود من وراء الكلمة. فقال ردا عليهم: «كلمة حق يراد بها باطل».

وقد بحث في هذه القضية علماء «أصول الفقه» في مقدماتهم الأصولية التي بحثوا فيها عن الحكم الشرعي، والحاكم، والمحكوم به، والمحكوم عليه.

فها نحن أولاد نجد إماما مثل أبي حامد الغزالي يقول في مقدمات كتابه الشهير «المستصفى من علم الأصول» عن «الحكم» الذي هو أول مباحث العلم، وهو عبارة عن خطاب الشرع، ولا حكم قبل ورود الشرع، وله تعلق بالحاكم، وهو الشارع، وبالمحكوم عليه، وهو المكلف، وبالمحكوم فيه، وهو فعل المكلف...

ثم يقول: وفي البحث عن الحاكم يتبين: أن «لا حُكم إلا لله» وأن لا حكم للرسول، ولا للسيد على العبد، ولا لمخلوق على مخلوق، بل كل ذلك حكم الله تعالى ووضعه، لا حكم لغيره»[1].

---

(١) المستصفى: (١/ ٨) طبع دار صادر ببيروت، مصورة عن طبعة بولاق.

ثم يعود إلى الحديث عن «الحاكم» وهو صاحب الخطاب الموجه إلى المكلفين، فيقول: «أما استحقاق نفوذ الحكم، فليس إلا لمن له الخلق والأمر، فإنما النافذ حكم المالك على مملوكه، ولا مالك إلا الخالق، فلا حكم ولا أمر إلا له، أما النبي صلى الله عليه وسلم، والسلطان والسيد والأب والزوج، فإذا أمروا وأوجبوا لم يجب شيء بإيجابهم، بل بإيجاب من الله تعالى طاعتهم، ولولا ذلك لكان كل مخلوق أوجب على غيره شيئا كان للموجَب عليه أن يقلب عليه الإيجاب، إذ ليس أحدهما أولى من الآخر، فإذن الواجب طاعة الله تعالى، وطاعة من أوجب الله تعالى طاعته»[1].

وبهذا نعلم أن فكرة «الحاكمية» ليست من اختراع سيد قطب ولا المودودي، بل هي فكرة إسلامية أصيلة، قررها علماء الأصول، واتفق عليه أهل السنة والمعتزلة جميعا.

٢ـ الملاحظة الثانية: أن «الحاكمية» التي قال بها المودودي وقطب، وجعلاها لله وحده، لا تعني أن الله تعالى هو الذي يولي الخلفاء والأمراء، يحكمون باسمه، بل المقصود بها الحاكمية التشريعية فحسب، أما سند السلطة السياسية فمرجعه إلى الأمة، هي التي تختار حكامها، وهي التي تحاسبهم وتراقبهم، بل تعتزلهم. والتفريق بين الأمرين مهم، والخلط بينهما موهم ومضلل، كما أشار إلى ذلك الدكتور أحمد كمال أبو المجد بحق في أحد بحوثه.

فليس معنى الحاكمية الدعوة إلى دولة ثيوقراطية، بل هذا ما نفاه كل من سيد قطب والمودودي رحمهما الله.

وحسبي هنا أن أذكر قول سيد قطب في «معالمه»:

---

(١) المستصفى: (١/ ٨٣) طبع دار صادر ببيروت، مصورة عن طبة بولاق. وفي فواتح الرحموت: مسألة: لا حكم إلا من الله تعالى، بإجماع الأمة لا كما في كتب بعض المشايخ، إن هذا عندنا، وعند المعتزلة الحاكم العقل، فإن هذا مما لا يجترئ عليه أحد ممن يدعي الإسلام، بل إنما يقولون: إن العقل معرِّف لبعض الأحكام الإلهية، سواء ورد به الشرع أم لا، وهذا مأثور عن أكابر مشايخنا أيضا (يعني الماتريدية) (١/ ٢٥) مع المستصفى.

«ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم - هم رجال الدين - كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة، كما كان الحال فيما يُعرف باسم «الثيوقراطية» أو الحكم الإلهي المقدس!! ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة».

٣ـ الملاحظة الثالثة: أن الحاكمية التشريعية التي يجب أن تكون لله وحده، وليست لأحد من خلقه، والتي نادى بها المودودي وقطب، هي: الحاكمية «العليا» و«المطلقة» التي لا يحدها ولا يقيدها شيء، فهي من دلائل وحدانية الألوهية. بل من مقومات التوحيد، كما بين القرآن في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ (الأنعام: ١١٤).

وهذه الحاكمية - بهذا المعنى - لا تنفي أن يكون للبشر قَدْر من التشريع أذن به الله لهم. إنما هي تمنع أن يكون لهم استقلال بالتشريع غير مأذون به من الله، وذلك مثل التشريع الديني المحض، كالتشريع في أمر العبادات، والتشريع الذي يحل ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله، ويسقط ما فرض الله. أما التشريع فيما لا نص فيه، أو في المصالح المرسلة، وفيما للاجتهاد فيه نصيب، فهذا من حق المسلمين، ولهذا كانت نصوص الدين في غالب الأمر كلية إجمالية لا تفصيلية، ليتاح للناس أن يشرعوا لأنفسهم، ويملئوا الفراغ التشريعي بما يناسبهم(١).

نقطة الضعف في المشروع القطبي:

نقطة الضعف الأساسية في المشروع الفكري والدعوي لسيد قطب - وهو مشروع عملاق بلا ريب - أنه كان شديد الإعجاب بعلامة الهند الكبير: الأستاذ

---

(١) انظر: كتابنا «بينات الحل الإسلامي» ص١٦٣-١٦٧. وكتابنا «عوامل السعه والمرونة فى الشريعة الإسلامية».

أبي الأعلى المودودي، وأنه اقتبس منه - تقريبا - جميع الأفكار التي كانت موضع الانتقاد في مشروع المودودي، مثل: الحاكمية والجاهلية، والقسوة على التاريخ الإسلامي.

بل الواقع: أنه رتب على هذه الأفكار من النتائج والآثار ما لم يرتبه المودودي نفسه، ساعده على ذلك قلمه البليغ، وأدبه الرفيع، وبيانه الحيّ الدافق.

فقد تحدث المودودي عن قضية «الحاكمية» الإلهية لهذا الكون، الذي هو مملكة الله وحده، وهو سبحانه ملكها كما أنه مالكها. فله وحده التصرف في الحكم فيها، فهو الذي يأمر وينهى كما يشاء، ويحلل ويحرم كما يريد، ويشرع للناس ما يشاء دون منازع، ولا يسأل عما يفعل: وهو ما نطقت به آيات القرآن الصريحة، كما ذكرنا من قبل، مثل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ (الأنعام: ٥٧). ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾ (الأنعام: ١١٤).

وهذه قضية مسلّمة كما نقلنا من قبل عن علماء أصول الفقه، ولكن المشكلة تقع في الإيحاءات التي تركتها هذه المسألة في الأنفس والعقول، حتى فهم بعض الناس مما قيل في شرحها وتفسيرها: أن لا دور للبشر في التشريع والتقنين، وإن كان تفصيليا، أو مصلحيا، أو إداريا، أو إجرائيا.

ولقد وقف كثير من الدعاة والمفكرين موقف النقد لمقولات «الفكر القطبي» التي انفرد بها، واقتبسها من المودودي، والتي انتشرت في «الظلال» وتجسدت في «المعالم» ومن هؤلاء من لا يمكن أن يتهم بأنه يعمل لحساب سلطة أو جهة غير إسلامية. أذكر من هؤلاء: علاّمة الهند، الداعية الإسلامي الكبير: أبا الحسن الندوى، فى كتابه «التفسير السياسى للإسلام» الذى انتقد فيه أفكار الأستاذ أبى الأعلى المودودى، والأستاذ سيد قطب، وإن كان تركيزه على المودودى، لقوة تأثيره وانتشار كتبه فى القارة الهندية، وخالفهما فى التهوين من قيمة التنسك والتضرع إلى الله تعالى، والتركيز على الحاكمية بالمعنى السياسى.

كما أذكر من هؤلاء: المفكر المسلم المعروف د. محمد عمارة، الذي نقد المودودي في شدته القاسية، أو قسوته الشديدة على التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، في عبارات صدرت عنه، يقفّ شعر الرأس عند قراءتها. والله يغفر له، ويأجره على اجتهاده من فضله أجرا واحدا. ثم قال د. عمارة:

«ومن هذا الغلو المودودي - غير المبرر - انطلق الشهيد سيد قطب (١٣٢٤-١٣٨٦هـ/ ١٩٠٦-١٩٦٦م) في لحظات المحنة والتوتر، التي كتب فيها «معالم في الطريق» فقال: «إنه يدخل في إطار المجتمع الجاهلي، تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها «مسلمة».. وهذه المجتمعات تدخل في هذا الإطار لا لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضا، ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها، فهي - وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله - تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله، فتدين بحاكمية غير الله، فتتلقى من هذا الحاكمية: نظامها، وشرائعها، وقيمها، وموازينها، وعاداتها وتقاليدها، وكل مقومات حياتها تقريبا. إن موقف الإسلام من هذه المجتمعات كلها يتحدد في عبارة واحدة: إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات»[1].

فإسلام هذه المجتمعات - عند سيد قطب - هو مجرد «زعم» لأنها - وإن لم تعبد غير الله - قد دانت في كل مناحي حياتها لحاكمية غير الحاكمية الإلهية - في النظم والشرائع والقيم والموازين والعادات والتقاليد، وكل مقومات حياتها تقريبا!!

بل تجاوز سيد قطب مجازفة المودودي، عندما لم يكتف بالحكم بجاهلية «المجتمعات الإسلامية» و«دولها» و«تاريخها» و«ثقافتها» و«حضارتها».. وإنما ذهب فأعلن «انقطاع الأمة الإسلامية عن الوجود منذ قرون»!.. وأن المهمة التي يدعو إليها، هي إيجاد الأمة والجماعة المسلمة من جديد!

---

(١) انظر: معالم في الطريق ص ١٠١-١٠٣.

ذهب سيد قطب - في المجازفة - إلى هذا المدى، فكتب يقول:

«إن وجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة.. فالأمة المسلمة ليست «أرضا» كان يعيش فيها الإسلام، وليست «قوما» كان أجدادهم في عصر من عصور التاريخ يعيشون بالنظام الإسلامي.. إنما «الأمة المسلمة» جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الإسلامي.. هذه الأمة - بهذه المواصفات - قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعا.. ولذلك، فالمسألة في حقيقتها هي مسألة كفر وإيمان، مسالة شرك وتوحيد، مسألة جاهلية وإسلام، وهذا ما ينبغي أن يكون واضحا.. إن الناس ليسوا مسلمين - كما يدعون - وهم يحيون حياة الجاهلية.. ليس هذا إسلاما، وليس هؤلاء مسلمين، والدعوة اليوم إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهليين إلى الإسلام، ولتجعل منهم مسلمين من جديد»[1].

هكذا حكم سيد قطب - يرحمه الله - على «الأمة» - وليس فقط على «الدول والمجتمعات والحضارة» - بالكفر، والشرك، والجاهلية.. ونفى عن «الأمة» الإيمان، والتوحيد، والإسلام.. «فالناس» - نَعَم «الناس» - عنده ليسوا مسلمين كما يدعون!.. والمطلوب من الدعوة التي حدد منهاجها في «معالم في الطريق» هو رد هؤلاء الجاهليين إلى الإسلام، لنجعل منهم مسلمين من جديد!

ولقد مضى ليؤكد هذا الحكم الخطير على «الأمة» فقال:

«ينبغي أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية، أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين، يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة، حتى لو كانوا يدعون أنهم مسلمون، وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون!.. فإذا دخل في هذا الدين.. عصبة من الناس.. فهذه العصبة هي التي يطلق عليها اسم «المجتمع المسلم»!»[2].

---

(١) المعالم ص٨، ١٧٣.

(٢) المصدر السابق ص٤٠.

قال د. محمد عمارة:

وهذا المستوى من المجازفة في الغلو، غير مسبوق في تاريخ الصحوة الإسلامية الحديثة والمعاصرة على الإطلاق![1] ا. هـ.

وأقول للدكتور عمارة: إن فكرة التكفير لمسلمي اليوم، لم ينفرد بها كتاب «المعالم» بل أصلها في «الظلال» وفي كتب أخرى، أهمها «العدالة» كما سنذكر ذلك في الملاحق إن شاء الله.

محاضرة في القدس:

نعود إلى «ابن القرية والكتاب» لنكمل معه المسيرة.

فبعد قضاء أكثر من شهرين في مدينة الخليل الجميلة، الحافلة بكل المعاني الخيرة، والمشاعر النبيلة، وبعد أن امتلأنا من هوائها، وشبعنا من غذائها، وارتوينا من مائها، ونعمنا بفواكهها، وصلينا في مساجدها، واستمتعنا بصداقة أهلها، وعشرتهم الطيبة، طفقنا نعد العدة للعودة إلى الدوحة، وهذا يستلزم أن نقوم بجولة في مدن الضفة الشرقية ومنها «عمّان» عاصمة المملكة الأردنية، كما تجولنا في مدن الضفة الغربية.

وفعلا حزمنا أمتعتنا، وحملنا حقائبنا، لنذهب إلى عمان، ومنها ننطلق إلى مدن الضفة الشرقية.

ولكن قبل أن نذهب إلى عمان: هيأ إخوتنا في القدس محاضرة عامة دعوا إليها جمّاً غفيرا من الناس، وكان ممن حضرها العالمان الكبيران: سماحة الشيخ عبد الحميد السايح، وسماحة الشيخ عبد الله غوشة. وكنت تعرفت على الشيخ

(١) من بحث للدكتور محمد عمارة ألقاه في «ندوة اقرأ» الإعلامية في رمضان ١٤٢٤هـ بمكة المكرمة بعنوان: «الخطاب الإعلامي الإسلامي المعاصر ودوره في مواجهة الأفكار المنحرفة المتطرفة باسم الدين».

غوشة في زيارتي الأولى للقدس سنة ١٩٥٢ . أما الشيخ السايح فهذه أول مرة ألقاه فيها، وقد تعدد لقائي بالشيخ فيما بعد في مؤتمرات المصارف الإسلامية وغيرها، كما تعدد لقائي بالشيخ غوشة في جلسات المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، حيث كنا عضوين فيه.

الحاج راضي السلايمة:

وزرنا في مدينة القدس الأخ الصالح، بركة القدس، الحاج راضي السلايمة رحمه الله، وكنا عرفناه في الروضة في القاهرة، وقد عاد إلى القدس موطنه الأصلي، واستضافنا عنده، وغمرنا بكرمه وفضله، رحمة الله عليه.

والحاج راضي السلايمة تاجر صدوق، أحسبه من الذين قال الله فيهم: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ (النور: ٣٧).

التزم الحاج راضي في تجارته ثلاث خصال أساسية لا يحيد عنها، ولا يتساهل فيها مع نفسه:

١ ـ أن يتجنب الحلف والأيمان، فلا يحلف على سلعة، ولا على ثمن، بائعا كان أو مشتريا. وعرف الناس عنه ذلك، فلا يجرؤ أحد أن يطلب منه اليمين على صدقه. بل كلمته مصدّقة عند زبائنه جميعا.

٢ـ ألا يتعامل مع البنوك، وكانت كل البنوك في ذلك الوقت ربوية. ومعنى هذا: أنه أراد أن يقي نفسه رجس الربا، فلا يأخذه ولا يعطيه، ولا يتوسع في تجارته، فيحتاج إلى البنك. ولكن على قدر لحافه يمد رجليه.

٣ـ ألا يستلف من أحد قليلا ولا كثيرا، لما علم من خطورة الدَّيْن في الإسلام، وأن الشهيد يغفر له كل شيء إلا الدين، فلم يرد أن يورط نفسه في دين لعله لا يمكنه الوفاء به، والوقاية خير من العلاج.

بهذه المبادئ الثلاثة التزم الحاج راضي، وطبقها على نفسه تطبيقا دقيقا وكاملا طوال حياته، فكان مثالا للتجار الأبرار الأمناء، الذين يحشرهم الله مع النبيين والشهداء.

إلى العاصمة عمّان:

بعد أن أقمنا في القدس يومين أو ثلاثة - لا أذكر - عزمنا على الرحيل إلى العاصمة عمّان، التي زرتها منذ نحو ١٤ عاما (١٩٥٢م)، لننزل ضيوفا - أنا والعائلة - على الأخ الكريم أبي زياد حجازي التميمي، الذي عرفته منذ زمن في القاهرة، حيث هو شريك الصديق الفاضل الحاج شبل سعودي في بقالة الزمالك، المجاورة لجامع الزمالك، الذي توليت الخطابة فيه فترة من الزمن.

وقد تعرفت عليه منذ كنت أخطب الجمعة في الزمالك عامي ١٩٥٦م، ١٩٥٧م، وإن كانت صلتي بآل سعودي أسبق من ذلك: الحاج محمد سعودي، والحاج شبل، والحاج عبد الرزاق، والأستاذ عبد الحميد، والدكتور عبد المنعم، وأولادهم من بعدهم، بارك الله فيهم.

ولإخواننا «الخلايلة» وجود قديم في مصر في عالم التجارة، وخصوصا «البقالات»، والمصريون يسمونهم «الشاميين» يقولون: اشتر من بقالة عمك فلان الشامي. ذلك لأن كلمة «الشام» في مصر تعني: فلسطين والأردن وسورية ولبنان جميعا، بما فيها «الكيان المغتصب» الدخيل على المنطقة الذي سرق الوطن جهارا من أهله، وشردهم في الأرض.

ولهذا كان الأخ أبو زياد التميمي - نسبة إلى تميم الداري الصحابي المعروف، لا إلى بني تميم - من التجار القدامى في مصر، وكانت صلتي به وثيقة لصلتي بآل سعودى. وقد دعاني إلى بيته أكثر من مرة، وفي إحدى المرات جمعني بصهره الداعية الثائر المجاهد الشيخ أسعد بيّوض التميمي، الذي التقيت به سنة ١٩٥٢م في القدس. لذا أصر على أن أكون ضيفه في شقته في عمان، لا سيما

أني سأترك أولادي في عمان، ثم أنطلق إلى المدن الأخرى تاركا الأولاد غالبا في مستقرهم.

استأجرنا سيارة صغيرة (تاكسي) لتنقلنا من القدس إلى عمان، كما فعلنا من قبل في زيارة مدن الضفة الغربية، وقد كانت أسرتي لا تزال صغيرة، فتكفينا سيارة واحدة، تحملني أنا وزوجتي وبناتي الأربع الصغيرات.

وكانت طبيعة فلسطين والأردن، مثل طبيعة لبنان، فكلها جبال، تحتاج من سائق السيارة إلى أن يكون ماهرا في قيادتها، فأحيانا نكون في قمة الوادي، ثم ترى قمة الجبل الشاهقة، ومطلوب منا أن نصعد إليها، فنحن بين صعود ونزول ومنعطفات خطرة، كأنها دائرة حلزونية، ولسنا نسير في أرض سهلة مستوية منبسطة كأرض مصر التي عهدناها من قبل، وأرض قطر التي عرفناها من بعد. وهذه معارف نكسبها بالممارسة لا بالقراءة، ويكسبها أولادي معي، فتتسع مداركهم، وتثري أفكارُهم.

وصلنا إلى عمّان، وبقيت بها أياما، ألقيت فيها محاضرة في «دار الإخوان»، ومحاضرة في أحد المساجد لا أذكره، ثم دعيت إلى محاضرة في مدينة «الصلت».

ثم دعيت للسفر إلى مدينة «إربد» وقد كنت زرتها سنة ١٩٥٢ وألقيت محاضرة مهمة فيها في دار «السينما» بها. ولا مانع أن يلقي الداعية محاضرة في دار سينما، فإن الحرام لا يحرم الحلال، والخبيث لا يطرد الطيب، بل ينبغي أن يطرد الطيب الخبيث.

ألقيت محاضرة عامة في «إربد» ثم دعاني الإخوة إلى حضور معسكر لمدة ثلاثة أيام في المدرسة الإسلامية هناك.

وأذكر أني ألقيت فيهم محاضرة عن «مشكلة الفقر وحلّها في الإسلام»، وذلك قبل أن أنشر كتابي حول هذا الموضوع.

كما أذكر أني شرحت للإخوة: «الأصول العشرين» للإمام الشهيد حسن البنا، في عدة جلسات، شرحا مركزا، موصولا بالأدلة المعتبرة، ومستندا إلى أصول الفقه، وأصول الدين، وقد ظل الإخوة يذكرونني بها كلما لقوني.

صيفية مثمرة وممتعة:

والحق أن هذه الإجازة الصيفية، كانت ـ بكل المقاييس ـ إجازة مثمرة وممتعة في الوقت نفسه.

استمتعنا فيها أنا والأسرة بدنيا ونفسيا وروحيا، ولم نحس فيها بالغربة، فقد كانت نفحات «الجو الإسلامي» تهب علينا من يمين وشمال، فتبعث فينا الحيوية، وتوقظ فينا روح الحياة، وحياة الروح، وتدفعنا إلى النشاط بهمة لا تعرف الكلل، وعزيمة لا تركن إلى الكسل.

لم يعكر صفونا في هذه الإجازة إلا محنة إخواننا في مصر، وما يتعرضون له من أذى جربنا مثله في محنة ١٩٥٤م، وما أحزننا وأحزن المسلمين في العالم من إعدام سيد قطب رحمه الله. وكان الذي يعزينا عن ذلك: أن الله لن يتخلى عن عباده المؤمنين، وهو وليهم والمدافع عنهم، وهو الذي ينزل عليهم سكينته، وينشر عليهم رحمته، كما أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

كما كانت هذه الصيفية مثمرة بالنسبة لي، فقد ألقيت فيها عددا من الخطب والدروس والمحاضرات في مدن شتى، ولا سيما في «الخليل». كما التقيت في جلسات خاصة عددا من الإخوة، تربطني بهم رابطة الدعوة والعمل المشترك لنصرة الإسلام.

ولذا اتفقت مع الإخوة في الخليل: أن يكون مصيفنا القادم عندهم، إن شاء الله، بل الإجازات القادمة ستكون عندهم، إلا أن يأذن ربي، بأن تفتح لنا أبواب مصر من جديد، ويقال لنا ما قيل ليعقوب وإخوة يوسف: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٩).

وإن كان قدر الله لم يحقق لنا هذا الأمل، فقد حدثت نكبة حزيران (يونيو) ١٩٦٧، واحتلت القدس والضفة الغربية، وأمست كلها في قبضة إسرائيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وسنعرض لذلك في حينه إن شاء الله.

العودة من عمان إلى قطر:

وكان لا بد أن تنقضي الإجازة الصيفية، كما تنقضي كل الأيام، حلوة كانت أم مُرّة، وإن كان مما جربه الناس من قديم: أن الأيام الحلوة تنقضي بسرعة كأنها سحابة صيف، أو زيارة طيف! والأيام المرة والشديدة تسير في بطء السلحفاة، لا تكاد تتحرك، وقد عبر عن ذلك أحد الشعراء قديما، فقال:

وأيام الهموم مقصّصات
وأيام السرور تطير طيرا!

يريد: أن أيام الهموم والأحزان كأنها مقصوصة الجناح غير قادرة على النهوض والطيران. أما أيام السرور فهي تطير طيرا بكامل أجنحتها وقدرتها.

وقال شاعر آخر:

مرت سنينٌ بالوصال وبالهنا
فكأنها من قُصْرها أيام
ثم انثنت أيام هجرٍ بعدها
فكأنها من طولها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام!

ركبنا من مطار القدس على ما أذكر، فقد كانت الطائرات تأتي من الدوحة إلى

القدس. ثم من القدس إلى الدوحة. وقد كنا ـ من اللهفة والسرعة ـ نسينا حقيبة يد (هاند باك) في مطار القدس، فيها بعض المشتريات والهدايا، فأرسلوها إلينا بعد ذلك مشكورين.

وعاد معنا إخواننا الذين جاءوا معنا من قطر: الشيخ على جماز، والشيخ العوضي وأسرتاهما. أما الأخ سعد مرزوق، فقد عاد قبلنا، لأن إجازة الإداريين أقل من إجازة المدرسين.

(٢)
السنة الدراسية
١٩٦٦ ـ ١٩٦٧م

السنة الدراسية (١٩٦٦-١٩٦٧م)

عدنا إلى قطر بعد قضاء الإجازة في «الخليل» وباشرت عملي المعتاد في إدارة المعهد الديني، والمشاركة في النشاط الديني والثقافي العام في قطر.

ومضت الأيام تجري في أعنَّتها، يصبح الصباح، ويمسي المساء، وتشرق الشمس وتغرب، ويعمل الليل والنهار في عمر الإنسان لا يتوقفان، يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد.

وكان إخواننا في مصر، لا يزالون يرزحون تحت نير المحنة، وينتظرون من الله الفرج، وقد قال تعالى: ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (الطلاق: ٧).

حملة إعلامية في موسم الحج:

ومما اتجه إليه الإخوان في الخارج: أن يواجهوا النظام الناصري المتجبر والمفترى، بحملة إعلامية مضادة، حيث يستحيل عليهم في داخل مصر أن يردوا على إعلام عبد الناصر المسخر لتأييد كل ما تقوله السلطة من حق أو باطل.

اختار الإخوان أن تكون هذه الحملة في «موسم الحج» حيث يجتمع الحجيج من مصر، ومن الوطن العربي، ومن العالم الإسلامي، ومن خارج العالم الإسلامي، حيث تعيش الأقليات الإسلامية في آسيا وإفريقيا وأوربا والأمريكتين وأستراليا. فهذا الموسم هو الزمان المناسب والمكان المناسب لتنظيم هذه الحملة ضد عبد الناصر، ونظام حكمه، القائم على البطش والقهر، وقمع المواطنين، وإرهاب كل شخصية أو جماعة تحاول أن ترفع رأسها لتقول في أي مناسبة للثورة: لِمَ؟ ناهيك بأن تقول: لا.

ووسيلته في ذلك: السجون والمعتقلات والمشانق، وأدوات التعذيب الجهنمية، التي لم يعرفها المصريون قط في عهد الملكية التي اتهمت بالفساد والانحراف والمظالم، ولما سقطت ظن الناس أنهم تخلصوا من الظلم إلى غير رجعة، فوقعوا في ظلم أكبر وأضخم، لم يعرفوا له مثيلا من قبل.

وكان لا بد لتنظيم هذه الحملة الدعائية الواسعة في موسم الحج من أمرين لا بد من الاطمئنان إليهما قبل الشروع في الإعداد لها.

شرعية هذه الحملة:

أولهما: مدى شرعية هذا العمل في موسم العبادة العالمية (الحج). وكان الرأي السائد: أن القرآن ربط عبادة الحج بـ «شهود المنافع» للمسلمين. فقال تعالى لإبراهيم: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ (الحج: ٢٧، ٢٨).

ومن هذه المنافع: أن يناصروا إخوانهم المستضعفين في الأرض، الذين يجرّعون من كؤوس الإيذاء، ويذوقون من ألوان الإهانة والإذلال ما لا يكاد يحتمله بشر. وأن ينددوا بظالميهم المستكبرين في الأرض بغير الحق، الذين ساموهم سوء العذاب ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (البروج: ٨).

ولقد استفاد الرسول الكريم من موسم الحج في السنة التاسعة، حين بعث أبا بكر أميرا على الحجيج المسلمين، وبعث وراءه عليا بسورة التوبة يقرؤها على الناس، ليحددوا موقفهم بعد أن أمهلتهم السورة أربعة أشهر. ويعلن علي باسم رسول الله: ألاّ يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وأن يوفى لكل ذي عهد بعهده.

وفي حجة الوداع: أعلن الرسول على الناس بيانه العام، الذي أكد فيه كرامة الإنسان، واحترام حقوق الإنسان، وصيانة الدماء والأموال والأعراض، وأبطل ما

كان في الجاهلية من أوضاع كالربا وغيره، وقال للناس: «إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب»[1].

فلا حرج إذن أن يستخدم الحج فيما فيه مصلحة المسلمين، على أن يتم ذلك بالحكمة والرفق والأناة، دون إثارة أو مواجهة بين الناس بعضهم وبعض، حتى لا تحدث فتنة بين المسلمين.

موقف السلطات السعودية:

والأمر الثاني: أن توافق السلطات السعودية على ذلك. وكانت العلاقات بين الإخوان والمملكة العربية السعودية في ذلك الوقت: علاقة تواصل ومودة وتفاهم وتعاون، وذلك في عهد الملك الراحل ـ رجل المواقف العربية والإسلامية التي لا تنسى ـ فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله. ولا ريب فى أن كل الذين تعاملوا مع هذا الرجل أثنوا عليه ثناء عاطرا، من حيث فهمه ووعيه ودينه وأمانته وشجاعته في تبني الحق والدفاع عنه.

سعي الإخوان لإنشاء رابطة العالم الإسلامي في مكة:

وكان الإخوان قد بدأت صلتهم تتوثق بالمملكة من قبل في عهد الملك سعود، الذي استجاب للإخوان بإنشاء «رابطة العالم الإسلامي». فقد كان الإخوان ـ وفي مقدمتهم سعيد رمضان، ومعه كامل الشريف، وعبد الحكيم عابدين وغيرهم ـ هم الذين أقنعوا المسؤولين بضرورة تأسيس هذه المنظمة العالمية، وبينوا أهدافها، ورسموا طرائقها، وقدموا مسوّدتها للمسؤولين، ورشحوا لهم أعضاءها من الشخصيات الإسلامية العالمية، التي تشترك مع الإخوان في الهمِّ الإسلامي العام، وفي الوعي بقضايا الأمة الكبرى، ووسائل النهوض بها، مثل: مولانا أبي الأعلى المودودي من باكستان، ومولانا أبي الحسن الندوي من الهند،

(١) رواه أحمد (٢٢٣٩١).

والدكتور محمد ناصر من إندونيسيا، والشيخ محمد محمود الصواف من العراق، والشيخ حسنين مخلوف من مصر، وغيرهم من رجال العلم والفكر والدعوة والجهاد.

الشيخ مناع القطان:

وكان من الإخوان الذين وصلوا إلى المملكة مبكرين: عدد ممن يعملون في سلك التدريس، على رأسهم الأخ العالم الأزهري المتمكن الشيخ مناع خليل القطان، خريج كلية أصول الدين، وزميلي في الدراسة وفي السكن، وقد تخرج قبلي بسنتين، وأعير إلى المملكة سنة ١٩٥٣ـ ١٩٥٤ الدراسية، أي قبل محنة الإخوان مع عبد الناصر بقليل، فنجاه الله منها، واختير للتدريس بالمعاهد والكليات الشرعية بالرياض، قبل أن تنشأ جامعة الإمام محمد بن سعود، وتضم هذه الكليات إليها.

وقد حاز الشيخ مناع ثقة المشايخ وطلبة العلم بالرياض، لأصالة جانبه العلمي، الذي تكون في رحاب الأزهر، ومرونة شخصيته، وتمتعه بالأناة والحكمة في مواجهة الأمور، وثقة الإخوان به، ممن يعملون في المملكة من أمثال الشيخ فتحي الخولي، والشيخ مصطفى العالم، وغيرهما ممن يعملون في مدن المملكة المختلفة في نجد والحجاز والمنطقة الشرقية.

وكان مما ساعد فضيلة الشيخ مناع على احتلال مكانته: وجود عالم كبير من قريته نفسها (شنشور منوفية) سبق إلى المملكة، ونال الاحترام والتقدير من كبار مشايخها، وأمسى مقدما فيهم، وبخاصة أنه سلفي العقيدة، ومن رجال أنصار السنة في مصر، فضلا عن أنه كان رجلا ضليعا في العلم، حكيما في الرأي، قويا في الدين، متينا في الخُلُق، يتميز بالاعتدال والتوسط في النظر إلى القضايا، ومعالجة المواقف. هذا العالم الجليل هو الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله، الذي تتلمذت عليه أجيال من أبناء المملكة، وكان عضوا في هيئة كبار علمائها، ولجنة

الإفتاء، وكانت مرتبته تلي مرتبة الشيخ ابن باز، وكان مهيبا محترما محبوبا مسموع الكلمة من الجميع. لذا كانت معرفة الشيخ عبد الرزاق بالشيخ مناع، وقربه منه، وحسن رأيه في الإخوان، مما مهد السبيل له لينال وضعه.

ولا غرو أن أصبح الشيخ مناع هو وجه الإخوان، والممثل لهم أمام الجهات الرسمية السعودية، وأضحت له ثقة عندهم، فإذا أراد الإخوان شيئا من الحكومة السعودية نقلها إليهم الشيخ مناع، عن طريق لقائه الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية، أو الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير الرياض، أو الأمير أحمد بن عبد العزيز نائب وزير الداخلية. وكذلك إذا أرادت المملكة أمرا من الإخوان استدعت الشيخ مناعا، وأبلغته بما يريدون، أو فاوضوه فيما يطلب منهم، وقد يرجئ الإجابة حتى يشاور إخوانه، ثم يرجع إليهم.

وفي عهد الملك فيصل رحمه الله ازدادت صلة الإخوان به توثقا وقوة. وأضحى كثير من الإخوان مجندين لأنفسهم وجهودهم في تأييد السياسة الإسلامية التي ينهجها الملك فيصل، وهي سياسة تتفق مع أهداف الإخوان، وربما كان لهم دور في إغرائه بها، ودفعه إليها، وتثبيته عليها.

ولا غرو أن رأينا مثل الدكتور توفيق الشاوي - القيادي الإخواني المصري - يعمل في سبيل تأسيس البنك الإسلامي للتنمية، ويضع له أسسه وقواعده القانونية.

ورأينا الشيخ محمد محمود الصواف - مؤسس حركة الإخوان في العراق - يحمل رسائل من الملك فيصل إلى رؤساء إفريقيا في حركة ذكية واعية، قادها فيصل بحكمة ومهارة، لتأليب إفريقيا على إسرائيل، وضمها إلى الجانب العربي. والحق أن سياسة الملك فيصل هذه آتت ثمراتها بسرعة، وقاطعت معظم الدول الإفريقية - وبخاصة الإسلامية منها - الكيان الصهيوني.

ورأينا إخوة من الأساتذة التربويين في وزارة المعارف التي يقودها الرجل الفاضل الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ، وقد شكلت منهم لجان لتغيير المناهج التقليدية،

إلى مناهج معاصرة، تراعي الأسس التربوية، وتجمع بين الأصالة والتجديد، كما ألفت كتبا حديثة في ضوء هذه المناهج لا تغفل العقيدة الإسلامية، ولا القيم الإسلامية، كما لا تغفل روح العصر وتياراته في المضمون والأسلوب.

الذي أقصد إليه هنا: أن المملكة في ذلك الحين كانت مهيأة لتسمح للإخوان بحملتها في موسم الحج (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م). وكان هجوم عبد الناصر على المملكة ورجالها وعلى الملك فيصل خاصة، قد أحدث قطيعة بين البلدين، وتوترا في العلاقة بينهما. وكان هذا من فضل الله على الإخوان ورحمته بهم، فهو سبحانه إذا أراد أمرا هيأ له الأسباب، وأزال من طريقه الموانع.

قرر الإخوان في الخارج إصدار عدة كتب تندد بسياسة عبد الناصر، ومظالم عهده، وخصوصا ما صنعه مع الإخوان، ممن علق على حبال المشانق جهرة، ومن قتل تحت سياط التعذيب خفية، ومن قتل في السجون علانية، برصاص الحراس، وهم أمانة تحت أيديهم، كما في مذبحة ليمان طرة الشهيرة، ومن عوِّق أو شوه أو أصيب بآفة في جسده، ومن ضاع مستقبله، ومن خسرت تجارته، ومن بارت زراعته، ومن جاعت ذريته، وتعرضت لمحن شداد، ومن تركت الكرابيج الساخنة آثارا باقية في بدنه، وأنا واحد منهم.

وطفق الإخوان يهيئون هذه الكتب، أو الكتيبات، ويحضرون مادتها، ويستكتبون أهل الذكر والخبرة فيها. وظهر منها خمسة، بعدد صلوات اليوم والليلة، كان أحدها بعنوان «هذا المتهم اعترف». وقد وضعت صورة المتهم على الغلاف، وآثار التعذيب بادية على وجهه وهيئته، تشهد بأن اعترافه قد انتزع منه بما سلط عليه من الأدوات الجهنمية، التي تنهش لحمه، وتسحق عظمه، وتهدر آدميته.

وآخر بعنوان «لماذا أعدم سيد قطب؟» وفيه تحليل للأسباب الحقيقية التي دفعت أجهزة المباحث والمخابرات لـ «طبخ» هذه القضية كلها، وتلفيق هذه الدعاوى، وتضخيم الصحيح منها، حتى جعلوا من القط جملا، ومن النملة فيلا!!

وكان ثالث هذه الكتيبات: «الوثيقة الخطيرة» التي وقع عليها خمسة هم:

١ ـ رئيس مجلس الوزراء.

٢ ـ قائد المخابرات العامة.

٣ ـ قائد المباحث الجنائية العسكرية.

٤ ـ مدير المباحث العامة (أمن الدولة الآن).

٥ ـ مدير مكتب المشير (شمس بدران).

وهؤلاء يكوِّنون اللجنة التي شكلها السيد رئيس الجمهورية لدراسة واستعراض الوسائل التي استخدمت، والنتائج التي تم الوصول إليها، بخصوص مكافحة جماعة الإخوان المنحلّة، ولوضع برنامج لأفضل الطرق التي يجب استعمالها، في قسمَيْ مكافحة الإخوان في المخابرات والمباحث العامة، لتحقيق هدفين:

١ ـ غسل مخ الإخوان من أفكارهم.

٢ ـ منع عدْوى أفكارهم من الانتقال إلى غيرهم.

وقد وضعت اللجنة بعد عشرة اجتماعات متتاليات: الخطة التي تهدف لمحاربة «تيار التديّن» في مصر، فهو الذي يفرخ هؤلاء الإسلاميين، الذين يعارضون الثورة، ويقدمون الفكر البديل عنها، ولا يبالون بالتضحية في سبيلها. وكلما ضربت الثورة جيلا من هؤلاء، وحطمت قوته، برز جيل جديد، يحمل اللواء، ويعلي البناء، ويجيب النداء، ويقدم الفداء، ويتحمل البلاء.

ومن أين يأتي هذا الجيل؟ إنه يتولد من رحم التيار الديني العام. لهذا لا بد من محاصرة هذا التيار من منبعه، ومحاولة إضعافه، إن لم يمكن احتواؤه.

ولم يكتف الإخوان في هذا الذي أعدوه ووزعوه بهذه الوثيقة، بل ذكروا نماذج عملية من آثار تطبيقها.

وقد قدم أخونا المستشار علي جريشة هذه الوثيقة للمحكمة التي حاكمته وبرأته، ولكنها لم تعتمدها، لأنها غير مختومة بخاتم الدولة!!

قصيدتي النونية:

وكان عليّ دور محدد، طلب مني في هذه الحملة، وهو قصيدتي التي اشتهرت لدى الإخوان باسم «النونية» لأني قلت في مطلعها:

نونيّةٌ، والنون تحلو في فمي
أبدا، فكدت يقال لي: ذو النون!
صوّرت فيها ما استطعت بريشتي
وتركت للأيام ما يعييني
ما همت فيها بالخيال، فإن لي
بغرائب الأحداث ما يغنيني
أحداث عهد عصابة حكموا بني
مصرٍ، بلا خلق ولا قانون
أنست مظالمهم مظالم من خلَوْا
حتى ترحمنا على نيرون!

وقد مر على قارئي الكريم فقرات من هذه الملحمة في مناسباتها في الجزء الثاني من هذه المذكرات.

وكان علي أن أكتب مقدمة لهذه القصيدة، وأن أعلق على بعض أبياتها، وأعرِّف ببعض الأسماء التي ذكرت فيها، مثل حمزة البسيوني قائد السجن الحربي، وأمين السيد «صول» السجن، ومن حولهما من الجنود وزبانية التعذيب.

ولكن كانت هناك مشكلة قبل ذلك كله، فقد أنشأت هذه القصيدة في أواخر سنة ١٩٥٥م، أي منذ عشر سنوات أو تزيد، وللأسف لم أكتبها، وكنت معتمدًا

على الذاكرة في حفظها، لأني كنت أخشى أن أكتبها، فتهاجم المباحث منزلي لسبب أو لآخر، وتفتشه، فتجد القصيدة، وقد ذكرت فيما مضى أني استدعيت إلى المباحث ليسألوني عن هذه القصيدة خاصة، وأجبت معرِّضا بالكلام ما يفهم منه الإنكار.

وكان عليّ بعد أن ذهبت إلى قطر أن أكتبها، ولكن شغلتني شواغل العمل الجديد، والبلد الجديد، والشعور بالأمن، فلم أفكر في هذه القصيدة، ولم يطلب مني أحد أن أكتبها، أو أنشدها. فنسيت الكثير منها. ولم يعد ما أحفظه منها مترابطا، بل هناك فجوات بين بعض القصيدة وبعض، وقديما قالوا: حياة العلم مذاكرته. أما ترك العلم دون مذاكرته فهو على وشك النسيان، ولا سيما مع طول الزمان. وقد قال شوقي: اختلاف النهار والليل ينسي.

وهنا كان عليّ أن أبحث عن الإخوة الذين كانوا يحفظون القصيدة ممن كانوا معي في السجن الحربي، ومنهم أخوان كريمان من إخوان طنطا، وهما: سعد زين العابدين سلامة، أصغر طالب كان في السجن الحربي، وكان في الشهادة الثانوية، وزميله فؤاد قنديل، وكان في السنة الأولى في كلية الصيدلة، وكان مشهورا بقوة الذاكرة، وسرعة الحفظ، حتى إنه حفظ القرآن كله - وهو في السجن الحربي - في أقل من سنة.

وقد علمت أن كلا منهما - سعدا وفؤادا - قد غادرا مصر منذ سنوات إلى ألمانيا، واستقرا فيها، وأكملا دراستهما بها، وتزوجا من ألمانيتين، بعد أن صمما ألاّ يعودا إلى مصر، بعد تجربة السجن الحربي، إلا أن تتغير الأوضاع فيها، وتهب على الناس رياح الحرية، التي ينعمون بها في بلاد الإفرنج، وقد طعموا فيها من جوع، وأمنوا من خوف.

وبالسؤال والبحث عرفت عنوان الأخ سعد وطلبت إليه: أن يرسل إلي كل ما يحفظه من النونية، ويستعين بالأخ فؤاد، وكل من يعرف من نزلاء السجن الحربي.

وكان سعد - حفظه الله - عند العهد به، فراسل إخوانه وهاتفهم هنا وهناك، وبعث إلي بنحو مائة وتسعين بيتا من القصيدة. وهي أكثر من ثلاثمائة في الأصل، وبإضافتها إلى ما أحفظه مما لم يرسلوه إلي أمكن إعادة بناء القصيدة أو الملحمة، ولكن بقيت فيها فجوات اجتهدت أن أملأها بما يفيض به الخاطر، وإن لم يكن - غالبا - في قوة الأصل الذي ظهر في السجن متدفقا كالسيل، سلسا عذبا كالماء الزلال.

واكتملت القصيدة في نحو ثلاثمائة بيت، وقدمت لها، وعلقت عليها بما يفي بالمقصود من نشرها. وإن تبين لي بعد ذلك أن بعض الإخوة من زملائنا في السجن الحربي، يحفظ منها أبياتا، لم تودع في القصيدة، وأذكر أني كنت ليلة في الإسكندرية، وقام أحد الإخوة الدعاة الأستاذ محمد عبد المنعم وألقى كلمة ضمنها أبياتا كثيرة من النونية، مما لم يوجد فيما نشرته منها. وفي هذا الصيف (صيف ٢٠٠٣) كنت مدعوا على غداء مع عدد من الإخوة، بدعوة من المرشد العام المستشار مأمون الهضيبي رحمه الله. ففوجئت بالأستاذ أحمد أبو شادي، وقد كان زميلا لنا في السجن الحربي، ومن رواة القصيدة: ينشد أبياتا مهمة من النونية، معظمها مما لم ينشر.

وقد أرسلت ما جمعته إلى الإخوة في المملكة، وراجعها عدد من الإخوان الشعراء، مثل الأستاذ محمد المجذوب الأديب السوري الشاعر الداعية، وقد حوروا أشياء قليلة منها، فقد كان آخر القصيدة يشتمل على دعوات أناجي فيها الله جل ثناؤه، وأسأله كشف الغمة، وتفريج الكربة التي نحن فيها. وكان منها:

يا رب خلصنا من ابنَيْ سالم
ومن ابن عبد الناصر المفتون!
يا رب إن السيل قد بلغ الزبى
والأمر في كاف لديك ونون

باسم الفراخ الزغب هيض جناحها

فقدوا الأب الحاني بغير منون

بدموع زوج غاب عنها زوجها

وبكل دمع في العيون سخين

فرأى الإخوة تغيير البيت الأول من هذه المناجاة، لما يشتمل عليه من أسماء أشخاص، وعدلوه إلى هذه الصيغة العامة:

يا رب خلص مصر من أعدائها

وأعن على طاغوتها الملعون

وأحسب أن هذا من صنع الأستاذ المجذوب رحمه الله.

نشرت القصيدة ضمن كتاب اختار له الإخوة عنوانا، وهو «نافذة على الجحيم» يقصدون جحيم السجن الحربي، وما احتوى من عذاب وأهوال جسام، ونشروا القصيدة تحت عنوان: «مشاهد من الجحيم».

أزعجت هذه الحملة الإعلامية المكثفة السلطات المصرية، لما قدمته من حقائق ووثائق، وشهادات عدول، بأسلوب قوي مؤثر، وقد وزع منها عشرات الآلاف، على مختلف الحجيج من أنحاء العالم. وقد كان عبد الناصر حريصا على تحسين صورته في العالم، ويبذل إعلامه جهودا جبارة في ذلك، وتنفق عليه الملايين بسخاء. ولكن هذه الحملة أبطلت سحر إعلامه، وألغت أثره.

إذا جاء موسى وألقى العصا

فقد بطل السحر والساحر!

ولقد قال أحد الحكماء: تستطيع أن تخدع بعض الناس كل الوقت، وتستطيع أن تخدع كل الناس بعض الوقت، ولكنك لن تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت!

لا أذكر في أشهر السنة الدراسية الأولى حدثا مهما يستحق التسجيل، إنما وقعت الأحداث المهمة - بل الشديدة الأهمية - في أواخر العام الدراسي.

حادث التسمم في الدوحة:

أول حدث وقع في الدوحة في أواخر شهر مايو ١٩٦٧: إصابة عدد كبير من الناس بتسمم، أدخل منه كثيرون إلى المستشفى الوحيد في الدوحة، وهو مستشفى الرميلة، حتى ضاق بالناس، وتوفي أحد المدرسين المصريين - وهو مدرس علوم - في هذا التسمم. وفزع الناس من هذا الأمر غاية الفزع.

وقيل: إن سببه أن الدقيق - أو الطحين - في أحد مخابز الدوحة، كان غير سليم، وقد أصابه تلوث أو تعفن، لا أدري من أين جاء؟

وقيل غير ذلك.

د. عز الدين يودع معارف قطر:

وكان أخونا وصديقنا الدكتور عز الدين إبراهيم مساعد مدير المعارف، قد قدم استقالته من منصبه، وأراد أن يستقل بالعمل العلمي الجامعي الأكاديمي، ويستريح من العمل الإداري. وحق له ذلك، فعز الدين من العقليات النادرة التي لا يجوز أن تدفن في الأعمال الإدارية، ويحرم الناس من نتاجها العلمي والفكري. وأعتقد - بحكم مخالطتي له ومعرفتي به - أن لديه مواهب وقدرات يستطيع بها أن ينتج إنتاجا يكون له وزنه وقيمته في عالم الفكر.

لهذا فرحت بقراره التعاقد مع جامعة «الرياض» على العمل أستاذا للغة العربية والأدب العربي، وشجعته على ذلك. وكنت ناويا أن أقيم له «حفل تكريم» يليق بمقامه بهذه المناسبة، ولكن جاء حادث التسمم، وانشغال الناس، وانزعاجهم في أول الأمر انزعاجا شديدا بخطره عليهم، دون أن يعرفوا له سببا: مانعا من إقامة هذا الحفل في هذا الوقت الذي كان مناسبا له، قبل انتهاء العام الدراسي.

نكبة حزيران (يونيو) ١٩٦٧

ثم لم يلبث أن وقع حدث آخر أكبر حجما، وأعظم خطرا، وأشد هولا، بآلاف المرات، بل ملايينها، من حادث التسمم.

إنه الزلزال المدمر الذي وقع في المنطقة، فغير من حالها، وقلب موازينها رأسا على عقب، وما زلنا نعاني آثاره المرة إلى اليوم.

إنه نكبة الخامس من حزيران (يونيو) ٥/ ٦/ ١٩٦٧م الذي عرف بـ «حرب الأيام الستة». والذي هزمت فيه «إسرائيل» مصر وسورية، هزيمة ثقيلة، واستولت على سيناء في مصر والجولان في سورية، بضربة خاطفة قاضية، حطمت بها الطيران المصري، بضرب الطيارات وهي رابضة في مطاراتها، فدمرت الطائرات، وخربت المطار، وشلت بذلك سلاح الجو المصري، شللا كليّا، لا شللا نصفيا. وأضحت القوات المصرية في سيناء مكشوفة بلا غطاء جوي، يحميها ويحرسها من الضربات الجوية للعدو المتربص.

استيقظنا في الصباح على هذه القارعة الهائلة، وهذا النبإ المفزع، وأخذنا نتتبع الإذاعات والتلفازات، ونشرات الأخبار، لنعرف المزيد عما حدث.

ولم يكن لقطر في ذلك الوقت إذاعة ولا تليفزيون، فكنا نفتح إذاعة مصر، وتليفزيون مصر، فإذا هما يقولان كلاما، وتقول إذاعة لندن وغيرها كلاما آخر. ثم عرفنا بعد ذلك أن أكثر البيانات التي كانت تذيعها مصر إنما هي أكاذيب ملفقة، تحاول أن تمسك بها الناس أن يثوروا. فهي تخدعهم بمعسول القول، وأخبار

النصر، وإسقاط طائرة في المكان الفلاني، وأخرى في مكان آخر، والناس تصدق هذا الهراء، وتركض من مكان إلى آخر لتبحث عن حطام الطائرة المسقطة، فلا تجد له أثرا، ولا تسمع له خبرا.

حتى قال لي الأستاذ صلاح جلال ـ محرر باب العلوم في «الأهرام» الذي اختير بعد ذلك نقيبا للصحفيين ـ وكان يتردد على قطر بين الحين والحين لأن له أصهارا فيها: إننا كنا ـ ونحن صحفيون في أكبر جريدة في العالم العربي ـ نجهل الحقيقة، فكنا نجري مع عوام الناس في الشوارع نبحث عن الطائرات التي أسقطها جيشنا الباسل، لنكتب عنها شيئا، فنعود بخفي حنين، كما يقول العرب، أو بغير خف أصلا.

وكنا نحن في الخارج أكثر فهما لما وقع، من أهلينا وإخوتنا في مصر، لأن لنا مصادر أخرى لمعرفة ما حدث غير الإذاعة والتلفزيون المصريين.

ومن أول ما وقعت الحرب، ارتفع نبض الشارع العربي والإسلامي، واتقدت شعلة الحماسة للجهاد في صدور الناس من كل جنس ولون، ونادى جمهور الناس: أن حيّ على الجهاد، لمقاومة الصهاينة، والدفاع عن الأقصى والمقدسات.

واستقبلت منظمة التحرير الفلسطينية بالدوحة آلاف الناس يقفون في طوابير طويلة، يريدون تسجيل أسمائهم في المتطوعين لإنقاذ فلسطين. وكان أكثر هؤلاء حماسة: إخواننا من الباكستانيين والأفغانيين وغيرهم من أبناء البلاد الإسلامية، الذين يعيشون في قطر، قائلين: إن المسجد الأقصى ليس ملك الفلسطينيين ولا العرب وحدهم، بل هو ملك المسلمين جميعا، فعلينا أن نسهم في تحريره وإبعاد العدو عنه.

وأذكر أننا أقمنا مهرجانا في منظمة التحرير، وكان ممّن تكلم فيه العالم القطري الغيور المعروف الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، فكان مما قاله للشباب الفلسطيني: اعتصموا بحبل الله، وتمسكوا بالدين ينصركم الله على عدوكم.

فما كان من بعض الشباب الطائش، إلا أن صاحوا وهتفوا في وجه الشيخ: لا دين إلا السلاح!

وكان لهذا الهتاف الجاهل الأهوج: أثر سيئ في جمهور الحاضرين، الذين استنكروا هذا القول كل الاستنكار، الذي يدل على غباء قائله، وفقدان وعيه، بحقيقة هذا الصراع بيننا وبين بني صهيون، وأن الدين هو المحرك الأول لهذه الأمة، وهو الذي يبعث هامدها، ويحرك جامدها، ويشعل خامدها، ويوحد كلمتها، ويصنع بها العجائب، وروائع البطولات، ويعيد إليها أيام خالد وأبي عبيدة وطارق ابن زياد وصلاح الدين الأيوبي وسيف الدين قطز.

ولقد قلنا مرارا: إن إخراج الدين من المعركة هو الذي أضر بهذه القضية أبلغ الضرر، لأننا نجرد أنفسنا من أمضى سلاح يحاول عدونا أن يضربنا به. فهو يستغل الدين ويوظفه في تعبئة قواه، وتجنيد رجاله، وهو غير مؤمن به. فكثير من الصهاينة «علمانيون» لا دين لهم، ولكنهم - وإن لم يؤمنوا بالدين - يؤمنون بقوة الدين، وأهمية توظيف الدين في معركتهم.

وكم نادينا قومنا: إننا يجب أن نحاربهم بمثل السلاح الذي يحاربوننا به. فإذا حاربونا باليهودية، حاربناهم بالإسلام، وإذا قاتلونا بالتوراة، قاتلناهم بالقرآن، وإذا قالوا: التلمود، قلنا: السنة النبوية، وإذا قالوا: نعظم السبت، قلنا: نعظم الجمعة، وإذا قالوا: الهيكل، قلنا: المسجد الأقصى.

ولا يفل الحديد إلا الحديد، وحديدنا أقوى من حديدهم، لأن ديننا أقوى من دينهم، إذ كيف يكون المنسوخ في قوة الناسخ، وكيف يكون المحرف والمبدل في قوة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

كانت الهزيمة ثقيلة، وكان حجم الخسارة ضخما، من الناحية المادية، ومن الناحية المعنوية. وقد اعترف عبد الناصر بعد ذلك في ٢٣ يوليو وفي نوفمبر من العام نفسه، بمقدار هول الخسارة وفداحتها، وذكر أعداد المقتولين والمأسورين

والمفقودين من الضباط والجنود، وصرح: أن الطريق إلى القاهرة كان مفتوحا أمام إسرائيل. ولم يكن هناك جندي واحد يعوق تقدم إسرائيل لو أرادت.

كما أعلن أرقاما فادحة عن خسارة مصر في هذه المعركة المشؤومة، فذكر: أن مصر خسرت في هذه الحرب ٨٠٪ من سلاحها، و١٠,٠٠٠ جندي و١٥٠٠ ضابط، وأسر ٥٠٠٠ جندي و٥٠٠ ضابط لم يعد أكثرهم! هذا حديث عبدالناصر، وقد سمعناه بآذاننا.

وتذكر المراجع أن ضحايا هذه الحرب يبلغون ٣٥,٠٠٠ جندي قتل أكثرهم في ساعات، وخصوصا في الممرات؛ لأن «شارون» مجرم الحرب الإسرائيلي: كان يسحقهم بالدبابات في الممرات[١].

أما التدمير الذي حل بمدن القناة، فخسارته أعظم من أن تقدر! وأما التدمير النفسي والمعنوي، فحدث ولا حرج.

هذا وقد أعلن عبد الناصر: أنه يتحمل كامل المسؤولية عما وقع، ولكن هل هناك من سأله، ومن حاسبه؟

ما معنى المسؤولية إذا لم يكن هناك سائل يسأل، ويحاسب ويعاقب؟

إن الهزائم الكبرى كثيرا ما تسقط دولا، وتغير أنظمة، وهذا عندما تتوافر الحريات، ويملك الناس حق المساءلة والحساب.

حدثت هذه الخسائر كلها، ولكن الشعب المصري لم يكن يعرف شيئا من ذلك، نتيجة التضليل الإعلامي، الذي استحل الكذب الصراح على الشعب، حتى بات غائبا عما يجري على أرضه، وما يدور في ساحة وطنه.

وقد بان أثر ذلك حين فوجئ الشعب بقائد ثورته، ورئيس جمهوريته، في مساء يوم ٩/ ٦/ ١٩٦٧م يعلن عليهم بصوت حزين: أن مصر قد هزمت في الحرب، وأنه يتحمل كامل المسؤولية، وأنه قرر التنحي عن منصبه بوصفه رئيسا

---

(١) محمد شوكت التوني: قضية التعذيب الكبرى ص٧٠.

للجمهورية، وعن كل عمل سياسي، وأنه كلف زكريا محيي الدين أن يتولى مهامه.

كان بيانه يحمل نبرة الأسى والحزن والاعتذار والاستعطاف. ومثل هذه النبرة تؤثر في الشعب المصري العاطفي الطيب. فما أن انتهى من خطابه، حتى بدأت الجماهير تخرج إلى الشوارع هاتفة بحياة الرئيس المهزوم، ومنادية ببقائه على كرسيه!

وقد اختلف المحللون والمعقبون على هذا الحدث الذي سماه الناصريون: هبّة الجماهير في ٩ و ١٠ يونيو: أكانت هبّة عفوية أم هبة مدبرة من علي صبري وجماعة عبد الناصر في الاتحاد الاشتراكي؟

الأستاذ محمد حسنين هيكل يجزم بأنها هبّة جماهيرية تلقائية، ويدلل على ذلك بشواهد يذكرها.

وآخرون من خصوم الناصرية يؤكدون: أن كل شيء كان معدا، وأن رجال المباحث والمخابرات وأعضاء التنظيم الطليعي في الاتحاد الاشتراكي، ومن معهم من مجموعات خاصة، كان عليهم أن يطلقوا الشرارة الأولى، ويرسلوا الصيحة الأولى، ويدعوا الجماهير الغافلة بعدها تزحف وتزعق.

وفئة ثالثة توفيقية، تريد أن تجمع بين الرأيين، وتقول: إن بعض هذا العمل كان مدبرا، وبعضه كان تلقائيا، باندفاع ذاتي من الجماهير المصرية الطيبة، التي تتعاطف مع المغلوب، وتناصر المكلوم المحزون. وهكذا ظهر لهم عبد الناصر في بيانه.

بالإضافة إلى أن جمهور الشعب المصري لم يكن لديه أدنى معرفة بحجم الكارثة الهائلة، والهزيمة الساحقة والمذلة التي لحقت ببلده وجيشه. وربما لو عرف الأمر على حقيقته لكان له موقف آخر، وهو موقف الشعوب الحية حين تطالب بمعرفة من المسؤول عن هذه النازلة أو القارعة؟ ولا بد أن يساءل ويحاكم ويأخذ جزاءه أيا كان موقعه.

بين ناصر وعامر:

ما مدى مسؤولية عبد الناصر عن هذه الكارثة؟ لقد قال في بيانه: إنه يتحمل المسؤولية كاملة، بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة من ناحية، ورئيس الجمهورية من ناحية أخرى.

وقال آخرون: إن المسؤول عن هذه الهزيمة، هو: عبد الحكيم عامر، القائد العام للقوات المسلحة، ووزير الحربية شمس بدران أحد رجاله. وقال من قال: إن عبد الناصر لم يكن هو الحاكم الحقيقي لمصر، خلال تلك المدة، فقد كانت مقاليد الأمور كلها ـ عسكرية ومدنية ـ بيد المشير عامر. وأن «ناصر» أصبح «طرطورا» يملك ولا يحكم! ومع هذا نرى أن عبد الناصر هو الذي يتحمل المسؤولية، لأنه هو الذي مكن لعامر، وأرخى له العنان، مع أنه كان السبب الأول في ضياع الوحدة مع سورية. وكان الأولى: أن يحجّم لا أن يمكّن.

ولقد انتهز عبد الناصر الفرصة، ليسترد سلطته المسروقة منه، وحاول أن يحمّل عامرا المسؤولية. وأراد ناصر ألا يضيع الفرصة السانحة ليضرب ضربته، ويتخلص من صديقه القديم الذي أصبح غريمه اليوم.

ووقعت وقائع لا أدخل في تفاصيلها، انتهت بأن قيل: عامر قد انتحر! وشكك في ذلك مشككون قائلين: إنه نُحِر، ولم ينتحر! ولا زال ذلك الجدل دائرا إلى اليوم بين النحر والانتحار.

وأصبح من المشهور والمتداول إلى اليوم: أن الرجل دس له نوع من السم السريع التأثير في كوب عصير الجوافة الذي شربه قبل أن يموت بقليل[1]. ومن المعروف: أن دس السم للمعارضين وقتلهم به: أسلوب معهود ومجاز لدى الثورة ومخابراتها، كما صرح بذلك رئيس المخابرات صلاح نصر في استجواب له، أداره معه المستشار محمد عبد السلام النائب العام. ونصه:

---

(١) نشر خبير السموم الدكتور علي محمد دياب في صحيفة «أخبار اليوم» في (٢٧/ ٩/ ١٩٧٥م): أن المشير لم ينتحر، وإنما دس له سم «الاكونتشن» في كوب عصير الجوافة الذي قدم إليه.

النائب العام: أنتم عندكم سموم؟

صلاح نصر: نعم عندنا سموم.

النائب العام: في أي شيء تستعملونها؟

صلاح نصر: يعني بنستعملها في إيه؟ بنستعملها في قتل الخونة من أعداء البلاد في الداخل والخارج.

النائب العام: بأمر من تستعملونها؟

صلاح نصر: في المسائل المهمة بأمر رئيس الجمهورية، والمسائل الأقل أهمية بأمري أنا.

النائب العام: هل تتم الأوامر بإجراء شفوي أو مكتوب؟

صلاح نصر: فيه شفوي وفيه مكتوب.

هذا الحوار العجيب كله بملف قضية المشير، ولكن هذا القدر هو ما نقله الأستاذ محمد شوكت التوني[1]. ويعلق الدكتور أحمد شلبي: ولا نعرف عدد الذين قتلوا بالسم، ولا كيف ثبت جرمهم ليستحقوا هذا العقاب الذي لا تعرفه شريعة ولا قانون!

وعلى كل حال، فكل من النحر والانتحار عندنا جريمة ندينها، وكبيرة من كبائر الإثم ننكرها. وهي - أيا كان مرتكبها - جريمة محسوبة على نظام عبد الناصر، وثورة ٢٣ يوليو، التي قادت البلاد إلى هذه المذلة وهذا الهوان.

من المسؤول عن تجاوزات عامر وانحرافاته؟

وهنا نريد أن نسأل سؤالا جوهريا، وهو: من المسؤول عن تجاوزات عامر وانحرافاته الكثيرة والتي أصبحت على كل لسان، ووصلت إلى حد الفساد

---

(١) انظر: قضية التعذيب الكبرى ص٣٧، ٣٨. وانظر: (موسوعة التاريخ الإسلامي) (٩/ ٧٥٤).

والطغيان؟ من الذي مكن لعامر، ومنحه من السلطات ما جعل مقدرات مصر العسكرية - بل والمدنية - بين أصابع يديه، يتحكم فيها كيف يشاء هو وأعوانه الذين لم يكن يختارهم على أساس القوة والأمانة ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، بل على أساس الولاء له، والاندماج في شلته! وهو ما سبب خسارة الجيش سنة ١٩٥٦، وضياع الوحدة السورية المصرية ١٩٦١، ووقوع النكبة الكبرى ١٩٦٧م.

المسؤول عن هذا كله - دستوريا وواقعيا - هو عبد الناصر، الذي أعطى عامرا مسؤولية أكبر منه ومن طاقاته بكثير، والتي أثبت فشله فيها، بالإضافة إلى تصرفاته القبَلية، وانحرافاته الأخلاقية التي زكمت رائحتها الأنوف في أنحاء مصر. وجعلت الناس يشكون إلى جمال من سوء أعمال صاحبه، ولكنه ظل يحميه إلى آخر الأيام.

يقول الكاتب المعروف الأستاذ أحمد أبو الفتح: «إن تعيين عبد الحكيم عامر «قائدا عاما» نسف تقليدا عسكريا هو احترام الأقدميات، وكان لهذا التعيين أعمق الآثار على النظام، ليس في الجيش وحده، بل في كل أجهزة الدولة[1].

ومع ما مني به عامر وجيشه من هزيمة ١٩٥٦ - التي حُوِّلَتْ كذبا إلى نصر يحتفل به كل عام! - توالت عليه الألقاب والرتب - كما يقول السادات - فعين قائدا عاما للجيش السوري والمصري خلال الوحدة، ورُقِّي إلى رتبة «مشير» وخلع عليه عبد الناصر لقب «نائب رئيس الجمهورية» ثم أصبح بعد ذلك «النائب الأول لرئيس الجمهورية»[2].

يقول الرئيس أنور السادات: «كان لعبد الحكيم عامر أخطاؤه بطبيعة الحال، ولكن الأهم من ذلك أنه كان يسيء اختيار معاونيه بشكل فاضح، وكان من أبرز ملامح شخصيته روح القبيلة، فهو يساند معاونيه بالحق أو الباطل».

---

(١) التحدي ص٢٥٢.

(٢) البحث عن الذات ص ٤٠٤، ٤٠٥.

ويقول أيضا : عقب الانفصال قلنا لعبد الناصر : إن عزل عبد الحكيم عامر كان يجب أن يتم سنة ١٩٥٦ ، لا في ١٩٦١ فقط ، لأنه لا يصلح من ناحية العمل العسكري[١] .

ويقول محمد حسنين هيكل : إن عبد الحكيم عامر كان نصف فنان ، ونصف بوهيمي ، ولطيفا جدا ، ولكنه من الناحية العسكرية توقف عند رتبة صاغ ، أي أنه يستطيع أن يقود كتيبة ، لكنه لا يستطيع أن يقود جيشا . لقد أصبح عبد الحكيم عامر ضابطا سياسيا ، ولكن الضابط السياسي لا يمكن أن يكون مسؤولا عن الجيش[٢] .

ويورد الضابط أحمد حمروش مجموعة من الصفات الدقيقة لعبد الحكيم عامر فيقول :

أحاط المشير نفسه بحاشية سرعان ما عرفت فيه أسوأ الصفات ، فتمادت في سلوكها اللاأخلاقي ، واستغلت أموال الدولة أسوأ استغلال . وكان الذين يقتربون من رجال مكتبه ـ الذين يقودهم الصاغ علي شفيق ـ تأخذهم الدهشة من الجموح الكاشف ، في مجال اللهو والبذخ المبالغ فيه ، الأمر الذي أثر تأثيرا شديدا على قمة القيادة العسكرية ، وانعكس على بقية مستويات الضباط .

ويستطرد حمروش قائلا :

كانت المتعة الشخصية هي الفلك الذي يعيش فيه عامر ، وأصبح ذلك معروفا ومتداولا ، وكانت هذه المتعة تشمل تدخين الحشيش ، والاتصال ببعض الفنانات ، والبذخ ، الذي وصل إلى حد السفه . ونتيجة لعلاقة الضباط بالفنانات تزوج المشير من برلنتي عبد الحميد ، وعلي شفيق من مها صبري ، وعبد المنعم أبو زيد من سهير فخري[٣] .

---

(١) البحث عن الذات ص ٣٠٥و ٣٠٧ .

(٢) بصراحة عن جمال عبد الناصر ص١٠١ .

(٣) مجتمع عبد الناصر ٢٣٣ .

وكانت هناك عصابات في مكتب المشير تشتغل بالتهريب وبخاصة في الأجهزة والآلات والدخان التي كانت تستورد من اليمن، وكانت تلك العصابة بقيادة الصاغ عبد المنعم أبو زيد وقد أدانتهم المحكمة العسكرية[1].

فكيف سمح عبد الناصر لنفسه أن يحمي رجلا مثل هذا ويسانده، ويجعله الرجل الثاني في الدولة، بل وصل إلى أن أصبح الرجل الأول الحقيقي في الدولة؟

إن كل ما ينسب إلى عامر من فساد وانحراف وطغيان وعبث بالجيش وبالوطن، إنما المسؤول الأول عنه هو عبد الناصر. فلولا سكوت عبد الناصر ما كان طغيان عامر!!

نكسة أم نكبة؟

لقد سمى ناصر وإعلامه هذه الهزيمة المذلة ـ التي خسرنا فيها القدس، والضفة الغربية، وغزة، وسيناء، والجولان ـ «النكسة»! كأنهم كانوا في انتصار دائم، ثم انتكسوا هذه المرة!

والواقع أن هذه تسمية خاطئة، وإنما هي «نكبة كبرى» توازي «النكبة الأولى» سنة ١٩٤٨م، التي قامت فيها دولة بني صهيون، وشرد الفلسطينيون من ديارهم، وغرس هذا الكيان المعتدي في قلب بلاد العروبة والإسلام، ليكون خنجرا مسموما في صدورهم.

ولذا سميتها «النكبة الثانية» أي بعد نكبة ١٩٤٨ في كتابي «درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف ننتصر؟» الذي أصدرته في سنة ١٩٦٨م، أناقش فيه أسباب النكبة الحقيقية، وطريق النصر الذي يجب أن نسلكه.

بل أقول: إن أثر هذه النكبة كان أعظم خطرا من النكبة الأولى. فقد ظل العرب

---

(١) نفسه. وانظر: موسوعة التاريخ الإسلامي لأحمد شلبي (٩/ ١٨٤-١٩١).

ـ بعد النكبة الأولى ـ متمسكين بأن فلسطين كلها من النهر إلى البحر: وطنهم المغتصب، وبلدهم المسلوب، وحقهم فيه ثابت لا مراء فيه، وأنهم سيظلون يجاهدون بكل ما لديهم من قوة، لطرد العدو الغاصب، واسترداد الوطن الضائع، وإن طال عليهم الأمد، فإن مُضيَّ الزمن لا يسقط الحقوق الثابتة، ولا يبطل حق المواطنين في المطالبة بوطنهم المغصوب.

هكذا كان العرب جميعا في مشارقهم ومغاربهم، ثوريوهم وليبراليوهم، حتى وقعت هذه النكبة، فتغيرت فلسفة العرب، وتغيرت سياستهم، وتغير منطقهم، وتبنى عبد الناصر بعد ذلك سياسة «إزالة آثار العدوان» يعني بذلك: عدوان ١٩٦٧م، وإعادة الأوضاع إلى ما كان عليه الحال قبل ٥ يونيو ١٩٦٧م.

ومعنى هذا: أن العدوان الجديد ألغى العدوان القديم، بل أضفى الشرعية عليه، أي عدوان ١٩٦٧ أضفى الشرعية على عدوان ١٩٤٨!!

فما أعظم الهول! وما أعظم الفارق بين موقف العرب قبل هذه النكبة المخزية، وبعد هذه النكبة المهينة!

موقف عموم الناس من الهزيمة:

وكان من أعقد المواقف، وأصعب المشكلات: موقف كثير من المواطنين من هذه الهزيمة المنكرة، فقد رأينا بعضهم فرح بهذه الهزيمة ـ برغم مرارتها وقسوتها على النفس ـ لأنهم وجدوا فيها باب خلاص لما كانوا يعانونه من ظلم الحكام، وحكم الظُّلام، ومن تسلط الطغاة على الشعب حتى قهروه ومرغوا أنفه في التراب. وحسبك أنهم أركبوا الشيوعيين ظهور الناس، ومكنوهم من ناصية الإعلام والثقافة والتوجيه في البلد، وأنهم أذلوا علماء الدين والدعاة إلى الله، ويكفي مذبحة ١٩٦٥م، وشنق سيد قطب وإخوانه، وسوق عشرات الألوف إلى السجون بغير جرم اقترفوه.

وقف الناس من هذه الهزيمة مواقف شتى. فبعضهم عَدَّها منحة من الله تعالى،

ليرجع الناس إلى ربهم، ويعتصموا بحبله، ويعرفوا أنه وحده الناصر، بعد طغيان الثقافة المادية اللادينية، التي أنست الناس الله، فأنساهم أنفسهم.

رأى بعضهم في هذه الهزيمة أو النكسة درءا لفتنة عارمة، كادت تخلع الناس من إيمانهم، وتفسد عليهم دينهم، حين استسلموا للطاغوت، وأعرضوا عن الله.

كان الداعية الكبير، والمفسر الشهير: الشيخ محمد متولي الشعرواي من هؤلاء، الذي نشرت عنه الصحف: أنه سجد لله شكرا، عندما وقعت الهزيمة!

ولم يكن ذلك، لأنه يؤيد الصهيونية، ويكره وطنه مصر، أو يتمنى له الخذلان، ولكن يبدو أنه رأى الهزيمة المؤقتة - لإيقاظ الأمة وردها إلى دينها ومرجعيتها وأصولها - خير من نصر كاذب يؤدي في النهاية إلى دمار الأمة وهلاكها.

فرأى الشيخ في هذه المصيبة نعمة من وجهة أخرى. وهي إذلال الطاغية المفتون بسلطانه، المغرور بقوته، الذي أصبح صنما معبودا لدى الكثيرين. فعرفته هذه الهزيمة قدره، وألزمته حده، فوقف عنده.

رأى الشيخ الشعراوي أن تحرير الشعب من الفتنة بالطاغوت: أهم من نصر سريع يتحقق في معركة، ثم تعقبه مآس لا تنتهي، وويلات تجر ويلات إلى ما شاء الله.

وهذا الكلام الصريح من الشيخ الشعراوي: هيج عليه أعشاش «الدبابير» فهاجمته الأقلام المبهورة، والأقلام المأمورة، والأقلام المأجورة. وإن كان الشيخ لم يقل هذا إلا بعد وفاة عبد الناصر، وبعد حرب العاشر من رمضان، وفي فترة حكم السادات.

على أن الشيخ الشعراوي لم يكن شاذا من بين الناس، فقد كان هذا موقف الكثيرين ممن عانوا ظلم عبد الناصر وزبانيته، وشربوا من كؤوسهم المرة ما شربوا، فعدُّوا هذه الهزيمة ضربة قاصمة لهم، تذلهم كما أذلوا عباد الله، وتقهرهم كما قهروا المستضعفين.

وكم كانت فرحة المسجونين والمعتقلين الذين عذبهم شمس بدران ورجاله، حينما رأوهم يساقون إلى السجن، ويدخلون الزنازين بجوارهم، غير أنهم كانوا يبكون بكاء الأطفال، ويستجدون العطف استجداء الأنذال، على حين استقبل الإخوان محنتهم استقبال الرجال، وصبروا على الأذى صبر الأبطال، فسبحان مغير الأحوال.

إن شر ما تصاب به الأوطان والمجتمعات: أن تتسع الفجوة، ويتعمق الانفصال بين الشعوب وحكامها، وأن يشتد الضغط والقهر على الجماهير، حتى تتمنى الخلاص منهم، ولو على يد أعداء الوطن!

وهذا ما رأيناه أخيرا عند بعض الفئات من أبناء الشعب العراقي، الذين رحبوا ـ للأسف ـ بالغزو الأمريكي للعراق، من أجل الخلاص من جبروت صدام وطغيانه، والتحرر من نير هذا الحكم الداعر الفاجر القاهر، الذي أفسد البلاد، وأذل العباد، وسفك الدماء، وانتهك الحرمات، ولم يرقب في مؤمن إلاّ ولا ذمة.

أنا لا أؤيد هذا الموقف، ولا أبرره، ولا أرى أن يستبدل الناس بالوطني الفاجر: المحتل الكافر، إذ لا يستبدل شر بشر، ولا ظلم بظلم، فكيف نستبدل شرا بما هو أشر، وظلما بما هو أظلم؟ ولكني أحاول أن أفسر وأعلل ما وقع.

ربما كانت حجة بعض الناس أو عذرهم: أن الظلم الجديد ظلم عارض، ولن يستمر، بخلاف الظلم القديم، فهو ظلم طال عمره، ورسخت أقدامه، وأمسى من المتعذر ـ بل ربما من المستحيل ـ اقتلاعه من جذوره، التي امتدت بطول الزمان في أغوار الأرض. وهذا المنطق غير مسلّم مع إطلاقه، فقد يصبح الظلم الجديد، أكثر توغلا، وأشد خطرا!

ومهما يكن من التعليلات والتبريرات، فإن من المصائب الكبيرة في الأمة: أن توجد فيها هذه الظاهرة المؤسفة: الترحيب بهزيمة الوطن سبيلا للخلاص من جبروت الطاغين، وطغيان الجبارين، والترحيب بحكم المحتل ـ ولو إلى حين ـ بديلا لحكم وطني غشوم ظلوم، كثرت جرائمه، وتتابعت مظالمه، واتسعت بطول الأيام ويلاته ومآثمه.

ولقد ذكرت هذا المعنى - انفصال الشعوب عن الحكام - في كتابي «درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا؟ وكيف ننتصر؟» فكان مما قلته:

«فقد أصبح الحكام في واد والشعوب العربية المسلمة في واد، فالحكام يؤمنون بمذاهب وضعية، وفلسفات علمانية، ويحكمون بقوانين أجنبية عن شريعة الله وهي شريعة الأمة. أما جماهير الشعوب فما زالت مؤمنة بربها ودينها وقرآنها ومحمدها. وأن كل شر وخسران في الانحراف عن صراط الله، وعن هدي رسول الله.

والحكام مشغولون بتوطيد سلطانهم، وتثبيت كراسي حكمهم، باضطهاد كل فرد أو جماعة أو حركة تعارضهم، أو تحاسبهم، أو تقول لهم: لم؟ وكيف؟ فضلا عن أن تقول: لا. ومن تجرأ وقال: «لا» فمآله السجن أو النفيَ أو حبل المشنقة. والشعوب مشغولة بهَمّ لقمة العيش، وطلب الحرية والأمن، فإن الأنظمة التي تحكمهم لم تطعمهم من جوع، ولم تؤمنهم من خوف.

فلما سمعت جماهير هذه الشعوب أن هؤلاء الحكام سيحاربون: لم تصدق عقولهم ما سمعته آذانهم، فقد عرفوا بفطرتهم وتجربتهم: أن هؤلاء الحكام لا يعنيهم حرب اليهود بقدر ما يعنيهم القضاء على المعارضين للحكم. ولما بدأ اليهود بالضرب، وتورط هؤلاء في الحرب، كانت ضمائر هذه الشعوب في حيرة، وألسنتها تتلعثم في الدعاء لهم بالنصر والتمكين. فقد ذاقت على أيديهم من المظالم ما جعلها تخاف من انتصارهم مثل ما تكره من هزيمتهم. ولقد قال وكيل الأزهر (د. محمد عبد الله ماضي) في مؤتمر علماء المسلمين الذي انعقد في رجب الماضي (١٣٨٨هـ) في كلمته نيابة عن الأزهر:

«إننا لو انتصرنا - على ما كان بنا من عيوب وانحراف - لازددنا جرأة على محارم الله».

وهذا هو الشعور الذي كان يسود جماهيرنا المسلمة، قبيل وفى أثناء الحرب. وكفى بهذه الحال تعبيرا عن الفجوة الفسيحة، والهوة العميقة، التي حفرها هؤلاء الحكام بينهم وبين جماهير شعوبهم. وصدق الشاعر:

كـفى بك داءً أن ترى الموت شـافيـا

وحـسب المنايا أن يكن أمـانيـا!![1]

تحليل لأسباب النكبة:

كـان وقـوع هذه النكبـة الكبـرى مـجـالا رحـبـا لتـحليـلات المحللين لأسـبـابهـا وعواملها، وقد رأينا في ذلك شطحات وعجائب من التحليلات ينبغي أن نرصد أهمها هنا.

الدين هو السبب:

وأعجب ما قرأنا في تعليل الهزيمة: أن سببها هو الدين! نعم، الدين!!

هكذا كتب الأديب المهجرى المعروف «ميخائيل نعيمة» في استفتاء أجرته مجلة «الآداب» البيروتية بعد نكبة حزيران، وسكتت عليه المجلة سكوت المقر المؤيد.

قالت المجلة: ما هو في رأيكم الدرس الأكبر الذي يحسن بالعرب أن يتعلموه من الهزيمة؟

وقال الكاتب الشاعر: «في رأيي أن الدرس الأكبر الذي يجب أن يتعلمه العرب من هزيمتهم النكراء: أن الدنيا لا تُساس بالدين! فالدين موطنه السماء التي لا يعرفها أحد، والدنيا موطنها الأرض التي لا يجهلها أحد...».

إلى أن قال: «فإذا كان العرب ممن يعتقدون أن حقوقهم لا تُصان ولا تسترد إلا بالحرب، وأن الحرب لا يكسبها إلا السلاح، وأن السلاح لا يخلقه إلا العلم والمال، فما عليهم إلا أن يتعبدوا للعلم والمال: لعل العلم والمال لا يخذلهم حيث خذلهم ربهم»!![2].

---

(١) درس النكبة الثانية ص٣٨، ٣٩. نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٢) مجلة الآداب ـ عدد تموز (يوليو) ١٩٦٧.

وهذه الكلمات إنما هي خيال شاعر، لا فكرة حكيم. وهو مع هذا خيال متهافت سقيم. والخطورة ـ كما قال الأستاذ محمد المبارك[1] ـ أن يُظن كل أديب كبير، مفكرا كبيرا! وليس الأمر كذلك.

إن الشاعر الذي يعيش هناك وراء البحار، يظن العرب هنا يقيمون في زوايا العبادة، بين ليل قائم، ونهار صائم، ناءت رؤوسهم بحمل العمائم، وأيديهم بحمل المسابح. فلما شبّت نار الحرب دخلوها، وسلاحهم التمائم والتعاويذ. وهذا الخيال كله باطل. فالحكومات التي اشتركت في الحرب حكومات عصرية، تعتمد على أحدث الأساليب، في الأسلحة والتدريب، وهي كلها حكومات علمانية تفصل الدين عن الدولة، إن لم يقم بعضها بالفعل باضطهاد الدين والتضييق عليه، وعلى دعاته، وقد كان الدعاة إلى الدين ـ عندما حلت النكبة ـ في سجونها ومعتقلاتها بالألوف وعشرات الألوف.

ولو أن الشاعر المهَجرىّ قال: «إن سبب النكبة هو التدين المدخول أو الزائف» لكان له وجه.

ولقد كان الشاعر نزار قباني الذي لم يُعرف باتجاه روحي ـ كميخائيل نعيمة ـ أدنى إلى السداد في تعقيبه على النكبة بقصيدته الشهيرة «هوامش على دفتر النكسة» فقد جاء فيها:

«لا تلعنوا السماء. إذا تخلت عنكمو. لا تلعنوا الظروفْ.
فالله يؤتي النصر من يشاء. . وليس حدادا لديكم يصنع السيوفْ».
وصوَّر الفراغ الروحي والأخلاقي للأمة فقال:
«جلودنا ميّتة الإحساسِ.
أرواحنا تشكو من الإفلاسِ.
أيامنا تدور بين الزار والشطرَنج والنعاس.

---

(١) في كتابه «جذور الأزمة في المجتمع العربي».

هل نحن خير أمة قد أخرجت للناس»؟

والجواب بداهة: لا. فالله قد خاطب هذه الأمة بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠). فأين منا هذه الخصائص والنعوت؟

ويصف «نزار» التدين الكاذب المنحرف فيقول:

«نقعد في الجوامع.

تنابلا كُسالى.

نشطِّر الأبيات أو نؤلف الأمثالا.

ونشحذ النصر على عدونا.. من عنده تعالى»!

وعلى أي حال، قد كان الدين معزولا ـ تماما ـ عن المعركة، ولم يكن له فيها دور إيجابي ولا سلبي. لا قبل المعركة ولا في أثناء المعركة.

كان هناك حرص شديد من أكثر المسؤولين على إبعاد العنصر الديني عن الحرب، لأسباب واعتبارات لا محل لها هنا.

بل الذي يذكره الشعب العربي ـ قبل المعركة بأيام ـ أن الدين كان عرضة للهجوم والسخرية والقذف بالحصى والحجارة، حتى اجترأ مجترئ من الثوريين، أن يكتب في صحيفة علنية رسمية ـ تصدر في سورية ـ هذه العبارات:

«... والطريق الوحيدة لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي، هي: خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد، الذي يؤمن أن الله والأديان والإقطاع والرأسمال والاستعمار والمتخمين وكل القيم ـ التي سادت المجتمع السابق ـ ليست إلا دُمىً محنطة في متاحف التاريخ»!![1].

---

(١) من مقال المدعو «إبراهيم خلاص» في مجلة «جيش الشعب» السورية.

ولقد ذكرت ما شهدته بنفسي في قطر في الساعات الأولى، اجتماعا في مقر «منظمة التحرير» ضم المئات بل الألوف من الناس من الفلسطينيين والقطريين والمصريين وغيرهم، ووقف رجل عالم فاضل من أهل البلاد يخطب في هذا الجمع، وكان مما دعا إليه في كلمته: أن ارجعوا إلى الله وتمسكوا بدينه ينصركم على عدوكم.. فما كان من بعض الشباب المفتونين بعبادة الأوثان البشرية إلا أن قالوا: لا دين إلا السلاح؟

هذه هي الروح التي كانت سائدة هنا وهناك. فكيف يزعم زاعم أن الدين سبب الهزيمة؟!! وأن علينا أن نتخلى عن الدين لننتزع النصر من أحشاء الهزيمة؟

ثم أي دين يعنيه الكاتب؟ إنه لا شك يعني الدين على وجه العموم، والإسلام على وجه الخصوص. فهو الدين الذي تعتنقه أغلبية الأمة، وتنص دساتير دولها على أنه دين الدولة الرسمي.

فهل يمكن أن يكون الإسلام سبب الهزيمة، أي هزيمة؟ كلا.

وكيف يكون ذلك؟ وهو الذي يقول في كتابه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال: ٦٠) ويقول: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (النساء: ١٠٢). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ (النساء: ٧١).

بل أقول: إن التحليل الدقيق والعميق لأسباب الهزيمة يقول بصراحة: إن سببها الحقيقي يكمن في تخلّينا عن حقيقة الدين، عن الإسلام الصحيح، الإسلام الحق الذي يعد الأمة للجهاد، ويطهر الأمة من الميوعة والتحلل وأسباب الخذلان.

لقد كان لتخلينا عن الإسلام - مصدر قوتنا ومددنا الروحي والنفسي - نتائج كثيرة لمسنا آثارها، حين دخلنا المعركة دون أن نتسلح بالإيمان، لمواجهة أمة تحاربنا باسم الدين.

دخلنا المعركة والغرور حشو رؤوسنا، والرياء ملء نفوسنا، والكبر ملء أنوفنا. لم ندخلها في تواضع المؤمنين، وزهد المخلصين، وصدق التائبين، وتوبة الصادقين.

لم يقل قائد لزملائه أو لجنوده يوم الحرب ما قاله خالد يوم «اليرموك»: إن هذا اليوم من أيام الله، فلا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، فأخلصوا لله جهادكم، وتوجهوا لله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده.

وهكذا خضنا الحرب بلا عقيدة، وقاتلنا بلا إيمان.. خضناها متوكلين على الروس، فخذلنا الروس، معتمدين على السلاح فلم ينفعنا السلاح.

الحق: أن هؤلاء الثوريين الاشتراكيين - إن افترضنا إخلاصهم - لم يفهموا أمتهم، ولم يعرفوا حقيقتها.. كما أنهم لم يعرفوا عدوهم الذي يتحدى بقلته كثرتهم، وبرقعته الضيقة أقطارهم الواسعة!

لقد ادعوا أن إسرائيل مجرد دولة عنصرية، وأن الصهيونية حركة قومية سياسية فحسب، وأغفلوا الجانب الديني في قيام الصهيونية وفي تكوين إسرائيل، كما أغفلوا هذا العامل الديني في توجيه شعوبهم وجيوشهم، على حين عنيت به إسرائيل كل العناية، فربحت وخسروا، وانتصرت وانهزموا.

كتب بن جوريون في رسالته إلى الرئيس ديجول في مطلع عام ١٩٦٨ يقول:

«إن سر بقائنا بعد التدمير البابلي والروماني، وحقد المسيحيين الذين أحاطوا بنا ألف عام: يكمن في صلاتنا الروحية بالكتاب المقدس! وعندما جاءت اللجنة الملكية البريطانية إلى القدس في آخر سنة ١٩٣٦ لتدرس مستقبل الانتداب قلت لها: الانتداب الخاص بنا هو التوراة! لقد استخرجنا منه قوتنا؛ لنقاوم عالما عاديا، ولنستمر في الإيمان بعودتنا إلى بلادنا»[1].

---

(١) جريدة لوموند الفرنسية ١٠/١/١٩٦٨.

وفي الصفحات الأخيرة من مذكرات «وايزمان» ما يُعَدّ وصية وتوجيها عاما لإسرائيل:

«هدفنا هو بناء حضارة تقوم على المثل الصارمة للآداب اليهودية. عن تلك المثل يجب ألا نحيد، كما فعلت بعض العناصر في حياة الوطن القومي القصيرة، بإحناء الركب أمام آلهة غرباء. لقد كان الأنبياء دائما يؤنبون الشعب اليهودي بأشد القسوة من أجل هذه النزعة. وكلما عاد الشعب إلى الوثنية وكلما ارتد: كان يعاقب من قبل إله إسرائيل الشديد. وإنه من الصعب القول فيما إذا كان سيظهر أنبياء بين اليهود في المستقبل القريب. ولكنهم إذا اختاروا الحياة الصادقة الصعبة النقية على الأرض في منازل مبنية على المبادئ القديمة، وإذا استهدفوا في نشاطهم قيما حقيقية، في الصناعة والزراعة والعلم والأدب والفن، عندها يطل الله بعطف على أبنائه الذين عادوا بعد تيه طويل إلى بيتهم ليخدموه، وعلى شفاههم مزمور، وفي أيديهم مجرفة، محيين بلادهم القديمة، وجاعليها مركز حضارة إنسانية».

هذا هو اتجاه إسرائيل، وصنّاع أمجادها وانتصاراتها.

أما في أرض الثورية العربية، فكل دعوة إلى الإسلام «رجعية» وكل ذي فكر وقلم يدعو إلى الإسلام الصحيح يجب أن يكون مصيره حبل المشنقة، أو زنزانة السجن، أو العزلة الخانقة تحت الإقامة الجبرية!

يقول الكاتب المسيحي السوري الدكتور أديب نصُّور:

«استطاعت إسرائيل أن تعبئ لمصلحتها العاطفة الدينية عند اليهود في العالم، وتتلقى منهم العون والمزيد من العون، بينما كانت السياسة العربية الثورية تعادي الدول الإسلامية غير العربية، وتخاصم الدول الإسلامية العربية، وتصمها بالرجعية والتخلف لتمسكها بالدين، وتعتبر كل تقارب بين المسلمين تحالفا استعماريا، وتهمل الجانب المسيحي في العالم العربي، وتجرد

إنسانها الثوري من قوة روحية هائلة، وتجرد سياستها الخارجية من بُعْد هو الأساس من أبعادها.

«إن الخطر الأكبر لم يداهمنا من انقضاض طيران العدو، وغزو ألويته ودباباته، وإنما جاء من انهيار داخلي سبق المعركة بأعوام، ومن محاولة الانتحار الأدبي. والتخلي عن الحقيقة والفضائل والقيم قضى على أمم كثيرة من قبل في التاريخ. إن ما حدث داخل المجتمعات الثورية كان وحده سببا كافيا ليجلب لنا الدمار الروحي والدمار المادي جميعا»[1].

(١) انظر: النكسة والخطأ لأديب نصّور ص١٥٩ وراجع كتابنا: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا؟ فصل: لماذا فشلوا في حرب فلسطين؟ ص ٣٠٧-٣١٥.

إجازة صيف ١٩٦٧م

السفر إلى لبنان منتصف يونيو:

كنا قد حجزنا من قبل للسفر إلى لبنان في منتصف حزيران - يونيو - كالعادة بمجرد انتهاء العام الدراسي، وتواعدنا مع بعض الإخوة الذين يعملون في قطر: أن نلتقي في مصيف «سوق الغرب» في «فندق فاروق» وهو فندق نزل فيه بعض زملائنا، وأثنوا على صاحبه (أبو فاروق) وهو مسيحي دمث الأخلاق، وقد سمى الفندق باسم ابنه.

وكان المعتاد والمفترض: أن نبقى في الفندق عدة أيام، نبحث فيها عن مسكن مناسب لنا نقيم فيه طوال فترة الإجازة، ولكنا وجدنا الحياة في لبنان كلها شبه معطلة بعد الحرب، ولم تعد الحياة إلى البلد من جديد.

التفكير في السفر إلى تركية:

لذا أشار علينا بعض إخواننا: أن نذهب إلى تركية، لنقضي فيها إجازة الصيف، في مدينة إستانبول خاصة، تلك المدينة الجميلة الرائعة، التي تجمع بين آسيا وأوربا، والتي كانت عاصمة الخلافة الإسلامية لآل عثمان عدة قرون، بل كانت في وقت من الأوقات: سيدة العالم!

وقيل لنا: إن عددا من الإخوة الذين يعملون في قطر، قد سبقونا بالسفر إلى إستانبول عن طريق الباصات السياحية الفارهة، التي تقلهم من بيروت إلى إستانبول في يومين، على ما أذكر.

وراقت لنا الفكرة: أن نزور تركية، ونتعرف على آثارها وجوامعها ومكتباتها وأسواقها وشواطئها وجبالها ومضيق البوسفور فيها. إنها فكرة محببة ومطلوبة، ولا يرغب عنها أحد.

ولكن بقيت أمامنا مشكلة، وهي: أن الذين يذهبون عن طريق الحافلات (الباصات) السياحية، يمرون بسورية، ولا بد، في طريقهم إلى تركية. وسورية يحكمها البعثيون العلويون، ومن المؤكد: أن اسمي من الأسماء الممنوعة من دخول سورية، فكيف نخاطر، ونقطع التذاكر، ونذهب إلى الحدود، ثم قد نفاجأ بردنا، وربما قيادتنا إلى الشرطة للتحقيق معنا، وربما حجزونا أياما، قد تقل أو تكثر، فهذه الأنظمة الشمولية القمعية، التي ابتليت بها بلادنا العربية والإسلامية لا يوجد في قوانينها شيء محظور! كل شيء مباح لهم، وإن حرمته قوانين الأرض وشرائع السماء.

وفكرنا فى أن نأخذ الطائرة من بيروت إلى إستانبول، ولكن وجدنا ثمنها غاليا، يرهقنا عسرا.

ثم أشار علينا بعض العارفين بوسيلة أخرى، نتخطى بها المرور على سورية، وما فيها من أخطار، ولا تكلفنا كثيرا، وهو: أن نأخذ الطائرة التركية من بيروت إلى مدينة «أضَنَة» في جنوب تركية، بالقرب من الحدود السورية، ومن «أضنة» نأخذ الحافلة إلى «إستانبول» إن شئنا، أو إلى «أنقرة» ثم إستانبول.

ورحبنا بهذا الاقتراح، وقطعنا التذاكر لي وللأسرة إلى «أضنة» ذهابا وعودة، وكان معي في هذه الرحلة من أولها إلى آخرها أخونا وصديقنا الأخ العالم الداعية الحبيب الشيخ علي جماز رحمه الله وأسرته، وكانت أسرته تتكون من زوجته وابنه طارق، وهو في السابعة أو الثامنة من عمره.

وقررنا معا: أن نأخذ هذه الرحلة على مراحل: نبقى في «أضنة» ثلاثة أيام، ثم نذهب إلى أنقرة، ونبقى فيها ثلاثة أيام. ثم نغادر إلى إستانبول لنقضي فيها بقية مدة الإجازة.

امتطينا الطائرة إلى أضنة:

وفي اليوم المحدد امتطينا الطائرة، لتهبط بنا بعد نحو ساعة أو أكثر إلى مطار أضنة، ولقد سرنا أن كثيرين في هذه المدينة يتكلمون العربية، فلم نجد صعوبة في التعامل معهم، ولا ريب فى أن وحدة اللغة من أقوى وسائل التفاهم بين البشر.

واستأجرنا سكنا في أحد الفنادق، وكان سعره رخيصا إلى حد بعيد، وتعرفنا على بعض المطاعم لنأكل فيها «شيش كباب» هكذا يسمونه، وأحسب أننا أخذنا منهم هذه التسمية. وكثير من أسماء المأكولات نجدها مشتركة، مثل البامية.

أما المحشي فيسمونه «ضُلْمه». والبطيخ يسمونه «قَرْبوز» والشمام يسمونه «فاوون» وهذه كلمة مستعملة في بعض أقاليم مصر.

وسألنا الإخوة الذين ينطقون العربية: أن يدلونا على أماكن النزهة، فدلونا عليها. وكانت نزها جميلة، لولا ما يعكرها من قرص «الناموس» الذي لدى زوجتي حساسية منه، فهو يترك في جسمها أثرا ظاهرا.

كما كان يعكر علينا صفونا في كل مكان ذهبنا إليه: سؤال صعب يوجهه إلينا الأتراك، بعد هزيمة حزيران «يونيو»، هذا السؤال الذي واجهونا به، هو: كيف يُهزَم العرب، وعددهم مائتا مليون، أمام إسرائيل، وعددها ٢ مليون؟! كيف يهزم الواحد من اليهود مائة من العرب؟

بعضهم يقول هذا تشفيا من العرب وشماتة بهم، وهؤلاء هم العلمانيون. وبعضهم يقول هذا حزنا على العرب، أو قل غضبا على العرب، ولم نجد جوابا شافيا، يمكننا أن نجيب به القوم، يقنعهم ويسكتهم، إلا أن قلنا لهم: لقد دخل اليهود المعركة ومعهم التوراة، ونحن دخلنا المعركة وليس معنا القرآن، لقد دخلوها يهودا، ولم ندخلها نحن مسلمين!

ركبنا الحافلة إلى أنقرة:

وبعد أيامنا في أضنة، قطعنا التذاكر لنمتطي حافلة (باص) من الحافلات السياحية التركية المريحة المهيأة لمثل هذه الأسفار الطويلة، والتي تقوم عليها شركات متخصصة معروفة، ولها مكاتبها في لبنان وسورية وغيرها من بلاد العرب.

وكانت أجرة الحافلة رخيصة جدا، من أضنة إلى أنقرة، وتأخذ في الطريق حوالي ٨ ساعات أو ١٠ ساعات، لا أذكر. وهي تمر بنا على مناظر رائعة الجمال، ما بين جبال يكسوها بساط سندسيّ أخضر، وسهول مزروعة بالمحصولات، وغيرها من المشاهد التي تمتع العين، وتبهج النفس، وتنعش الفؤاد.

وبعد كل ساعتين، تتوقف الحافلة في أماكن معينة معدة للاستراحة، نشرب فيها الماء، أو العصير، أو «الأيْران» وهو اللبن الرائب، الذي تمتاز به تركيا، ويقدم في كل المطاعم مع المآكل والمشارب.

وقد نشتري بعض «المكسّرات» من البندق أو الفستق أو اللوز أو الجوز (الذي نسميه في مصر: عين الجمل).

وفي بعض المرات يكون موعد الصلاة، فنتوضأ ونصلي الظهر والعصر في الطريق قصرا وجمعا، فإن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه.

وفي بعض الطرق نجد أكلات خفيفة، تسد رمق المسافر، وأحيانا نجد «المشويات» التركية. ولا بد أن نتزود في الطريق إلى أن نصل إلى مقصدنا.

قضينا يوما كاملا ممتعا حقا، في طريقنا إلى «أنقرة» العاصمة السياسية لتركيا في العهد الجمهوري منذ انقلاب أتاتورك.

فندق جيهان بالاس في أنقرة:

وعندما وصلنا إلى هناك سألنا عن فندق ملائم في وسط البلد، فدلنا بعضهم

على فندق «جيهان بالاس» فاستأجرنا سيارتين صغيرتين ـ لنا وللشيخ جماز ـ لتنقلنا إلى الفندق المذكور.

ونزلنا الفندق الذي كان موقعه مهما في صرة المدينة. ونزلنا للعشاء في أقرب مطعم، وفي الصباح تناولنا فطورنا، وأذكر أنه من ألذ الأطعمة في تركيا «اللبن» الذي يسميه المصريون «اللبن الزبادي» لأنه كان يوضع في «زبدية» وهي وعاء فخّاري صغير، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وسمي «الزبادي». وإخواننا في بلاد الشام «سورية ولبنان والأردن وفلسطين» يسمونه «اللبن». ونحن ـ المصريين ـ نطلق كلمة «اللبن» على ما يسمونه هم «الحليب».

وأعتقد أن تسمية المصريين للحليب «لبنا» تسمية صحيحة، وهي تسمية قرآنية، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ (النحل: ٦٦).

حديقة كبرى قرب الفندق:

خرجنا في الصباح نتجول في الشوارع التي حولنا، وإذا بنا نكتشف قرب الفندق: حديقة كبيرة، من أكبر الحدائق السياحية، التي تشتمل على ملاهٍ وألعاب متنوعة، فوجد الأولاد فيها ضالتهم، وغرقوا في الألعاب المختلفة، وأخذت هذه الحديقة جل أوقاتنا وشغلتنا عن كثير من الفسح، التي لم تأخذ منا إلا أقل الوقت.

وكان البعض قد نصحنا أن نأخذ القطار ـ قطار الشرق ـ من أنقرة إلى إستانبول، وقلنا: فكرة معقولة، وأردنا أن نجد أحدا نسأله عن محطة قطار الشرق: أين تكون، وكيف نحجز أماكننا، أو نقطع تذاكرنا، فلم نجد أحدا يعرف العربية، يفيدنا في هذا الأمر. وحزنت على نفسي أني لم أتقن اللغة الإنجليزية، برغم ما كان لدي من قدرة لغوية غير عادية، واستعداد نفسي للتعلم،

فأصبحت لا أملك اليوم من اللغة ما يمكنني من التفاهم في الأمور البسيطة. ولذا حرصت على أن يتقن أولادي جميعا: الإنجليزية، ومن استطاع أن يتعلم لغة أخرى فهو أفضل.

على أن تعلم الإنجليزية في تركيا لا يفيد كثيرا، فقليل جدا من الأتراك في ذلك الوقت كانوا هم الذين يعرفون الإنجليزية، ولذا من الصعب أن تجد من يتفاهم معك بغير التركية، حتى الألفاظ المتداولة من الإنجليزية، التي يعرفها كثير من الناس لا يعرفونها.

وأخيرا، وبعد لأي، وجدنا تركيًا أصله عراقي، يعرف عربية مكسّرة، ففرحنا به، وقلنا: مكسرة مكسرة، المكسر خير من العدم.

وصحبَنا الرجل إلى محطة القطار، فوجدنا القطار يحتاج إلى حجز، ووقت، وليس أمامنا وقت، فنصحنا الرجل أن نأخذ «الباص» ودلنا على شركة للباص، تنقل الركاب إلى «إستانبول» اسمها: «جول هانه». ومن فضل الرجل أنه وصلنا إليها - أنا والشيخ الجماز - وقطعنا التذاكر من المحطة لنأخذ أول دفعة في السابعة صباحا، وكان ثمن التذكرة رخيصا جدا (١٥ ليرة تركية) أي نحو دولار وربع دولار للفرد.

إلى إستانبول:

وفي الصباح الباكر، ركبنا الحافلة، وقرأنا كالعادة أدعية الركوب والسفر، وقد اجتهدت أن أحفظها لبناتي الصغيرات حتى يتعودن عليها. فكنت كلما أركب طائرة أو سيارة أجهر بصوتي: الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى. اللهم هون علينا سفرنا واطو عنا بعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل.

نتلو هذه الدعوات، في الذهاب، وفي الإياب، ونزيد في الإياب: آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون[1].

وكان معظم الطريق ممطرا، ونحن لم نتعود على هذه الطرق الجبلية الصاعدة والمتعرجة، فكنا نخاف من الزلق مع شدة المطر، فنقرأ الدعاء المأثور: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم»[2].

وكان الطريق إلى إستانبول، كالطريق إلى أنقرة، تمتعك خضرته، وتسحرك نضرته، وتروعك جباله التي ألبسها باريها حلة خضراء، تسر الناظرين. وزاد هذا الطريق أننا نمر فيه على «بحر مرمرة» فنستمتع بالنظر إلى المياه مع الخضرة والوجوه الحسنة، وهي الثلاثة التي يقول فيها الشاعر:

ثلاثة يذهبن عنكم الحزن

الماء والخضرة والوجه الحسن

واستمتعنا بالاستراحات في الطريق، وشربنا الأيران، وأكلنا المكسرات، وإن كان نزول المطر قد حرمنا النزول أحيانا.

وحوالي الخامسة مساء - بعد العصر - وصلنا إلى المحطة النهائية في إستانبول، ونزلنا في المحطة الأخيرة، لنبحث أين نذهب؟

رحلة بلا تخطيط:

كانت رحلتنا بدون تخطيط، ولا معرفة سابقة، ولا خريطة دالة، ولا دليل يهدي، ولا عناوين أو تليفونات لأشخاص يدلوننا على ما نقصده، أو يساعدوننا في تذليل الصعاب التي تواجهنا.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٩٢) عن ابن عمر.

(٢) رواه أحمد (٤١٨) والترمذي (٣٣١٠) وقال: حسن صحيح، وأبو داود (٤٤٢٥) وابن ماجه (٣٨٥٩) عن عثمان بن عفان.

كل ما كان معنا هو تليفون لشخص واحد وعنوانه، أملاه علي الأخ عادل عاقل مدير دار الإرشاد للنشر، حين علم أني ذاهب إلى إستانبول. إنه عنوان وتليفون الأخ مصطفى بلجه، الذي لم أكن سعدت بمعرفته من قبل، وهو في منطقة «الفاتح» أي التي فيها جامع السلطان محمد الفاتح، وهو يعرف العربية جيدا، ومن أبناء الدعوة الإسلامية.

وحين نزلنا - أنا والأخ علي جماز - سألنا عن منطقة الفاتح كيف نذهب إليها؟ ولكن كلما سألنا أحدا لم يرد علينا؛ لأنه لم يفهم ما قلنا له. إنها مشكلة اللغة مرة أخرى!

ووقفنا في طريق يمر منه الناس، نتوسم أحدا يعرف العربية ولو مكسرة، وكلما مر شخص قال له الأخ الشيخ جماز: سْبيك أرَبك؟ قلت له: وماذا تفيد كلمة (سبيك أربك هذه؟) إنها لا تفيد إلا من يعرف الإنجليزية. الأولى أن نقوله له: هل تعرف العربية؟ فإن كان يعرف أجاب بـ «نعم». وإلا لم يرد عليك.

وذكرنا النكتة التي قالها أحد الظرفاء. أن أحدهم كان في لندن، وهو لا يعرف غير العربية، ويريد أحدا يعرف العربية يسأله عن شيء، فوقف أمام إحدى السينمات، والناس خارجون، يقول لكل من يواجهه: أنت رجل حمار! أنت رجل حمار! والناس يمرون عليه، ويسمعون هذه الكلمة ولا يعيرونه التفاتا، إلى أن مر عليه أحدهم، فقال له: أنت رجل حمار! فقال: أنت ستين حمار!

فهناك أمسك به وقال له: إياك أريد. فأنا ما قصدت شتمك، إنما أردت اكتشافك.

ولم تُجْد معنا طريقة: هل تعرف العربية؟ كما لم تُجْد: سْبيك أرَبك؟

فخطر لنا خاطر - وقد اقترب موعد أذان المغرب - أن نذهب إلى المسجد، نصلي فيه المغرب، لعلنا نجد إمام المسجد يعرف شيئا من العربية، فنسأله عما نريد.

وذهبنا وصلينا وراء الإمام الذي أمّنا، وقرأ القرآن فأحسن تلاوته، ثم فرغ من

صلاته وصلى ركعتي السنة، ثم ختم الصلاة على طريقة الأتراك، وأعطوا كل واحد منا سبحة، ليعد الثلاث و الثلاثين تسبيحة وتحميدة وتكبيرة، ثم ختم المائة بـ«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير». ثم قال: «سبحان ربي الأعلى الوهاب» ودعا الناس، كل بما في نفسه، ثم ختم الإمام هذا كله بعشر من القرآن تلاها بصوت رخيم، ويبدأ الناس ينصرفون، فاتجهنا إلى الإمام نكلمه، فوجدناه لا يعرف معنى كلمة في العربية. إنه يحفظ القرآن، وإن كان لا يفهمه، وهذه معجزة هذا الكتاب، وجدناها من قبل في الهنود والباكستانيين والأفغان، ونجدها اليوم في الأتراك.

عربية مكسرة تكفي:

وظللنا نكلم بعض الناس، عسى أن نجد فيهم من يعرف شيئا من العربية، حتى عثرنا أخيرا بين المصلين على واحد يعرف بعض كلمات من العربية، فكأنما عثرنا على كنز ثمين.

سألنا الرجل: أين منطقة الفاتح؟ فقال لنا كلاما كثيرا بعضه بالتركية، وبعضه بالعربية، عرفنا من خلاصته: أننا في البر الآسيوي من مدينة إستانبول، ومنطقة «الفاتح» في البر الأوربي منها، ولا بد أن نركب «الوابور» أي الباخرة لتنقلنا إلى الشاطئ الآخر، ثم نستأجر سيارة (تاكسي) لتأخذنا إلى منطقة الفاتح، وهناك تسكنون في فندق إلى الصباح، ثم تبدءون البحث عن صديقكم.

وتنفسنا الصعداء، وقلنا: الحمد لله، قد عرفنا طريقنا، وعرفنا كيف نصل إلى مقصودنا.

وهذا مثل حي للإنسان إذا أراد هدفا لا يعرف طريقه، ولا يعرف دليلا يوصله إلى هذا الطريق.

وهذا هو السر في بعث الله رسله إلى الناس حتى يهدوهم إليه، ويعرفوهم الطريق إلى مرضاته، وإلا ضاع الناس، وبقوا حائرين، لا يدرون: أيشرقون أم يغربون؟ وربما ذهبوا شمالا وهم يبغون اليمين، أو العكس.

الباخرة إلى الشاطئ الآخر:

لقد استأجرنا سيارة تاكسي لتنقلنا إلى محطة الباخرة (أو الوابور) كما قال الأخ التركي. وقطعنا التذاكر، وركبنا لأول مرة: هذا النوع من البواخر التي تنقل الركاب من شاطئ إلى شاطئ، وكانت رحلة ممتعة بعد المغرب، ونحن نشق عُباب «البوسفور» في هذا الجو المنعش، ونسمات البحر تهب علينا، وقد قلنا عندما ركبناها ما قاله سيدنا نوح عليه السلام حينما ركب سفينته، وقال لمن معه: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (هود: ٤١).

ووصلنا إلى الشاطئ الأوربي في محطة أو مرسى يسمى «قاضي كوى» والمرسى في الشاطئ الآخر يمسى «كرا كُوي».

ومن «قاضي كوى» أخذنا سيارتين لأسرتينا، وقلنا له: نريد فندقا في منطقة «الفاتح» فذهب بنا إلى فندق، وآخر، فلم نجد فيه مكانا فارغا، فاقترح الرجل أن نذهب إلى «أقصراي» قلنا: لا بأس. ونحن لا نعرف شيا لا عن أقصراي ولا عن غيرها.

وفي أقصراي وجدنا فندقا مناسبا، يملكه رجل أصله حلبي، ويعرف العربية، وكان هذا كسبا كبيرا لنا، أن نجد من يعرف العربية، ويستطيع أن يفهمنا ونفهمه، ولكن صاحب الفندق لم يكن موجودا في ذلك الوقت.

ونحن نريد أن نقيم في الفندق لعدة أيام فقط، لأن تكاليف الفنادق فوق طاقتنا، وإنما هي مرحلة ضرورية حتى نستأجر منزلا أو شقة مناسبة، فننتقل من الفندق إليها، وكلما طالت إقامتنا في الفندق زاد العبء علينا، وكلما قصرت مدة الإقامة كان في ذلك سعة وبحبحة لنا.

البحث عن مصطفى بلجه:

وفي الصباح بعد أن تناولنا فطورنا، شرعنا في البحث عن الشخص الوحيد الذي نعرفه باسم «مصطفى بلجه» واتصلنا بالتليفون الذي أعطاه لي عادل عاقل،

وردت علينا امرأة، لم نفهم منها شيئا، ولم تفهم منا شيئا، إلا أن مصطفى غير موجود.

فقلنا: نذهب نبحث عن البيت حسب العنوان، ونترك رسالة مكتوبة، وظللنا نمشي في منطقة الفاتح يمينا وشمالا، لنبحث عن الشارع الذي فيه العنوان، فلم نهتد إليه، فنفضنا أيدينا يأسا من الوصول إليه، وعدنا إلى الفندق.

محمد فرحان:

وبعد عودتنا إلى الفندق، كان من حظنا أن وجدنا صاحب الفندق، وهو يتكلم العربية بطلاقة، ورحب بنا، وقلنا له: إننا نريد من يساعدنا على استئجار منزلين، أو شقتين في مكان مناسب، وبسعر مناسب. فقال: يسكن بجوار الفندق طالب عربي شهم كريم، من الأردن، وهو يدرس بالجامعة هنا منذ سنوات، ويعرف البلد هنا تماما، وأعتقد أنه إذا عرف بوجودكم فسيسره أن يخدمكم. وأرسل إليه بالفعل أحد موظفي الفندق، يستدعيه إلينا، فلبى النداء مشكورا، وحضر مسرعا، فتعرف علينا، وفرح بلقائنا، وقال: أنا متفرغ لخدمتكم في كل ما تريدون، وليس عندي شيء محدد يشغلني الآن، فنحن في فترة الإجازة.

وكان الأخ محمد فرحان هجاينه (الأستاذ الدكتور الآن) عند حسن الظن به، فوضع جهده ووقته للبحث معنا عن المسكن الملائم، وظللنا يومين نبحث في إستانبول، وهي مدينة كبيرة رحبة، فيها الجانب الآسيوي، والجانب الأوربي، ولكننا اخترنا أن نسكن في الجانب الأوربي، فهو الحافل بالآثار الإسلامية، والجوامع الضخمة، والمكتبات والأسواق المغطّاة والمكشوفة، وغيرها.

وبعد معرفتنا بجغرافية المدينة، رأينا أن أكثر الأماكن مناسبة هو ما كان حول منطقة «تقسيم» الشهيرة، التي تُعَدّ مركز القسم الأوربي من المدينة.

السكنى في حي شيشلي ومزاياه:

وفعلا في اليوم الثالث، وفقنا إلى شقتين مناسبتين جدا، لي وللأخ الجماز، وكلتاهما في منطقة تسمى «شيشلي» وهي منطقة راقية وهادئة وآمنة. أشبه بحي

العجوزة أو الدقي بالقاهرة الكبرى. وكانت أجرة الشقة معقولة بل رخيصة جدا، فهي في الشهر ٥٠٠ ليرة تركية، وكان الدولار يصرف بـ ١٢ ليرة. يعني أن أجرة الشقة الشهرية - وهي مفروشة ومجهزة بكل اللوازم - نحو ٤٠ دولارا.

وكان للسكنى في حي شيشلي مزايا كثيرة، منها: القرب من حدائق كثيرة، كنا نذهب إليها معظم الأيام، مصطحبين الأطفال، ليسرحوا في هذه الحدائق ويمرحوا، ويلعبوا بالأراجيح والأدوات الكثيرة والمتنوعة، المهيئة للأولاد.

ومعظم هذه الحدائق مجانية معدة لخدمة أبناء الشعب، وقليل جدا منها هو الذي يحتاج إلى دفع رسوم. لأنها تحتوي آثارا مهمة، وهي رسوم غير باهظة.

ومن المزايا التي اكتشفناها لمنطقة «شيشلي»: أنها تتمتع بـ «سوق متنقلة» تقام بها في كل أسبوع مرتين.

يأتي الباعة من كل الأصناف: الخضراوات والفواكه واللحوم، وأنواع المأكولات والملبوسات. ويفرش التجار، ويعرضون بضائعهم، فيبيعونها بأثمان معقولة جدا، وفي آخر النهار حينما يريد كل بائع أن يصفي ما عنده: تباع البضاعة بأقل من نصف ثمنها.

ومن هذا السوق اشترينا كل حاجاتنا، وخصوصا مع رخص الليرة، وقدرتها الشرائية العالية في ذلك الوقت.

وأذكر أننا لقينا الأخ الصديق الأستاذ عبد الحميد طه، زميلنا في قطر، والذي سبقنا مع أسرته إلى إستانبول، والذي أخبرنا أن الأسعار هنا رخيصة بالنسبة إلى لبنان. وكان يقول: اقسم على أربعة تعرف الفرق. أي أن الليرة اللبنانية تساوي ٤ ليرات تركية.

وكان من مزايا منطقة شيشلي: أنها قريبة من المحلات الكبيرة المتخصصة في بيع اللحوم، وقد اكتشفنا هذه المحلات التي تبيع اللحوم مصنفة ومقطعة ومجهزة.

فمنها: ما يباع قطعا كبيرة، فخذا أو كتفا. ومنها: ما يباع قطعا صغيرة تصلح للسلق أو للشيّ، أو لغير ذلك.

ومنها: ما هو مقطع بالفعل وموضوع على السيخ ومعد للشي مباشرة.

وكانت هذه اللحوم في غاية الجودة، وغاية الرخص، وقد دعونا بعض الإخوة الأتراك على غداء أو عشاء، وأطعمناهم من هذه اللحوم، فسألونا: من أين لكم بهذه اللحوم الجيدة؟! لقد عرفنا من خبايا إستانبول ما لم يعرفه أهلها الذي يعيشون فيها، لأنهم يعيشون غالبا في مناطق شعبية ليس فيها هذه الإمكانات.

زيارة الجوامع والمتاحف والآثار:

اكتشفنا هذه المزايا للمنطقة التي وفقنا الله للسكنى فيها، فكانت قريبة من كل ما ذكرناه.

كما كانت قريبة من مناطق الجوامع والآثار العثمانية الفريدة، التي بدأنا نخطط لزيارتها، فزرنا «جامع السليمانية» الشهير، وهو تحفة معمارية إسلامية، قلما يوجد لها نظير، في أعمدته وقبته وزخارفه.

وكان المسجد أو الجامع عند الدولة العثمانية: مؤسسة كاملة، تقام بجواره مكتبة علمية، ومساكن للطلاب، وحدائق تجمل المكان، وتملؤه بهجة، وتجعل منه روحا وريحانا.

وزرنا كنيسة «آيا صوفيا» الشهيرة التي حولها السلطان محمد الفاتح إلى مسجد، وغطى الصور والتماثيل الموجودة فيها، وظل المسلمون عدة قرون يصلون فيها، فلما حدث الانقلاب العلماني في عهد أتاتورك، وألغيت الخلافة، وعطلت الشريعة، وحذف كل ما يمت إلى الإسلام بصلة، حتى الحروف العربية التي كانت تكتب بها اللغة التركية: ألغيت واستبدل بها الحروف اللاتينية، حتى الأذان منع باللغة العربية، في هذه الحالة ألغيت مسجدية آيا صوفيا، وحولت إلى متحف!

وقد كان بعض العلماء والدعاة الكبار إذا دخلوا هذا الجامع، صلوا فيه ركعتين. أول من علمته فعل ذلك: الداعية الفقيه الشيخ مصطفى السباعي، وحينما زارها العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي، **قال: سن لنا الشيخ السباعي** سنة حسنة، فصلى فيها ركعتين. وقد حاولت أن أفعل ذلك، فلم يمكني الحراس، وقالوا: هذا ممنوع.

وبعد زيارة «آيا صوفيا» اتجهنا إلى زيارة «جامع السلطان أحمد» بجوارها المعروف بـ «الجامع الأزرق». وقد بناه السلطان ليضاهي آيا صوفيا. فكان آية من آيات الفن وروعة العمارة الإسلامية، وفاق آيا صوفيا بجماله وجلاله. ولذا ترى آلاف السياح، بل عشرات الآلاف كل يوم يفدون إليه من كل حدب وصوب، ويستمتعون برؤية آيات الفن والجمال والإبداع في جدرانه وأركانه وأعمدته وسقوفه ومآذنه، وأبوابه ونوافذه ومداخله، ومآذنه السّتّ، يصورونه من كل مكان وناحية. وقد سمعت الأستاذ جارودي يتحدث عنه كما يتحدث العاشق عن معشوقته.

وهذا الجامع ـ كجامع السليمانية ـ مؤسسة شاملة، تضم مكتبة ومساكن وحدائق وملحقات، وإن كان جامع السليمانية يعدّ الأول من حيث سعته.

تجربة متميزة في إستانبول:

وبمناسبة ذكر جامع السلطان أحمد، أذكر تجربة مهمة شهدتها في ذلك الصيف في مدينة إستانبول، فقد بدأت فيها حركة دينية، وبدأ وعي إسلامي يؤتي ثمراته، على مستويات عدة.

وكان من هذه الثمرات: الدعوة إلى صلاة الفجر في أحد المساجد الكبرى كل فترة معينة، وتولى الدعوة إليها الأخ شوكت الصحفي المعروف صاحب جريدة «بوجون» اليومية و«بوجون» معناها: اليوم.

والمطلوب: أن يجتمع الناس في مسجد محدد لصلاة الفجر، وقد حضرت هذه الصلاة مرتين: مرة في جامع السلطان أحمد، ومرة في جامع «بايزيد».

وقد تجمع في هذه الصلاة عشرات الألوف، كنت تجد الناس قبل الفجر، كخلايا النحل، متجهين إلى المسجد المقصود بالحافلات، وباللوريات، وبالتاكسيات، وبالدراجات، ومشيا على الأقدام. منظر - والله - يشفي صدور المؤمنين، ويغيظ الكفار والذين في قلوبهم مرض.

لا يفعل المصلون شيئا غير الصلاة، لا درس ولا خطبة ولا هتاف، ولا شيء من هذا. إنه تجمّع عابد صامت، ولكنه صمت أقوى وأبلغ من كل كلام.

وبعد الصلاة يقوم الأخ الداعي إلى هذا التجمع الإيماني - اسمه رفعت أو شوكت ونسيت باقي اسمه - فينادي الناس بالانصراف.

هذا التجمع الصامت أزعج القوى العلمانية، يكفي أنه أثبت قدرة الإسلاميين على تجميع أعوانهم - إذا دعوهم - في أي وقت من ليل أو نهار. وأن استجابة الأعوان بهذه الكثافة، وبهذه السهولة، وبدون تقديم أي مساعدة، لهو أكبر دليل على أن في الزوايا خبايا، وأن المستقبل حافل بكثير من التوقعات.

وهكذا ظللنا كل يوم، أو كل عدة أيام نزور معلما من هذه المعالم الشامخة، التي تركها آل عثمان، أمارات ناطقة على علو كعبهم في الحضارة والعمران.

ومنها: متحف «طوب قبي» أكبر متاحف إستانبول، والذي يضم آثار معظم سلاطين آل عثمان، وقد ظللنا ساعات نطوف فيه حتى كلت أقدامنا، وزرنا الحجرة التي تضم بعض الآثار النبوية، ومنها: الرسالة التي بعثها النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، وقد أجريت بعض الدراسات على هذه الرسالة، فثبتت صحتها، وألفاظها هي نفس الألفاظ التي روتها كتب الحديث، فكان هذا برهانا إضافيا على صدق السنة النبوية الشريفة، وثبوت ما روي فيها بأسانيد صحاح.

ومن المعالم التي زرناها: قصر السلطان عبد المجيد، ويسمى «ضُلْمة بخشه» وهو - وإن دل على ما وصل إليه السلاطين من غنى ورفاهية وفخامة وأبّهة تبهر الأبصار - يدل على مدى انغماس السلاطين في آخر عصورهم بمظاهر الترف،

والإغراق في أسباب المتعة والسرف، وهي بداية التدحرج والنزول من القمة إلى السفح. كما يقرر ابن خلدون في مقدمته.

مسجد السلطان الفاتح:

ثم زرنا مسجد السلطان محمد الفاتح، وهو أول مساجد إستانبول، بناه الرجل الذي فتح الله على يديه القسطنطينية، وقد حاول المسلمون منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم أن يفتحوها، ومات على أسوارها سيدنا أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد دفن خارج أسوار المدينة، ثم توسعت المدينة فأصبح قبره هناك داخلها، وبني بجواره مسجد، وسمي باسمه حي كبير باسم «أيوب».

وكان الخلفاء يأخذون البيعة في هذا المسجد، ويهتمون بأمره، ويعتقدون أن فيه بركة خاصة، على أن البركة الحقيقية إنما هي في العزائم الصادقة، والنيات الخالصة، والأعمال المتقنة.

كان الصحابة يريدون أن ينالوا الحظوة بفتح القسطنطينية، التي بشر بفتحها الرسول الكريم، وادخر الله هذا الفضل لهذا الفتى العثماني الذي فكر في فتحها، وهو ابن التاسعة عشرة، وافتتحها وهو ابن الثالثة والعشرين، فتحها في الحادي عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ الموافق ٢٨/ ٥/ ١٤٥٣م.

قرأ هذا الشاب في كتب الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[1] فتاقت نفسه أن يكون هذا الأمير، وأن يكون جيشه هو ذلك الجيش. وفعلا كتب له القدر أن يفتحها.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٨٩٥٧) والحاكم في مستدركه في الفتن والملاحم (٤/ ٤٢٢) عن بشر الغنوي، وقيل: الخثعمي. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

أجل، كتب الله هذا الفخر لمحمد بن مراد، الذي لقب بـ «محمد الفاتح» الذي غير اسم المدينة، فسميت «إسلامبول» أو «إستانبول» بدل اسمها القديم، الذي نسبت فيه المدينة إلى الملك الروماني الشهير «قسطنطين» الذي كان وثنيا ثم تحول إلى النصرانية، ولكنه لم يتحول إلى النصرانية الحقيقية، بقدر ما حول النصرانية إلى ديانة مطعّمة بالوثنية الرومانية، حتى قال بعض أئمة المسلمين: لم تتنصّر روميّة، ولكن تروّمت النصرانية!

زرنا مسجد الفاتح وملحقاته، وقرأنا الحديث الذي علق فيه: «لتفتحن القسطنطينية . . . الحديث».

فتح جدير أن يذكر فلا ينسى:

هذا الفتح أو هذا المجد الذي ادخره الله للأتراك، والذي كان من حقهم أن يعتزوا ويغالوا به، ويفخروا على غيرهم: جاءت العلمانية الأتاتوركية، فأهملته، بل غشته بغشاء كثيف، حتى ينسى فلا يذكر، ويجهل فلا يعلم.

إلى أن جاء الزعيم الإسلامي د. نجم الدين أربكان رئيس حزب الرفاة الإسلامي، فأحيا هذه الذكرى، وجعل منها مناسبة سنوية يدعى فيها رجالات الدعوة والفكر في العالم الإسلامي. وقد دعيت للمشاركة فيه مرتين، وشهدت هذا الحفل الرائع، الذي يمثل فيه الفتح، ويتكلم فيه أربكان وبعض رجاله، وبعض ضيوفه، ويحضره نحو مائتي ألف من الأتراك. وقد تكلمت في تينك المرتين كلمة بهذه المناسبة، كان لها أثرها في أنفس إخواننا الأتراك. ولا أدري: هل بقي الاحتفال بهذه المناسبة كما كان؟ أو توقف بعد أن حوكم أربكان، وحظر عليه العمل السياسي فترة من الزمن؟

لقاء الشيخ أمين سراج:

كان من أهم ثمرات زيارة مسجد الفاتح: لقاء زميلنا وأخينا الكريم، وخريج كلية الشريعة بالأزهر الشريف: الشيخ أمين سراج، أحد مدرسي مسجد الفاتح، وقد سر

بلقائنا غاية السرور، ورحب به كل الترحيب، وجددنا الذكريات القديمة حين كان يدرس في الأزهر، ويتميز بطربوشه التركي الذي كان يلبسه في الكلية، ثم غادر القاهرة، أظنه بناء على طلب السلطات المصرية، بتهمة أنه كان متعاطفا مع دعوة الإخوان المسلمين.

كان الشيخ أمين يتوقد حيوية وحماسة ونشاطا، في سبيل الدعوة إلى الإسلام، وإحياء الأمل في عودة الحياة الإسلامية إلى بلد الخلافة.

وقد كان الشيخ أمين همزة وصل بيننا وبين عدد من الجهات الإسلامية، منها:

١ ـ الطلبة العرب الذين يدرسون في إستانبول دراسات شتى من الطب والهندسة والصيدلة والاقتصاد وغيرها.

٢ ـ الإخوة «النوريون» أتباع الشيخ المجدد المربي الكبير: بديع الزمان النورسي، الذي قاوم الكماليين، وأقام جماعة صوفية تتميز بالإيجابية، والعمل الهادئ لتغيير المجتمع من داخله بتغيير ما بنفسه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

٣ ـ الإخوة الأتراك المستنيرون، الذين لهم اتصال بالدعوة الإسلامية العالمية، ولهم لقاءاتهم وموجهوهم.

الطلبة العرب:

قلت: كان من ثمرات لقائنا بالشيخ أمين سراج: أن أوصلنا بإخواننا الطلبة العرب ـ وخصوصا الإسلاميين منهم ـ الذين يدرسون في جامعات إستانبول، وكان معظمهم من أبناء فلسطين والأردن والعراق، وسورية، وأقلهم من مصر.

طه الجوادي:

وكان أبرز الطلاب الذين عرفنا عليهم الشيخ أمين: الطالب ـ أو قل: الطبيب ـ العراقي الملتزم المخلص، الدكتور طه الجوادي، الذي كان يدرس الدكتوراه في

الطب، وكان متزوجا من تركية، وكان شعلة من النشاط، وقد وضع نفسه وإمكاناته في خدمتنا، وتوصيلنا بإخوانه الطلبة، لنلتقي بهم، ونحضر جلساتهم، ونسهم في توجيههم.

كما جعل نفسه في خدمتنا، وبخاصة أنه يملك سيارة مرسيدس، خصصها لنقلنا كلما شئنا، فهو ينقلنا إلى الأماكن البعيدة، ويصر على أن يقدم هذه الخدمة، حتى أخجلنا بخدماته وعطائه غير المحدود، الذي لا يبتغي من ورائه جزاء ولا شكورا، ولكنه ـ جزاه الله خيرا ـ كان يتصرف بمقتضى الأخوة الإسلامية، التي تجعل كل مسلم في خدمة أخيه وفي عونه، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وبمقتضى التزامه بالدعوة الإسلامية، فهو يرى خدمة علمائها ودعاتها، وتسهيل أمورهم واجبا عليه. أكرمه الله، وجزاه بعمله ونيته خير ما يجزي به العاملين الصادقين. وقد سعدت بلقائه بعد ذلك فى جدة حفظه الله ونفع به.

النـوريـون:

كما وصلنا الشيخ أمين سراج بالإخوة النوريين، الذين كانوا يقومون بنشاطهم الديني الخالص، ويعقدون جلساتهم التربوية الروحية، التي يتدارسون فيها غالبا: رسائل المربي الكبير إمامهم وشيخهم الروحي، بديع الزمان النورسي، التي تسمى «رسائل النور» والتي ترجم كثير منها إلى العربية، وقرأت بعضها، فوجدت فيها: أن هذا الرجل ممن يدعو إلى الله على بصيرة، وأنه عميق الحاسة الروحية، وأنه دقيق الفهم للقرآن الكريم.

وكان الإخوة النوريون يقتصرون على هذا النشاط الروحي أو الديني، ولا يتدخلون في السياسة، وكأنهم يعلمون أن هذه الطريقة الهادئة الطويلة النفس، هي الجديرة بتغيير المجتمع على المدى البعيد، ولهذا كانوا يعقدون هذه الجلسات في سرية وتكتم، دون إعلان ولا ضجيج.

وكان رئيسهم في ذلك الوقت الأستاذ زبير، وأحد المسؤولين عن الشباب الأستاذ ثروت، قد دعواني لزيارتهم، وحضور بعض جلساتهم في تخفٍّ وكتمان، وقد استجبت لهما، وزرتهم في عدد من الجلسات. وساعدني على التخفي: أني كنت في ذلك الوقت ألبس «البذلة الإفرنجية» في فترة الصيف، فلا ألبس الزي الأزهري، ولا الزي الخليجي، الذي يلفت الأنظار إليه، ويثير الانتباه في ذلك البلد.

إن الشعب التركي - برغم سيطرة العلمانية - عدة عقود - على كل شؤونه التشريعية والتعليمية والإعلامية والسياسية والاجتماعية: ما زال شعبا مسلما في أعماقه، وما زالت كلمة الإسلام تجد الاستجابة إذا وجدت الداعية الذي يفقه دينه، ويفقه عصره، ويفقه واقعه.

وحدثني الإخوة: أن الشعب التركي رحب بـ «عدنان مندريس» حين أتاح للناس قدرا معقولا من الحرية الدينية، وأعاد للدين بعض الاعتبار، حتى إنه أعاد الأذان باللغة العربية بدل التركية.

ولقد حدثني بعض الإخوة: أن أبناء الشعب حينما سمعوا لأول مرة بعد انقطاع عشرات السنين: الأذان باللغة العربية، وسمع الناس كلمة «الله أكبر، الله أكبر»: سجد الناس في الشوارع شكرا لله تعالى، وعانق الناس بعضهم بعضا، وهنأ بعضهم بعضا، وأعينهم تذرف أدمع الفرح بما أفاء الله عليهم من فضل.

وقد انقلب الجيش التركي – الذي يحرس العلمانية والمسنود من القوى الغربية – على عدنان مندريس، وقضى على حكومته، وأصدر حكمه بإعدامه، وقتل الرجل، وأخفي قبره، حتى لا يقدسه الشعب التركي، ويَعُدّه وليا من أولياء الله، ولا يزال قبره مجهولا إلى اليوم.

وفي نهاية الإجازة جاء الإخوة النوريون، وودعوني، وأهدوني سجادة صلاة قيمة من السجاد التركي اليدوي، لا تزال عندي إلى اليوم.

الأستاذ ماهر إزّ:

كما وصلني الشيخ أمين سراج بالبروفيسور الأستاذ ماهر إزّ، الذي كان إحدى المنارات في إستانبول، وكان له حلقة تدور حوله من خيار الشباب المثقفين والمستنيرين، والمتصلين بالدعوة الإسلامية العالمية، وكان منهم: أخونا مصطفى بلجة (الدكتور مصطفى بعد ذلك) الذي تعبت في البحث عنه من قبل، فلم أتوصل إليه، فلقيته وتعرفت عليه، ووجدت فيه الفكر النير، والوعي البصير، والالتزام الصادق، مع نورانية وإشراق، وكانت بداية لصلة وثيقة، وأخوة عميقة، امتدت واستمرت إلى اليوم.

كما عرفت في حلقة ماهر إزّ: الأخ الفاضل عثمان أوز توك (د. عثمان بعد ذلك) وهو على شاكلة مصطفى بلجه، وكل تلاميذ الأستاذ «إز» من الصفوة التي جمعت بين حسن الفهم، وصدق الإيمان، وقوة الغيرة على الإسلام، والعمل لنصرة قضاياه.

كان الأستاذ ماهر إز حفيا بلقائي، وسر به سرورا بالغا، وقد قال لي أمام الملإ: إنه وجد في شخصي ما كان يفتقده في علماء الدين في تركيا، الذين لم يكن ينقصهم الإخلاص والحماسة للدين والشريعة، ولكن كان ينقصهم - في رأيه- معايشة العصر، وتجديد الاجتهاد في قضاياه الحديثة في ضوء مقاصد الشريعة، ومعطيات العصر وحاجات الناس.

صالح أوزجان:

وممن لقيته هناك: الأستاذ صالح أوزجان، عضو رابطة العالم الإسلامي، وصاحب مؤسسة «الهلال» الصحفية، والذي كان قد لقيني قبل ذلك في لبنان، وأخذ مني حق ترجمة كتاب «الحلال والحرام» وغيره من كتبي إلى التركية ونشرها، وكتب معي عقدا بذلك، وإن لم ينفذ منه حرفا واحدا فيما يتعلق بحقوق التأليف!

وقد أخبرني الإخوة الأتراك: أن الصحف تتحدث عن دارين للنشر، تختصمان - في أيهما أحق بنشر كتابي «الحلال والحرام»: دار الهلال، ودار أخرى لا أذكر اسمها. وأعتقد أن الأستاذ أوزجان كسب القضية في المحكمة، بما معه من عقد موقع مني.

كتاب «الناس والحق»:

ومن الطرائف: أني كنت أطوف أنا والشيخ أمين سراج على بعض المكتبات التي تعتني ببيع الكتب الإسلامية، لنأخذ فكرة عن الكتب التي تحتويها دور النشر في هذه الأيام، فقدمني الشيخ أمين لصاحب المكتبة، وقال له: هذا فلان، فرحب الرجل بي، وقال: عندنا كتابه قد نشرناه (الناس والحق) ترجمة الأستاذ فلان، وذكر اسم المترجم.

ولهذا الكتاب قصة، فقد أرسل إلي في قطر أحد الإخوة الباحثين الناشطين من الأتراك، يطلب الإذن مني بترجمة كتاب «الناس والحق» إلى التركية، وكان الكتاب قد نشره المكتب الإسلامي الذي يملكه الأخ الشيخ زهير الشاويش، في بيروت. فأرسلت لهذا الأخ التركي بموافقتي على الترجمة، على أن تراجعه شخصية علمية تركية معروفة، واقترحت عليه أن يراجعه صديقنا الدكتور علي أرسلان أيْدن: زميلنا في الدراسات العليا في كلية أصول الدين، وقد كان هو في شعبة العقيدة والفلسفة، وأنا في شعبة التفسير والحديث، أو القرآن والسنة.

وذهب الأخ بعد أن ترجم الكتاب، فعرضه على الدكتور علي أرسلان، فرده وطلب منه أشياء يجب أن يراعيها، وظلا في أخذ ورد، وإذا بنا نفاجأ بهذا الأخ الذي ترجم الكتاب دون إذن من أحد! ولكني سألت الإخوة عن الترجمة، فأثنوا عليها، فقلت: هذا هو المهم، والحمد لله.

وقد ترجمت عشرات الكتب من مؤلفاتي إلى اللغة التركية، حتى الكتب الكبيرة مثل: «فقه الزكاة» و«فتاوى معاصرة» وغيرها. وإن لم يدفع أي ناشر لها، أدنى حق للمؤلف، وقد حرضني بعض الإخوة أن أرفع دعوى بطلب حقوق التأليف، ولكني لم أفعل، فبحسبي أن ينشر الكتاب بلغات المسلمين، وأن ينتفع به الناس. المهم أن تكون الترجمة مقبولة لفظا ومعنى.

د. علي أرسلان أيدن:

وبهذه المناسبة، سألت الشيخ أمين سراج عن الدكتور علي أرسلان، وكيف يمكن أن نراه، ونجدد عهدنا به، فقد عرفته عالما فاضلا، وباحثا متعمقا، فوعدني أن يتصل به، ويأخذ منه موعدا نلتقي فيه.

وما هي إلا أيام حتى زارني الدكتور علي، وسعدت بلقائه، وأصر على أن يدعوني أنا وأسرتي إلى بيته، ولم يسعني إلا أن أجيب، وزرناه أنا والعائلة، وقضينا يوما طيبا، تعرفنا فيه على أسرته، وكان معنا الشيخ أمين أيضا، وأكلنا الشهي من الطعام، وجددنا الطيب من الذكريات، وتذاكرنا في أحوال المسلمين في العالم، ومستقبل الإسلام في تركيا.

وفي آخر النهار عدنا إلى حيث نقيم في شيشلي.

محاولة تعلم التركية:

في هذه المدة بدأنا نتعلم شيئا من اللغة التركية، وقد أعطى لنا بعض الإخوة كتابا في تعلم التركية، استفدت منه كثيرا. والحقيقة أن اللغة التركية لغة سهلة جدا، ومما يزيد في سهولتها: وجود كلمات عربية كثيرة بها، فهي مزيج من العربية والفارسية والطورانية القديمة، وإن كان العلمانيون منذ أتاتورك يحاولون أن يفرغوها من الألفاظ العربية، كما حرموا كتابتها بالحروف العربية، فقطعوا أجيال الأمة عن تراثهم كله، وعزلوها عزلا تاما، وكان هذا مقصودا لهم.

عرفت الأرقام، وحفظها سهل، وبعضها مستعمل في بلادنا. مثل كلمة «بير» أي واحد، «بيرنجي» أي الأول، وكنا نقول في المدرسة: فلان بيرنجي الفصل، أي الأول عليه.

وكلمة «أون» أي عشرة، و«يوز» أي مائة، و «بن» أي ألف، وفي الرتب العسكرية: نجد رتبة «أون باشي» أي رئيس عشرة، و«يوز باشي» أي رئيس مائة، و«بن باشي» أي رئيس ألف. وهو الذي كان يسمى أيضا: «بكباشي».

وهناك كلمات تركية منتشرة بيننا مثل «أوده» أي حجرة، ومثل «اختيار» أي كبير السن، ومثل: يا واش يا واش، بمعنى: على مهلك... إلخ.

ومن المفارقات اللغوية الطريفة: أن الإخوة دلونا على مطعم في أقْصَرَاي يقدم أكلات طيبة، ولا يقدم خمرا، فكنا نؤثر أن نذهب إليه بين الحين والحين، وكنا نطلب منه بعد الطعام: طبقا من البطيخ فإذا هو يقدم لنا طبقا من الشمام. وتكرر ذلك عدة مرات، ثم اكتشفنا سبب هذا الخطإ، وهو أن الكتاب الذي نتعلم منه التركية كتب أمام كلمة «بطيخ»: كلمة «قاوون» بالتركية، وكلمة «بطيخ» عند العراقيين، ومنهم مؤلف الكتاب: معناها «الشمام»، أما ما يسمى عندنا «البطيخ» نحن المصريين، فاسمه عندهم: «الرَّقّي».

والبلاد العربية تختلف في بعض الأشياء اختلافا شاسعا، تضلل من لم يحط بها علما، من ذلك ما يسمى به هذه الفاكهة، فالمصريون يسمونها البطيخ، وفي معظم بلاد الشام يسمى البطيخ الأخضر، والشمام: البطيخ الأصفر، وفي الحجاز يسمى: الحبحب، وفي قطر ونجد يسمى: الجح، وفي حلب وما حولها يسمى الجبَس، وفي العراق يسمونها: الرقي (نسبة إلى مدينة الرقة) وفي بلاد المغرب كلها، يسمى: الدلاع.

المهم أننا عرفنا أن البطيخ «المصري» يسمى بالتركية «قربوز» فبدأنا بطلب «قربوز» إذا أردنا البطيخ، «وقاوون» إذا أردنا الشمام.

التسوق:

والذي يزور تركيا لا بد له أن يزور أسواقها، وفيها أسواق كثيرة، من أشهرها «السوق المغطى» ويسمى «قبالي تشارشي» وتشارشي معناها: سوق، وقبالي: مغطى.

وهو سوق كبير حافل، ومنه تشترى التحف من النحاس، ومن الرخام، ومن غيرهما، كما تشترى منه أشياء أخرى كثيرة.

وهناك أسواق للمأكولات، وخصوصا الأجبان والحلويات وأنواع المَلْبن، الذي يسميه إخواننا في الشام «راحة» أو «راحة الحلقوم».

وهناك أسواق الملبوسات، وقد تميز الأتراك بصناعة أنواع من الملبوسات خصوصا للنساء، بعضها من الصوف، وبعضها من أنواع نسيت اسمها، تصلح في الربيع والخريف، بل في الصيف أيضا.

وكانت الأسعار رخيصة بالنسبة لغيرها من الأقطار الأخرى، ومنها قطر ولبنان.

وبالممارسة والخبرة والمعايشة، عرفنا هذه الأسواق، وعرفنا كيف نصل إليها بأقدامنا، وعرفنا الأماكن والمحلات الأكثر رخصا من غيرها، برغم جودة السلعة، وقد اشترينا كل ما نحتاج إليه لأنفسنا ولمن نحب أن نهدي إليه.

زيارة الجزر:

واقترح علينا الأخ طه الجوادي: أن نزور «الجزر» المشهورة في بحر مرمرة، وهي معالم لا بد لمن يزور إستانبول أن يزورها.

وهذه الجزر تزار بواسطة بواخر معينة، دلنا الإخوة عليها، وصحبَنَا بعضُهم، وكنا وأسرة الشيخ الجماز معا، وتبدأ الزيارة عادة بالجزر الصغيرة، ثم تنتهي

بالجزيرة الكبرى، ويسمونها «بيوك أضا» وأضا: معناها جزيرة، وبيوك: معناها: أكبر، أو كبرى، فالمعنى: الجزيرة الكبرى، ومن خصائص هذه الجزيرة: أنها لا تمشي فيها سيارة، بل يمنع دخول السيارات إليها ولكن ينتقل الناس بعربات الخيل، التي نسميها في مصر «الحنطور». فمن أراد أن يطوف بالجزيرة، ويطلع على معالمها، استأجر حنطورا، مر به في دورة معلومة، وعاد به إلى حيث بدأ، وهذا ما فعلناه.

ثم تناولنا الغداء هناك، وعدنا آخر النهار بحفظ الله تعالى.

زيارة يالوا وترمل:

ومن المعالم المهمة التي يجب أن تزار: منطقة «يَالُوا» وحمامات ترمل، ومدينة «بورصة» التاريخية. وقد جاء أحد الإخوة معنا ليوصلنا إلى هناك ثم نعود.

وركبنا الباخرة السريعة «إكسبريس» من مرساها في إستانبول، لتذهب بنا إلى شاطئ يالوا، وقطعنا المسافة في ساعتين على ما أذكر، وهي رحلة بحرية جميلة في ذاتها، تستمتع فيها بالبحر ونسيمه. وحين ذهبنا إلى يالوا، لم نقم بها، فإن قصدنا هو منطقة «ترمل» بعدها بنحو بضعة عشر كيلو مترا على ما أذكر أو أقل من ذلك.

واستأجرنا سيارتين واحدة لأسرتي، وواحدة لأسرة الأخ الشيخ الجماز، لنصل إلى قرية بجوار حمامات ترمل، اسمها «جوكشدرا» وفيها ستكون إقامتنا لمدة عشرة أيام.

والواقع أننا وجدنا هذه القرية بسيطة وجميلة وممتعة، ووجدنا فيها بيتا ريفيا مناسبا، فيه شقق للإيجار، أخذنا شقة لنا، وشقة للأخ الشيخ علي. وكان أهل البيت من الفلاحين الطيبين المتدينين، كنا نشتري منهم في الصباح: اللبن الحليب الطازج بعد أن يحلبوه من البقرة، ونشتري الخضراوات والفواكه واللحوم من

السوق، وهي في منتهى الجودة، ومنتهى الرخص. وأحيانا يمر باعة الفواكه والخضر أمام البيت، ونشتري منهم ما نريد.

وكان الخوخ أو الدرّاق كما يسميه إخواننا في الشام - ويسمى بالتركية الشَّفْتَلي - من أجود الفواكه وأرخصها.

وكنا نذهب إلى الجزار، ومعنا الخضار والبصل، ليعد لنا «براما» من اللحم، نذهب به إلى الفرن، لينضجه لنا على نار هادئة، على أن نتسلّمه في ساعة محددة، وهي أكلة شهية جدا.

وكنا نذهب كل يوم في الصباح، وفي المساء غالبا، إلى منطقة ترمل، مشيا على أقدامنا، فهي قريبة جدا. ومن أراد دخول الحمامات - وهي معدنية - دخلها ودفع الأجر المعلوم. ومن لم يرد جلس في الحديقة الفيحاء، يستمتع بهوائها وأزهارها المنسقة، وما فيها من أراجيح وألعاب للأطفال، وهي فسحة يومية مجانية رائعة.

وفي القرية مسجد نذهب إليه، ونؤدي فيه صلاة الجماعة. وأذكر هنا: أن صلاة الجماعة في المساجد التركية جميعا في المدن والقرى، لها مراسم تلتزم، ومصبوبة في قوالب لا يجوز لأحد أن يغير فيها شيئا. فبعد الأذان تصلي السنة القبْلية الراتبة: ركعتين أو أربعا، ثم تقام الصلاة، ويصلي الإمام، والناس خلفه صامتون لا يقرءون، سواء كانت صلاة جهرية أم سرية، كما هو رأي المذهب الحنفي، وهو مذهب الأتراك الملتزم، ثم بعد السلام، يقول الإمام والمصلون: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام. ثم يقومون لأداء صلاة السنة البَعْدية، مؤخرين التسبيح والتحميد والتكبير، لما بعد النافلة، كما هو رأي الحنفية.

ثم يجلسون لختام الصلاة، وفي كل مسجد عدد من المسابح يوزعونها على المصلين، ليعدوا عليها التسبيحات الثلاث وثلاثين، وكذلك التحميدات

والتكبيرات، ثم يختمون المائة بـ «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير»، يقولها الإمام بصوت مسموع، والناس يرددونها معه، ثم يقول الإمام: «سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب» ويدعو الله، ويدعو المصلون كل بما يحب، ثم يختم بقراءة عشر من القرآن الكريم. ويسلم بعضهم على بعض ثم ينصرفون. وهذا نظام صارم لا يجوز لأحد أن يخالفه، فيخرج بعد صلاة النافلة أو بعد ختم الصلاة، قبل قراءة القرآن، ناهيك بالخروج بعد صلاة الفريضة!

وأذكر أنه زارنا في هذه القرية الفقيه العلامة الشيخ مصطفى الزرقا، الذي نزل في فندق القرية لعدة أيام، وقد سعدنا به في جلسة علمية نافعة، وكان معه أهله رحمه الله.

زيارة بورصة:

ومن قرية «جوكشدرا» عزمنا الرحيل إلى مدينة بورصة بواسطة الحافلة (الباص) وبعد أكثر من ساعة وصلنا المدينة العريقة، التي كانت عاصمة العثمانيين قبل إستنابول، ويقال: إنها في موضع «عمورية» التي وقع فيها الوقعة الشهيرة للخليفة «المعتصم» حين استغاثت به إحدى المسلمات، لما لطمت على خدها، فقالت: وامعتصماه: في القصة الشهيرة المعروفة.

ووصلنا إلى المدينة واستأجرنا فيها فندقا لمدة يومين على ما أذكر، وكان أهم ما في المدينة هو جبالها العالية الشاهقة، التي يوصل إليها بطريق هذا الباص الهوائي المسمى «التليفريك» فذهبنا إلى محطته، وقطعنا التذاكر، وانتظرنا دورنا، فقد كان هناك زحام ملحوظ.

وركبنا التلفريك، الذي ينقلنا إلى محطة ثم يأخذنا تلفريك آخر إلى محطة أعلى، حتى نصل إلى الجبل المنشود، وفيه برودة ملحوظة، قد حسبنا حسابها، وتلفعنا ببعض الملابس المناسبة.

وفوق الجبل المنشود، توجد محلات وأسواق، وباعة لكثير من الأشياء، وأهمها: اللحم المعد للشواء، وأدوات الشي، والفواكه المختلفة، ولا سيما البطيخ الذي يسمى عندهم «الكربوز».

والأكل فوق الجبل له لذة خاصة، فأكلنا وشبعنا، وقلنا: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين. اللهم لك الحمد على ما أطعمت، ولك الحمد على ما سقيت.

ثم أخذنا «تليفريك» آخر، نطوف به، أو يطوف بنا، في أنحاء الجبل، ولا سيما في المناطق العليا منه، وبعد أن قضينا يوما كاملا، نزلنا إلى الأرض بالتلفريك أيضا، وذهبنا إلى الفندق لنقضي به ليلتنا.

وفي اليوم التالي، ذهبنا إلى «حمامات بورصة» المعدنية، التي يأتي إليها كثير من الناس للاستشفاء، وما دمنا موجودين في المدينة، فلنستفد منها.

وبعدها تجولنا في المدينة وما حولها، وخصوصا الجبال التي يشترى منها العسل الطبيعي، التي قال الله تعالى فيه: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ (النحل: ٦٩). وبتنا ليلتنا الثانية هناك، ثم عدنا إلى (يالوا) ومنها إلى إستانبول.

محاضرة في إستانبول:

وبعد العودة إلى إستنابول، أراد إخواننا الأتراك: الشيخ أمين سراج وإخوانه: أن ينظموا لي محاضرة عن «الزكاة» في مكان نسيت اسمه، حضرها عدد جيد من المشتغلين بالعلم والفكر الإسلامي، وأظن أن الذي كان يقوم بالترجمة، هو الصديق د. علي أرسلان أيدن، على ما أذكر، فطول المدة ينسي.

وعقب المحاضرة وُجِّهت إلى بعض الأسئلة، أجبت عنها، وانصرف الجميع بعد ذلك بسلام.

سعد سلامة:

وكان ممن سعدت به في هذه الصيفية: الأخ الحبيب سعد زين العابدين سلامة، ابن طنطا، ورفيقنا في السجن الحربي، وأحد رواة (النونية) وقد هاجر إلى ألمانيا وأقام فيها، وتزوج ألمانية، اعتنقت الإسلام، وحكى لنا: أنه ذهب بها إلى مصر لتزور أهله وتتعرف عليهم.

ومن اللطائف: أن الأخ سعدا ـ وهو شاب ظريف ـ أراد أن يضحك أهله، فحفظ امرأته جملة تقولها إذا سألوها عن شيء، فترد عليهم قائلة: أنا حمار كبير! فما إن سألوها عن شيء، حتى قالت لهم: أنا حمار كبير، فانفجروا بالضحك. وسألتهم: لماذا يضحكون، فعرفوها معنى الكلمة، وأن سعدا ضحك عليها، حين أفهمها أن لهذه الكلمة معنى آخر، وهو لا يقصد إلا المزاح، وإشاعة جو من الفكاهة والمرح.

وقد حكى لنا الأخ سعد عن الأيام الشداد التي مرت به، وخصوصا بعد أن انتهت صلاحية جوازه، وكان في حاجة إلى تجديده من السفارة، ولو ذهب إلى السفارة لأخذت منه الجواز، ولم ترده إليه، فكان سعد يكتب في صفحة التجديد في الجواز: جدد بمعرفتي! ويوقع: سعد سلامة! وتنقل بهذا الجواز في أنحاء أوربا وكل من رآه يعتقد أنه جدد! وهو يقول: لم أكذب ولم أزور: أنا كتبت جدد بمعرفتي، ووقعت صراحة باسمي، وهذا صحيح، فلم أقل: جدد بمعرفة السفارة أو القنصلية!!

إلى منتجع يَكَجِك:

وفي يوم من الأيام جاءنا الأخ الصديق د. طه الجوادي بسيارته المرسيدس، قائلا: أريد أن أنقلكم إلى منتجع جميل، في البر الآسيوي، اسمه (يكَجكْ) وفيه بيت للأخ مصطفى بلجه، ليس فيه أحد، يمكن أن تقضوا فيه يومين، أو ثلاثة.

وركبنا الباخرة التي تنقل السيارات، إلى الشاطئ الآخر، ثم ذهبنا إلى يكجك، وتركنا الأخ طه، وبقينا فيها يومين، أو ثلاثة، ثم عدنا إلى مقرنا في إستانبول.

رحلة في البحر الأسود:

ومما اقترحه علينا الإخوة: أن نذهب في رحلة في «البحر الأسود» تستغرق يوما كاملا، حيث تذهب السفينة إلى قرب الحدود، وننزل في المحطة الأخيرة، لنتغدى ونصلي ثم نعود إلى الباخرة، لنبدأ رحلة العودة. وكانت رحلة بحرية مميزة، قضينا فيها يوما من أجمل الأيام وأمتعها.

إجازة ممتعة:

الحق أن هذه الإجازة كانت إجازة ممتعة حقا، ومفيدة حقا، استمتعنا بزينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق، فقد تعانق عنصر المنفعة وعنصر الجمال في كل مكان نذهب إليه، من حيث توافر الحاجات المادية التي تتطلبها المعيشة بأثمان زهيدة، وتوافر الجمال الطبيعي في كل مكان.

وأنا امرؤ أعشق الجمال في كل شيء، وخصوصا جمال الطبيعة، التي رسمت لوحتها يد الرب الأعلى. الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى. هذا ا لجمال الذي أراه بعينيْ رأسي: مجسدا في الجبال الخضراء، والمياه الزرقاء، والحدائق الغناء، والجوامع الشامخة، والقلاع الشاهقة، والمتاحف الناطقة، فتطربني هذه المشاهد، كما يطرب المرء لسماع البلابل، وألحان العنادل، ولا غرو أن يطرب المؤمن للجمال يشاهده، أو يسمعه أو يحسه، فإن الله جميل يحب الجمال.

لقد أراد عبد الناصر أن يقهرنا وينكد علينا حياتنا، حين أغلق وطننا في وجهنا، فعوضنا الله جل جلاله بالسياحة في الأرض، والتعرف على أوطان المسلمين: مرة

في لبنان، ومرة في الأردن، ومرة في إستانبول، وهذا ضرب من العدل الإلهي لا يدركه إلا الأقلون: إذا تركت شيئا لله عوضك الله ما هو خير منه، من حيث لا تقصد، وربما من حيث لا تدري.

عودة إلى أضنه بالقطار:

وكل ما له بداية له نهاية، وكان لابد لهذه الإجازة، أن تبلغ نهايتها، ونودع إخواننا وأحباءنا، في إستانبول، وقد أكدوا علينا أن نعود مرة أخرى، وأكدنا لهم: أننا حريصون على هذه العودة، فلم نشبع بعد من هذه البلاد الجميلة.

بل إن بعض الإخوة أغرانا أن نشتري لنا في إستانبول منزلا أو شقة في مكان مناسب، نقضي فيه إجازتنا كل صيف، وإذا لم يقدر لنا المجيء في سنة ما، يمكن إجارة هذا البيت، وقالوا لنا: إن عددا من الدعاة والعلماء تملكوا هنا بيوتا، منهم الداعية الكبير الشيخ محمد محمود الصواف وغيره، ووعدناهم بأن ننظر في هذا العرض، في ضوء ظروفنا وقدراتنا.

واقترح بعض الإخوة: أن نعود إلى أضنه بواسطة القطار الذي ينقلنا إلى أضنه مرة واحدة، دون أن ننزل منه، ونأخذ غرفة في الدرجة الأولى ننام فيها بالليل، والقطار يأخذ حوالي عشرين ساعة.

وراق لنا هذا الاقتراح، لنكتشف هذه الوسيلة، إلى جوار ما اكتشفنا من وسائل النقل الأخرى: الحافلات، والبواخر وسيارات الأجرة الصغيرة (التاكسي).

وفي الوقت المحدد حملنا حقائبنا، أو قل: حملها إخواننا جزاهم الله خيرا، وذهبنا إلى محطة القطار، أسرتنا وأسرة الأخ الجماز، وقد وقف عدد من الإخوة يودعوننا، كما ودعناهم، وأعيننا تذرف، فقد توثقت روابط الأخوة في الله بيننا وبين هؤلاء الأحبة، الذين بذلوا من أنفسهم ومن أوقاتهم، ومن راحتهم، وربما من أموالهم، من أجل معاونتنا على حسن الإقامة، وأن نحيا في جوارهم حياة طيبة، جزاهم الله عنا خير ما يجزي المؤمنين الصادقين المخلصين.

وقد وصلنا إلى أضنه بعد رحلة شعرنا بمشقتها، وقد أثر دخان القطار على

ملابسنا وعلى أجسامنا، ولذا أسرعنا بالذهاب إلى الفندق لنبيت فيه، ونزيل عنا وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وآثار هذه الرحلة، فاغتسلنا وبدلنا ثيابنا، وبتنا ليلة في أضنه، لنستقل بعدها الطائرة إلى بيروت.

العودة إلى بيروت وبعدها إلى قطر:

عدنا بالطائرة من أضنه إلى بيروت، وانطلقنا من المطار إلى سوق الغرب لننزل في «فندق فاروق» الذي نزلنا فيه قبل أن نذهب إلى تركيا، فأقمنا فيه حوالي أسبوع، حتى يأتي موعد سفرنا إلى قطر.

وفي هذا الأسبوع فرصة للقاء إخواننا من الدعاة في لبنان، وأن ألقى الناشرين الإسلاميين الذين أتعامل معهم، ابتداء من المكتب الإسلامي، ودار الإرشاد، التي نشرت لي: الإيمان والحياة، والطبعة الثانية من كتابي «العبادة في الإسلام» وهي طبعة موسعة بحيث أصبح الكتاب ضعف ما كان في الطبعة الأولى.

وقد اتفقت مع «مؤسسة الرسالة» على نشر سلسلة «حتمية الحل الإسلامي» وهي سلسلة خطرت لي منذ صدر «الميثاق» في مصر، وفيه تركيز على ما سماه «حتمية الحل الاشتراكي».

فأردت إصدار هذه السلسلة، مستخدما نفس ألفاظها، مبينا أن الحل الحتمي، والحل المنطقي، والحل الطبيعي، والحل الشرعي، الذي يتحتم الرجوع إليه شرعا ووضعا، هو «الحل الإسلامي».

ودعاني الإخوة في بيروت لإلقاء بعض المحاضرات التي دعت إليها «الجماعة الإسلامية» في لبنان. وأهم أركانها الإخوة: فتحي يكن، وفيصل مولوى، وإبراهيم المصرى.

وما هي إلا أيام، حتى حان موعد العودة إلى الدوحة، وفي الموعد استقللنا طائرة الشرق الأوسط، وكانت هي الطائرة الوحيدة، التي تنقلنا إلى قطر. وعدنا بحمد الله تعالى إلى الدوحة، لنبدأ شوطا جديدا، لسنة دراسية جديدة، نسأل الله سبحانه أن تكون خيرا من سابقتها.

(٣)
السنة الدراسية
١٩٦٧ ـ ١٩٦٨م

السنة الدراسية ١٩٦٧-١٩٦٨م

ميلاد ابني محمد:

في هذه السنة، وفي منتصف شهر أكتوبر: ولد ابني محمد الذكر الأكبر من أبنائي، وكان لولادته فرحة عارمة، لا في قلب أسرتنا فقط، ولكن في الدوحة كلها، فقد كان الناس مهمومين بأمري، ويدعون لي أن يرزقني الله بإخوة لبناتي الأربع، ولقد استجاب الله الدعاء.

ولا أنكر أني - ووالدته - فرحنا بمقدمه، وسررنا له سرورا خاصا، بحكم الطبيعة البشرية، فكل الناس يحبون أن يكون لهم أولاد من الجنسين وخصوصا من الذكور، فهم الذين يخلدون اسم الأب، وبهم يضمن استمرار العائلة، وبدونهم تنقرض العائلة بعد جيل واحد، وهذا ما جعل الشاعر العربي يقول:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتنا

بنوهن أبناء الرجال الأباعد!

على أن الأولاد جميعا - بنين وبنات - إنما هم هبات المولى عز وجل لعباده، كما قال في كتابه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (الشورى: ٤٩، ٥٠).

وأذكر أن أحد مشايخي الذين كنت أعتز بهم، وأكن لهم الكثير من مشاعر الحب والتقدير، قد نصحني بعد أن رزقت بابنتي الرابعة أسماء: أن أكتفي بذلك، وأقف

عند هذا الحد، ولا داعي لتكليف أم العيال بالحمل والولادة! ومما قاله لي: يبدو يا شيخ يوسف أن حظك في البنات، وهن خير وبركة، فارض بما قسمه الله لك، وادع الله أن يبارك لك فيما أعطاك، ورُب أنثى خير من عدد من الذكور.

ولم أشأ أن أعترض على شيخي، أدبا واحتراما، ولكني لم أقتنع بما قاله لي، ولاسيما قوله: «ارض بما قسمه الله لك»! فمن أين أعلم: أن الله قسم لي الإناث دون الذكور؟ وما زال باب الرجاء في فضل الله مفتوحا، وأنا في الثلاثينيات من العمر، وزوجتي في العشرينيات، وما زلنا قادرين على الإنجاب؟

هذا إلى أن الامتناع عن الإنجاب قصدا غير محمود في مثل سننا ووضعنا، وقد اختلف الفقهاء في حكم العزل عن الزوجة - وهو من أسباب عدم الحمل - فمنهم من أباحه بشروط، ومنهم من كرهه، ومنهم من حرمه، وعَدَّه من «الوأد الخفي».

إنما يقال للإنسان: ارض بما قسم الله لك، فيما أصبح أمرا ثابتا، و لا يمكن تغييره، كما إذا خلقه الله أسود اللون، فلا ينبغي له أن يتحسر على أنه لم يولد أبيض البشرة! وكذلك إذا كان قصير القامة، أو مصابا بعاهة دائمة مثل العمى، أو كان محدود الذكاء، فهذه الأشياء وأمثالها هي التي يجب على المرء أن يرضى بها، فهي التي قسمها الله له، ولا يعيش متمنيا ما لا يكون.

وقد ورد في أسباب نزول القرآن: أن النساء تمنين أن يكون لهن مثل ما للرجال في كل شيء، وهذا مخالف لمقتضى الفطرة، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٣٢).

على كل حال، كانت هذه نصيحة شيخي رحمه الله، وقد قالها من باب الإشفاق علي، ولكن القدر خيب ظنه، ورزقت بمحمد، ثم بعد محمد بابنين آخرين، هما: عبد الرحمن، وأسامة، فكما تتابع البنات الأربع، تتابع الذكور

الثلاثة، والحمد لله على ما أعطى، اللهم ما أصبح وأمسى بي من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر.

ومما شرعه النبي صلى الله عليه وسلم لأمته: العقيقة، وهي ذبيحة من الغنم تذبح تقربا إلى الله تعالى، وشكرا على نعمائه، يوسع المرء بها على أهله وأولاده، ويهدي منها لأقربائه وأصدقائه، أو يدعوهم للأكل منها، ويوزع جزءا منها على الفقراء والمساكين، ليشركهم في أفراحه ومسراته.

وبعض المذاهب الإسلامية ترى أن يذبح عن الابن الذكر شاتين، وقد ورد في ذلك حديث نبوي شريف[1]؛ لأن الناس يفرحون بالذكر أكثر، فعليهم أن يبذلوا مقابل هذه الفرحة، فيما فيه خير للناس.

والحمد لله، كانت عقيقة محمد: أربع خراف، اجتمع عليها الأصدقاء والأحبة من المصريين والقطريين والفلسطينين وغيرهم ممن يقيمون في قطر، حتى قال بعضهم: لقد دعينا إلى عقائق كثيرة، ولكن لم نذق ألذ ولا أحلى من هذه العقيقة! قلت: إنما حلاّها الحب، أما سمعتم المثل القائل: بَصَلَةُ المُحِب خروف؟ فماذا يكون خروف المحب؟!!

وأود أن أقرر حقيقة هنا، وهي: أني -برغم شوقي إلى الأبناء الذكور وفرحتي الغامرة بابني الأول- لم ينل ذلك من حبي لبناتي الأربع، ولم يتغير قلبي من ناحيتهن، ولم أسرف في تدليل ابني الأول، كما هو المعتاد في مثل هذه الأحوال، التي يفقد فيها الآباء والأمهات فيها قيمة العدل والمساواة بين الأولاد، لا سيما مع المولود الأول، أو الابن (الذكر) الأول، أو المولود الأخير، الذي يقولون عنه: آخر العنقود، سكر معقود!

فأشهد الله تباركت أسماؤه: أني لا أحس بأي تفضيل لأحد من أولادي -ذكورا وإناثا- على أخيه أو أخته، وكثيرا ما سألني الصحفيون في حواراتهم: أي الأولاد

(١) رواه أحمد (٦٦٩٨) والنسائي (٤٢١٢) عن عبد الله بن عمرو.

أحب إليك أو أقرب إلى قلبك؟ فأقول لهم: كلهم حبيب إلى، قريب إلى قلبي، لا يوجد «أفعل تفضيل» بين بعضهم وبعض، وهذه حقيقة أعلنها صراحة وأشهد الله عليها.

ولكني أشهد هنا شهادة مهمة أيضا، وهي: أن البنات نالهن من اهتمامي أكثر مما نال الأبناء الذكور. وسبب ذلك: أن الذكور رزقت بهم، في فترة الانطلاق والانتشار في العالم، فلم أفرغ لهم كما فرغت لأخواتهم. وربما أدرك محمد بعض هذا الاهتمام في سنواته الأولى أكثر من أخويه.

فقد كنت آخذه إلى المدرسة معي في سيارتي، وكانت مدرسة أبي بكر بجوار المعهد الديني، وكنت أسمع له القرآن في ذهابي به، بل كنت آخذه عدة مرات في المساء ليشارك في ألعاب «الجمباز» في المدرسة، وكان جسمه رياضيا، واستعداده جيدا.

كما أعترف هنا بأمر آخر، وهو: أني خلال أسفاري، في بلاد العالم، وخصوصا أوربا وأمريكا والشرق الأقصى: كنت أحاول أن أعود حاملا الهدايا لزوجي وأولادي. وكان الذي يزعجني دائما: أن ٩٠٪ من المحلات التجارية الكبرى، تخص البنات والنساء، فأشتري لهن ما شاء الله، ولا أكاد أجد ما يصلح للأبناء. وهو أمر كان يحز في نفسي كثيرا، ولا أجد له حلا. وكثيرا ما كنت أصارحهم بذلك، حتى لا أتهم بالتحيز للبنات، مع أن الآباء يتهمون عادة بأنهم أميل إلى الذكور منهم إلى البنات.

ولقد كانت طفولة محمد هادئة وسوية ومريحة بفضل الله تعالى، ولم يحدث فيها ما يزعج أو يقلق، بل مرت خفيفة لطيفة، كما تمر نسمات الصباح في أيام الربيع.

ولم يكن أخواته البنات يشعرن بغيرة منه، أو منافسة له، أو نحو ذلك، بل كن جميعا يحببنه ويتنافسن على حمله، وفي أسفارنا كانت كل واحدة تحرص على أن يكون لها حظ في حمل «ميمي» وهو اسم «الدلع» أو التدليل كما يقول المصريون،

وكـان مـحـمـد إذا سئل عن اسـمـه، يقـول: أنا «مـيـمي ضـاوي» أي مـحـمـد القرضاوي. .

ومن الطرائف: أن إحـدى صـديقـات الأسـرة، كـانوا ينادونهـا «تانت مـيـمي» فاتصلت مرة بالهاتف، ورد عليها محمد، وقالت له: قل لماما: تانت ميمي، فقال محمد لأمه: تانت محمد تطلبك، ظن أن كل «ميمي» اختصار لمحمد!

ولا أجد مانعا شرعيا فى هذا التدليل الذى يستخدمه المصريون وغيرهم فى مخاطبة الأطفال، وقد كان العرب قديما، يفعلون ما يشبه ذلك عن طريق تصغير الاسماء تصغير «تمليح» كما يقول العلماء، فيطلقون على عامر: عويمر أو عمير. وعلى زينب: زوينب، كمـا كـان عندهم طريقـة الترخيم فى النداء بحذف آخر الكلمة، فبدل أن يقال: «يا صاحب»، يقال: يا صاح. وبدل «يا فاطمة» يقال: فاطم!

وكان الرسول يدلل بعض الأولاد بالتكنية كقوله لابن أبى طلحة: يا أبا عمير، ما فعل النّغير؟!

إجازة صيف ١٩٦٨:

كنا حين يحل موعد الإجازة الصيفية، نهرع للفرار من قيظ قطر، بعد أن جربته في صيف سنة ١٩٦٥، وجر علي ما جر من متاعب صحية، ووجدت الشفاء في جو لبنان المنعش الجميل، ولا سيما جو جبال لبنان.

وفي صيف هذه السنة ١٩٦٨م بادرنا منذ أول الإجازة بالسفر إلى لبنان، لنقيم بها أياما، ثم نحزم أمتعتنا إلى إستنابول التي أنسنا بجوها وبوسفورها وجبالها وخضرتها ونضرتها، كما استمتعنا بجوامعها وحدائقها وأسواقها ومتاحفها، وسعدنا أكثر بأهلها وسكانها.

ولذا صممنا على أن نعود إليها مرة أخرى، وقد عرفنا الطريق إليها، وحفظنا مدخلها ومخرجها.

كتابان لي أعدا للنشر:

وأقمنا في سوق الغرب في فندق فاروق الذي ألفناه وألفنا، حتى نرتب السفر إلى تركيا، وحتى أتصل بدور النشر التي أتعامل معها، لنشر ما أعددته من كتب، وكان معي - على ما أذكر - أصول كتابين لي: الأول: كتاب سياسي (درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف ننتصر؟) سلمته لدار الإرشاد لنشره، وقد نشرت لي من قبل: الإيمان والحياة، والطبعة الثانية من كتابي «العبادة في الإسلام». والمقصود بالنكبة الثانية: نكبة ١٩٦٧، ولم أشأ أن أسميها «النكسة» كما سماها الثوريون العرب، إذ لم ينتصروا قبل ذلك حتى ينتكسوا! وأما النكبة الأولى فهي نكبة ١٩٤٨م. والكتاب الثاني: كتاب أدبي، وإن لم يكن موضوعه بعيدا عن السياسة، وهو: مسرحية «عالم وطاغية».

مسرحية «عالم وطاغية»:

كنت قد كتبت قديما - وأنا في معتقل هايكستب والطور سنة ١٩٤٩م - مسرحية تاريخية تجسد قصة العالم الفقيه المؤمن المجاهد: سعيد بن جبير أحد أصحاب ابن عباس، مع الطاغية الجبار الظلوم: الحجاج بن يوسف، وكيف قتله سفاح بني أمية. وكنت تركتها مع بعض الإخوان في الطور، حيث كنت في أول فوج أفرج عنه. وعلمت أن الإخوان الذين بقوا في الطور مثلوها، وقد لاقت استحسانا وقبولا.

وكانت أصول هذه المسرحية قد ضاعت تماما، ولم أفكر في كتابتها من جديد، إلا بعد الحكم بالإعدام على سيد قطب، وتنفيذ هذا الحكم، برغم نداءات المسلمين، وشفاعات الشافعين، في كل مكان. فقام لدي دافع قوي لأعيد كتابة هذه المسرحية التاريخية، لإسقاط التاريخ على الواقع، وكأنما هي دفاع أدبي عن الشهيد سيد قطب رحمه الله. فكتبتها ونشرتها بعنوان: «عالم وطاغية» العالم هو: ابن جبير، والطاغية هو: الحجاج. وبعد كتابتها سلمتها إلى «دار الإرشاد» في بيروت لنشرها، في صيف ١٩٦٧م - على ما أذكر - وقد طبعت مرات عدة: في بيروت وفي مصر، وفي الجزائر وغيرها، كسائر كتبي.

وأحمد الله تعالى: أن قراءها استحسنوها وأثنوا عليها، وقد مثلت في عدد من البلدان، أولها: قطر، فقد مثلها طلاب المعهد الديني - الذي كنت مديره - وكان مخرجها الزميل أحمد اليازوري مدرس الإنجليزي، الذي كان يعرف شيئا في فن الإخراج، وقد نجحت في ذلك الوقت. ثم مثلت بعد ذلك بسنوات على يد محترفين في المسرح التربوي.

كما مثلت في عدد من الأقطار منها: اليمن، ولبنان، وغيرهما.

وكان هذا هو العمل الأدبي الثاني، الذي أكتبه في صورة «مسرحية». فقد كان العمل الأول «مسرحية شعرية» أنشأتها في عهد مبكر، وأنا في السنة الأولى الثانوية. وهي تمثل قصة سيدنا يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وسميتها «يوسف الصديق» وقد تحدثت عنها في الجزء الأول. ولم تمثل هذه المسرحية لأنها تتعلق بنبي ورسول من أنبياء الله ورسله. وقد أجمع العلماء في مصر وغيرها من بلاد الإسلام على أن رسل الله لا يمثلون.

ولم أجرب قلمي في ميدان «القصة القصيرة» أو «الرواية» وأظن أني حاولت ذلك في فترة مبكرة من عمري، فلم يسلس لي قيادها، وكان الشعر غالبا عليّ، وكل ميسر لما خلق له.

كما سلمت الجزء الأول من سلسلة «حتمية الحل الإسلامي» لمؤسسة «الرسالة» التي أنشأها صديقنا الأستاذ رضوان دعبول، الذي جاء حديثا من المملكة السعودية، وكان يعمل بها مدرسا للرياضيات، ولكنه آثر أن يستقيل، ويعمل في مجال النشر، وكنت من أوائل من تعامل معه قبل أن تتضخم مؤسسته، ويذيع صيتها، وتنشر الموسوعات الحديثية وغيرها، مثل: موسوعة مسند الإمام أحمد، في ٥٠ مجلدا و«تهذيب الكمال» في ٣٥ مجلدا، وسير أعلام النبلاء في ٢٥ مجلدا، وصحيح ابن حبان في ١٨ مجلدا، وغيرها من كتب الفقه والتفسير والتاريخ واللغة، وغيرها من الفنون.

وبعد أيام من إقامتنا في لبنان: أخذنا الطائرة إلى «أضنه» ولم نقم بها أكثر من ليلة واحدة، فقد زرنا معالمها السياحية في الإجازة الماضية، وفي الصباح أخذنا

الحافلة السياحية، إلى أنقرة وبتنا بها ليلة، لنأخذ طريقنا في الصباح إلى إستانبول، ولم نخطئ كما أخطأنا في المرة الماضية، لننزل في البر الآسيوي، ولكنا نزلنا في البر الأوربي، ونزلنا في فندق «كنت» في «أقصراي» بالقرب من «جامع بايزيد» وكانت تكفينا حجرتان: حجرة لنا، وحجرة للبنات.

ولكن تميزت هذه الزيارة عن زيارة العام الماضي: أن كان معنا ابننا محمد، وكان عمره نحو تسعة أشهر، فكانت أمه وأختاه الكبيرتان (إلهام وسهام) يتعاقبن على حمله.

وكان الأخ الحبيب د. مصطفى بلجه قد دعاني والأسرة، لنقيم في بيتهم الذي تملكه العائلة في منتجع «يكجك» الذي أقمنا فيه أياما في الصيف الماضي، وقد استجبت لدعوته، وقبلت ضيافته شاكرا ومقدرا ولكن لمدة شهر فقط، على أن نبدأ ذلك بعد عدة أيام.

ندوة إخوانية بحثية في إستانبول:

وكنا قد اتفقنا ـ أنا وعدد من الإخوان المصريين خاصة ـ أن نلتقي في مدينة إستانبول، لنتدارس بعض القضايا المهمة الخاصة بالدعوة، ونقدم فيها ورقات للبحث والمناقشة. وكان الغالب على هذه القضايا: الجانب الفكري وتأصيل المفاهيم. وخصوصا بعد أن دار جدل حام بين الإخوان بعد محنة ١٩٦٥م، داخل السجون، وخارجها، وطار رذاذ منه إلى الخارج، وحدث التباس في عدد من القضايا، مثل قضية «الجاهلية» وقضية «الحاكمية» وقضية «التكفير» وغيرها.

وقد مرت بالجماعة ثلاث محن كبيرة في تاريخها: محنة في عهد الملكية، ومحنتان أكبر منها وأقسى في عهد الثورة، كل محنة أكبر من أختها.

ومن حق الجماعة، بل من واجبها: أن تراجع نفسها، وتقوِّم مناهجها، على غرار ما تفعل وزارات التربية، والجامعات، والمؤسسات المختلفة، في ضرورة

مراجعة فلسفتها ومناهجها وسياساتها كل مدة من الزمن، لعلها تجد خللا فتسده، أو نقصا فتكملة، أو عيبا فتصلحه، أو خطأ فتصححه، وإن جماعة مضى على تأسيسها أربعون عاما، لهي أجدر بأن تراجع نفسها، وتُقَوِّم مسيرتها، طلبا للتصحيح والتصويب والتعديل والتكميل والتحسين، والمؤمن دائما ينشد الأمثل والأحسن، كما قال تعالى في وصف المهتدين من أولي الألباب: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر: ١٨).

وقد شاركت في هذه الندوة بورقتين، إحداهما حول «التقليد والتمذهب في الفقه» والأخرى حول «التصوف والصوفية» ومحاولة تحرير موقفنا من هذين الأمرين.

وكان المشاركون في هذه الندوة على ما أذكر: د. توفيق الشاوي، والأستاذ هارون المجددي، والأستاذ عبد البديع صقر، والشيخ أحمد العسال، ود. صلاح شاهين، وآخرين لم أعد أذكرهم لطول الزمن.

وكان لقاء خصبا ونافعا، نناقش فيه الموضوعات بكل حرية، بعيدا عن ضغط السلطان، وعن ضغط الجماهير أيضا، وكثيرا ما يكون ضغط العامة على الخاصة، أو ضغط الجماهير على أهل العلم والفكر: أشد خطرا من ضغط الحكومات.

ولذا كان التوجيه القرآني: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ (سبأ: ٤٦). ومعنى: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾: أن يفكر كل فرد مع رفيقه أو يخلو إلى نفسه، أي بعيدا عن تأثير العقل الجمعي، وهنا نحن في جوّ حر حرية تامة، لا ضغط علينا من الخارج، ولا من الداخل، أي لا ضغط من الحكومة، ولا من الجماعة.

وكان الذي دفعنا إلى هذا اللقاء: شعورنا المشترك بأن الجانب الفكري في

الجماعة، يجب أن ينمَّى وأن يؤصل، وأن نتقل من سيحان «النزعة العاطفية» إلى انضباط «العقلية العلمية» وأن نساعد على أن تفرز الجماعة: أجيالا من «العلماء»، الذين يتميزون بالتدقيق، لا من «الخطباء» الذين يُعرفون بالإثارة. وفي بعض الآثار الواردة: إنه «سيأتي على الناس زمان كثير خطباؤه، قليل علماؤه»! وحتى لا تفهم الجماعة بأنها تغلب عليها «ثقافة المنابر»!

وبعد لقائنا عدة أيام لا أذكر عددها، انصرفنا على أن نكرر هذه الندوة كلما وجدنا إلى ذلك سبيلا، ولكن المؤسف أننا لم نكررها، ربما لأن الظروف والأوضاع لم تساعدنا على ما نريد.

إلى منتجع يكجك:

بعد أن فرغنا من ندوتنا: أخذنا حقائبنا، لنذهب إلى «يكجك» في الجانب الآسيوي من تركيا، وهذا يقتضي أن نجتاز «البوسفور» بالباخرة، التي تنقلنا من شاطئ إلى شاطئ، أو من أوربا إلى آسيا، من مرسى «قاضي كوى» إلى مرسى «كرا كوي».

وكان الذي تولى نقلنا الأخ الكريم الحبيب المعطاء دائما الدكتور طه الجوادي، الذي طالما وضع سيارته المرسيدس في خدمتنا، جزاه الله عنا خيرا.

وبعد ذلك عرفنا الطريق من «يكجك» إلى إستانبول، وهو استئجار تاكسي، ليحملنا إلى «كرا كوي» ثم نأخذ الباخرة إلى البر الآخر، وهناك نكون في قلب إستانبول، وفي المنطقة الحية منها، فأحيانا نمشي على أقدامنا، وأحيانا نستأجر سيارة.

وكنا ننزل في إستانبول معظم الأيام، لنتنزه في حدائقها، أو نتجول في أسواقها، أو نصلي في مساجدها، أو نتفرج على متاحفها، وفي آخر النهار نعود إلى منزلنا في يكجك.

ضياع ابنتي أسماء ثم وجدانها:

وفي أحد الأيام حدثت واقعة لا أنساها ولا تنساها أسرتي، وهي: ضياع ابنتي أسماء منا، ثم وجدانها.

فقد كنا في مرة من مرات نزولنا إلى إستانبول، في إحدى الحدائق الشهيرة القريبة من جامع السلطان أحمد وجامع أيا صوفيا، وتسمى «جول هانا» ومعنى «جول»: الزهر، و«هانا»: خانة، أي مكان، ومعنى العبارة: حديقة الأزهار، وكانت الحديقة تحتوي أراجيح للعب الأطفال، وأدوات مختلفة للهوهم ولعبهم، وكان كثير من الأتراك يذهبون إليها في إجازة نهاية الأسبوع ليقضوا يومهم في رحابها، يتناولون طعامهم بها، ثم ينصرفون مساء اليوم عائدين إلى منازلهم.

قضينا نهارنا في الحديقة، ننعم بخضرتها، وتستمتع البنات باللعب والقفز والجري في الحديقة الرحبة تحت أعيننا ورقابتنا.

وبعد العصر، وبعد أن شبعت البنات لعبا وتزحلقا وركضا، قمنا لنأخذ طريقنا للعود إلى مقامنا في يكجك، ومضينا نمشي رويدا رويدا في الحديقة الواسعة، وقبل أن نصل إلى باب الحديقة، عرجنا على صنابير للماء العذب، فقلنا: نتزود بالشرب منها قبل العودة، ومرت دقائق معدودة في هذه التعريجة، ثم انطلقنا، لنكتشف أن ابنتنا الصغرى أسماء غير موجودة. أين أسماء؟ التفتنا يمينا وشمالا، وبحثنا عنها هنا وهناك، وظللت أركض ركض الحصان في أنحاء الحديقة، وكنت لا أزال بقوتي، فلم نجد لها أثرا، حاولنا أن نعلن عنها في ميكروفون الحديقة، ولكن كانت مشكلة اللغة، فوجدنا أحد الإخوة العراقيين الذين يعرفون التركية، ليعلن عن طفلة عمرها كذا، وتلبس ثيابا لونها كذا.. ولم يرد علينا أحد.

يا للمأساة! أنأتي لنشم الهواء، فنضيّع ابنتنا وفلذة كبدنا؟ ما أقساه من شعور، وما أمرّه من إحساس! أخطفت البنت أم تاهت؟ وأين تاهت؟ وكيف نجدها؟ هل

يمكن أن تضيع البنت منا ولا تعود؟ ياللهول! أنسافر بابنتنا وهي ملء السمع والبصر، ثم نعود بغيرها؟ والأدهى من ذلك والأمر: أننا لا نعرف مصيرها: أفي الأحياء أم في الأموات؟ لقد مر وقت عليّ وعلى أمها لا يعلم إلا الله مدى صعوبته علينا، ومرارته في حلوقنا. اللهم رد إلينا ابنتنا يا ذا الجلال والإكرام. يا حي يا قيوم برحمتك نستغيث. ودعوت بدعاء ذي النون حين نادى في الظلمات: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. وقد جاء في الحديث: «دعوة أخي ذي النون: ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه».

وقلنا: لم يبق إلا أن نبلغ الشرطة، لنشركهم معنا في البحث عنها، وكان قسم الشرطة قريبا منا، فذهبنا إليه مشيا على أرجلنا، وأبلغناه بالحادث، ورجوناهم أن يساعدونا في نكبتنا، وكان الأخ العراقي الذي يعرف التركية معي. لم يفارقني، شهامة منه، وتقديرا لحاجتنا إليه، ليقوم بالترجمة نيابة عنا، وبالفعل أرسلوا إشارة إلى الأقسام المختلفة في المدينة، ليبلغوهم عن أي معلومات تتعلق بالطفلة المفقودة.

وعدت إلى أسرتي حيث بقيت منتظرة في الحديقة، وأخبرتهم بإبلاغنا للشرطة، ووعدهم بأنهم لن يدخروا وسعا في البحث، وسيخبروننا بأي جديد يحصلون عليه.

وبقينا وقتا ننتظر جوابا، وأمست قلوبنا معلقة بهذا الأمل، ونحن دائمو التضرع إلى الله، ندعوه دعاء المضطر أن يرد إلينا ابنتنا الحبيبة، وأن لا يردنا عن بابه خائبين. وبعد مرور ما يقرب من الساعتين، مرتا كأنهما دهر طويل، ذهبنا ـ أنا والأخ العراقي الشهم ـ لنراجع القسم، فقال المسؤول: أبشروا! البنت موجودة في قسم شهرمينا، وفي حالة طيبة، وقد أبلغناهم أن يحتفظوا بها، حتى تذهبوا إليها لتتسلموها، وسجدت لله تعالى شكرا، وحمدا لله جل شأنه أن استجاب لدعائنا، ورحم ضعفنا، فالحمد لله رب العالمين، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه.

عدت لأبشر زوجتي وأولادي؛ أننا وجدنا الحبيبة أسماء، وأن علينا أن نذهب لأخذها من القسم، وبعد ذلك نعود إلى منزلنا في منتجع يكجك.

ووصلنا - أنا والأخ العراقي - إلى قسم شهرمينا بسيارة أجرة، وكان بعيدا كثيرا عن المكان الذي نحن فيه، ودخلنا القسم، فوجدنا «أسماء» يداعبها بعضهم، ويحاولون أن يهدئوا من روعها، ويطمئنوها حتى يأتي أهلها، وقد وضعوا في يدها بعض القروش التركية.

وكان الأخ العراقي يترجم بيني وبينهم، وقد فهمت منه ماذا حدث. لقد كنا كلنا نمشي خارجين من الحديقة، ثم توقفنا هنيهة لشرب الماء، ولكن أسماء لم تنتبه لتوقفنا، وظلت تمشي منطلقة إلى الباب، حتى خرجت من الحديقة، وبمجرد خروجها من الحديقة أحست أنها تمشي وحدها، وأن أحدا ليس معها، فوقفت تبكي، فرآها أحد المارة تبكي، وكلمها فعرف أنها عربية ولا تحسن التركية، وكان الرجل طيبا، فخاف عليها أن تقع في يد شريرة، فأخذها في يده، وكان هو عائدا إلى منزله في شهرمينا، ومن هناك ذهب إلى قسم الشرطة ليسلمها إليهم، ويحكي لهم كيف وجدها، وكيف أخذها.

وعدت بابنتي أسماء - أنا والأخ العراقي - إلى الحديقة، حيث ينتظرنا الأسرة، فما أن رأوا أسماء حتى احتضنتها أمها باكية من الفرح، وسر بها أخواتها، وعاد الانتعاش والبهجة إلى الأسرة، وشكرنا أخانا العراقي الكريم الذي وضع نفسه في خدمتنا، وهو لا يعرف عنا شيئا، إلا أني عربي مسلم. أسأل الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناته.

ثم بدأنا رحلتنا المعتادة من إستانبول إلى مقرنا في يكجك، فرحين بفضل الله ورحمته.

وبذلك ختمت هذه القصة الدرامية، التي أرهقتنا ساعات معدودة، ولكنها مرت بطيئة كأنها شهور!

(٤)
السنة الدراسية
١٩٦٨ ـ ١٩٦٩م

السنة الدراسية ١٩٦٨-١٩٦٩م

رجال الثورة لم يستفيدوا من درس النكبة:

كنت أعيش فى قطر، ولكنى مهموم بما يجرى فى مصر، أتابعه بعقلى وقلبى، بوجدانى وإحساسى، وذلك لعدة أسباب:

أولها: أن فى مصر أهلى وأرحامى وإخوانى، الذين لا يمكن أن أنساهم. وقد قال الشاعر:

بلادى - وإن جارت علىّ - عزيزة

وأهلى - وإن ضنوا علىّ - كرام!

وثانيها: أنى أؤمن بأن بلاد العرب - بل بلاد المسلمين عامة - وطن واحد، يسميه الفقهاء «دار الإسلام»؛ لا ديار الإسلام، للإشعار بوحدة الأمة ووحدة الوطن.

وثالثها: أن ما يجرى فى مصر بخاصة يؤثر فى البلاد العربية بخاصة، وفى البلاد الإسلامية بعامة، لما لمصر من مكانة دينية وعلمية وتاريخية.

فلا يلومنى القارئ الكريم إذا عنيت بأحداث مصر، ولا سيما بعد نكبة عام ١٩٦٧م.

لقد كانت هزيمة يونيو ١٩٦٧ كافية لأن يأخذ منها عبد الناصر درسا وعبرة، ليغير من خطه، ومن سياسته، ويتنازل عن كبريائه، ويتعاطف مع أبناء شعبه الذين ردوه إلى الحكم بعد أن تنحى عنه.

كان المظنون أن يتعلم الدكتاتور: أن الدائرة تدور، وأن الدنيا دول ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠). وقد ذهب نائبه وصديقه، وطويت صفحته، ولم تبك عليه السماء ولا الأرض، وهما لا تبكيان أبدا على الطغاة الظالمين، كما قال تعالى في فرعون وملئه: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٥ ـ ٢٩).

وكانت لهجة عبد الناصر في أول الأمر توهم بنوع من التغير، كما لاحظنا في خطابه في ٢٣ يوليو ١٩٦٧م، ثم ما لبث أن غلب عليه طبعه، أو وسوس له شياطينه، فاستمر في نهجه الدكتاتوري، وتوجهه المجافي للإسلام ودعاته، وللحرية وطلابها، فقد كان الناس يتوقعون: أن تطلق الحريات، ويفرج عن كل المعتقلين والمسجونين السياسيين، وأن تعود الحرية للصحافة، كما كانت قبل الثورة، ويسمح بتكوين الأحزاب السياسية، ويقلع عبد الناصر عن تنظيم الحزب الواحد، وأن يسود القانون، وأن يشعر الناس بأنهم عادوا أحرارا، كما خلقهم الله، وكما ولدتهم أمهاتهم.

ولكن للأسف لم يحدث ذلك، بل حدثت وقائع كثيرة وعجيبة، تدل على أن القوم لم يعوا الدرس، ولم يحسنوا قراءة ما وقع. والمصريون يقولون:

أعلّمكْ ما علّمكْ

والطبع فيكْ غالبْ!

والكلب ذيله ما ينعدل

ولو علقت فيه قالب!

وكان أخطر ما حدث في هذه الفترة ما عرف باسم «مذبحة القضاء» فكأن عبد الناصر وجماعته لم يعوا من الدرس سطرا ولا حرفا. وكأنهم عمي لا

يبصرون، أو صم لا يسمعون، مع أن الحدث هائل هائل، جدير أن يرى من كانت له عين، وأن يسمع من كانت له أذن. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧).

مذبحة القضاء المروعة:

لم يكن عجبا أن تحدث «مذبحة القضاء» على يد الثورة، فالقوم لم يكونوا يبالون بشرع ولا قانون، ولا يطيقون أي أحد أو أي حاجز - من قانون أو أخلاق أو دين - يقف في طريقهم.

ولهذا كان بينهم وبين القضاء ورجال القضاء جفوة، إن لم يكن صراع يخفى حينا ويظهر في بعض الأحيان.

ويروي الأستاذ محمد شوكت التوني: أن المشير «عبد الحكيم عامر» طلب مرة القبض على بعض الصحفيين، ولكن وزير العدل في ذلك الوقت، لم ينفذ هذا الطلب؛ فاتصل به المشير تليفونيا وسأله بلهجة شاذة قائلا: لماذا لم تقبض على الصحفيين؟ فأجاب الوزير: القانون يا فندم. فقال له المشير: قانون إيه؟ بلاش تخلف!(١).

وفي يوم ٢٣ يونيو ١٩٦٦ أعلن شعرواي جمعة: أنه ضد تدخل النيابة في التحريات والتحقيقات، لأنه في كل الموضوعات التي نحيلها إليها تنتهي بالبراءة؛ لأن النيابة ببساطة تسير الأمور فيها بالطرق القانونية! ولهذا ينبغي أن نحيل أمثال هذه الموضوعات إلى جهات ثورية للتحقيق فيها، مثل المخابرات العامة، والمخابرات العسكرية، والمباحث الجنائية، والعسكرية! بدلا من الدخول في دوامة القوانين التي تنتهي دائما بالبراءة(٢).

---

(١) قضية التعذيب الكبرى ص٣٨٤.

(٢) محمد عبد الرحيم عنبر: محاكمة جمال عبد الناصر (١/ ٧٦).

وتبعا لهذا الاتجاه، كان لدى سعد زايد ـ محافظ القاهرة ـ «فلَقة» يحتفظ بها في مكتبه، وهو يقول: إنها وسيلته لحل المشكلات[1].

ومن دلائل إهدار القانون: ما يذكره الأستاذ جلال الحمامصي بقوله: وقد تكررت ظاهرة إغفال نشر بعض القوانين، أو التراخي في نشرها، أو إعطاء تاريخ للنشر مغاير للتاريخ الحقيقي، أو النشر في عدد رمزي من الوقائع المصرية لا تطبع منه إلا نسخ قليلة جدا. . . . وفي هذا مخاطرة بحقوق المواطنين، وإهدار لسيادة القانون، ومجافاة لروح بيان ٣٠ مارس[2].

ويقول الدكتور أحمد شلبي معلقا:

وهكذا كان وضع القانون على الرف: مصدر المآسي التي عاناها شعبنا طيلة عشرين عاما، ولم يكن للمواطن ملاذ يلجأ إليه، أو تشريع يعتمد عليه[3].

كل هذا مهد لوقوع مأساة القضاء، التي لم نر ولم نسمع بمثلها في أي بلد في العالم، مما يدل على الاستهانة المطلقة بحقوق الشعوب، وصيانة الحريات، كما يدل على أن القوم لم يأخذوا أي عبرة من النكبة أو النكسة كما سموها، وصدق الله العظيم إذ قال في مثل هؤلاء: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الأنعام: ٢٨).

وقد كتب المستشار محمد عبد السلام ـ النائب العام ـ عن مذبحة القضاء والتمهيد لها في كتابه «سنوات عصيبة» وكان مما قاله:

«المفروض أن المهمة الأولى لوزير العدل هي: تثبيت دعائم استقلال القضاء، وإشاعة روح الطمأنينة بين القضاة، ولكن وزير هذه الحقبة ـ السيد محمد أبو نصير ـ كان بعيدا كل البعد عن هذا الاتجاه، وكانت له سياسة مرسومة هدفها: هدم القضاء

---

(١) المستشار محمد عبد السلام: سنوات عصيبة ص٨٦.

(٢) حوار وراء الأسوار ص٢٠٠.

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامي (٩/ ٧٦٨-٧٧٠).

واحتواؤه سياسيا. وكان يرى النقد الذي يمسه حملة موجهة ضد الحكومة، بل يعطيها الشعار الذي كان شائعا وهو «ثورة مضادة»، ومن هنا يتجه عبد الناصر لمقاومتها والقضاء عليها.

«ووافق اتجاه الوزير هوى لدى حكومة عبد الناصر، التي لم تكن راضية عن اتجاهات القضاء والنيابة كما ذكرنا من قبل، ثم إن الوزير قرَّب إليه بعض العناصر «القضائية» التي كان بها جانب من الانحراف، فعمل هؤلاء ضد الكثرة الصالحة.

«وعُقدت الجمعية العمومية للقضاة في ٢٨ مارس سنة ١٩٦٨ لتجديد انتخاب ثلث الأعضاء، فأصدرت الجمعية بيانا تحدث عن وجوب سيادة القانون، واستقلال السلطة القضائية، والبعد بالقضاة عن التنظيمات السياسية كافة، كما تحدث عن وجوب تخصص القضاة وتفرغهم، وأن النيابة العامة جزء لا يتجزأ من القضاء، وجاء في البيان رد عما يقال عن الالتجاء للقضاء الشعبي في بعض القضايا.

«وقد واجه علي صبري هذا البيان بمقالات نشرتها جريدة «الجمهورية» تندد بالقضاة، وتطلب إشراكهم في تنظيمات الاتحاد الاشتراكي، وتسخر من القاعدة التي اتفقت عليها الشرائع الدنيوية والسماوية، والتي ترى درء الحدود بالشبهات، وتفسر الشك لصالح المتهم. ثم طلب علي صبري: تعيين ثمانية من شبان الاتحاد الاشتراكي في وظائف معاوني نيابة دون مراعاة أسبقيتهم في ترتيب التخرج، فلما اعترضتُ على ذلك أصدر قرارا جمهوريا بتعيينهم.

«وعندما جاء موعد انتخاب نادي القضاة سقط أتباع الوزير الذين كانوا يسمون «مرشحي الحكومة»، فجاء دور الانتقام ممثلا فيما سمي «مذبحة القضاء» في ٣١ أغسطس سنة ١٩٦٩، وقضت هذه المذبحة بوقف العمل بقانون السلطة القضائية، وبحصانة القضاة كبيرهم وصغيرهم، وفُصل جميع أعضاء مجلس نادي القضاة، وعدد كبير من القضاة ورجال النيابة. ولتغطية هذا التصرف الشاذ صدر قرار بفصل

جميع رجال القضاء، ثم أعيد منهم من لم يشترك في إغضاب الحكومة، وكانت هذه مأساة تُعد الأولى من نوعها، فهي من مبتكرات هذا العهد، وظل رجال القضاء المفصولون بعيدين عن وظائفهم حتى أعادتهم ثورة التصحيح، وأزالت الظلم عن المظلومين»(١).

من ثمرات نكبة ١٩٦٧م ميلاد الصحوة الإسلامية:

لقد كانت نكبة ١٩٦٧ كارثة على مصر، وعلى سورية، وعلى فلسطين، وعلى الأردن، وعلى العالم العربي كله.

لقد كانت خسائرها المادية جسيمة، كما ذكرها عبد الناصر في أكثر من خطاب له، وكما أشرنا إليها من قبل.

ومع هذا، قدر الله تعالى أن يجعل من وراء هذه المصيبة خيرا كثيرا، والعرب يقولون: رب ضارة نافعة. والصوفية يقولون: كم من منحة في طي محنة. والله تعالى يقول: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦). ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩).

ومن هذا الخير الذي جاءت به الكارثة: إيقاظ ضمير الأمة العام، لترجع إلى الله، وتقرع بابه، وتسأله التوبة، فلا يرد الناس إلى الله مثل الشدائد، فالإنسان تغره العافية والرخاء، فإذا تبدل رخاؤه إلى شدة، وعافيته إلى بلاء: ذكر الله تعالى وأناب إليه، كما يفعل ركاب السفينة، إذا جاءتها ريح عاصف، وجاءها الموج من كل مكان، وظن ركابها أنهم أحيط بهم، هنالك يدعون الله مخلصين له الدين.

وهذا ما حدث بعد ١٩٦٧، فقد حدثت يقظة دينية عامة، وأحس الجميع بفقرهم إلى الله، وتنادى الناس بضرورة التوبة إليه، والوقوف على بابه جل

(١) سنوات عصيبة لمحمد عبد السلام ص١١٦ وما بعدها.

وعلا، وتجلى أثر ذلك في المساجد وفي البيوت، وفي الجامعات، وفي الجيش وفي غيرها.

ولم يستطع العلمانيون واللادينيون أن يقفوا في وجه هذه الموجة الإيمانية المكتسحة، والمهزوم لا يستطيع أن يقول: لا. وقد كسرتهم الهزيمة، فنكسوا على رؤوسهم وسكتوا، وانسحبوا.

بدأت هذه اليقظة صغيرة، ثم كبرت، محدودة ثم انتشرت، ضعيفة ثم قويت، مرتجلة ثم انتظمت.

وأول ما بدأ ظهورها وتجليها في شباب الجامعات، فالشباب المثقف هم أقرب الناس استجابة لهموم الأمة، ولدواعي الإيمان. بدأت في صورة دعوات لإقامة الصلوات، وحضور دروس دينية، وحلقات علمية في تفسير القرآن وفي السيرة النبوية.

ثم ما لبثت هذه الحلقات أن تحولت بمرور الزمن إلى ما عرف باسم «الجماعات الإسلامية» داخل الجامعات.

أستطيع أن أقول: إن هذه الجماعات الإسلامية التي ظهرت في الجامعات، لم تكن في أول أمرها مرتبطة بأي جماعة، ولم تنشئها أي جماعة، لا الإخوان ولا غيرهم. لقد كانت نشأة عفوية تلقائية، من صنع الأحداث، وبترتيب قدري إلهي. وسرعان ما أصبح لهذه الجماعات: صوت مسموع، ولواء مرفوع.

وقلدت بعض الجامعات بعضا في ذلك ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٦). وأظن جامعة القاهرة كانت هي السباقة. وكان من أسبق شبابها: طلاب كلية الطب خاصة، ثم الكليات الأخرى، فكان عبد المنعم أبو الفتوح، وعصام العريان، وإخوانهما هم الطليعة الأولى لمن سموا بعد ذلك: شباب الصحوة الإسلامية. ولعل من الغريب أن أقول: إن الأزهر ربما كان آخر الجامعات التي وصلتها الصحوة، وكان طلاب كليات الطب والهندسة والصيدلة والعلوم في

الأزهر أسبق من طلاب أصول الدين والشريعة، ولهذا أسباب قد نعرض لها في مقام آخر.

كانت مصر هي الرائدة والسباقة في هذا الميدان، فهي أول بلد انبلج منه فجر الصحوة الإسلامية المعاصرة. ثم انساب هذا الضوء وبزغ في سماوات بلاد أخرى، من بلاد العرب، ثم بلاد الإسلام، ثم في البلاد التي تسكنها أقليات إسلامية في الشرق والغرب، ثم إلى المهاجرين المسلمين في بلاد شتى.

ولا غرو أن تكون مصر هي الرائدة والسباقة، فهي سباقة في كل شيء، سباقة في الخير، وسباقة في الشر، كما قلت للإخوة في الجزائر يوما: إن مصر تصدر الخير، وتصدر الشر، تصدر الجد والهزل: أحسن قارئ للقرآن يظهر من مصر، وأحسن عالم ديني يظهر من مصر، وأحسن أديب يظهر من مصر، وأحسن طبيب يظهر من مصر، وكذلك أشهر راقصة تظهر من مصر، وأشهر مغنّية تظهر من مصر، وأشهر فرعون يظهر من مصر!

ولذلك انطلقت الصحوة من مصر إلى غيرها، لتقوم لها سوق نافقة في كل مكان.

وهكذا ولدت الصحوة الإسلامية ولادة طبيعية، بلا قيصرية، ولا عملية جراحية، كما كان الحمل طبيعيا أيضا، لم يحتج إلى أطفال أنابيب ولا غير ذلك.

ومن هنا لا أجد معنى للذين يزعمون: أن الصحوة الإسلامية إنما نشأت بفعل فاعل، وصنع صانع، وأن الذي صنعها هو السادات، الذي أرخى العنان للإسلاميين ليضرب بهم الشيوعيين.

وقد رددنا على هذا الكلام المتهافت في كتابنا «الإسلام والعلمانية وجها لوجه» وبينا ما فيه من وهن وخلل، وأنه عار عن كل حجة. وأن صحوة الشعوب لا يصنعها غير الشعوب، ولو كان السادات صانعها لأمكنه أن يلغيها عندما رأى خطرها عليه.

وإن فضل السادات ـ الذي لا يجحد ـ أنه ترك الفرصة للإسلاميين، كما ترك لغيرهم، وإذا تركت الحرية للدعوة الإسلامية، فإنك تجد الشعب وجماهيره معها، وتجد التيار الإسلامي هو الغالب والمنتصر، لأنه المعبر عن روح شعوبنا، وعن نبضها الحقيقي.

عودة بعض الإخوة المعتقلين إلى قطر:

لا أذكر تفصيلات ما حدث في هذه السنة، إلا أن بعض الإخوة الذين أفرج عنهم من معتقلات عبد الناصر، بدءوا يعودون إلى الدوحة، مثل الأخ الشيخ عبد اللطيف زايد، والأخ الشيخ محمد المهدي البدري، والأخ أحمد المنيب حسين، فلم يضيقوا عليهم في الخروج كما هو المعتاد، نتيجة لما أحدثته نكبة يونيو (حزيران) ١٩٦٧، من انفراج في الموقف الداخلي، وقد يأتي الشر أحيانا بالخير، وكم ينبثق النور من أعماق الظلام، وقد قال الشاعر: مصائب قوم عند قوم فوائد!

كما دعوت صهري -شقيق زوجتي- الأستاذ سامي عبد الجواد: أن يأتي إلى قطر، بعد خروجه من المعتقل، وقد وصل إليها في ديسمبر ١٩٦٨م، ثم لحقت به أسرته، وعين في دار الكتب القطرية، التي كان مديرها في ذلك الوقت الأستاذ عبد البديع صقر.

محاولة للحصول على الدكتوراه من جامعة البنجاب بلاهور:

وأهم ما أذكره في هذه السنة: أن بعض الإخوة اقترح على أن أراسل جامعة «البنجاب» في لاهور بجمهورية باكستان الإسلامية، وهي جامعة عريقة، وفيها قسم للدراسات الإسلامية، ورئيس الجامعة العلامة علاء الدين الصديقي، الذي كان رئيسا لقسم الدراسات الإسلامية من قبل، حين حصلت بعض طالبات القسم ـ جميلة شوكت ـ على درجة الماجستير عن بحثها حول كتاب «الحلال والحرام في الإسلام». قال المحبذون: فالجامعة تعرفك ولا تجهلك، ورئيسها يعرفك ولا

ينكرك، وهو على صلة طيبة بالأستاذ العلامة أبي الأعلى المودودي، أمير الجماعة الإسلامية، الذي يكن له كل مودة وتقدير.

ورأى هؤلاء الإخوة أن من الخير أن أكتب للأستاذ أبي الأعلى المودودي، وأعرض عليه الأمر، طالبا مشورته بعد أن يكلم العلامة الصديقي.

وبادرت بكتابة رسالة إلى الإمام المودودي، شرحت له فيها الموقف، وانسداد الطرق في وجهي بالنسبة للدراسات العليا في مصر، ما دام الوضع الحالي باقيا، وانفتاح فرجة أمامي في جامعة البنجاب.. إلى آخر ما جاء في الرسالة.

وسرعان ما أجابني الأستاذ المودودي: أنه كلم صديقه البروفسور الصديقي، وأنه يرحب كل الترحيب بكم، وهو يعرفكم جيدا، وكذلك أساتذة القسم الإسلامي في الجامعة، كلهم مرحبون ومتعاونون، ونصحني أن أسارع بالمجيء إلى لاهور، للتفاهم مع المختصين حول الخطوات التي يجب اتخاذها للوصول إلى الهدف.

وحمدت الله تعالى أن فتح لي هذا الباب، وعقدت النية على الذهاب إلى لاهور بمجرد انتهاء العام الدراسي، وكنا في أواخره.

وطويت صفحة السنة الدراسية في منتصف يونيو كالمعتاد، وبدأت أعد العدة للسفر إلى باكستان لأول مرة، وأرى هذا البلد الكبير الذي انفصل عن الهند الكبرى ليستقل بشعائره وشرائعه ومقوماته وخصائصه، دون أن يتعصب أحد ضده. وكانت باكستان في ذلك الوقت تعد أكبر دولة إسلامية في العالم، فقد كانت لا تزال تضم باكستان الغربية، وباكستان الشرقية، (التي انفصلت بعد ذلك وكونت جمهورية بنجلاديش).

جواز سفر قطري:

وكنت أسافر في ذلك الوقت بوثيقة قطرية تتجدد كل سنة، فذهبت إلى الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، نائب حاكم قطر وولي العهد، لأطلب منه

تجديد الوثيقة، فسألني: أين تسافر هذا العام؟ فأخبرته بأني مسافر إلى باكستان للحصول على الدكتوراه بعد أن أغلق أمامي باب الأزهر، فقال لي: كنت وعدتك أن نرقي الوثيقة القطرية إلى شيء أفضل، وهذا أوان ذلك، سآمر بإعطائك جواز سفر قطري كاملا، تأخذ به كل حقوق القطريين. وأصدر أمره إلى السيد علي بن أحمد الأنصاري مدير إدارة الجوازات والجنسية بتنفيذ ذلك فورا، وفعلا في الحال بدأ بالتنفيذ، وطلب مني بعض الصور، وصدر الجواز القطري لي ولزوجتي ولبناتي الأربع، وابني محمد، فلم يكن ابناي عبد الرحمن وأسامة ولدا بعد، وهكذا عوضني الله تعالى بجواز قطري أجوب به أنحاء الأرض، بعد تعنت السلطات المصرية معي، ورفضها تجديد جواز سفري، لترغمني على العودة إلى مصر، ولم يكن معقولا أن أذهب برجلي طوعا واختيارا من الدار إلى النار.

أيام في كراتشي:

وقطعت التذكرة على الطائرة الباكستانية إلى كراتشي ثم إلى لاهور، ونزلت أولا في كراتشي، فوجدت جوها أشبه بجو الخليج في الحرارة والرطوبة، وقد استقبلني الإخوة في الجماعة الإسلامية بكراتشي، وهم الذين حجزوا لي الفندق، وكان فندقا متواضعا، ولكنه يؤدي الغرض، وقد تعودنا العيش على ألوان الحياة بنعومتها وخشونتها، ووردها وشوكها، وأي مكان سيكون أفضل من السجن الحربي وأكثر رفاهية.

زرت الجماعة الإسلامية في مقرها، وكان أمير الجماعة في كراتشي - الأستاذ غلام محمد - غائبا، والتقيت الموجودين من الجماعة، وألقيت كلمة في دار الجماعة، كما زرت بعض الشخصيات الإسلامية مثل الأستاذ إسحاق ظفر الأنصاري (والد الدكتور ظفر إسحاق)، كما سألت عن الشيخ محمد شفيع العثماني، مفتي كراتشي (والد صديقنا الشيخ محمد تقي العثماني) فوجدته خارج كراتشي.

إلى مدينة لاهور ولقاء المودودي والجماعة الإسلامية:

وبعد يومين أو ثلاثة في كراتشي: امتطيت الطائرة إلى لاهور، ليستقبلني الإخوة أعضاء الجماعة الإسلامية، ومنهم الأستاذ رحمة إلهي الأمين العام للجماعة، مندوبا من الأستاذ المودودي، ومعه الأخ الداعية الفاضل الشيخ خليل أحمد الحامدي مدير القسم العربي في الجماعة، والذي يتحدث العربية بطلاقة، وقد تعرفت عليه وتوثقت صلتي به من قبل.

أبى إخواننا في الجماعة الإسلامية إلا أن ينزلوني ضيفا عليهم، فاشترطت عليهم: أن تكون الضيافة لمدة ثلاثة أيام، ثم يدعوني وشأني.

وفي المساء لقيت الإمام المودودي في دار الجماعة، ورحب بي هو وإخوانه جميعا، ولا سيما نائبه الأستاذ طفيل محمد، ورتبوا لي عددا من اللقاءات بأعضاء الجماعة، وخصوصا جمعية الطلبة المسلمين، التي توجهها الجماعة، وزيارة بعض البلاد حول مدينة لاهور، وعقد بعض المؤتمرات الصحفية.

ورحبت بهذا كله، ولكني طلبت أن يرتبوا لي زيارة، لجامعة البنجاب، ومقابلة رئيسها وأساتذتها، حتى لا نضيع الأمر الذي جئت من أجله، وقالوا: هذا طبيعي ومنطقي بلا ريب.

تكريم في لاهور:

والحقيقة أن الإخوة في الجماعة الإسلامية أكرموني غاية الإكرام، وفي كل يوم يعزمنا أحدهم على وليمة، يدعى إليها مولانا المودودي وكبار الجماعة، وكان بعض الإخوة يريد أن يأخذ لنا صورة تذكارية بهذه المناسبة، ولكن المودودي ـ كعلماء باكستان والهند عموما ـ يشددون في أمر الصور، فكان الأستاذ المودودي يقول لهم: لا تتقيدوا بمذهبي في التصوير، وخذوا بمذهب القرضاوي الذي رجحه في «الحلال والحرام».

والعجيب أني لم آخذ معي شيئا من هذه الصور، فليت أحدا من الإخوة الذين يقتنونها - والذين لا زالوا في الأحياء - يتحفني بشيء منها، وله مني الشكر، ومن الله الأجر.

ومن فضل الله تعالى: أن أكثر من جهة في لاهور، أخذت تكرمني، وتحتفي بي، منها: جمعية علماء باكستان، ومنها: جامعة البنجاب، التي أقامت احتفالا كبيرا ودعت إليه جمعا غفيرا، وتحدث فيه عدد من الناس من الأساتذة والعلماء والدعاة، نسيت أسماءهم لطول المدة.

وزرت قسم الدراسات الإسلامية في الجامعة، والتقيت أساتذته وتحدثت إليهم، كما تحدثوا إلي، ولقيت الطالبة التي أخذت «الماجستير» عن كتابي «الحلال والحرام» جميلة شوكت، وأظنها كانت حصلت على الدكتوراه وقتها.

لقاء رئيس الجامعة العلامة الصديقي:

ثم لقيت العلامة علاء الدين الصديقي، الذي أحسن استقبالي، وهش لي، وفتح صدره وجامعته لمساعدتي، وقال: نحن نضع كل ما في إمكاننا في معاونتك، ثم شرح لي الوضع في الجامعة، من ناحية الدراسات العليا، وقال: نحن عندنا نوعان من الدكتوراه، الدكتوراه المعتادة، وهي التي يقدم الدارس فيها أطروحته تحت إشراف أستاذ، حتى إذا أكملها، حددت له لجنة لمناقشتها، وفي النهاية يحصل على الدكتوراه بالدرجة التي يستحقها.

وهناك نوع آخر من الدكتوراه أعلى من الأولى، ويسمى: «دي لت» وهذه درجة لا تعطى على أطروحة أو رسالة معينة، ولكنها تعطى على مجموع إنتاج الباحث، يقدر ذلك عدد من كبار العلماء. وهذه لا تمنح إلا للقلائل الذين لهم عطاء علمي متميز.

قال: أما النوع الأول، فهو يسبب لنا - بالنسبة لك - مشكلة، لأننا لا نجد من يشرف عليك، من هيئة التدريس عندنا، وهم يَعُدُّون أنفسهم في منزلة تلاميذك،

ولذا أنا أقترح: أن تمنحك الجامعة الدكتوراه من النوع الآخر، وهو الأليق بك وبإنتاجك، وهذا يتطلب أن تقدم لنا عدة نسخ من كل ما كتبته، لنعرضه على عدد من كبار الأساتذة.

قلت له: إن كان ولا بد، فليكن على رأس هذا الإنتاج بحثي الكبير عن «فقه الزكاة» وقد تعبت فيه نحو عشر سنوات، ولكنه لم يطبع بعد.

قال: هذا أفضل، ويجب أن تبادر بطبعه، وتقدمه مع سائر كتبك، وكلما سارعت كان أجدر بإنهاء الأمر على ما تحب، فإن الظروف قد تتغير.

قلت لهم: أمهلوني نحو خمسة أشهر أو ستة حتى يتم طبع الكتاب، وعلى الله التسهيل.

الإقامة في فندق السفراء:

وكنت قد استأذنت الجماعة الإسلامية بعد ضيافة ثلاثة الأيام: أن أنتقل إلى فندق مناسب أقضي فيه ما بقي لي من أيام في لاهور، وفعلا نزلت فندق «أمباسدور» أو فندق السفراء، وهو ليس بعيدا كثيرا عن مقر الجماعة، ولكنه يحتاج إلى أن تركب «التاكسي» أو «الركشا» وهي العجلة أو السيارة الصغيرة أم ثلاثة عجلات، وهي تسع شخصين يركبان في الخلف، ويقودها السائق، وكانت أجرتها رخيصة جدا.

ومن اللطائف في الأيام التي قضيتها في الفندق: أني بحثت عن «الجبنة» فلم أجد لها عند الباكستانيين أثرا، ولم أسمع لها عندهم خبرا، فهم لا يعرفون إلا اللبن الحليب، أو اللبن الرايب أو لبن الزبادي يتناولونه محلّى بالسكر. وقلت للأخ خليل الحامدي ومساعده فيض الرحمان: ألا تعرف باكستان «الجبن» أبدا؟ قال الشيخ خليل: باكستان لا تعرف «الجبن» لكن تعرف الشجاعة! قلت له: إنما نبحث عن الجبن لنقضي عليه!

وأخيرا بعد البحث في بعض المحلات الكبيرة، وجدوا بعض الجبن الإفرنجي، لا الجبن الأبيض، وعرفت من هذا الاختلاف بين الشعوب في عاداتها ومأكولاتها، فرغم أن الشعوب الهندية شعوب زراعية، لا تعرف الجبن، على حين نجد الفرس والأتراك والعرب والأوربيين يتفننون في صناعة الأجبان بأشكال ومذاقات شتى.

نشاط متعدد تنظمه الجماعة:

قمت ببعض الأنشطة، وألقيت عددا من المحاضرات، مع الطلبة المسلمين وغيرهم، وذكرت للإخوة التلاقي بين أفكار الجماعة الإسلامية، وأفكار الإخوان المسلمين، حتى قلت لهم: إن الإخوان المسلمين هم الجماعة الإسلامية في الشرق العربي، والجماعة الإسلامية هم الإخوان المسلمون في شبه القارة الهندية.

وأجرت بعض الصحف وبعض المجلات حوارات معي، كانت إجاباتي فيها مسددة بفضل الله وتوفيقه، كما نظم الإخوة مؤتمرا صحفيا لي: أجبت فيه عن عدد من التساؤلات، التي طرحت، وكان الإخوة مسرورين بنتائج ذلك كله.

وكانت باكستان الشرقية ـ وعاصمتها دكا ـ في ذلك الوقت في حالة من الاضطراب والغليان، وقال مولانا المودودي لي: ليتك تذهب إلى دكّا، فهي تحتاج إلى مثلك في هذا الوقت، الذي يعمل فيه دعاة الانفصال، مؤيدين من أعداء باكستان، وأعداء الإسلام.

قال المودودي: إنك ستجد باكستان الشرقية جنة الله في أرضه، وأن أنهارها أشبه بالبحار.

ولكن الإخوة العارفين في الجماعة قالوا: إن تكثيف الشيخ نشاطه الدعوي والسياسي في هذا الوقت قد يعكر على الموضوع الذي جاء من أجله، وهو الحصول

على الدكتوراه، فربما شوش بعض المغرضين أو الخصوم على الشيخ، ووضعوا العقبات في طريقه. ومن الأصوب والأرشد أن يخفف الشيخ من نشاطه في هذه الآونة، حتى يقضي حاجته.

ولذا توقفت عن النشاط العام إلا قليلا، حتى ننتهي من تحقيق الهدف الذي جئت إلى لاهور أساسا من أجله، وسأظل أذكر تلك الأيام الجميلة التي قضيتها في لاهور (ما يقرب من ثلاثة أسابيع) ولقاءاتي بالعلامة الإمام المودودي وإخوانه ورفقاء دربه في الدعوة إلى الله، جزاهم الله عني خيرا.

وبعد أن لقيت رئيس الجامعة العلامة الصديقي، وغير باقتراحه المسار المعتاد للحصول على الدكتوراه، قررت السفر عائدا إلى قطر، ومنها إلى بيروت، سعيا إلى تقديم كتاب «فقه الزكاة» للمطبعة.

من قطر إلى بيروت:

وعدت إلى قطر، لأصطحب أسرتي، ومسودة بحثي عن «الزكاة»، لنسافر إلى لبنان، ومن مطار بيروت استقللنا سيارة لتوصلنا إلى «سوق الغرب» للإقامة المؤقتة في «فندق فاروق» الذي اعتدنا النزول به، حتى نستأجر بيتا مناسبا لنا.

وبعد أيام قليلة عرفنا أن عددا من إخواننا السوريين مثل الشيخ عبد الفتاح أبو غدة والأستاذ عدنان سعد الدين، قد أستأجروا منازل لهم في قرية «قرنايل» وهي قريبة من قرية «حمانا» التي نزلنا بها صيف سنة ١٩٦٥م، وأن بالقرب منهم منزلا ملائما لنا، وقد زرتهم، ورأيت المنزل وحديقته الجميلة، ووجدته في غاية المناسبة لنا، وخصوصا أننا نجاور الأخ أبا عامر عدنان سعد الدين، فهو الجار ذو القربى، وقد قال العرب من قديم: الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق.

وانتقلت مع الأسرة من فندق فاروق إلى قرنايل، لنقيم بها ما بقي من الصيف، وهو حوالي شهرين، وننزل ما بين يوم وآخر إلى بيروت للقاء بعض الأحبة، وشراء

بعض اللوازم، وقبل ذلك كله للاتفاق مع المطبعة ودار النشر على طبع الكتاب الذي اخترت له عنوان «فقه الزكاة: دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة» وكان الاتفاق مع صديقنا الأستاذ عادل عاقل مدير دار الإرشاد للنشر، على أن يقوم بنشر الكتاب، وقد اتفق هو مع مطبعة «دار القلم» اللبنانية لتقوم بالطباعة.

وسلمت المطبعة قدرا مناسبا من الأصول لتبدأ الطباعة بسرعة ما أمكنها، فالزمن لا ينتظرنا، وجامعة البنجاب تستعجلنا، وكلما فرغوا من ملزمة وصححوها التصحيح الأوّلي، سلموا لي «البروفة» الأخيرة لأصححها وأعتمدها لتطبع بعد التصحيح.

وبدأنا العمل، ولكن الوقت كان قصيرا، فلم ننجز من طبع الكتاب أكثر من خمس عشرة ملزمة، والكتاب كبير سيصدر في مجلدين.. ولهذا اتفقت مع المطبعة علي أن ترسل إلي ما تنجزه من الملازم إلى الدوحة فى أثناء العام الدراسي، لأصححه وأرده على المطبعة، حتى لا نتعطل كثيرا.

بيد أن هذا الاتفاق لم ينفذ إلا في نطاق محدود، ولم يرسلوا إلي إلا عددا قليلا من الملازم، معتذرين بأعذار شتى، من انقطاع التيار الكهربائي، ومن إضراب العمال، وغير ذلك. ولم يتحقق ما رجوته أو ظننته من إمكان طباعة الكتاب في نحو ستة أشهر، فهذا كان ضربا من التمني، وما كل ما يتمنى المرء يدركه.

وكان لا بد أن نتدارك ذلك في الصيف القادم (سنة ١٩٧٠م) لنعوض هذه الأيام أو الأشهر التي ضاعت منا دون أن نحقق الإنجاز الموعود.

انقلابان عسكريان في الوطن العربي:

كنت أقضي الصيف فى لبنان، للاستمتاع بمناخه وجماله، ولكن نسيم جبل لبنان لم يكن لينسينا ما يجرى فى عالمنا العربى والإسلامى، فما يستطيع الإنسان أن ينفصل عن هموم أمته، كما لا يمكن للعضو الحى فى الجسد إلا أن يحس بآلام

سائر الجسد، فلا غرو أن نتابع بعقولنا وأعصابنا الأحداث الكبيرة التى تحدث فى وطننا الكبير. ثم إن هذه الأحداث سيكون لها تأثيرها فينا فى النهاية، شئنا أم أبينا.

وفي سنة ١٩٦٩م حدث انقلابان عسكريان في الوطن العربي، كلاهما كان في الجناح الإفريقي من العالم العربي، وكلاهما مجاور لمصر: أحدهما في الجنوب، والآخر في الغرب، أحدهما في بلد جمهوري، والآخر في بلد ملكي.

انقلاب النميري في السودان:

الانقلاب الأول: وقع في مايو في جمهورية السودان، والذي قام به الجيش بقيادة جعفر نميري، والذي أطاح بالحكم الديمقراطي الذي جاء بعد انقلاب عبود. ولا ندري ماذا يحمل هذا الانقلاب الجديد للسودان؟ وإن كنت قد أصبحت أتوجس شرا من الانقلابات العسكرية، التي أمست في أوطاننا عدوا للحرية، ونقمة على الشعوب، تَعدُ بالديمقراطية ولا تفي بما وعدت، ولا يستطيع أحد أن يحاسبها! ترى هل يكونَ هذا الانقلاب الجديد مثل ما جربته شعوبنا من قبل: في مصر، وفي سورية، وفي العراق، أم سيكون وجها آخر، يقلب النظام، ثم يرد الحكم إلى المدنيين، وإلى الشعب يختار لنفسه من يراه أهلا للولاية، ويتحمل مسؤولية من يختار؟! ستجيبنا عن ذلك الأيام.

انقلاب القذافي في ليبيا:

والانقلاب الثاني: وقع في أول سبتمبر أو في الفاتح من سبتمبر في المملكة الليبية، فقد فوجئنا، ونحن في لبنان، في أول سبتمبر، بما أذاعته وكالات الأنباء، من وقوع انقلاب عسكري في ليبيا على الملك السنوسي، تقوده فئة من الشبان، ولا أدري هل ذكر اسم قائد الانقلاب في أول الأمر أم أجل بعض الوقت؟

وكان الملك إدريس السنوسي رجلا صالحا في نفسه، ولكنه أحيط ببطانة

سوء، انحرفت بالحكم، وأساءت إلى البلاد والعباد، فكان لا بد من تغيير، وكان التغيير في العالم العربي أصبح له صيغة واحدة، في كل الأقطار، هي صيغة الانقلاب العسكري، منذ سن هذه السنة حسني الزعيم في سوريا، وتبعه الضباط الأحرار بقيادة عبد الناصر في مصر، وعلى دربهم سار عبد الكريم قاسم في العراق.

وأذكر أننا تناقشنا ـ نحن الإخوة المصّيفين فى لبنان ـ عقب سماعنا بنبإ الانقلاب أو الثورة كما سميت بعد: هل تكون هذا الثورة خيرا ورحمة للشعب الليبي، يطعم بها من جوع، ويأمن من خوف، ويعيش حرا سيدا في أرضه، أو تكون صورة مشابهة لسائر الثورات التي فرح الناس بها في أول الأمر، وصفقوا بأيديهم، ورحبوا بها من أعماق قلوبهم، ثم ما لبثوا أن انقلب سرورهم غما، وفرحهم ترحا، وأمسوا يتمنون اليوم الذي يتحررون فيه من نيرها، وسوط عذابها، بعد أن جرعتهم كؤوس الذل، وأذاقتهم عذاب الهون، ومرغت أنوفهم في التراب، فباتوا يتمنون أن تعود العهود البائدة، على ما كان فيها من فساد وانحراف، وأضحى يناسبهم قول الشاعر قديما:

دعوت على عمرو، فمات فسرني

بليت بأقوام، بكيت على عمرو!

وقلنا: لندع ذلك للأيام، فهي التي ستكشف الأصيل من الزائف، وتميز المحق من المبطل، ويبقى القانون الإلهي الذي لا يتخلف: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).

محاولة إحراق المسجد الأقصى:

وقبل إعلان انقلاب القذافي بأيام: وقع حادث مهم، كان له صدى واسع في أنحاء العالم الإسلامي مشرقه ومغربه، وشماله وجنوبه، ذلك هو محاولة أحد

اليهود إشعال النار في المسجد الأقصى، وقد شبت النار بالفعل في منبر صلاح الدين الأيوبي الشهير، والتهمت جزءا منه، قام بذلك يهودي متحمس جاء من أستراليا لهذا الغرض، زعموا أنه مخبول ومصاب في عقله!! ليخففوا من هول جريمته، ويهونوا من وقعها على المسلمين في كل مكان.

ولكن أمة الإسلام هبت غاضبة ثائرة على الجريمة ومرتكبيها، وعلى الصهيونية الباغية، وعلى أمريكا المتحيزة بإطلاق للصهيونية، المساندة أبدا لإسرائيل، وأظهرت الجماهير المسلمة، والشعوب المسلمة، سخطها على القادة والزعماء، المتهاونين في أمر القدس والمسجد الأقصى، المفرّطين في الدفاع عنه، وهو ما دفع ملوك ورؤساء المسلمين إلى أن يتنادوا ليجتمعوا للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ الموقف، ونصرة القدس وفلسطين، فاجتمعت أول قمة إسلامية في مدينة الرباط، وكان للملك فيصل بن عبد العزيز دور بارز في الإيقاظ والتحريك والتجميع، وكان من جراء ذلك: السعي إلى إنشاء مؤسسة جديدة تمثل العالم الإسلامي، وتتحدث باسم أمة الإسلام.

وقد اختلفوا في الاسم الذي يطلقونه عليها، فاقترح بعضهم أن تسمى «جامعة الدول الإسلامية» على غرار «جامعة الدول العربية» ولكن عدة دول اعترضت على ذلك، وقالت: نحن دول علمانية لا دول إسلامية!!

وبعد أخذ ورد، وجذب وشد، انتهوا إلى تسميتها «منظمة المؤتمر الإسلامي» نسبة إلى المؤتمر الذي ضمهم تحت رايته، وهو مؤتمر مؤقت، ولكن أضيفت إليه هذه المنظمة لأدنى ملابسة، كما يقول النحويون.

والآن وأنا أكتب هذه المذكرات - (سنة ٢٠٠٤) - أرى رأى العين كيف تحاك المؤامرات من قبل الدولة الصهيونية، المسنودة بالقوة الأمريكية، بصورة شبه علنية، لهدم المسجد الأقصى، وبناء الهيكل المزعوم على أنقاضه!! والمسلمون لا يثورون ولا يتحركون كما تحركوا سنة ١٩٦٩م، فهل نحن نترقى أم نحن ننحدر؟

لقاء الشيخين الألباني وأبي غدة في منزل الشاويش:

ومما أذكره من أيام بيروت: أني لقيت فيها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني المحدث الشهير للمرة الثانية. فقد كنت لقيته أول مرة في المدينة المنورة، في حجتي الثانية في صيف سنة ١٩٦٤م، وتناقشنا في قضية التصوير الفوتوغرافي، حيث أخذ عليّ أني أبيحه، كما أباحه العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي وغيره من العلماء، والشيخ الألباني يحرمه تحريما قاطعا، وقد ذكرت له الأحاديث الصحيحة التي استثنت من الصور «ما كان رقما في ثوب» وبيان العلة في التصوير: أنه «مضاهاة خلق الله»، وهذا التصوير لا يضاهي خلق الله، بل هو خلق الله نفسه، انعكس على الورق كما تنعكس الصورة في المرآة، ولا غرو أن يسميه أهل الخليج «عكسا» ويسمون المصور «العكاس» والصور «العكوس». ولكن الشيخ أصر على رأيه، ولم يتزحزح قيد شعرة.

واليوم ألقى الشيخ مرة أخرى، أظن ذلك كان سنة ١٩٦٩م، وكان ذلك في منزل صديقنا وصديقه الشيخ زهير الشاويش المحقق المعروف، وصاحب المكتب الإسلامي في دمشق وبيروت. وأظنه كان قد انتهى من تخريج أحاديث كتابي «الحلال والحرام في الإسلام» و«مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام». وقد حييته على جهوده في خدمة السنة، ولا سيما في مجال التخريج والتصحيح والتضعيف، وتحقيق المصادر، ثم شكرته على عنايته بتخريج أحاديث كتبي. وقلت له: إنني ممن يدعون إلى ضرورة إيجاد قنطرة بين أهل الفقه وأهل الحديث، ليكونا معا في خدمة العلم ونصرة الشريعة بالحق، وقد كان بعض السلف يقولون: لو كان الأمر بأيدينا لضربنا بالجريد كل فقيه لا يشتغل بالحديث، وكل محدث لا يشتغل بالفقه.

وكان من تفضله ولطفه: أن رحب بالتعاون بينه وبيني، بوصفه محدثا مشهورا، وبوصفي من المشتغلين بالفقه.

كما تعرفت في منزل الشيخ الشاويش على علامة حلب الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، الذي سمعت عنه قبل أن أراه، بوصفه من العلماء المتمكنين في الفقه والحديث والعربية، وغير ذلك من علوم الشرع واللغة.

ولكل من الشيخين مشرب يخالف مشرب الآخر، فالألباني سلفي قح متعصب لسلفيته، لا يجيز التأويل في العقيدة، ولا التمذهب في الفقه، إلى غير ذلك مما يتميز به الاتجاه السلفي، الذي يطلق عليه بعض الناس «الوهابي» نسبة إلى مجدد التوحيد في الجزيرة العربية الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وأبو غدة حنفي معروف بانتسابه إلى مذهب أبي حنيفة، أشعري معروف بانتمائه إلى مذهب أبي الحسن الأشعري، معتز بتتلمذه على علامة الأتراك الشيخ محمد زاهد الكوثري، وكيل مشيخة الإسلام في تركية في عصر الخلافة، قبل أن يلغيها أتاتورك.

وقد قال لي الأخ الشيخ زهير الشاويش: إن أبا غدة أعلم تلاميذ الكوثري، وأرسخهم قدما. ومن المعروف: أن الكوثري عدو السلفية، وعدو ابن تيمية، وله كلام شديد في ابن تيمية تجاوز فيه الحد، ولا يوافقه عليه منصف. وقد أخبرنى الشيخ أبو غدة بعد ذلك: أنه لا يوافق شيخه الكوثرى على ما قاله فى ابن تيمية.

اجتمع الشيخان في منزل الشيخ زهير بمنطقة الحازمية في لبنان أو قل: في مكتبته العامرة، وبدأ بينهما نقاش خفيف حول مسألة حديثية، لكنه يخفي وراءه مخزونا من المرارة والحدة، لم تظهر في ذلك الوقت، لكنها ظهرت واشتدت واحتدت وتطورت بعد ذلك.

كان البادئ هو الشيخ أبا غدة، إذ قال للشيخ الألباني: نرى في كتب فضيلتك بعض أشياء لا نعرف وجهها؟

قال الألباني : مثل ماذا؟

قال أبو غدة : مثل تعقيبك على حديث رواه البخاري بقولك : صحيح ، أو لا يكفي أن يكون رواه البخاري في صحيحه الذي تلقته الأمة بالقبول ، حتى تعقب عليه بالتصحيح؟

وهنا تدخلت أنا محاولا أن ألتمس وجها لتصحيح الشيخ ، وقلت : لعله يريد بقوله : صحيح : أن الحديث ليس من الأحاديث التي انتقدت على البخاري!

وهنا قال الألباني : لا ، ليس هذا ما أقصده . بل هذا منهج لي ، التزمته ومضيت عليه : أن أعقب على كل حديث بالتصحيح أو التحسين أو التضعيف .

قال أبو غدة : تعقب على البخاري؟ أصح كتاب بعد كتاب الله؟ ألا تخشى أن يفهم القارئ من ذلك : أن جامع البخاري فيه الصحيح والضعيف ، ولا بد من التمييز بينهما ، كما في سائر الكتب التي جمعت بين الصحيح والضعيف؟

إلى هنا توقفت المناقشة على ما أذكر ، ولكنها احتدمت ، بل اشتعلت بعد ذلك في تقرير كتبه الشيخ أبو غدة على تخريج الألباني لشرح عقيدة الطحاوي ، ورفع إلى جامعة الإمام محمد بن سعود .

ثم في رد الشيخ الألباني الشديد على هذا التقرير .

ثم في رد الشيخ أبي غدة على الرد .

ثم في التعليق على هذه المعركة من الشيخ الشاويش بـ «كلمات» من عنده ، وقد كان هواه مع الألباني ، بحسبانهما من مشرب واحد ، ولا سيما قبل أن يختلفا ويشتد بينهما الخلاف في أمور غير فكرية ولا علمية .

لقد كانت معركة بين أهل العلم بعضهم وبعض لا لزوم لها ، أثارت غبارا ودخانا زكم أنوف الفريقين ، وأصاب كلا منهما بأضرار وآثار كان بالإمكان تفاديها ، لو كان حسن الظن والتسامح والجدال بالتي هي أحسن : شعار الفريقين .

وإذا كان الله تعالى قد نهانا عن أن نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، وهم لا يؤمنون بديننا ولا بكتابنا ولا بنبينا، فكيف بجدالنا مع أهل الإسلام؟ وكيف إذا كانوا من أهل العلم وحملة كتاب الله، وخدام سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!!

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر: ١٠).

(٥)
السنة الدراسية
١٩٦٩ - ١٩٧٠م

السنة الدراسية ١٩٦٩.١٩٧٠م

إذاعة قطر:

في سنة ١٩٧٠م أنشئت لأول مرة محطة إذاعة في قطر تسمع صوت قطر من الدوحة لأهل قطر، وبلاد الخليج، وديار العرب، وأقطار العالم. وسمع الناس: هنا إذاعة قطر من الدوحة.

وكان هذا بداية الإعلام المسموع في قطر، وقد بدأت أباشر أول نشاطي الإعلامي فيها، عن طريق برنامج «نور وهداية» الذي كان يعده ويقدمه الإذاعي اللامع المعار من الأردن الأستاذ محمود الشاهد مراقب البرامج في الإذاعة، وكان البرنامج يقوم على الرد على رسائل المستمعين التي تتعلق بأمور الدين والحياة، يتلقاها الأستاذ الشاهد (أبو توفيق) ويهيئها لي ويعرضها علي، لأجيب عنها مسجلة لتذاع في حينها.

وكان البرنامج يقدم مرتين في الأسبوع، كل مرة ربع ساعة: مرة يوم الجمعة قبل الصلاة، ومرة يوم الإثنين مساء، ثم رأينا أن نجعله نصف ساعة يوم الجمعة، وأظنه كان يعاد يوم الإثنين في أول الأمر.

وكان لهذا البرنامج عشاقه ومتابعوه في قطر، وفي منطقة الخليج ومن حولها، ولا سيما البحرين والمنطقة الشرقية من السعودية.

وقد ظللت أقدم هذا البرنامج، حتى بعد أن أنشئ تليفزيون قطر، ولما أسند إليّ تقديم برنامج «هدي الإسلام» مساء كل جمعة، لم أنقطع عن برنامج الإذاعة. وقد

كلف بتقديمه في السنوات الأخيرة المذيع المعروف الأستاذ زهير قدّورة. ثم بعد أن كثرت أعبائي، وازدحمت أوقاتي: رأيت أن أعتذر عن عدم تقديم برنامج «نور وهداية» بعد أن قمت به حوالي سبعة عشر عاما، مكتفيا ببرنامج «هَدْي الإسلام» في التليفزيون، الذى لا يزال مستمرا إلى اليوم.

وكنت أقدم في الإذاعة برامج أخرى بمناسبات مختلفة، منها: «حديث الغروب» في شهر رمضان، كان يقدم قبل أذان المغرب، قدمته خمس سنوات، تحت عنوان: «في رحاب القرآن»، ثم «في رحاب السنة».

وكان لهذه الأحاديث قبول حسن عند الناس، وكان الكثيرون يحرصون على سماعها في كل مساء، ولكن من المؤسف: أني لم أحرص على أن آخذ نسخا منها بعد تسجيلها، فلما طلبتها بعد ذلك، قالوا: إن كل أشرطة الإذاعة نقلت إلى مكان آخر، غير مرتبة ولا مصنفة، ومن الصعب استخراجها، وهكذا ضاعت عليّ «مائة وخمسون» حديثا، ليس عندي أي أصل لها، فقد كانت مرتجلة، ولم تكن مكتوبة. مثل كل أحاديثي في الإذاعة والتليفزيون.

ملاحظات الشيخ ابن محمود:

ومما أذكره بالنسبة للإذاعة: أني وجدت الشيخ عبد الله بن زيد المحمود رئيس المحاكم الشرعية، والعالم البحاثة الكبير ـ وقد كان بيننا ود عميق، واحترام متبادل ـ يتتبع برنامجي في الإذاعة، ويستمع إليه. وفي زيارة له، قال لي: أريد أن أجلس معك جلسة خاصة، فقلت: على الرحب والسعة. قال: إني سمعت كثيرا من إجاباتك عن أسئلة السائلين، وهي موفقة إلى حد كبير، ولكن لي ملاحظة على أربع إجابات، أرجو أن تراجعها.

قلت: ليس في العلم كبير، وفوق كل ذي علم عليم. وكلي أذن صاغية لملاحظاتك، حفظك الله.

وتحدث معي في هذه المسائل الأربع، نسيت اثنتين منها، وأذكر اثنتين:

كفر تارك الصلاة:

أولاهما: قضية تارك الصلاة. قال الشيخ: رأيتك متساهلا فيها، والأحاديث الصحيحة تكفر تارك الصلاة، وهو المشهور عن الإمام أحمد وبعض السلف.

قلت: يا فضيلة الشيخ، أنا لست متساهلا في أمر تارك الصلاة، وقد ذكرت حكمه في كتابي «العبادة في الإسلام» ولكني أتحرى وأتثبت في قضية التكفير.

وأنا مع جمهور الأئمة (أبي حنيفة ومالك والشافعي وغيرهم) في تفسيق تارك الصلاة، لا تكفيره، إذا كان تركها على سبيل الكسل، أما من تركها منكرا لفرضيتها، أو مستخفا بأمرها، فهو كافر ولا شك.

والأحاديث التي تكفر تارك الصلاة مؤوّلة، كما أُوِّل غيرها، حتى لا تتناقض مع أحاديث وآيات أخرى، حتى إن ابن حزم -وهو رجل ظاهري كما تعرف فضيلتك- لا يكفر تارك الصلاة، وابن قدامة الحنبلي يقول: لم ينقل في بلد من بلدان المسلمين أنهم تركوا صلاة الجنازة على تارك للصلاة، أو لم يدفنوه في مقابر المسلمين.

على أن الحنابلة أنفسهم لا يحكمون عليه بالكفر إلا بعد أن يدعوه الإمام أو القاضي إلى الصلاة، فيرفض ويأبى.

نزول المطر من السماء أم السحاب؟

والقضية الأخرى: قال الشيخ: إنك تقول: إن المطر ينزل من السحاب، وليس من السماء، والقرآن يخبرنا أن الله أنزل من السماء ماء. ونقل الشيخ كلاما عن ابن القيم في بعض كتبه حول نزول المطر من السماء.

قلت للشيخ: يا مولانا، ابن القيم على أعيننا ورؤوسنا، وأنا أعتبر نفسي تلميذا له، وهو حجة في الشرعيات، وليس حجة في العلوم الطبيعية والكونية، وكل علم

يؤخذ من أهله، كما قال تعالى: ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ (الفرقان: ٥٩). ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر: ١٤).

والعلوم الطبيعية التي اقتبسها الغربيون منا ثم تفوقوا فيها اليوم، كما نرى، حتى أمسى الإنسان يطير في الهواء، ويغوص في الماء.. هذه العلوم تقول: إن المطر ينزل من السحاب، والسحاب يتكوّن من البخار الذي يتكون من ماء البحار والمحيطات، حتى إذا وصل إلى درجة معينة من البرودة سقط مطرا.

والقرآن يشير إلى أن أصل الماء كله من الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (النازعات: ٣٠، ٣١).

والعرب في شعرها الجاهلي أشارت إلى هذه الحقيقة الطبيعية، فقال شاعرهم أبو ذؤيب الهُذلي في وصفه للسحب:

شربن بماء البحر ثم ترفّعت

متى لجحٍ خضر لهن نئيج![1]

والنئيج: الصوت المرتفع. وهو صوت أمواج البحر، وهي تتلاطم.

وقال آخر في العصر الإسلامي في موقفه من ممدوحه:

كالبحر يمطره السحاب وما له

فضل عليه، لأنه من مائه!

---

(١) قبل هذا البيت:

سقي أمّ عمرو كل آخر ليلة — حناتمُ سودٌ ماؤهن ثجيج

إذا هم بالإقلاع هبّت له الصَّبا — فأعقب نشء بعده وخروج

والحناتم: جمع حنتمة، وأصلها الجرة الخضراء، وأراد بها هنا: السحائب، شبهها بالجرار، ووصفها بالسواد لكثافتها، وماؤهن ثجيج أي ثجاج متدفق. وهذه السحائب شربن بماء البحر ثم تصاعدت وارتفعت، ومتى: بمعنى (مِن) في لغة هذيل.

وهذه حقيقة أصبحنا نشاهدها بأعيننا حين نركب الطائرات، فتعلو بنا فوق السحاب، فربما تكون الأرض ممطرة، ونحن نشاهد الشمس ساطعة مشرقة فوق السحاب، فإذا أردنا الهبوط اخترقنا السحاب لننزل إلى الأرض.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ (الفرقان: ٤٨). وأمثالها من الآيات، فلها تأويلان:

أحدهما: أن معنى من السماء: من جهة السماء.

وثانيهما: أن السماء يقصد بها السحاب، بناء على أن السماء عند العرب: كل ما علاك، وفيه جاء قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (الحج: ١٥). فالمراد بالسماء هنا: السقف.

وسكت الشيخ رحمه الله، ويبدو لي كأنه لم يقتنع بما قلته. فهذه أفكار جديدة تصطدم بما استقر عنده من معلومات راسخة تلقاها عن مشايخه الثقات، وعن كتبه ومصادره التي يعتز بها.

وقد سبق للشيخ رحمه الله: أن أنكر صعود الإنسان إلى القمر، وقال: هذا من أخبار الآحاد، التي يمدح فيها الإنسان نفسه بما يزعم أنه أنجزه!!

قلت له: يا شيخنا، هذا ليس خبر واحد من الآحاد، إنما هو حدث تشارك فيه دول، وتتنافس عليه دول، ولو افترضنا أن الأمريكان يكذبون، فكيف يسلم لهم منافسوهم الروس وغيرهم؟

وسمعت الشيخ عبد الله الأنصارى أيضا ينكر صعود الإنسان إلى القمر!

وهذا يدلنا على أن التكوين القديم لمشايخ العلم الديني في منطقة الخليج، كان ينقصه شيء مهم، وهو دراسة العلوم الكونية: من الفيزياء والكيمياء والأحياء (علم الحيوان وعلم النبات) والرياضيات، وكذلك الجغرافيا الفلكية والطبيعية وغيرها.

وهو ما تنبه إليه الأزهر من قديم، حيث درس ذلك شيوخنا، وشيوخ شيوخنا.

وقد سموا هذه العلوم: العلوم الحديثة، وهي في الواقع علوم قديمة، بل هي علوم المسلمين في الأصل، اقتبسها الغربيون منهم وطوروها، وأضافوا إليها، حتى بلغت في عصرنا مبلغا هائلا، وهو ما سموه الثورات العلمية: الثورة النووية، والثورة الفضائية، والثورة الإلكترونية، والثورة البيولوجية، وثورة الاتصالات، وثورة المعلومات.

سلسلة حتمية الحل الإسلامي:

تبنى عبد الناصر في «ميثاقه» الشهير: «حتمية الحل الاشتراكي» وتنادى الناس، وتحدثت الألسنة، وكتبت الأقلام، في تمجيد الحل الاشتراكي، وأنه الحل السحري، الذي يملك «عصا موسى» و«خاتم سليمان» فيحل كل عقدة، ويسد كل ثغرة، ويطعم كل جائع، ويُشَغِّل كل عاطل، ويؤوي كل مشرد، ويكفل كل محتاج! وهو القادر على تحويل بلادنا من زراعية إلى صناعية، ومن مستهلكة إلى منتجة، ومن بلاد نامية إلى بلاد متقدمة!

وعندما جرب الناس هذا الحل، لم يجدوا شيئا من ذلك: لم يطعَموا به من جوع، ولم يأمنوا به من خوف، ولم يغتنوا به من فقر، ولم يُشفوا به من مرض، ولم يرتفعوا إلى الإنتاج والصناعة والتقدم.

لهذا رأيت أن أرد على فكرة «حتمية الحل الاشتراكي» بسلسلة من الكتب، أطلقت عليها: «حتمية الحل الإسلامي»، تظهر في أربعة أجزاء:

١ ـ جزء يتحدث عن «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا؟».

٢ ـ وجزء يتحدث عن «الحل الإسلامي: فريضة وضرورة» أي فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع.

٣ ـ وجزء يتحدث عن «الرد على شبهات العلمانيين والمتغربين» وإبراز «بينات الحل الإسلامي».

٤ ـ وجزء أخير يتحدث عن «أعداء الحل الإسلامي» الذين يقفون في سبيله، ويعوقون طريقه.

وقد ظهر الجزءان الأول والثاني: في سنتي ١٩٦٩ و١٩٧٠ على ما أذكر، وتأخر الجزء الثالث بعض الوقت، أما الجزء الرابع فتأخر كثيرا، فلم يظهر إلا من عدة سنوات.

وقد كنت كتبت بعض المقالات فى «حتمية الحل الإسلامى» قبل ظهور هذه السلسلة: فى مجلة «المجتمع» التى كانت تصدر فى بيروت فى الستينيات من القرن العشرين، ثم خلفتها مجلة «الشهاب» ردا على ما جاء فى الميثاق الناصرى.

ولا أقصد بكلمة «الحل» التفصيلات الجزئية العملية للمشكلات، بل الاتجاه الكلى العام؛ فـ«الحل الإسلامى» مقابل «الحل الاشتراكى» أو «الحل الرأسمالى» ولكل خصائصه ومقوماته وشروطه.

وكلمة «الحتمية» من «أكليشهات» الماركسيين، ولكني استخدمتها من باب «المشاكلة» كما يقول علماء البلاغة العربية، مثل قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢). ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى: ٤٠).

(٦)

السنة الدراسية

١٩٧٠ ـ ١٩٧١م

السنة الدراسية ١٩٧٠-١٩٧١م

أيلول الأسود:

في أوائل شهر سبتمبر سنة ١٩٧٠م، هزت العالم العربي مأساة هائلة لا ينساها التاريخ، وقعت تحت سمع العرب وبصرهم، في عاصمة عربية معروفة غير منكورة، هي «عمّان» عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية! إنها مأساة «أيلول الأسود» التي قتل فيها جمٌّ غفير من أبناء فلسطين في ثلاثة أيام، برصاص الجيش الأردني الباسل!! وهجماته العنترية على إخوانه الفلسطينيين، ومنهم من قتل في قلب منزله، وربما قتلت معه زوجته وأولاده، أو بعض أولاده، مثل صديقنا العالم الأزهري الشيخ عزت الشريف عليه رحمة الله.

صحيح أن أعضاء «فتح» كانوا قد تجاوزوا في تصرفاتهم، وارتكبوا بعض الأخطاء في حق المواطنين في عمان، وأصبحوا دولة داخل الدولة، ولم يعودوا يعبأون بسلطة ولا قانون، ولم تبادر القيادة المسؤولة بتأديب هؤلاء. ومثل هذا لا تصبر عليه دولة ترى لنفسها السيادة على أرضها.

ولكن ألم يكن ممكنا توسيط بعض القادة العرب لحل المشكلة، وإخماد النار؟ ثم لماذا الضرب بكل هذه القسوة وهذا الجبروت؟ إننا لم نستعمل هذه القسوة والوحشية مع الصهاينة الذين اغتصبوا أرضنا، وسفكوا دماءنا، وشردوا أهلنا، ودنّسوا مقدساتنا، فكيف نستعملها مع إخواننا، الذين هم منا ونحن منهم؟ أليس الشاعر العربي يقول:

أخـــاك أخـــاك! إن مـن لا أخـا لــه

كـسـاع إلـى الهـيـجـا بغـيـر سـلاح!

وإن ابن عم المرء ـ فـاعلم ـ جناحــه

وهل ينهض البـازي بغـيـر جناح؟

فكيف كسرنا سلاحنا، وكيف هضنا جناحنا؟ وكيف نقاوم بغير سلاح، أو نطير بغير جناح؟!

وإني لأعجب كل العجب من قسوتنا ـ نحن العرب ـ بعضنا على بعض، في حين وصف الله أصحاب رسوله بقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩).

كما وصف الله الجيل المرتقب لنصرة الإسلام عندما يمرق المارقون، ويرتد المرتدون، بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٥٤). وليس المقصود بالكافرين هنا: مجرد غير المسلمين، بل الذين يعادونهم ويقاتلونهم ويفتنونهم عن دينهم. فإن الله لم ينهنا عن الذين لم يقاتلونا في الدين، ولم يخرجونا من ديارنا: أن نبرهم ونقسط إليهم، فهو يحب المقسطين.

وهذه إحدى العبر من هذه المأساة: أننا عند الخصومة ننسى كل الروابط التي تربطنا، ويتعامل بعضنا مع بعض بشراسة ووحشية لا نتعامل بها مع أشد الناس عداوة لنا.

وعبرة أخرى نأخذها من هذه المأساة، وهي: أن أي جماعة شعبية مسلحة لا يمكن أن تقاوم قوة الجيش النظامي المسلح، فقد كانت فتح تملك الرجال، وتملك السلاح، وكانت متمركزة في أسفل العمارات وفي أعلاها، وكانت مسنودة محليا، ومسنودة عربيا، بل مسنودة من قوى كبرى مثل روسيا، ومع هذا حين اصطدمت بقوة الجيش، لم تستطع الصمود أمامه، فهو يملك من المعدات الثقيلة،

والإمكانات الكبيرة ما لا تملكه فتح. ولهذا تمكن من ضربها في مقاتلها، ومحاصرتها في مواقعها، والقضاء على قوتها، في وقت قصير.

وفي هذا عبرة للجماعات الشعبية، التي تفكر في الاستيلاء على السلطة بعمل عسكري، ضد قوات الدولة المسلحة، فهذا تفكير سطحي، وإغراق في الخيال، فإن الجيوش النظامية، والقوات المسلحة، بما تملك من أسلحة وعتاد وطاقات هائلة: قادرة على سحق مثل هذه المحاولات المحدودة القدرة، مهما يكن عند القائمين عليها ما لا يجحد من فضائل الشجاعة والبطولة وحب البذل في سبيل الله.

ولقد سجلت هذا في أكثر من كتاب لي، وخصوصا «الحلول المستوردة» و«الحل الإسلامي» كيْ أحذر الإسلاميين من التورط في تفكير كهذا، فهو لا يحقق هدفا، إلا القتل والدمار، وما يشبه الانتحار.

وصفي التل:

جرت هذه المأساة في عهد حكومة وصفي التل، رئيس وزراء الأردن، الذي باء بوزرها، وحمل تبعتها، أمام الله، وأمام العرب، وأمام التاريخ.

وقد غلى مرجل الغضب بين الفلسطينيين خاصة، وبين العرب والمسلمين عامة، على وصفي التل، وانصبت عليه اللعنات من كل جانب، لأنه هو الذي تولى كبْر هذا الأمر، وهو الذي أصدر الأوامر، ووجه النداء إلى وزير الدفاع وإلى الجيش.

حتى لو صدرت إليه الأوامر من الملك، فهو الذي يتولى التنفيذ، وكان يمكنه أن يرفض ويقدم استقالته، وكان يمكن أن ينفذ الأمر بصورة أرفق وأوفق، ولا يحمل عارها وشنارها عند الله وعند الناس أجمعين.

ولا عجب أن شهد العرب وشهد العالم: الانتقام السريع من وصفي التل، وهو يشارك في اجتماع في القاهرة دعا إليه عبد الناصر. فوجه شاب فلسطيني إلى صدره عدة رصاصات، فأردته قتيلا. ولا ريب أن العنف لا يولّد إلا عنفا.

ميلاد ابني عبد الرحمن:

وفي الثامن عشر من هذا الشهر - سبتمبر ١٩٧٠ - ولد ابني - الذكر الثاني - عبد الرحمن. فمنذ ابنتي أسماء: آثرنا أن نختار لأولادنا أسماء تراثية، من أسماء الأنبياء أو أسماء الصحابة والسلف.

وقد جاء في الحديث الصحيح: «أحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن»[(١)]، وكنت أوثر اسم «عبد الله» لأنه اسم أبي، وفي ذلك إحياء لذكره. ولكن زوجتي فضلت اسم عبد الرحمن، فلم أحب أن أرفض رغبتها.

والمصريون يسمون كثيرا «عبد الله» وغيره مما عبّد لله، كعبد العزيز، وعبد الحميد، وعبد القادر، وعبد اللطيف، ونحوها، ويروون في ذلك حديثا يقول: «خير الأسماء ما حمّد وما عبّد» ومعنى «ما حمد» أي ما اشتق من الحمد، مثل محمد وأحمد ومحمود وحامد ونحوها.

ولكن الحديث لا أصل له، بَيْد أن أسماء التعبيد لله: مقيسة على اسم عبد الله وعبد الرحمن، وقد صح بهما الحديث. ولا يكاد يعرف بين الصحابة من الأسماء المعبدة لله غير اسمَيْ عبد الله وعبد الرحمن.

كان عبد الرحمن سليم الجسم، معافى في بدنه، ولكنه من صغره كان يشكو من التهاب اللوز باستمرار، حتى كدنا نجري له عملية لاستئصالها، لولا أن صديقنا الدكتور شوقي الصيرفي الطبيب الشهير في الأنف والأذن والحنجرة، نصحنا بأن لا نجريها، وطالبنا بالصبر عليه، حتى يكبر قليلا، وسيشفى منها بإذن الله، وقد كان.

موت عبد الناصر:

وفي هذا الشهر نفسه، وفي يوم ٢٨ منه: أعلن نبأ هائل على العالم العربي. إنه موت عبد الناصر.

---

(١) رواه مسلم (٢١٣٢) وأصحاب السنن عن ابن عمر.

وفي هذه الليلة اتصل الأخ الأستاذ عبد البديع صقر بي، وقال: إن إذاعة القاهرة أوقفت كل برامجها، ولا تذيع إلا القرآن، و«المارشات» العسكرية، وكذلك إذاعة «صوت العرب». ويبدو أن عبد الناصر مات، ويتوقع إذاعة الخبر بعد قليل.

ولم تمض إلا برهة قليلة، حتى سمع الناس صوت أنور السادات ينعَى إلى الشعب المصري، وإلى الأمة العربية: رجلا من أعز الرجال، ومن أغلى الرجال!

الصوت الذي أعلن البيان الأول لثورة ٢٣ يوليو، أو لانقلاب ٢٣ يوليو، هو نفس الصوت الذي أذاع نبأ وفاة الرجل الذي فجر هذه الثورة.

لا شماتة في الموت، وكلنا من هذه الكأس شاربون، وإلى هذا المصير ذاهبون. ولكننا ـ نحن الإخوان ـ بشر، يحكمنا ما يحكم البشر من عواطف ومشاعر. فقد مات الرجل الذي قهرنا وأذل كبرياءنا، وذقنا على يديه ألوان العذاب.. الرجل الذي سجن رجالنا، وسجن كل من يساعد أسرنا بعشرة قروش، حتى يموت أولادنا من الجوع، وتضطر نساؤنا إلى مد اليد، أو ما هو أكثر من ذلك، تحت قهر الحاجة، وعضة الجوع، والجوع كافر لا يرحم.. الرجل الذي علق المشانق لدعاتنا وعلمائنا: عبد القادر عودة، ومحمد فرغلي، وسيد قطب وغيرهم. والذي قتل أكثر من عشرين منا جهرة في ليمان طرة، وقتل آخرين خفية في أتون التعذيب.. وتحت لهيب السياط والكي بالنار، وغيرها من الآليات المستوردة من النازية والشيوعية.

الرجل الذي حاربنا في أرزاقنا، ومنعنا من حقنا في وظائف الدولة، ونحن أولى الناس بها، بمقتضى مؤهلاتنا، وتقدمنا في ترتيب الناجحين، وألجأنا إلى أن نطرق أبواب المنشآت والمدارس الخاصة، ليردنا من يردنا، ويقبلنا من يقبلنا على هون!

الرجل الذي سلط علينا أجهزة إعلامه - مقروءة ومسموعة ومرئية - لتفتري علينا الأكاذيب، وتتقول علينا الأقاويل، وتشوه وجه دعوتنا، وترمي بالإفك رجالنا، ولا تمكننا من أن نقول كلمة في رد البهتان، وتفنيد الافتراء.

الرجل الذي أغلق دُورنا، وعطل مسيرتنا، وعوق دعوتنا، وجمد حركتنا، في حين أطلق الحرية للشيوعيين واللادينيين!

لقد مات الرجل المسؤول الأول عن ذلك كله، فمن حقنا أن نتنفس الصعداء، وأن نستبشر بموته، وأن نتوقع تغييرا من وراء ذلك يكون في صالحنا، وفي صالح دعوتنا ووطننا وأمتنا. ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٥، ٦).

هكذا كان موقفنا نحن الإخوان المسلمين الذين أصابنا ما أصابنا في عهد عبد الناصر، وكنا من ضحايا جبروت هذا النظام الشمولي الطاغوتي الذي قهرنا وقهر شعب مصر كله معنا.

ومع هذا رأينا كثيرا من الإخوان ترحموا على عبد الناصر، برغم ما نالهم من ظلمه وأذاه. نُقِل ذلك عن الأستاذ فريد عبد الخالق أحد قادة الإخوان المعروفين، ومن رفقاء حسن البنا. ونقل ذلك عن الأستاذ عمر التلمساني، حيث أبلغه أحد الإخوة - وهو في السجن - نبأ وفاة عبد الناصر، وكان الأخ متهللا فرحا، شماتة بموت عبد الناصر، فما كان من الأستاذ عمر التلمساني إلا أن قال له: الله يرحمه! فدهش الأخ لهذا الرد الذي لم يكن يتوقعه، فقال له الأستاذ عمر: يا أخي إن عبد الناصر قد أفضى إلى ما قدم، وأمره موكول إلى الله!

اختلفت المواقف في تقييم عبد الناصر، ولكن جماهير شعبنا المصري وشعبنا العربي: حزنت على عبد الناصر، وبكت عليه، وخرجت جموعها بعشرات الألوف، ومئات الألوف، مودعة حزينة منتحبة.

خواطر حول الموت:

إن شعبنا المصري شعب عاطفي، تهزه المصائب، وتغلب عليه الأحزان، ويبكي على الموتى بحرارة وحرقة، ولهذا بكى عبد الناصر، الذي مات فجأة، ومات قبل سن الشيخوخة المعتاد، ولم تجد معه محاولة الأطباء، ولا أنواع الدواء، وقد اجتمع حوله من النطاسيين والخبراء أكبرهم قدرا، وأثقلهم وزنا، ولكن الداء إذا كان من السماء، بطل الدواء، وعز الشفاء. ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون: ١١).

هذه نهاية كل حي: أن يموت، وأن يوارى في حفرة، وأن يدع الأهل والولد، والأعوان والخلان، وأن يواجه وحده عمله في حفرته أو في قبره.

هذه نهاية الرسل والأنبياء، كما قال الله لرسوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (الزمر: ٣٠، ٣١) وقال له: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٤، ٣٥).

وهذه نهاية الملوك والأمراء والأباطرة وغيرهم من أصحاب السلطان، وذوي الهيل والهيلمان، ممن ملكوا القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وممن كانت الجيوش الجرارة تحرسهم، والرجال الأقوياء تخدمهم، والشعوب رهن إشارتهم، وطوع إرادتهم، ثم أتاهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات: الموت، ففارقوا هذا كله، ولم يغن عنهم هذا كله من الله شيئا! فارقوه مكرهين، وواجهوا مصيرهم منفردين. ولسان حالهم يقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ (الحاقة: ٢٨، ٢٩).

أو يقول ما قاله أحد الملوك الكبار من المسلمين، وهو على فراش الموت: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه!

طافت هذه الأفكار والأحاسيس بخاطري بعد موت عبد الناصر. وقلت في نفسي: لماذا لا يعتبر الناس بالموت؟ لماذا ينسى كل حي أنه ولد ليموت؟ لماذا ينسى المرء مَن شيعه من أقارب وأحبة وأصدقاء وواراهم التراب؟ لماذا ينسى الملوك والرؤساء أن الملك لو دام لمن قبلهم ما وصل إليهم؟ وأنه سينتقل منهم إلى من بعدهم؟

هذه خواطر واعظ أو داعية، لن تغير من الواقع شيئا. فالناس هم الناس، يدفنون الموتى بأيديهم، ثم يعودون من دفنهم، ليمارسوا حياتهم، وكأن شيئا لم يكن. ولعل هذه الغفلة عن مصيبة الموت من نعمة الله على الإنسان، حتى تَعْمُر الأرض، وتستمر ساقية الحياة تدور ولا تتوقف. ولكن زيادة هذه الغفلة واستمرارها هو الخطر الذي لا يليق بأهل الإيمان.

موقف قطر وأهل الخليج:

كان وقع موت عبد الناصر شديدا على أهل قطر، وأهل الخليج عامة، فقد كانوا ـ بصفة عامة ـ معجبين به، محبين له، فهو الزعيم الذي أشعرهم بوجودهم، أمام الاستعمار المتغطرس، وقد كانوا منسيين لا يحس بهم أحد، حتى ظهر «صوت العرب» من القاهرة يناديهم بصوت جهوري: أخي في عُمَان، أخي في دبي، أخي في قطر، أخي في البحرين. وكان صوت أحمد سعيد مدير صوت العرب، ورفقائه الأولين: محمد أبو الفتوح، ومحمد عروق، وسيد الغضبان وغيرهم: يحرك الساكن، ويثير الكامن، في هؤلاء العرب على ضفاف الخليج، الذي كان يسمى «الخليج الفارسي» فأصبح لسان الإعلام الجديد، يطلق عليه: «الخليج العربي». وقد تعلقت قلوب أهل الخليج أكثر بعبد الناصر، حين «أمّم» قناة السويس، وواجه التحدي الغربي، الذي تمثل في العدوان الثلاثي: (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) على مصر، وإعلان عبد الناصر من منبر الأزهر: سنقاتل، سنقاتل.

كما وقف عبد الناصر في وجه الغرب حين خرج من أسر احتكار السلاح، واشترى سلاحه من المعسكر الشرقي الشيوعي.. ثم تحدى أمريكا في بناء السد العالي، معتمدا على روسيا، والاتحاد السوفيتي.

كل هذا حبب عبد الناصر إلى أهل الخليج، وخصوصا بعد تبنيه لدعوة «القومية العربية» التي صادفت هوى في قلوب كثير من العرب، بعد سقوط الخلافة، وضعف الرابطة الإسلامية.

فلا غرو أن يحزن أهل الخليج على فراق عبد الناصر، وإن كان وقع الموت على أهل قطر، وأهل الخليج عامة: خفيفا هينا، لا يزلزل الإنسان الخليجي، كما يزلزل الإنسان المصري. ولكنهم على أي حال تأثروا بموت عبد الناصر.

وجاء التوجيه في قطر إلى خطباء المساجد: أن يصلوا صلاة الجنازة - صلاة الغائب - على عبد الناصر، وفي جامع الشيوخ - الجامع الكبير - وقف المصلون جميعا خلف الإمام ليصلوا، ما عدا واحدا، رفض القيام والمشاركة في الصلاة، هو أخونا الكريم الشيخ مصطفى جبر رحمه الله، قال: أنا لا أصلي على ظالم وطاغية! وكان الشيخ مصطفى موظفا في وزارة التربية. فأمر وزيرها الشيخ قاسم بن حمد آل ثاني رحمه الله، حين بلغه ذلك، بإيقافه عن العمل! وقد توسطنا له عند الوزير: الشيخ عبد المعز عبد الستار وأنا، فرفع عنه العقوبة، استجابة لشفاعتنا.

تعزية في عبد الناصر:

ولم تكن في قطر سفارة لمصر - أو للجمهورية العربية المتحدة كما كانت تسمى، حتى بعد انفصال سورية - ولكن الجالية المصرية ومعهم بعض أهل قطر: أقامت حفل عزاء لعبد الناصر، تتقبل فيه تعزيات المعزين.

وقد قاطعه الإخوان عامة، إلا قليلا منهم، رأوا أن من واجب المجاملة أن يعزوا فيه، وقال بعضهم، وكان من المعتقلين الذين نالهم من الأذى والبلاء ما نالهم: إني أشفي غليلي بالعزاء فيه!

وكنت ممن قاطع هذا الحفل، ولكن أخوين كريمين، زاراني في بيتي، ورجواني أن أشارك في هذا العزاء، قالا: لما لك من وزن خاص في قطر، وتعزيتك سيكون لها معنى، وتدفع أذى كثيرا عن الإخوان الذين لم يشارك جمهورهم في هذا العزاء، فقد يصيبهم أذى كما أصاب أخانا مصطفى جبر، الذي رفض الصلاة على عبد الناصر. وما زالا يلحان عليّ، حتى استجبت لهما، وذهبت معهما، وأنا رجل أضعف أمام ضغط الإلحاح. وقد ذهبت والحفل يوشك أن ينفض، ولكن كان لحضوري اعتبار خاص قدره كل الموجودين.

كان الأخوان اللذان زاراني وألحّا علي في المشاركة، هما: الأخ الحاج محمد حلمي المنياوي، والأخ عبد الحميد طه من إخواننا القدامى في قطر، ويعمل رئيس منطقة تعليمية في قطر.

أما الحاج حلمي المنياوي، فهو أحد ضحايا عبد الناصر، فقد كان صاحب «دار الكتاب العربي» للطباعة والنشر في القاهرة، وهي إحدى الدور الرائدة التي كان لها دورها في نشر الكتب الإسلامية والعربية، والتي تطورت مبكرا تطورا كبيرا، ونشرت للشيخ الغزالي والشيخ سيد سابق وغيرهما. وكان الحاج حلمي من أعضاء الهيئة التأسيسية للإخوان، وقد انتهت مؤسسته الكبيرة على يد عبد الناصر، واضطر الرجل إلى أن يهاجر، ويعمل موظفا في مؤسسة «دار العلوم» للطباعة، التي يملكها آل عبد الغني في قطر. ولهذا لما جاءني الحاج حلمي مع الأخ عبد الحميد طه، وألح علي أن أذهب معهما للعزاء، وقال الحاج حلمي: إن في هذا رعاية لأمثالي الذين لا ظهر لهم، ولا تاريخ في قطر: صعب عليّ هذا الرجل، الذي كان ملء السمع والبصر في مصر سنوات طويلة. وقد قيل: ارحموا عزيز قوم ذل!

ونقل خبر تعزيتي في عبد الناصر إلى الإخوة في الكويت وغيرها، مجردة عن دواعيها وملابساتها، فإذا بي أواجه حملة شعواء من الإخوان عليّ: أني عزيت في الطاغية الذي عذب الإخوان، وعطل دعوتهم، وعوق مسيرتهم، وفعل بهم

الأفاعيل. وكان بعض الإخوة السطحيين المساكين يتقربون إلى الله تعالى بالتشنيع عليّ، والنَّيْل من عرضي، وكأني لست ممن ابتلوا بجحيم عبد الناصر، ولا ممن ذاقوا الويلات على يديه. وأمسيت أمام إخوان الكويت خاصة متهما، ومضطرا للدفاع عن نفسي!

من عيوب الجماعات الكبيرة: أن فيها أناسا تغلب عليهم النزعة «الظاهرية» في قراءة الوقائع، وفي تحليل الأمور، فيحكمون على الأمور بظواهرها القريبة، دون النظر إلى آفاقها البعيدة، لا يعرفون ما يسميه الفقهاء: فقه المقاصد، ولا فقه المآلات. هذا الفقه الذي جعل الرسول الكريم يبقي على المنافقين، وهم يكيدون له، ويمكرون به، وقد أشار عليه المخلصون من أصحابه بقتلهم والاستراحة من شرهم. فكان رده: «أخشى أن يتحدث الناس: أن محمدا يقتل أصحابه»[1].

هذه الفئة في الإخوان وفي غيرها من الجماعات، التي لا تنظر إلا إلى مواضع أقدامها: عالية الصوت، قادرة على التشويش والتشويه، ولو إلى زمن، ثم يحق الله الحق ويبطل الباطل، سنة الله في خلقه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء: ١٨).

وقفة لتقويم عبد الناصر وعهده:

لقد غيب الموت عبد الناصر، وطويت صفحته من دنيانا، ولقي ربه بما له وما عليه، وسيجزيه ربه بما يستحقه، يوم تبلى السرائر، إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور، وهو سبحانه يعلم السر وأخفى، ولا يضيع عنده مثقال ذرة، ولا يخاف أحد عنده ظلما ولا هضما. ومعنى الظلم: أن يحمل وزر غيره، ومعنى الهضم: أن يضيع أجر عمله.

---

(١) رواه البخاري (٣٥١٨) ومسلم (٢٥٨٤) عن جابر بن عبد الله.

ومن الناس من إذا مات ماتت خطاياه معه، فطوبى له. ومنهم من يموت ولا تموت ذنوبه، بل تبقى من بعده آثار ظلمه وعدوانه، وهو الذي قال الله تعالى في أمثاله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ (يس: ١٢).

هل من حقنا أن نقف وقفة متأنية لتقويم عبد الناصر وعهده، وما فيه من حسنات وسيئات، وإنجازات وإخفاقات؟ هل كانت ثورة ٢٣ يوليو خيرا أو شرا على المصريين والعرب؟

ربما توقف بعض أهل الدين من الناحية الشرعية، وقالوا: نحن أمرنا أن نذكر محاسن موتانا، وجاء في الحديث: «لا تذكروا هلكاكم إلا بخير»[(١)]. كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن سب الأموات[(٢)]، لسببين: الأول: أنهم أفضوا إلى ما قدموا، وأمسوا عند رب عادل يحاسبهم.

والثاني: أن سب الأموات يؤذي الأحياء، ممن يهمه أمر الميت من أبناء وأقارب وأصحاب.

لهذا يتورع بعض المتدينين من الكلام عمن مات، وإن أصابه من ظلمه ما أصاب، ويكل أمره وجزاءه إلى من لا يخفى عليه خافية، ولا تضيع عنده مظلمة مظلوم، ولا حق مهضوم.

ولكن إذا كان السب ممنوعا، فإن النقد الحق مشروع، لا سيما من كان يتحمل مسؤولية عامة، فإن من حق الناس أن ينقدوا أعماله، ويثنوا على ما كان فيها من حق وخير، وينكروا ما كان فيها من باطل وشر. وهذا ما فعله المؤرخون المسلمون الأثبات في تقويم الخلفاء والأمراء، من بني أمية، وبني العباس وغيرهم. وقالوا: كان فلان عادلا، وكان علان ظالما، وأوسعوا الحجاج بن يوسف ذما وتجريحا.

---

(١) رواه النسائي (١٩٣٥) عن عائشة، وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير (٧٢٧١).
(٢) رواه البخاري (١٣٩٣) عن عائشة.

فالتعديل والتجريح من أجل مصلحة الدين، ومصلحة الأمة: أمر مشروع. وعلى هذا مضت سنة أئمة الحديث في خير القرون ومن بعدهم: يقولون عن الموتى في كتبهم: هذا مغفل، وهذا كثير الغلط، وهذا مدلس، وهذا كذاب، وهذا أكذب الناس، ليحذروا الأمة أن تثق بهؤلاء، أو تأخذ عنهم الدين.

وسيظل من حق المظلوم: أن يصرخ شاكيا من ظالمه، حيا كان أو ميتا، ما دامت مظلمته قائمة، كما قال تعلى: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٤٨).

فلسفتي في تجميع كل القوى:

وأنا لا أريد ـ بحق ـ أن أنكأ الجراح، ولا أن أنبش القبور، ولا أن أذكر بالماضي الأليم، ولا سيما في هذا الوقت الذي تواجه الأمة فيه أخطارا جساما، وقد كاد لها أعداؤها كيدا، ومكروا بها مكرا كبّارا.

وقد عرفت من سيرة الإخوان ومن أخلاقهم: أنهم لا يحاولون أن يثأروا ممن ظلموهم، بل يدخرون ما أصابهم عند الله، الذي لا يضيع عنده عمل عامل، ولا يظلم أحدا مثقال ذرة، وهو الذي سيأخذ لهم حقهم، ويجزيهم الجزاء الأوفى. وهذا ما سجله تاريخهم في عهد الملكية، وعهد الثورة. وقد كان بوسعهم أن ينتقموا من ظالميهم الذين ساموهم سوء العذاب، بعد أن ترك كثير من هؤلاء مناصبهم، وزال سلطانهم، فأصبحوا بلا ظفر ولا ناب! ولكنهم لم يفعلوا ذلك، ولم يفكروا فيه، وتركوا ذلك للقدر الأعلى، الذي ثأر لهم من خصومهم، فرأوا نهايتهم السوداء في حياتهم.

رأوا «حمزة البسيوني» وقد دخلت سيارته في سيارة أمامها في الليل، تحمل أسياخا من الحديد، حطمت سيارته، وقطعت جسده تقطيعا.

ورأوا «شمس بدران» يدخل السجن معهم، ولكنه لم يكن متماسكا كما كانوا، بل كان ذليلا منهارا، يبكي بكاء الأطفال!

ومن هنا لا تعجبوا إذا دعوت إلى نسيان المظالم والمآسي الماضية، وحثثت على رصّ الصفوف، وتجميع القوى كلها، لمواجهة الخطر المحدق، ومقاومة العدو الشرس، قائلين: عفا الله عما سلف. ولهذا رحبت باجتماع القوميين والإسلاميين من العرب في صورة المؤتمر القومي الإسلامي، وكنت أحد الذين اشتركوا في إعداد الورقة التي تمثل الجانب الإسلامي، وحضرت أكثر من مرة دورات هذا المؤتمر في بيروت. ولا شك فى أن «الناصريين» في مصر وفي غيرها من العالم العربي: جزء أساسي من هذا المؤتمر.

ومع هذا لا يسعني ـ وأنا أتحدث عن هذا الجانب المهم من التاريخ في سيرتي ومسيرتي ـ أن أتجاهل ذلك، وأغض الطرف عنه، وسيلومني الكثيرون أني لم أقل رأيي، وقد وعدت قارئ هذه المذكرات في الجزء الثاني: أن أقول رأيي في عبد الناصر وعهده عندما يأتي الحديث عن وفاته. وكل من يتعرض للعمل العام لا بد أن يتعرض للنقد في حياته وبعد مماته.

الاختلاف الشديد في عبد الناصر:

ولا ريب فى أن الناس في رجل كعبد الناصر جد مختلفين، فله أنصار يرتفعون به إلى أعلى عليين، وله خصوم يهبطون به إلى أسفل سافلين. وبين مدح المغالين في المدح، وقدح المبالغين في القدح: تضيع الحقيقة.

ومما لا يخفى على ذي لب: أن عين المحب لا ترى عيبا فيمن تحب، ولا ترى غير المحاسن والمزايا، كما ورد: «حبك الشيء يُعَمِّي ويُصِمّ!»[1] وعين الكاره والساخط لا ترى غير العيوب والسقطات. وهذا ما عبر عنه الإمام الشافعي من قديم بشعره الذي يحفظه الخاص والعام:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

كما أن عين السخط تبدي المساويا

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥١٣٠) عن أبي الدرداء.

وهل يستطيع إنسان أن يتجرد من عواطف الحب والكره، أو الرضا والسخط، وينظر إلى من يقومه نظرة «موضوعية» خالصة، بعيدة عن «الذاتية» تماما؟

لا يجرؤ بشر أن يدعي ذلك، وإن بلغ في تزكية النفس ما بلغ، فلا بد أن تغلبه بشريته، فيحاول - واعيا أم غير واع - أن يضخم بعض الهنات الصغيرة، أو يصغر بعض الحسنات الكبيرة، أو نحو ذلك.

ولقد توقفت فترة من الزمن في تقويم عبد الناصر، بوصفي ممن جرحتهم سهامه، وأصابهم ظلمه، ولا تزال آثار جراحه في جسده، وآثار مظالمه في نفسه، تأتيه في صورة كوابيس بالليل، وذكريات أليمة في النهار، ومضايقات في أشكال شتى، منها ما يعرفه الناس، ومنها ما لا يعرفونه. ومن كان في مثل حالي ربما لا يتوقع منه أن يكون منصفا في تقويم الرجل.

ويهمني أن يعلم قارئي أني لا أدعي العصمة لنفسي، ولا أزعم أني فوق البشر الذين يتأثرون بمشاعر الحب والبغض، ولكني أرجو أن أسلك «النهج الوسط» الذي اخترته منهاجا لي في حياتي كلها، ورضيت به، وأحب أن ألقى الله عليه.

لقد رأيت من الناس من يجعل من عبد الناصر: ملاكا رحيما، وبطلا أسطوريا، وقائدا لا يشق له غبار، وسياسيا فاق السياسيين، ومصلحا بز المصلحين!

هو عندهم منقذ وطني، ومحرر سياسي، وزعيم عربي، ورائد إفريقي، وربما أضافوا إليه: وقائد إسلامي! فهو الذي دبر الثورة، وطرد الملك، وحرر مصر من الإقطاع، وحررها من الإنجليز، وهو داعية القومية العربية، والتحرر الإفريقي، وأحد أبطال كتلة عدم الانحياز، ومنشئ المؤتمر الإسلامي في مصر.

وزعم بعض المداحين: أنه سمع خطباء مصر الثلاثة (مصطفى كامل، وسعد زغلول، وجمال عبد الناصر) فوجده أبرز الثلاثة وأقدرهم على التأثير في الجماهير بلغته الشعبية السهلة! (أي بلغته العامية المبتذلة فاق الخطباء الذين تدرس خطبهم في كتب الأدب)!!

إلى آخر ما يروج من سلع المديح والإطراء والمبالغات في سوق النفاق، حتى سمى بعض الكتاب مصر في ذلك العهد «نفاقستان»!

وما تضخه أجهزة الإعلام بمختلف أدواتها وألوانها من مواد مقروءة أو مذاعة أو متلفزة، كلها مسخرة لتمجيد الزعيم، وأقوال الزعيم، وأعمال الزعيم، وأفكار الزعيم، وبطولات الزعيم: لا تتوقف، ولا تتوانى، يوما ولا بعض يوم حتى مات! بل بعد أن مات إلى يوم ١٥ مايو ١٩٧١م يوم ضرب السادات «مراكز القوى» الناصرية - التي ظلت تحكم باسمه من بعده - ضربة قاضية، لم تقم لها بعدها قائمة.

هنا بدأ المخبوء ينكشف، والمستور يظهر للعيان، والذي أخرسه الخوف يتكلم، والمخدوع بالدعاية والشعارات ينزع الغشاوة عن عينه ليرى، وبدأت الصحف «القومية المؤممة» تفيض بالمقالات والتحقيقات والتعليقات، وأصحاب الأعمدة اليومية يفضون بما كتموه في صدورهم.

وظهرت كتب كثيرة تتحدث عن مظالم تلك الفترة، وعن مآسي تلك السنين، وعن الأموال التي هلكت، وعن الفرص التي ضاعت، وعن القباب الضخمة التي شيدت وليس تحتها شيخ، وعن الدعايات الهائلة التي ضللت الشعب، حتى جرى وراء السراب يظنه ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا!!

ظهر كتاب توفيق الحكيم «عودة الوعي» يبين فيه أنه عاش غائب الوعي طوال تلك السنين، مخدوعا بالدعاية المضللة، حتى انكشف القناع، وعاد إليه الوعي! وظهر كتاب جلال الحمامصي «حوار وراء الأسوار» وكتاب المستشار محمد عبد السلام «سنوات عصيبة» وكتاب سامي جوهر «الصامتون يتكلمون» وكتاب محمد عبد الرحيم عنبر «محاكمات جمال عبد الناصر» وكتابه «ويل لهؤلاء من محكمة التاريخ» وكتاب محمد شوكت التوني «قضية التعذيب الكبرى» و«محاكمات الدجوي» وكتاب «في معتقل أبي زعبل» لإلهام سيف النصر، وكتاب

د. إبراهيم عبده «رسائل من نفاقستان» و«مذكرات عبد اللطيف البغدادي» وكتاب «كلمتي للتاريخ.. كنت رئيسا لمصر» للرئيس محمد نجيب، وكتاب صلاح الشاهد «ذكرياتي بين عهدين» وكتاب محمد أنور رياض «القابضون على الجمر» وكتاب عادل سليمان وعصام سليمان «شهداء وقتلة في عهد الطغيان» ومصطفى أمين في كتبه: من «سنة أولى سجن» إلى «سنة تسعة سجن»، وكتاب «عبد الناصر» لأحمد أبو الفتح، وكتاب أنيس منصور «عبد الناصر المفترَى عليه والمُفترِي علينا» وما كتبه أحمد رائف «البوابة السوداء» و«سراديب الشيطان» وما كتبه الدكتور أحمد شلبي في الجزء التاسع من موسوعة التاريخ الإسلامي عن حوليات عصر جمال عبد الناصر، الذي سماه: عصر المظالم والهزائم. وكتب لا أذكر أسماء مؤلفيها، مثل «أموال مصر وكيف ضاعت؟» وكتاب «الموتى يتكلمون».

وهذا غير ما كتبه الإخوان مثل زينب الغزالي «أيام من حياتي» ومثل جابر رزق «مذابح الإخوان في سجون ناصر» ود. علي جريشة في عدد من كتبه «في الزنزانة» و«دعاة لا بغاة» و«عندما يحكم الطغاة» وحسن عشماوي «الإخوان والثورة» واللواء عبد المنعم عبد الرؤوف في كتابه: «أجبرت فاروق على التنازل عن العرش» وعباس السيسي في كتابه «في قافلة الإخوان المسلمين» ومحمود عبد الحليم في كتاب «الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ» وعمر التلمساني «قال الناس ولم أقل في حكم عبد الناصر» ومحمد حامد أبو النصر «سر الخلاف بين عبد الناصر والإخوان» وصلاح شادي «صفحات من التاريخ» وجابر الحاج «زلزال التآمر الناصري» وكتاب «٢٥ عاما في جماعة مرورا بالغابة» لحسن دوح، وكتاب «عندما غابت الشمس» لعبد الحليم خفاجي وغيرها.

وهناك «أفلام» عبرت عن هذا الحقبة المظلمة الظالمة، وإن لم تذكر الأسماء صراحة، مثل فيلم «البريء» وفيلم «الكرنك» و«ليل وقضبان» و«شيء من الخوف» وغيرها.

وإذا كنا رأينا من جعل من عبد الناصر «ملاكا رحيما» وأضفى عليه من الفضائل ما أضفى، وجعل تاريخه أبيض من الثلج، ولم يحاسبه على خطيئة ولا خطإ واحد، لأنه لم يصدر منه شيء من ذلك، فهناك فريق آخر، على النقيض من هؤلاء، جعل من عبد الناصر: «شيطانا رجيما»: يجرده من كل فضيلة، وينسب إليه كل رذيلة، ولا يضيف إلى رصيده حسنة واحدة، فثورته كانت وبالا على مصر والعرب، وعهده كان شرا وبلاء على المصريين والعرب والمسلمين. ويتمنى هؤلاء العودة إلى عهد الملكية البائدة، قائلين: إن عهد الملك فاروق ـ على ما كان به من فساد وانحراف ـ لم ترتكب فيه من المظالم والشرور ما ارتكب في عهد عبد الناصر.

حتى الحسنات الظاهرة في عهد عبد الناصر، مثل: «تأميم قناة السويس» التي صفقت لها مصر، وصفق لها العرب جميعا: ضنوا أن يحسبوها في ميزانه، وقالوا: إنه استعجل في أمر كان سيتم طبيعيا بعد ثلاثة عشر عاما، بدون أن يجازف بالدخول في حرب مع دول كبرى كبريطانيا وفرنسا، وأن يتيح فرصة لإسرائيل لتدخل معهم في حرب ضد مصر.

ونسي هؤلاء أن الشركة الاستعمارية العتيدة، كانت تخطط لاستمرار السيطرة على القناة، وربما لو تركهم حتى تنتهي المدة، ولم يفاجئهم بقرار التأميم، لكانوا أعدوا العدة لإفشال أي محاولة للاستيلاء على القناة.

وحتى بناء «السد العالي» ذكروا من آثاره السلبية ما ذكروا، وأنه «هدف عسكري» سهل لإسرائيل، يمكن أن تلجأ لضربه في ساعة البأس، عندما تحيط بها المخاطر في وقت ما، وفي هذا غرق مصر وهلاك الحرث والنسل.

ويأخذون عليه: أنه ضيع جهودا وأموالا في مغامرات فاشلة، في الكونغو، وفي اليمن، وفي غيرها. وأنه لم يدخل حربا إلا خسرها، كما في سنة ١٩٥٦م، وسنة ١٩٦٧م. وقد استطاع إعلامه الذي برع في الكذب وقلب الحقائق: أن

يجعل هزيمة سنة ١٩٥٦ نصرا يحتفل به كل عام. مع أن البغدادي يقول في مذكراته: إنه قال له: نحن ضيعنا البلد. وإنه ليس أمام مجلس الثورة وأعضائه إلا أن ينتحروا جميعا. وطلب من زكريا محيي الدين، إحضار زجاجة من السم «سيانور البوتاسيوم» تكفي لعدد الأعضاء، وأكد كلامه بقوله: إني جاد فيما أقول![1].

وينقمون عليه: أنه قهر الشعب المصري، وأهان كرامته، وأذل كبرياءه، وحطم نفسيته، وقيد حريته، وكبله بالأغلال التي جعلته غير قادر على الحركة يمنة أو يسرة.

ويضيفون إلى مآثمه: أنه ألغى الحياة الديمقراطية من مصر، وهي من أوائل الديمقراطيات في الشرق، وفرض على الناس دكتاتورية الحزب الواحد، الذي اختلفت تسميته من: «هيئة التحرير» إلى «الاتحاد القومي» إلى «الاتحاد الاشتراكي» ولم يسمح لمعارض أن يكون له صوت يسمع، وإن كان من رفقائه في الثورة، ابتداء من رشاد مهنا، إلى محمد نجيب، إلى خالد محيي الدين، إلى عبد المنعم عبد الرؤوف، إلى آخرين. حتى خطيب ثورته والمتحدث الديني باسمه، لم يسلم من أذاه وبطشه، وهو الشيخ أحمد حسن الباقوري، فقد طوح به، وطرده من منصبه شر طردة، لا لشيء إلا لأن رجلا ذم عبد الناصر، وهو الأديب المحقق المعروف محمود محمد شاكر، وكان الباقوري يزوره فى ذلك الوقت، ولم يدافع عنه. وقد قيل: إن الباقوري لم يكن حاضرا وقت الكلام عن عبد الناصر! على أن الذين يعرفون الأستاذ شاكرا وطبيعته الحاده، لا ينتظرون من الباقورى ولا من غيره أن يرد عليه!

وقد ابتلى مصر بفكرة: أن يكون للعمال والفلاحين نصف مقاعد مجلس النواب، وهي بدعة لم تتخلص مصر منها إلى اليوم، ولم تعرف في بلد غير مصر!

---

(١) انظر: مذكرات البغدادي ص٣٤٥.

ويزيدون على ذلك: أنه أضر بالاقتصاد المصري، نتيجة سيطرة القطاع العام، الذي أخفق في إدارة مؤسساته، حتى أصبحت تخسر خسارات فادحة، بعد أن كانت تكسب مكاسب هائلة، يوم كانت ملك القطاع الخاص.

ولا ينسى هؤلاء أن يضعوا في ميزان سيئاته: الإساءة إلى الدين والشريعة، حين ألغى المحاكم الشرعية، وأساء إلى قضاتها بتلفيق تهم لهم لم يثبتها قضاء عادل، وأصدر قانون تطوير الأزهر: الذي يتاح فيه للكليات المدنية في جامعة الأزهر: أن تأخذ خيرة طلابه، وأن لا يبقى للكليات الأصلية الدينية (أصول الدين والشريعة واللغة العربية) غير المتردية النطيحة وما يعاف السبع أن يأكله! هذا مع أني رفضت هذا التفسير، ودافعت عن التطوير في الجزء الثاني من هذه المذكرات.

كما سَخِر عبد الناصر من علماء الدين في خطبه، واتهمهم بأن أحدهم من أجل وليمة عند إقطاعي، يقدم فيها خروف أو ديك رومي: يبيع دينه، ويصدر فتواه في إقرار المظالم الواقعة على الفلاحين، وهضم حقوقهم، وأكل عرقهم.

كما أتاح للصحف الحكومية أن تسخر بالدين وعلمائه، كما فعل الرسام الشهير صلاح جاهين في صحيفة «الأهرام» الذي سخر قلمه للسخرية بالداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي وعمامته في (١٨) رسما كاريكاتيريا.

هذا ما ذكره خصوم عبد الناصر عن شخصه، وعن عهده. وليس كل ما قالوه حقا، كما أنه ليس كله باطلا.

ثم إني أفرق تفريقا واضحا بين أمرين: أولهما: ما كان من «اجتهادات» قد تصيب، وقد تخطئ، وهو مأجور على صوابه، ومعذور في خطئه، بل ربما كان مأجورا أجرا واحدا، إذا صحت نيته، وتحرى في اجتهاده، واستشار أهل الذكر والخبرة، واستفرغ وسعه في الوصول إلى الحقيقة والرأي الأرشد.

وذلك مثل سياسته في إفريقيا وفي اليمن وفي غيرها، فأقصى ما يقال فيها: إنه سياسي فاشل. وفرق بين الفاشل والظالم! ولكن الفشل إذا تكرر واستمر يصبح كارثة على الوطن، وعلى الأمة. ففشل الفرد العادي وإخفاقه على نفسه، أما فشل الزعيم المستمر، ففيه خسارة الأمة وتأخرها، وضياع فرصها في النهوض والتقدم.

وثانيهما: ما كان من مظالم ومآثم متعمدة، كما حدث لمعارضي عبد الناصر عامة، وللإخوان المسلمين خاصة، فلا يستطيع مدافع أن يدافع عن عبد الناصر، في إيقاع هذا الكم الهائل من المظالم والمآثم: من شنق وتقتيل، وتشريد وتنكيل، وإيذاء وتعذيب، ومصادرة وتضييق، لجماعة كانت هي أول من ساند ثورة عبد الناصر، بل كانت هي أول من أوحى إليه بضرورة العمل الوطني داخل الجيش، كما اعترف عبد الناصر بنفسه في المذكرات التي كتبها الأستاذ حلمي سلام رئيس تحرير المصور بعنوان: «الثورة من المهد إلى المجد» وذلك أوائل ما قامت الثورة، وقال فيها: إن أول من لفت نظره إلى هذا العمل: هو الصاغ ذو الوجه الأحمر م. ل، يقصد: محمود لبيب أحد العسكريين الأحرار الذين عملوا مع عزيز باشا المصري، وكان وكيلا للإخوان في عهد المرشد الأول حسن البنا.

بعض الناس يهونون من الأهوال التي عاناها الإخوان، ولو ذاقوا معشار ما ذاقوا، لكان لهم رأي آخر، وقول آخر. وقد قيل: النار لا تحرق غير القابض عليها. وقال الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيها!

والقرآن يقرر مع كتب السماء: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢).

ويقول رسول الإسلام: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مسلم»[1].

ومن العجب أن يتحدث هؤلاء عن أهمية حقوق الإنسان، وحقوق الأفراد، وحق الحرية المقدس، وحق الفرد في أن يأمن على نفسه وأهله وماله وخصوصياته.. فإذا وصل إلى الإخوان: استثناهم من هذا كله، كأنما ليست لهم حقوق، وإذا وصل إلى عبد الناصر: استثناه من هذا كله، كأنما ليس عليه واجبات، وكأن من حقه أن يصادر ويعذب ويظلم ويبغي في الأرض بغير الحق. بلا حسيب ولا رقيب.

ولقد بينت في حديثي عن السجن الحربي في الجزء الماضي: مسؤولية عبدالناصر عن الجرائم الوحشية والاعتداءات الهمجية، التي وقعت في السجن الحربي، وأنه شهد بنفسه بعض وقائع التعذيب، وأنه لا يعقل أن يتم هذا الذي تناقله الناس في الآفاق دون علمه، وقد ذكرنا أن هيكل مؤرخ عبد الناصر اعترف بأنه كان يعلم، وعرضت عليه وقائع، فلا معنى لتبرئته بدعوى أنه يجهل ما يجري!

وحتى لو لم يعلم، فهو المسؤول الأول عن هذه الوحوش الآدمية، التي عينها في مناصبها لتنهش لحوم الناس، وتفترسهم، وهم مطمئنون إلى أنهم محميون، وأن ظهورهم مسنودة إلى جدار السلطان.

إن رسولنا الذي لا ينطق عن الهوى: أخبرنا أن امرأة أدخلها الله النار، من أجل هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[2].

هذا في حبس هرة، فكيف بمن حبس الألوف من الناس، وسقاهم كؤوس العذاب، وجرب فيهم ما استورده من أدوات التعذيب من عند الشيوعيين أو غيرهم، وسلط عليهم كلاب البشر، وكلاب الكلاب، وقد كانت الكلاب الحقيقية أرحم من الكلاب البشرية في كثير من الأحيان.

---

(١) رواه الترمذي (١٣٩٥) والنسائي (٣٩٨٧) عن ابن عمرو، وصححه الألباني في «غاية المرام» برقم (٤٣٩).

(٢) رواه البخاري (٣٣١٨) عن ابن عمر. ومسلم (٢٦١٩) عن أبي هريرة.

إن شر ما فعله عبد الناصر في مصر: أنه أذل الإنسان المصري وقهره، وأحياه في خوف دائم: أن يدهمه زوّار منتصف الليل، أو زوار الفجر، من كلاب الصيد، فتتخطّفه، وتذهب به إلى مكان سحيق وراء الشمس، لا يستطيع أحد الوصول إليه، وقد أصبح المصريون يتجسس بعضهم على بعض، ويشك بعضهم في بعض، حتى أصبح الأخ يتجسس على أخيه، بل الابن على أبيه، وفقدت الأسرة الثقة بعضهم ببعض.

وقد اعترف الرئيس أنور السادات في كتابه «البحث عن الذات» بما زرعته الثورة من خوف ملأ صدور الناس، وشل إرادتهم، حين قال: انتهى مجلس الثورة في ٢٢ يونيو سنة ١٩٥٦م، عندما انتخب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية بالاستفتاء. ولكن قبل أن ينتهي المجلس كان الشعور بالخوف قد عم البلاد.. هذا في رأيي أبشع ما يمكن أن يصيب الإنسان! فالخوف يقتل الشخصية، ويشل الإرادة، ويمسخ تصرفات البشر![١]

وقال في حديث له في «الأهرام»: لاحظت أن أكبر خطأ ارتكب في حق الإنسان المصري: كان هو زرع الخوف. فبدلا من أن نبني الإنسان، أصبح همنا أن نخيفه، والخوف أخطر ما يهدم كيان الفرد أو الشعب. فقد كانت أرزاق الناس كلها ملكا للحاكم: إن شاء منح، وإن شاء منع. وكان المنع مصحوبا في أغلب الأحيان بمصادرة حرية الفرد واعتقاله، ثم فصل جميع أهله من وظائفهم، مع اتخاذ إجراءات ضدهم![٢]

وأحسب أن السادات شاهد من أهلها، فهو من صناع ثورة يوليو، ونائب عبد الناصر، وعضو اليمين فى «محكمة الشعب» محكمة جمال سالم، التى حاكمت الإخوان.

---

(١) البحث عن الذات ص١٨٤.

(٢) صحيفة الأهرام في ١٦/ ١٠/ ١٩٧٥م.

إن خسارة الإنسان المصري هي الخسارة الكبرى، وليس الإنسان المصري هو: هؤلاء الذين يتجمعون في السرادقات في الاحتفالات المعدة، ويلقّنون هتافات يرددونها كالببغاوات: ناصر ناصر.

وأذكر أن عبد الناصر ذهب إلى إحدى المدن في أول الثورة، فهتف الناس باسم نجيب، فثار عليهم، وقال في حرقة وبحرارة: إنما قمنا لنحرر الناس من عبادة الزعماء، والهتاف للأشخاص، لكي يكون الهتاف للوطن. فلما أصبح بعد ذلك الهتاف باسمه أصبح مشروعا ومحمودا.

لقد أذل عبد الناصر الشعب المصري، كما أذل الحجاج بن يوسف: الشعب العراقي من قبل. وكان في ذلك خسارة معنوية لا تقدر بثمن، ولا تقاس بالمادة.

لقد أراد عبد الناصر: أن يدير مصر، كما يدير صاحب الدكان دكانه، أو صاحب المزرعة مزرعته. وقد قال مرة: أريد أن أضغط على زر، فتتحرك مصر كلها من أسوان إلى الإسكندرية! وأضغط على زر آخر فتسكن مصر كلها.

ولقد قال لي مرة أحد شيوخنا الفضلاء (الدكتور محمد يوسف موسى): إن هذا البلد سجن كبير، له باب واحد، وقفل واحد، ومفتاح واحد، في يد سجان واحد، هو عبد الناصر!

وإن كان هذا «السجان» قد غدا في فترة من الفترات «سجينا» لدى بعض مرؤوسيه، كما هو معروف في سيرة عبد الناصر: أن عبد الحكيم عامر صديقه الأول قد أصبح هو الذي يحكم مصر حقيقة، سواء ما يتعلق بالجيش أم ما يتعلق بالشعب، وصار عبد الناصر «طرطورا» أو «ديكورا»، صار كما قيل: يملك ولا يحكم!

وفي قضية «الوحدة العربية» جاءت الوحدة الاندماجية مع سوريا إلى عبدالناصر على طبق من ذهب، ورضي الشعب السوري أن يصهر مع الشعب المصري في بوتقة واحدة، وتنازل الرئيس السوري «شكري القوتلي» عن كرسي رئاسته، واكتفى بأن يكون «المواطن العربي الأول».

ولكن عبد الناصر، بسوء تصرفه، وغلبة الاستبداد عليه، وتركه الأمور في الإقليم الشمالي لـ «عامر» يتصرف فيها كيف يشاء، بدل أن يعين نائبا حقيقيا له من زعماء سورية أنفسهم.

لقد سلط عامر أجهزة المخابرات ـ أو المكتب الثاني كما يسميها السوريون ـ على الشعب السوري، وعبث عبد الحميد السراج وبطانته بحريات الشعب وحرماته ومقدراته، فلم يكن من الشعب السوري الذي قدم الوحدة ورضيها إلا أن يرفضها ويتخلص منها، فاختار نار الانفصال مع الحرية، ولا جنة الوحدة مع الاستبداد. وكان الضابط عبد الكريم النحلاوي مدير مكتب عامر في سورية: أحد الذين قادوا حركة الانفصال!

هذا في قضية الوحدة العربية، فماذا فعل عبد الناصر في قضية فلسطين؟

لقد انتهى مصير القضية إلى نكبة حزيران أو يونيو ١٩٦٧م واحتلت إسرائيل ما بين القنطرة في مصر والقنيطرة في سوريا. أي احتلت سيناء والجولان مع الضفة الغربية وغزة، بل اعترف عبد الناصر بلسانه في خطابه في ٢٣ يوليو ١٩٦٧م: أن الطريق كان مفتوحا أمام إسرائيل إلى القاهرة ودمشق.

لقد ظهر أن هناك أخطاء فادحة ارتكبت قبل هذه الحرب، وفي أثناء هذه الحرب، كتب عنها الكاتبون والمحللون السياسيون، والخبراء الإستراتيجيون. وقد سميت «حرب الأيام الستة» والواقع أن النتيجة حسمت بعد الساعات الست الأولى، بعد القضاء على طيران مصر، ومطارات مصر بضربة قاضية وسريعة، أبقت القوات البرية المصرية في سيناء مكشوفة بلا غطاء[1].

وكانت الروح المعنوية في غاية الوهن إلى حد الانهيار. إذ لم يسلح الجندي المصري بسلاح الإيمان الذي به يتخطى العقبات، ويصنع البطولات، ويقدم الغالي

---

(١) راجع ما كتبناه في هذه المذكرات في أحداث سنة ١٩٦٧ عن هذه النكبة، تحت عنوان «تحليل لأسباب النكسة».

من التضحيات. كانوا يوزعون على الجنود صور المطربات والممثلات، بدل أن يوزعوا عليهم المصاحف للمسلمين، والأناجيل للمسيحيين! لم يسلح المقاتل المصري بعقيدة تشد أزره، بأنه يقف في وجه عدو دنس المقدسات، واغتصب أرض النبوات، أرض الإسراء والمعراج، وأن هذا العدو خطر على ديننا ودنيانا وأوطاننا ومقدساتنا، وأن وقوفنا في وجهه جهاد في سبيل الله، وأن من قُتل منا فهو شهيد حي يرزق عند الله.

لم يقل له مثل هذا الكلام؛ لأن هذا كلام الرجعيين، الذين يوظفون الدين في مثل هذه المعارك، والمطلوب منا: أن نوظف الدبابة والطائرة والبارجة، وندع الدين للعجائز وخطباء المساجد، أو رهبان الكنائس.

على حين كان العدو يسلح جنوده بعقيدة إيمانية، ورؤية توراتية، وأحلام تلمودية. ولهذا قلت: إنهم انتصروا علينا، لأنهم دخلوا المعركة ومعهم التوراة، ودخلناها وليس معنا القرآن، دخلوها يهودا يعتزون باليهودية، ولم ندخلها نحن مسلمين نعتز بالإسلام. دخلوا يهتفون باسم موسى، ولم نهتف باسم محمد. قالوا: الهيكل، ولم نقل: الأقصى. عظموا السبت، ولم نعظم الجمعة. كان الدين عندهم شرفا يباهون به، وكان الدين عندنا تهمة نبرأ منها!

لقد جردوا القضية من كل معنى ديني لها، في حين قال موسى ديان وزير الدفاع: إن جيش إسرائيل مهمته حماية المقدسات لا مجرد حماية المؤسسات.

حتى العلمانيون من الإسرائيليين أمثال بن جوريون، وظفوا الدين لخدمة قضيتهم.

ولهذا كان جنودنا فارغين من كل معنى روحي يدعوهم إلى الثبات والتضحية، فلما وقعت الواقعة، كان كل واحد منهم يقول: النجاة، النجاة. تركوا أسلحتهم ودباباتهم ومجنزراتهم دون أن يكلف أحدهم نفسه أن يشعل فيها عود ثقاب، حتى لا يستفيد منها عدوه، ويأخذها غنيمة باردة، سالمة من كل سوء.

إن من المعروف أن الأسلحة لا تقاتل وحدها، ولكن تقاتل بأيدي رجالها الأبطال، واليد التي تستعمل السلاح إنما يحركها هدف سام، مرتبط برسالة عليا، يؤمن بها الجندي، ويضحي بالنفس والنفيس في سبيلها.

وقد انتهت المعركة بما سموه «النكسة»، ولكن أخطر من النكسة، هو تغيير السياسة العربية رأسا على عقب، واتخاذ فلسفة جديدة مناقضة للفلسفة القديمة تماما. فقد كانت فلسفة الأمة قائمة على أن إسرائيل اغتصبت أرض العرب بالعنف والإرهاب والدم والحديد والنار، وشردت أهلها ـ بعد أن أخرجتهم منها ـ في الشمال والجنوب والشرق والغرب، وأن وجود إسرائيل في أرض فلسطين، وأرض العرب المغتصبة: وجود باطل، وأن إزالة هذا الاغتصاب الظالم فريضة على الأمة، طال الزمن أم قصر، فإن مضي الزمن لا يجعل الباطل حقا، ولا يقلب الحرام حلالا.

وهذا ما كان عليه العرب قبل هذه النكبة أو النكسة، ولكن عبد الناصر تبنى فلسفة جديدة، تقوم على إزالة آثار العدوان! أي عدوان ١٩٦٧م وكأن هذا العدوان الجديد أعطى الشرعية للعدوان القديم: عدوان ١٩٤٨م. عبد الناصر هو المسؤول الأول عن تغيير السياسة العربية كلها في هذا المجال. فلم يكن أحد غيره يقدر على تغيير هدف الأمة التي أسلمت إليه القياد، ومنحته الثقة.

وهذا التنازل الكبير، بل الخطير، هو: أساس كل ما عانته الأمة بعد ذلك من تنازلات جر بعضها إلى بعض، من كامب ديفيد، فمدريد، فأوسلو، حتى حالة الاستسلام والتخاذل التي نشهدها اليوم. فهو الذي غير الإستراتيجية الأصلية ـ إستراتيجية الجهاد والكفاح ـ إلى إستراتيجية التنازل والاستسلام. والأمة إذا بدأت طريق الانحدار، فلن يقفها حاجز ولا شيء، حتى يسعفها القدر بمن يردها إلى أصلها، ويشعل ما انطفأ من جذوتها.

هل كان عبد الناصر عميلا؟

ومما يسأل عنه هنا: هل كان عبد الناصر عميلا؟

ولقد اتهم بعض خصوم عبد الناصر بأنه كان عميلا لأمريكا، وكتب الصحفي المعروف محمد جلال كشك كتابا سماه «ثورة ٢٣ يوليو الأمريكية»! قال فيه كلاما كثيرا، وذكر فيه وقائع شتى.

وآخرون قالوا: إنه انتهى عميلا لروسيا، وللاتحاد السوفيتي، وكتب بعضهم كتابا قال فيه: الروس قادمون!

بل سمعت من قال: إنه عميل لإسرائيل، وإنه التقى بعض اليهود عندما كان محاصرا في الفالوجا في حرب فلسطين، واتفق معهم اتفاقيات سرية، إذا وصل إلى الحكم!!

وأنا بصفتي عالما مسلما يحتكم إلى الشرع الذي يرى أن الأصل في الناس البراءة، وأن الإنسان لا يدان إلا ببينة، وأن الشك يفسر لصالح المتهم: أرفض هذه الاتهامات التي لا دليل عليها، وهذه الدعاوى العريضة التي تنقصها البينات، وقد جاء في الحديث: «لو أخذ الناس بدعواهم لادعى قوم دماء قوم وأموالهم، ولكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر». وقال الشاعر:

والدعاوى - ما لم يقيموا عليها

بيّنات - أبناؤها أدعياء!

والاتصال بالأمريكان قبل الثورة أو بعدها: لا يثبت العمالة لهم.

فالعميل: من لا هدف له ولا رسالة يعمل من أجلها. ولكن هدفه ورسالته تتلخص في خدمة من يعمل لحسابه، وتحقيق أهدافه.

ولقد أيد الإخوان عبد الناصر عند قيامه بالثورة، وبعد قيامه بالثورة، وكانوا أول أعوانه، بل كانوا سنده الشعبي البارز، حتى دب الخلاف بين الطرفين، فلماذا لم يتهم في ذلك الوقت بأنه عميل أمريكي؟

هل كان عبد الناصر ماركسيا؟

ومما يسأل عنه هنا: هل كان عبد الناصر ماركسيا؟

إن من المعروف أن عبد الناصر في فترة من تاريخه اصطدم بالماركسيين ـ الشيوعيين ـ وأدخلهم السجون، وإن لم يصبهم من التعذيب والتنكيل ما أصاب الإخوان.

ولكنه بعد ذلك، اصطلح مع الشيوعيين، وأطلق سراحهم، ولم يكتف بالإفراج عنهم، بل مكن لهم في أجهزة الإعلام والثقافة، فأصبحوا في وقت من الأوقات هم الذين يوجهون الفكر والثقافة في مصر.

فهل كان هذا لتغير في سياسة عبد الناصر أو لتغير في فكره؟

المفهوم: أن هذا كانت نتيجة لتغير في سياسة عبد الناصر، نظرا لارتباطه بالمعسكر الشرقي، وتحالفه مع الاتحاد السوفيتي في أكثر من مجال: في مجال التسليح، وفي بناء السد العالي، وفي مجال الخبراء العسكريين والفنيين، وغير ذلك. وقد ظل الروس يعملون في مصر، ويؤثرون في سياستها، حتى جاء السادات، وقرر قراره الحاسم بإخراجهم منها!!

وقد لام خروشوف عند افتتاحه مبنى السد العالي: عبد الناصر، أنه يدعو إلى الاشتراكية، ولكنه لا يمكن الاشتراكيين من إقامتها، ولا اشتراكية من غير اشتراكيين.

وكان لهذه الإشارة مغزاها وأثرها، فسرعان ما تغير الموقف من الاشتراكيين، وفسح المجال لهم، ليثبوا على مراكز الدولة، ولا سيما بعد ما تولى علي صبري رئاسة الوزارة، وأعلنوا التمهيد لمرحلة «التحول العظيم» يعنون: التحول إلى «الاشتراكية العلمية».

ومن قرأ «الميثاق» الذي يمثل فكر عبد الناصر: وجد فيه رشحات من الفكر الماركسي في مواضع شتى، ولكن لا نستطيع أن نصف الميثاق بأنه ماركسيّ تماما.

نجد أثر الماركسية في تقليص الجانب الإيماني والفكرة الغيبية والقيم الروحية، فلا تكاد تحسها وتشعر بها.

كما لا نجد أثرا لشريعة الإسلام الذي يدين به عبد الناصر، ويدين به شعب مصر. بل قال وهو يتحدث عن الأسرة: لا بد أن نسقط بقايا الأغلال التي تكبل الأسرة. والسياق يبين أنه يشير إلى التشريعات الإسلامية في الزواج والطلاق وغيرهما.

هل كان عبد الناصر متدينا؟

ونسأل، ويسأل معنا كثيرون: هل كان عبد الناصر متدينا؟

سأل الأديب يوسف القعيد: الأستاذ محمد حسنين هيكل: هل كان عبد الناصر متدينا؟ فأجاب هيكل: كان عبد الناصر متدينا.

ولكنه لم يدلل على تدينه بشيء، واكتفى بتقرير هذا الأمر، وكفى.

ولعله يقصد: أنه لم يكن ملحدا جاحدا للغيبيات من الألوهية والوحي والإيمان بالآخرة. ولا يقصد أنه كان متمسكا بشعائر الدين وفرائضه الحتمية، وأنه يخشى الله في أموره، ويضع الآخرة نصب عينيه، ويزن كل شيء بميزان الحلال والحرام عند الله، كما هو شأن المتدينين.

والحق: أن عبد الناصر لم يعرف بشرب الخمر، كما لم تعرف عنه علاقات نسائية محرمة، ولكنه لم يشتهر عنه إقامة الصلوات، التي فرضها الله على المسلمين خمس مرات في اليوم والليلة. لم يقل أحد ممن كتبوا عنه: إنه دخل عليه فوجده يقيم الصلاة، أو إنه دعا زواره يوما ليقيم معهم الصلاة، أو إنه في مجلس من المجالس التي كان يعقدها توقف مرة ليصلي وحده، أو مع زملائه.

ولم يحك مؤرخ عبد الناصر الملازم له - أعني الأستاذ هيكل - شيئا من ذلك، على كثرة ما حكى من تفصيلات حياته، في الحضر والسفر، والخلوة والجلوة.

حتى صلاة الجمعة لم يعرف أين كان يصليها عبد الناصر؟ ولقد حكم عبدالناصر ثمانية عشر عاما، كل سنة فيها ٥٢ جمعة، فأين كان يصلي هذه الجمع؟

لقد كان للملك فاروق - ولأبيه الملك فؤاد قبله - إمام خاص، تعينه وزارة الأوقاف، أو ترشحه ليعينه الديوان الملكي، ليصلي به في مسجده في قصره، في الجمع خاصة، وفي الصلوات الأخرى في بعض الأوقات. فمن إمام عبد الناصر؟ وهل له مسجد في منزله في منشية البكري؟ أو بجوار منزله؟!!

هناك جمع معروفة ومعلنة في مناسبات معينة، أو لزيارة بعض الضيوف، رآه الناس فيها مصليا للجمعة، ولكن ما عدا ذلك لم يعرف أين صلى عبد الناصر نحو ٩٠٠ جمعة أمر الله الناس إذا سمعوا النداء: أن يستجيبوا لداعي الله، ويسعوا إلى ذكر الله ويذروا البيع.

كان الرئيس أنور السادات حريصا على أداء الشعائر، فلهذا قالوا عنه: الرئيس المؤمن.

وظهر هذا في سياسة كل منهما، فالسادات حين خاض معركة العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ - ٦ أكتوبر ١٩٧٣م، تجلى فيها أثر التدين في الضباط والجنود، وفي الشعارات، فقد كان شعار المعركة: الله أكبر. في حين كانت كلمة السر في حرب يونيو ١٩٦٧ «برّ بحر جوّ». وللأسف لم ينتصروا في بر ولا بحر ولا جو.

وعلى أي حال، لقد لقي عبد الناصر ربه، وأفضى إلى ما قدم، وسيجزيه الله بما يستحق، وهو الحكم العدل، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولا يضيع عنده حق مظلوم، ولا يروج عنده تلبيس ظالم. ولولا أمانة الكلمة، وما أخذه الله من ميثاق على العلماء: أن يبينوا الحق للناس ولا يكتموه، لو سعنى السكوت، ولم أتكلم بكلمة واحدة.

وقد ذكرت: أنه في السنوات الأخيرة، دفعت الظروف التي تعيشها أمتنا

وأوطاننا المعتدلين من الإسلاميين، والمعتدلين من القوميين، ومنهم الناصريون، إلى أن يلتقوا ويتفاهموا معا، وينسوا جراحات الماضي، وما تحمله من مرارة وقسوة، ليجتمعوا على الأمر المشترك، وهو: الوقوف في وجه الغزوة الصهيونية والأمريكية، ومقاومة التطبيع، وتأييد الانتفاضة والمقاومة الفلسطينية الباسلة، والحفاظ على هوية الأمة وذاتيتها وتميزها في أهدافها ورسالتها، وتجميع كل قوى الأمة في مواجهة هذا الطاغوت الجديد، فانعقد المؤتمر القومي الإسلامي في بيروت من الفريقين. وكنت ممن شارك في لقاءاته، وفي اللجنة التحضيرية التي أعدت الورقة الإسلامية للمؤتمر الأول. وبهذا ينتصر الرشد على الانفعال، وكلمة الأمة العليا على الجماعات والأحزاب، فالأمة هي الأصل، وكل ما عداها فرع، وعفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه. ورحم الله الأموات، ووفق الله الأحياء.

ظهور كتابي فقه الزكاة

في شتاء هذا العام، وفي شهر ديسمبر ١٩٧٠م: فرغت المطبعة من كتابي «فقه الزكاة» وظهر إلى عالم النشر والتوزيع في مجلدين، والحق أني فرحت به كما يفرح الوالد بولده، وفلذة كبده، ولا سيما أن ولادته لم تكن سهلة، فقد أخذت طباعته حوالي سنة ونصف، والحمد لله، قد تم على خير.

وبدأت أبعث بنسخ منه إلى كبار الشخصيات العلمية في قطر وبلاد الخليج من حولي، وبخاصة المملكة العربية السعودية، وإلى الهند وباكستان وغيرها.

ولقد استقبل الكتاب بحفاوة وتقدير كبيرين، وجاءتني رسائل من عدد من الشخصيات المرموقة التي أهديت الكتاب إليها، منهم الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الله بن زيد المحمود، والشيخ علي الطنطاوي، والشيخ أبو الأعلى المودودي، والشيخ أبو الحسن الندوي، والأستاذ محمد المبارك، والشيخ محمد الغزالي، وغيرهم ممن لا أذكره الآن.

وأثنى عليه الشيخ علي الطنطاوي في برنامجه في إذاعة السعودية، وفي برنامجه التليفزيوني «على مائدة الإفطار» في رمضان أكثر من مرة.

وقال عنه الأستاذ أبو الأعلى المودودي: إنه كتاب القرن «أي الرابع عشر الهجري» في الفقه الإسلامي. نقل ذلك عنه الأستاذ خليل أحمد الحامدي مدير القسم العربي بالجماعة الإسلامية بباكستان.

وكتب الأستاذ المبارك في مقدمة كتابه عن «الاقتصاد» في «نظام الإسلام» منوها به، ومنبها أهل العلم على قيمته، فقال:

«ومن الكتب الحديثة ما هو خاص بموضوع معين، ومن هذا النوع كتاب «فقه الزكاة» للأستاذ يوسف القرضاوي، وهو موسوعة فقهية في الزكاة استوعبت مسائلها القديمة والحديثة، وأحكامها النصية والاجتهادية على جميع المذاهب المعروفة المدونة، لم يقتصر فيها على المذاهب الأربعة، مع ذكر الأدلة ومناقشتها، وعرض لما حدث من قضايا ومسائل، مع نظرات تحليلية عميقة. . وهو بالجملة عمل تنوء بمثله المجامع الفقهية، ويُعَدّ حدثا مهما في التأليف الفقهي. . جزى الله مؤلفه خيرا».

وقال عنه الشيخ محمد الغزالي: لم يؤلف في الإسلام مثله في موضوعه. قال ذلك في كتابه: مائة سؤال عن الإسلام.

وجاءتني رسالة من الشيخ ابن باز يثني فيها على الكتاب، ويطلب كمية منه لتوزيعها على الجهات المختلفة فى العالم، لتنتفع به.

تأليف كتب للعلوم الشرعية وغيرها في قطر:

تحدثت من قبل عن تجربة تأليف كتب حديثة للعلوم الشرعية في قطر، كانت تمثل الريادة والطليعة في بلاد الخليج كلها. وكانت هذه الكتب في علوم التوحيد والفقه والبحوث الإسلامية.

وقد استقبلت هذه الكتب استقبالا حسنا في قطر وما حولها، وعُدَّت تجديدا مطلوبا في مجالاتها بدل الكتب القديمة التي كانت ألغازا وعقدا بالنسبة للطلاب.

وهذا النجاح شجع المسؤولين في وزارة المعارف التي أصبح اسمها «وزارة التربية» لتبدأ شوطا أطول وأوسع في تأليف كتب حديثة في مناهج العلوم كلها: الدينية والاجتماعية والعلمية.

وشكلت لجان للتأليف في مختلف المقررات، يشرف عليها مفتشو - أو موجّهو - كل مادة، ويشرف على جميع اللجان مدير المعارف الأستاذ كمال ناجي.

وقد شاركت في تأليف بضعة عشر كتابا من كتب العلوم الشرعية من الحديث والتفسير والآداب وغيرها، بإشراف فضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، موجه العلوم الشرعية.

كما اشتركت أنا والأخ الأستاذ سليمان الستاوي في تأليف كتابين مهمين: أحدهما في مادة «المجتمع الإسلامي» لطلبة السنة الثانية الثانوية. والثاني «فلسفة الأخلاق» لطلبة السنة الثالثة الثانوية من المعهد الديني، بإشراف الأستاذ صالح جمال موجه العلوم الاجتماعية.

كما كلفت - أنا والأخوان الشيخ عليوة مصطفى والشيخ علي جماز - بتأليف كتاب من جزأين في علم التوحيد، لطلاب السنتين الأخيرتين من المرحلة الثانوية للمعهد الديني. وقد قسمنا موضوعات الكتاب علينا. فاخترت أن أكتب عن: الحاجة إلى العقيدة، وعن أدلة وجود الله تعالى، وعن الإيمان بالقدر، وعن اليهودية والنصرانية.

وقد لقي هذا الكتاب قبولا عاما لدى المهمتين بتدريس العقيدة، وطلب كثير من الإخوة بالسعودية والبحرين والإمارات: أن نرسل إليهم نسخا من الكتاب، ليدرسوه لطلابهم، أو على الأقل: ليقتبسوا منه.

كما ألفت وزارة التربية القطرية جملة وافرة من الكتب في المواد الاجتماعية كالجغرافيا والتاريخ، صححت فيها بعض المفاهيم الخاطئة، مثل تدريس الفتح العثماني للبلاد العربية على أنه «استعمار». ولم يكن المسلمون ينظرون إليه هذه النظرة. فقد قام العثمانيون بدور مهم بعد سقوط الخلافة العباسية، وحموا البلاد العربية من الغزو الاستعماري الأوربي عدة قرون. وكان العرب يشاركون الأتراك في الحكم، ومنهم من وصل إلى مرتبة «الصدر الأعظم»، وإن لم يخل عهدهم من ظلم لا ريب فيه، أصاب العرب والأتراك جميعا. إنما بدأ الأتراك ينحرفون حينما برز فيهم العلمانيون المتغربون، مثل دعاة «الاتحاد والترقي»، الذين تغلغل فيهم يهود الدونمة وأمثالهم.

وكان المشرفون على التأليف يرجعون إلي في المشكلات العلمية التي لها علاقة بالدين، كما فعل مؤلفو كتب «الأحياء» عند عرضهم للنظريات المختلفة في نشأة الحياة والإنسان. ومنهم الأستاذ توفيق القيسي موجّه العلوم، وموقفهم من نظرية النشوء والارتقاء التي قال بها دارون، فكلموا الأستاذ كمال ناجي، الذي كتب إلي يطلب رأيي حول الموضوع، فكتبت ردا في رسالة علمية مطولة، خلاصتها: أنه لا مانع من عرض فكرة دارون على أنها «مجرد رأي» لا يبلغ أن يكون نظرية. وفيه ثغرات وتدليسات كثيرة، اكتشفها من جاءوا بعده، وبينوا أوجه الخلل والدخل فيما أعلنه من رأي. وقد رد كثير من علماء الغرب البيولوجيين أنفسهم على دارون، كما خالفه تلاميذه أنفسهم بعد ذلك، وعدلوا في الفكرة بما أطلق عليه «الدراوينية الحديثة»، ولا سيما بعد ظهور قوانين الوراثة وثبوتها علميا بما لا يدع مجالا لأي ارتياب.

كما كتبت كتب بالعربية ردت على هذه النظرية من الوجهة العلمية، ومن الوجهة الإسلامية. وقد لخص ذلك علامة العرب الأستاذ عباس العقاد في كتابه «الإنسان في القرآن الكريم».

وأعتقد أن مسؤولي الوزارة وتوجيه العلوم فيها: اقتنعوا برأيي هذا، وأخذوا به.

قضاء إجازة الصيف في لبنان

وبعد انتهاء العام الدراسي، سافرت أنا والأسرة كالعادة إلى لبنان لقضاء الإجازة هناك، وقد زادت أسرتي بعبد الرحمن واحدا، فغدت الأسرة ثمانية أشخاص: أنا وزوجتي وبناتي الأربع، وابناي محمد وعبد الرحمن.

وفي لبنان استأجرنا منزلا مناسبا بسوق الغرب، وقد ألفناها وألفتنا. وإن كنت أنزل إلى بيروت مرتين أو ثلاثا - وربما أكثر - في كل أسبوع، لأتصل بدور النشر التي أتعامل معها: المكتب الإسلامي، ودار الإرشاد، ومؤسسة الرسالة، ودار العربية.

كما أزور المكتبات التي تبيع الكتب، لأشتري منها ما يهمني، وأصطحبه معي إلى قطر، فالمكتبات كالإنسان، تحتاج إلى زاد مستمر، حتى تحيا وتنمو.

وكذلك كان الإخوة في لبنان ينتهزون فرصة وجودي، فيرتبون لي بعض المحاضرات، لألقيها في بيروت أو في صيدا أو في طرابلس. فأجدها فرصة طيبة لألتقي بالجمهور اللبناني الكريم. وبهذا تجمع الإجازة بين المتعة والمنفعة. وهذا هو التوازن المطلوب.

عيادة الزعيم أحمد حسين:

وفي هذا الصيف - على ما أذكر - زرت الزعيم الوطني المصري الشهير أحمد حسين، الذي كان يعاني من مرض الشلل، وكان ينزل في فندق «رويال» في

سوق الغرب، وكان معي أحد الإخوة، نسيت من هو، لعله العسال. وقد تألمت كثيرا لما أصاب الزعيم المجاهد، وأقعده عن الحركة، وأسكت لسانه عن الكلام، وطالما أيقظ بصرخاته النائمين، وحرك الساكنين، وأزعج الظالمين. وهو لا يعرفني، ولكني رأيت عيادته واجبة علي، وفاء بحقه، وتقديرا لمواقفه في نصرة الحق، ومقاومة الباطل، الذي تمثل في الإنجليز وفي القصر الملكي، وفي الظلم الاجتماعي، الذي يشعر به كل من له قلب يحس، وعين ترى. ولا ينسى مصرى ما نشرته صحيفته «الاشتراكية» قبل الثورة، من صور معبرة لضحايا الفقر والمرض والتشرد فى مصر وتحتها العبارة البليغة التى تغنى عن أىّ بيان: «رعاياك يا مولاى!!».

لقاء مالك بن نبي في بيروت:

وفي هذا الصيف ١٩٧١م على ما أذكر، لقيت في بيروت المفكر الجزائري المعروف الأستاذ مالك بن نبي - رحمه الله - صاحب المؤلفات الشهيرة التي كتبها - في الأغلب - بالفرنسية، وترجمت إلى العربية، وكان لها صداها وأثرها وقراؤها والمعجبون بها.

وكان الذي اضطلع بعبء نقلها إلى العربية أخونا العالم اللغوي الداعية الدكتور عبد الصبور شاهين، الذي ابتدأ بنقل كتابه «شروط النهضة» وبعده بعدد من الكتب التي تهتم بالنهوض الحضاري للأمة. ثم كتاب «الظاهرة القرآنية» الذي كتب مقدمة الطبعة العربية منه: الأديب المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر.

وكان للأستاذ عبد الصبور شاهين الفضل أو الأجر مرتين في تعريفنا بهذه الكتب:

مرة؛ لأنه عرفنا - نحن أهل المشرق - بفكر مغربي أصيل، وفي العادة المتبعة في ذلك الوقت: لا يعرف أهل المشرق ما ينشر من علم وفكر لدى أهل المغرب «شمالى إفريقية» في حين يتلقف أهل المغرب كل ما يصدر في المشرق.

ومرة أخرى؛ لأنه نقلها من الفرنسية إلى العربية، وكثيرا ما تضيع علينا كنوز من المعرفة، لأنها مكتوبة بلغة أخرى. ولا سيما أن الذين يعرفون الفرنسية في مصر: أقل بكثير ممن يعرفون الإنجليزية. وكان د. شاهين- وهو ابن الأزهر ودار العلوم- قد يسر الله له معرفة اللغة الفرنسية إلى درجة الإتقان، فنفع الله بها، وترجم إلينا كتب ابن نبي، ورسالة شيخنا الدكتور دراز «دستور الأخلاق في القرآن».

والحق أني سررت بلقاء الأستاذ ابن نبي، وتحدثنا قليلا في بعض قضايا الأمة، ثم أهديته كتابي «فقه الزكاة» الذي نشرته «دار الإرشاد» التي كنا نجلس في مقرها في بيروت، ولا أذكر هل أهديته بعض كتبي الأخرى أو لا؟

وكان مع الأستاذ مالك: الشاب السوري الباحث النابه المتعمق الأستاذ توفيق الطيب، الذي قرأت له الرسالة الصغيرة العميقة «ما بعد النكبتين». التي تبشر بمستقبل علمي واعد، وقدرة على التحليل والتعليل والتأصيل، ولكن للأسف لا أدري لماذا اختفت هذه الشخصية من عالم الكتّاب والباحثين، ولم تستمر في عطائها؟ إني أرى ذلك خسارة على العلم وأهله.

وهذا اللقاء بمالك بن نبي هو اللقاء الثاني لي، فأذكر أني لقيته في سنة ١٩٦٤م حسبما أذكر، في القاهرة في مكتبة «دار العروبة» التي أسسها الأستاذ إسماعيل عبيد الناشر الإسلامي المعروف. ففي إحدى زياراتي للمكتبة وجدته هناك، فحييته وصافحته بحرارة، وتحدثت معه عن كتبه وأهميتها في تنوير العقل المسلم، بما فيها من نظرات منهجية جديدة علينا نحن المشارقة في عرض المشكلات، والبحث عن حلول لها.

وأذكر أني ذكرت له- في تلك المقابلة- ملاحظة لي على مسألة في كتابه «الظاهرة القرآنية» أراها مخالفة لما يقرره القرآن، وهي حديثه عن «فرعون» وأنه لم يمت من الغرق، ولكنه نجا ببدنه، وفقا لما جاء في سورة يونس: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ (يونس: ٩٢).

وأن هذه الحادثة غيرت مجرى حياته، وجعلته داعية إلى التوحيد. وهو الذي عرف في تاريخ القدماء المصريين باسم «اخناتون»!!

قلت له: إن من يقرأ القرآن بتدبر، يستيقن أن فرعون هلك غريقا، ولم يقبل إيمانه الذي أعلنه عند غرقه، كما قال القرآن صراحة: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٩١). وقال تعالى عن فرعون وموقفه من بني إسرائيل: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ (الإسراء: ١٠٣). وفي سورة أخرى قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (القصص: ٤٠ـ٤٢). وفي سورة أخرى قال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (هود: ٩٨، ٩٩).

ولا يمكن أن يفهم من هذه الآيات: أن فرعون نجا بعد أن نبذ في اليم، وتاب وغير وجهته، ودعا إلى التوحيد، والآيات تجعله من أئمة أهل النار، وتتبعه في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة!!

قلت هذا للأستاذ ابن نبي، وهو كلام واضح مؤيد بالدليل، ولكنه للأسف قال: إنه اختار هذا الرأي، أو هذا التحليل؛ لأنه يروق للمستشرقين، وهو أقرب إلى ذهنيتهم، فأردت أن أكسبهم إلى جانبنا بذلك!

فقلت له: تكسبهم، ولو كان على حساب الحقيقة العلمية؟.

وانصرفت، ولم يكن الأستاذ يعرفني أو يعرف عني شيئا، وكنت لم أزل مغمورا بالنسبة له، ولذا لم يعبأ كثيرا بما قلت له. وأحسب أن رأيه لا زال مسطورا في كتابه. كما لا أحسب أحدا نبهه على ذلك غيري. ولم أذكره بهذا النقاش في هذا اللقاء.

تأسيس تليفزيون قطر:

بعد نجاح قطر في إذاعتها التي سمع العالم صوتها من الدوحة، كان لا بد أن تستكمل مسيرتها الإعلامية بـ «تليفزيون قطر» الذي أنشئ له مبنى خاص قريب من الإذاعة.

وقد افتتح مبنى التليفزيون الجديد في شهر يوليو (تموز) سنة ١٩٧٠م، وكنت أقضي إجازة الصيف في لبنان، وكان المسؤولون عن التليفزيون، وعن الإعلام عامة، يرون ألاّ يظهر التليفزيون إلا وفيه برنامج ديني ينوّر المشاهدين فيما يتعلق بالدين، ويجيب عن تساؤلاتهم. فأرسلوا إلي في لبنان: أن أسجل ست حلقات في أحد إستوديوهات بيروت - نسيت اسمه - فسجلت هذه الحلقات بالثوب والغطرة، إذ لم أحمل الجبة والعمامة معي في ذلك الصيف، بل كنت ألبس «البذلة الإفرنجية» في الإجازة، وليس مناسبا لي أن أظهر بها على الشاشة. -فسجلت هذه الحلقات الستة بالدشداشة، وأرسلت إلى الدوحة.

ولأول مرة أكتشف المعاناة في التسجيل للتليفزيون، فقد كان التسجيل للإذاعة في غاية السهولة واليسر. أما في التليفزيون، فقد عانيت ما عانيت في ترتيب الأضواء، وضبط الصورة، والاطمئنان على الصوت، و. . و. . وكان الإستديو غير مكيف، فكنت أتصبب عرقا، برغم أن لبسي خفيف، فقلت: الحمد لله أن الجبة والعمامة لم تكونا معي. وكانت هذه الأحاديث: عبارة عن «دروس إسلامية» كل درس يعالج موضوعا معينا.

وبعد العودة إلى الدوحة لقيت مدير الإعلام، وهو الصحفي الإعلامي الكبير الأستاذ محمود الشريف، (وزير الإعلام في الأردن فيما بعد) شقيق صديقنا الأستاذ كامل الشريف، فتعرفت عليه لأول مرة، وكان معه مدير التليفزيون: الأستاذ جواد مَرَقَة، وتحدثنا حول البرنامج الديني والصورة التي ينبغي أن يقدم بها.

فاقترحت عليهم أن يكون البرنامج إجابة عن أسئلة المشاهدين، التي تأتي إلى البرنامج عن طريق رسائلهم المكتوبة، وأنا الذي أتلقاها من التليفزيون وأجيب عنها، دون الحاجة إلى محاور. واستحسن مدير الإعلام ومدير التليفزيون هذه الفكرة، وقالوا: يمكننا أن نأتي بمن يساعدك في تلقي الرسائل وترتيبها، ويمكن أن ندفع له مبلغا مقابل ذلك. واقترحت عليهم سكرتيري في المعهد الديني: الأستاذ يوسف السطري (الحمايدة). وقام بهذا الدور فترة ثم انقطع، وأصبحت أعده حتى الآن بلا مساعد.

واقترح الأستاذ محمود الشريف أن يطلق عليه «هدْي الإسلام» ورحبت بالتسمية، وقلنا: على بركة الله.

كان البرنامج في أول الأمر: ثلث ساعة، ثم وجد أن هذا الوقت لا يكفي للرد على الرسائل التي كانت تأتي بكثافة، فزيد إلى نصف ساعة، ثم زيد بعد سنوات إلى ٥٠ دقيقة.

وكان لهذا البرنامج عشاقه ومريدوه ومتابعوه من قطر، ومن بلاد الخليج، وخصوصا: البحرين والإمارات والمنطقة الشرقية من السعودية، وبعد أن تحول تليفزيون قطر إلى «قناة فضائية» أصبح هذا البرنامج يشاهد في بلاد المغرب العربي وغيرها، وغدت تأتيني أسئلة شتى من هذه البلاد.

وفقد هذا البرنامج بريقه نسبيا بظهور «قناة الجزيرة» وبرنامج «الشريعة والحياة» بها، الذي أمسى يشاهده الملايين من أنحاء العالم، من كل من يعرف العربية. وذلك لمزية فيه لا توجد في هدي الإسلام، وهي: أنه برنامج على الهواء، وهذا يمنحه جدة وحيوية.

كما قدمت للتليفزيون القطري: برامج رمضانية تحت عنوان «في رحاب القرآن» وبعضها تحت عنوان «من مشكاة النبوة». وقد استمرت سنين طويلة، ولم أنقطع عنها إلا منذ بضع سنوات، بعد أن تضاعفت علي الواجبات، وضاقت الأوقات. والله المستعان.

(٧)

السنة الدراسية

١٩٧١ ـ ١٩٧٢م

السنة الدراسية ١٩٧١-١٩٧٢م

الإفراج عن الأستاذ الهضيبي بعفو صحي:

كان من الأحداث العامة التى تهمنى فى تلك السنة : إفراج الرئيس السادات عن المعتقلين السياسيين، وكانوا - كلهم أو جلهم - من الإخوان، وأغلق أبواب المعتقلات، وحسب ذلك في سجل حسناته ومنجزاته بلا شك.

ولكنه لم يقف هذا الموقف من المسجونين، الذين حكمت عليهم محاكم الشعب بمدد، منها ما طال ومنها ما قصر، منها ما كان حكمه عشر سنوات، أو خمسة عشر عاما، وقد أنهى المدة وخرج. ومنها ما كان محكوما عليه بعشرين سنة، أو خمس وعشرين سنة (أشغال شاقة مؤبدة). وكان المفروض أن يفرج عن هؤلاء في مناسبات كثيرة، لأنه قضى نصف المدة أو ثلاثة أرباع المدة، كما يفرج عن المجرمين العاديين، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، بل ربما أنهى بعضهم مدة العقوبة، وخرج من السجن إلى المعتقل.

ولكن مما يذكر للسادات: أنه لم يمهل الأستاذ الهضيبي حتى يفرج عنه مع سائر المسجونين في قضايا الإخوان، كما أفرج عن بعض الإخوان كذلك.

ففي ١٥ أكتوبر من سنة ١٩٧١ : صدر قرار الإفراج عن الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين، الذي أفرج عنه بعفو صحي. واستقبل الإخوان ذلك بالفرح والاستبشار، وزاره الكثيرون مهنئين ومجددين للبيعة والعمل لتبصير الأمة، وإحياء الدعوة، وخدمة الإسلام. وكنت فى ذلك الوقت فى قطر، فلم يقدّر لى أن ألقاه بعد الإفراج عنه، حتى لقى ربه، رحمه الله.

ميلاد ابني أسامة:

وفي ١٠ فبراير سنة ١٩٧٢م ولد ابني أسامة، كان ميلاد أولادي السابقين كلهم في أواخر السنة الميلادية (٣ في سبتمبر، و٢ في أكتوبر، وواحدة في ديسمبر)، أما أسامة فجاء على خلاف المألوف، وولد في الشهر الثاني من السنة.

لم يكن بينه وبين شقيقه عبد الرحمن إلا سنة وخمسة أشهر، وبهذا أصبح لي ثلاثة من البنين، وأربع من البنات. ولله الحمد على ما أعطى.

والحقيقة أن معاملتي للأولاد (بنين وبنات)، وكذلك معاملة أمهم: كانت مثالية، فلم نكن ندلل الأولاد إلى حد الإفساد، ولا نشتد عليهم إلى حد القسوة. والتربية السليمة في نظري هي ما كانت بين التدليل المميّع للشخصية، والقسوة المحطمة لها.

ولذا نشأ أولادي بحمد الله نشأة سوية، ليس فيها غيرة مفرطة، أو شعور بالظلم، أو إضمار حسد لأخ أو أخت، وما فضلنا ولدا على بنت، ولا واحدا على آخر لأي سبب.

ولقد رأينا الناس يدللون الطفل الأول أكثر مما يلزم فيفسدونه، ومثله: الذكر الأول، أو الطفل الأخير. نحمد الله تعالى أننا لم نفعل ذلك أبدا، فطرة لا تكلفا، لم نحاب أي طفل على حساب الآخر، بل أشعر والله أني أحب الجميع حبا متساويا، وأعتقد أن والدتهم مثلي.

ولكن أسامة الطفل كان يدلل نفسه، ويفرض دلاله على الجميع، ويشعر بأنه أصغر واحد في العائلة، كما يحس أنه آخر العنقود، فيبدو أن الأم قد اكتفت بما آتاها الله من أولاد بلغوا سبعة: أربع بنات، وثلاثة بنين. وإن كنت أنا شخصيا كنت أتمنى ثامنا، أسميه «عبد الله» على اسم أبي، فقد شعرت أخيرا: أني لم أعط أبي حقه في إحياء اسمه! وكان الذي يشجعني على ذلك: أنا رزقنا بأولادنا السبعة، وزوجتي لم تتم الخامسة والثلاثين. ولكن تربية سبعة أولاد في سنين

متقاربة ليست بالأمر السهل، فكان الحق مع أم محمد في الاكتفاء، ونسأل الله أن يعيننا على حسن تربيتهم حتى ينشأوا صالحين في سيرتهم، متفوقين في دراستهم. ومن فضل الله علينا: أن أولادنا جميعا كانوا يتمتعون بنسبة عالية من الذكاء.

وكان أسامة يريد أن يكبر بسرعة، ليكون له حظ الكبراء، ولكن إذا كان الحظ مع صغر السن قال: أنا أصغركم سنا!

وكانت أمه تقول له: ادخل نم يا أسامة، فيقول لها: تريدين أن تستريحي مني!

وهكذا كانت له مناكفاته ونوادره المحببة.

الحركة التصحيحية في قطر:

وفي ٢٢ فبراير (شباط) ١٩٧٢م حدث ما سمي في قطر: الحركة التصحيحية، التي بها انتقل الحكم من الشيخ أحمد بن علي بن عبد الله آل ثاني إلى الشيخ خليفة بن حمد بن عبد الله آل ثاني، ابن عم الأمير، وولي عهده ونائبه.

كان الشيخ أحمد أمير قطر: رجلا طيبا في نفسه، مهذبا رقيق الحاشية، جوادا كريما، يلقى من يزوره بهشاشة وبسطة وجه، ولكنه لم يكن متفرغا للحكم، وحمل أعبائه، وحل مشكلاته، وكان كثير الأسفار والرحلات في مناطق شتى، وكان قد ترك هم الحكم لنائبه وولي عهده.

ولقد شاء قدر الله أن تحدث في أشهر محدودة عدة أحداث، وعدة أخطاء حسبت على الشيخ أحمد، عجلت بنقل الحكم إلى الشيخ خليفة بدون دماء، وبإقرار شيوخ الأسرة الحاكمة. وكان الشيخ أحمد خارج البلاد، فظل خارج قطر، ولا سيما أنه صهر الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم حاكم دبي الشهير، وزوج ابنته، وله قصر هناك، وأيد جمهور الشعب القطري هذا التحول، وأطلق عليه «الحركة التصحيحية» نظرا لأن الشيخ خليفة كان هو المفروض أن يكون هو الحاكم بعد الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني، الذي تنازل لابنه الشيخ أحمد عن الحكم، فحرم

الشيخ خليفة من حقه في تولي الحكم بعده، ولهذا عَدُّوا هذه الحركة تصحيحا لهذا الخطإ.

كان من هذه الأحداث التى سبقت الحركة: غرق الباخرة التي كانت متجهة إلى إيران، وتقل عددا كبيرا من رجال الشيخ أحمد وأتباعه، وقد ابتلعتهم مياه الخليج، ولم ينج منهم إلا آحاد قليلة، وكانت هذه السفينة تقل هؤلاء الأتباع وما معهم من أدوات ومتاع لرحلة الصيد أو القنص المنشودة. فهلكت السفينة ومن فيها قبل أن تصل إلى مقصودها، وحمَّلت جماهير قطر الشيخ أحمد أمير البلاد نتيجة ما جرى.

أضف إلى ذلك تصرفات تتسم بالخفة والطيش من الشيخ عبد العزيز بن أحمد ضد عمه الشيخ خليفة، وقيل: إنه كان يجمع أسلحة، ويهيئ رجالا، للإعداد لانقلاب على الشيخ خليفة، وطالما شكا الشيخ خليفة من تصرفاته، حتى فاض الكيل، وطغى السيل، فكان لا بد من موقف حاسم يضع الأمور في نصابها، وقد وقفه الشيخ خليفة في إبانه المناسب.

والحق أننا لم نر ولم نسمع أي إيذاء لأولاد الشيخ أحمد أو قرابته وأوليائه، إلا ما أصاب ابنه الشيخ عبد العزيز من الخروج من الوزارة، وكان وزيرا للصحة، وهذا طبيعي، وبخاصة ما قيل عنه: إنه كان يحضر لانقلاب يطيح بالشيخ خليفة.

وقد اعتقل بعض أتباع الشيخ أحمد فترة قليلة من الزمن مثل الأستاذ عبدالبديع صقر، ولكنه لم يؤذ في معتقله، ولم توجه إليه أي إهانة، ثم ما لبث أن أفرج عنه.

وقد اعتقل بعض الشباب التابعين للأستاذ عبد البديع، ولم يكن لهم في العير ولا النفير، منهم: علي العسال شقيق الشيخ أحمد العسال، فكلمت قائد الشرطة في ذلك الوقت في شأنهم الشيخ حمد بن قاسم بن حمد، فأفرج عنهم فورا.

أرض وقرض من دولة قطر:

في يوم من شهر رمضان في هذه السنة ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م، وبعد درس من دروس العصر، سألني الشيخ خليفة أمير قطر: هل تملك بيتا في قطر؟ قلت له: يا طويل العمر، أنا أسكن على حساب قطر، قال: يعني بالإيجار؟ قلت: نعم، قال: ألا تحب أن يكون لك بيت تملكه؟ قلت: بلى، ومن ذا الذي لا يحب ذلك؟ قال: وما يمنعك من ذلك؟ قلت: وأنا أضحك: المصريون يقولون في مثل هذه الحالة: العين بصيرة، واليد قصيرة. الأرض وحدها بمبلغ، فضلا عن البناء والتأثيث.

قال: سآمر لك بأرض وقرض، يساعدك على البناء.

وبعد درس اليوم التالي، قال الشيخ خليفة: وجدنا لك مكانا مناسبا جدا، في شارع السد، وسآمر عبد الرحمن أبو حميد مدير إدارة التسجيل العقاري، أن يتصل بك، ويريك المكان، ويرتب كل شيء.

وقد تم كل شيء فعلا بسرعة، كما قال الشيخ حفظه الله، وتسلمت الأرض، وتسلمت القرض، الذي يعطى لكبار الموظفين القطريين، ويقسط على عشرين سنة، ولكنه لم يكن كافيا، (كان في ذلك الوقت ٣٥٠ ألف ريال) ولم تكن البنوك الإسلامية قد نشأت بعد في قطر، حتى أدخل معها في مرابحة تسدد على عدة سنوات، كما يحدث الآن، ولذا لجأت إلى البنك - بنك قطر الوطني - ليقرضني مبلغ ثلاثمائة ألف ريال قطري، وقال البنك: عليك فوائد مقدارها كذا وكذا، فقلت لهم: ألا يمكن الاستثناء من هذه الفوائد؟ فأنتم تعلمون أنها حرام، ولا يمكن لمثلي أن يدخل فيها؟ قالوا: هذا غير ممكن، حسب قانون البنك. قلت: حتى لو جاءكم أمر من الأمير؟ قالوا: الأمير يملك أن يتصرف في هذا بأي طريقة، وقد يتحملها هو.

لذا قابلت الأمير، وقلت له: تعلم أني أحرم الفوائد، فأرجو أن تعفيني من هذا الأمر، قال: سآمر البنك ألاّ يطالبك بأي فوائد.

وكانت هذه المنحة تأكيدا لجنسيتي القطرية التي اكتسبتها بجوازي القطري.

واتفقت مع صديقنا الأخ سالم حسن الأنصاري - ولديه شركة مقاولات - أن يقوم ببناء البيت، وقد كانت المباني في ذلك الوقت تتكلف كثيرا جدا، ومواد البناء باهظة الثمن، ولذا تم بناء البيت على قدر فلوسي، مع أن الأخ سالما حفظه الله، أكرمني في تقدير التكلفة، ومع هذا لم يكن بالمستوى الذي أتوق إليه، لهذا آثرت أن أؤجره ولا أسكنه، ورجح ذلك: أن علي قرضين: قرضا طويل الأجل، وقرضا قصير الأجل، وإجارة البيت تساعد في قضاء هذا الدين، ولا سيما أن راتبي كان محدودا، وقد جمد عند حد معين لعدة سنين، وذلك قبل أن تنشأ جامعة قطر، وأنضم إليها.

ندوة التشريع الإسلامي في ليبيا

في أوائل سنة ١٩٧٢م وصلتني دعوة من ليبيا، للمشاركة في «ندوة للتشريع الإسلامي» دعي إليها عدد من كبار العلماء من مصر وسورية ولبنان والعراق وغيرها من أنحاء العالم الإسلامي، لمساعدة اللجنة العليا التي أنشئت بقرار من العقيد القذافي قائد الثورة الليبية، برئاسة المستشار علي علي منصور، وكانت مهمة هذه اللجنة: تنقية القوانين الوضعية في ليبيا من كل ما يخالف الشريعة الإسلامية.

والمفروض أن هذه مرحلة تتبعها مرحلة أخرى تقوم على استنباط تشريعات وقوانين إسلامية، مؤسسة على اجتهاد إسلامي معاصر، وهذه تحتاج إلى وقت وإلى إعداد، وإلى علماء يجمعون بين الأصالة والمعاصرة.

ومن المعروف: أن القوانين الوضعية لا تخالف الشريعة الإسلامية مخالفة صريحة، إلا في القانون الجنائي، الذي لا يعترف بخصوصية العقوبات الإسلامية التي تتمثل في الحدود، مثل حد السرقة، وحد الزنا، وحد القذف، وحد قطاع الطرق، وحد شرب الخمر، وإن كان هناك رأي قوي يرى أن عقوبة حد شرب الخمر عقوبة تعزيرية، مفوضة إلى الإمام أو القاضي، وهو ما أرجحه.

كما تخالف القوانين الوضعية في الجانب المدني: الشريعة الإسلامية في تحريم الفوائد الربوية، وتحريم المعاملات التي تشتمل على غرر فاحش.

وأهم من ذلك: هو أن المنطلق الذي تنبعث منه القوانين الوضعية، غير المنطلق

الذي تنبعث منه الأحكام الشرعية، فمنطلق القوانين: اعتبارات بشرية محضة، أما منطلق الأحكام الشرعية، فهو وحي الله المتمثل في القرآن والسنة، وهذا لا يحجر على المسلمين أن يجتهدوا لأنفسهم فيما لا نص فيه، عن طريق القياس أو الاستحسان أو الاستصلاح أو غيرها. ويمكنهم أن يقتبسوا من غيرهم ما يرونه أصلح لهم، وأليق بجلب الخير لهم، ودفع الشر عنهم، في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها العامة.

وفرق بين أن يصدر التشريع بناء على قرار حاكم أو مجلس، وأن يصدر بناء على أمر الله تعالى به في كتابه وعلى سنة رسوله، وعلى ما اقتضته قواعد الشريعة ومقاصدها.

المهم أني تلقيت الدعوة، وعرضتها على المسؤولين في وزارة التربية والتعليم، فسمحوا لي بإجابة الدعوة، لا سيما أن ليبيا هي التي ستتكفل بتذكرة الطائرة، ونفقات الإقامة، ولن تتكلف قطر شيئا.

وكانت هذه أول مرة أخرج فيها من صومعة قطر، - في أثناء العام الدراسي - إلى العالم من حولي، للمشاركة في عمل علمي، وتُعَدّ الخطوة الأولى للانطلاق الكبير بعد ذلك.

كانت رسالة الدعوة الليبية، تشتمل على عدة موضوعات، طلبت إلي الكتابة في أحدها، وهو الموضوع الأول: الشريعة صالحة لكل زمان ومكان.

واستخرت الله، وبدأت في الكتابة في الموضوع، وأرسلته إليهم، فلقي القبول من اللجنة المشرفة، وفي شهر مايو من هذه السنة ١٩٧٢م توكلت على الله، وسافرت إلى ليبيا عن طريق بيروت.

وكانت الندوة مقامة تحت إشراف «كلية الدراسات العربية والإسلامية» في مدينة البيضاء، وهذه الكلية كانت تسمى قديما: الجامعة السنوسية، وكانت تضم عدة كليات فاختصرت في كلية واحدة، وحذف عنوانها، حتى لا يبقى للسنوسيين ذكر ولا أثر.

وهذا ما يؤخذ على الأنظمة الانقلابية: أنها تريد أن تلغي التاريخ قبلها، كما تريد أن يبدأ التاريخ بها، والإنصاف يقتضي أن تذكر محاسن من قبلك، ليذكر محاسنك من يأتي بعدك، ولكن هذا شأن الإنسان من قديم.

وقد رأينا ثورة يوليو في مصر، تكاد تطمس تاريخ أسرة «محمد على» مؤسس مصر الحديثة، لولا قوة الأحداث ورسوخها.

وقد ضمت هذه الكلية إلى الجامعة الليبية، وهي الجامعة الوحيدة في البلاد، فأصبحت إحدى كلياتها، وكان مدير الجامعة صديقنا الكبير الأستاذ الدكتور عمر التومي الشيباني، الذي ساهم معنا من بعد في إعداد منهج مقرر الثقافة الإسلامية في جامعة قطر، وعميد الكلية فضيلة الشيخ إبراهيم، (نسيت لقبه).

كلام حول الفول المدمس:

ذهبت من بيروت إلى بني غازي، وبت في أحد الفنادق بها، وفي الصباح نزلت إلى المطعم لتناول الفطور، فجاءني الندل (الجرسون) وكان مصريا، فسألني: ماذا نقدم لك؟ قلت: أول شيء الفول المدمس، فقال: ألا تطلب شيئا بدل الفول؟ قلت له: ولم؟ ألا يوجد عندكم فول؟ قال: يوجد عندنا، ولكنهم يعيروننا بأننا شعب الفول! قلت: يا عجبا! وهل أكل الفول معرة أو جرم حتى نعير به؟ وما الفرق بين من يفطر على الفول ومن يفطر على الحمص أو على الحلبة أو على البيض ونحوه؟ يا بني، لا تعبأ بهذه الترهات، واعتز بنفسك، فالفول من الطيبات التي رزقها الله للناس. دعني من هذا كله، وائتني بطبق الفول، ولا مانع من أن تخلطه بالحمص أو بالبيض المسلوق، ربنا يديمه علينا.

إلى مدينة البيضاء:

وسافرت إلى مدينة البيضاء بالسيارة، حتى وصلت إليها، وقد حضر معظم المدعوين، ثم اكتمل عددهم يوم الافتتاح، وكان القذافي غائبا عن البلد، فناب عنه أحد قادة الثورة، نسيت اسمه.

وبدأت جلسات الندوة بعد ذلك، وقد شارك فيها عدد من العلماء المرموقين، من أبرزهم: الشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ علي الخفيف، والدكتور محمد بيصار، والشيخ مصطفى الزرقا، والدكتور صبحي الصالح، والدكتور حسين حامد حسان، وغيرهم ممن لا يحضرني اسمه الآن، كما شارك عدد من العلماء الذين يعملون في ليبيا مثل: دكتور عبد العزيز عامر، ودكتور عبد الجواد محمد، وبعض رجال الاقتصاد الليبيين.

وكانت هذه أول مرة ألقى فيها العلامة أبو زهرة، والعلامة الخفيف، وجها لوجه، أما الشيخ الزرقا فقد سعدت بلقائه قبل ذلك، حين كان يعمل أول خبير للموسوعة الفقهية في الكويت.

وكان نجم الندوة - دون منازع - هو الشيخ أبو زهرة، الذي كان يعلق على المتكلمين، ويتدفق كالسيل العرم. وهو يتكلم، أذن له أم لم يؤذن، فلا يملك أحد أن يمنعه، ومن يمنع السيل من التدفق، أو النجم من التألق؟

وقد ألقيت بحثي، وكان كل بحث يمنح ربع ساعة لإلقائه، لتكون هناك فسحة مناسبة للمناقشة، ولكن بحثي كان طويلا، فقلت لهم: إني قطعت إلى هنا أطول مسافة قطعها أحد المدعوين، وبحثي طويل، فينبغي أن تعطوني فرصة مناسبة لطول المسافة التي قطعتها! وضحك الجميع، وقابلوا اقتراحي بالقبول، وأخذت نصف ساعة في عرض الموضوع، وعلق الأستاذ الزرقا على البحث، فقال: كان القرضاوي موفقا في تحريره، كما كان موفقا في تمريره.

والحمد لله لقي البحث القبول من الحضور.

لقاء العلامة أبي زهرة والعلامة الخفيف:

كانت هذه الرحلة فرصة للتعرف على العلامة أبي زهرة، الذي طالما قرأت له، واشتقت إلى لقائه، ولكن لم يتح لي للأسف أن ألقاه في مصر وجها لوجه. فقد كنت قبل التخرج مشغولا بالدراسة والدعوة، وبعد التخرج شغلت بالاعتقال، ثم

بهمّ لقمة العيش. ولم تكن لأبي زهرة وأمثاله فرصة ليظهر ويلقى تلاميذه ومحبيه فيها. لهذا قرت عيني بلقاء الشيخ الجليل. والحقيقة أن الشيخ ـ رحمه الله ـ فرح بلقائي، وأثنى على كتابي «فقه الزكاة». وقد استشرته في النزول إلى مصر في صيف هذا العام، فأنا منذ سنة ١٩٦٤م لم أنزل مصر، فقال: انتظر حتى أستشف لك الوضع، وأخبرك بالموقف، ولا ضرورة لاستعجال النزول هذه السنة. وهو ما ركنت إليه.

كما سعدت بلقاء زميله ـ بل شيخه ـ علامة فقه المعاملات، الشيخ علي الخفيف، والذي يشبه الشيخ الزرقا في طرحه لآراء جديدة بجرأة، قد تصدم جمهور الناس، ولا سيما المقلدين، مثل آرائه في التأمين، وفي إيقاع الطلاق أمام القاضي ونحوها.

وقد أبدى الشيخ الكبير سروره بلقائي والتعرف عليّ، وتمنى أن يراني في مصر. وقلت له: ادع الله لنا يا مولانا أن يفتح أبوابها لنا، ويزيل العوائق من طريقنا.

أبو زهرة يفجر في الندوة قنبلة فقهية:

وفي هذه الندوة فجر الشيخ أبو زهرة قنبلة فقهية، هيجت عليه أعضاء المؤتمر، حينما فاجأهم برأيه الجديد.

وقصة ذلك: أن الشيخ رحمه الله وقف في المؤتمر، وقال: إني كتمت رأيا فقهيا في نفسي من عشرين سنة، وكنت قد بحت به للدكتور عبد العزيز عامر، واستشهد به قائلا: أليس كذلك يا دكتور عبد العزيز؟ قال: بلى. وآن لي أن أبوح بما كتمته، قبل أن ألقى الله تعالى، ويسألني: لماذا كتمت ما لديك من علم، ولم تبينه للناس؟

قال: هذا الرأي يتعلق بقضية «الرجم» للمحصن، في حد الزنا، فرأيي أن الرجم كان شريعة يهودية، أقرها الرسول في أول الأمر، ثم نسخت بحد الجلد في سورة النور.

قال الشيخ: ولي على ذلك أدلة ثلاثة:

الأول: أن الله تعالى قال في سورة النساء: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ (النساء: ٢٥). والرجم عقوبة لا تتنصف، فثبت أن العذاب في الآية هو المذكور في سورة النور: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٢).

والثاني: ما رواه البخاري في جامعه الصحيح عن عبد الله بن أوفى: أنه سئل عن الرجم؟ هل كان بعد سورة النور أو قبلها؟ فقال: لا أدري[١].

فمن المحتمل جدا أن تكون عقوبة الرجم كانت مقررة قبل نزول آية النور التي نسختها.

الثالث: أن الحديث الذي اعتمدوا عليه، وقالوا: إنه كان قرآنا ثم نسخت تلاوته وبقي حكمه: أمر لا يقره العقل، لماذا تنسخ التلاوة والحكم باق؟ وما قيل: إنه كان في صحيفة فجاءت الداجن وأكلتها: لا يقبله منطق.

وما أن انتهى الشيخ من كلامه حتى ثار عليه أغلب الحضور، وقام من قام منهم، ورد عليه بما هو مذكور في كتب الفقه حول هذه الأدلة. ولكن الشيخ ثبت على رأيه كالطود الأشم.

وقد لقيته بعد انفضاض الجلسة، وقلت له: يا مولانا، عندي رأي قريب من رأيك، ولكنه أدنى إلى القبول منه. قال: وما هو؟

قلت: جاء في الحديث الصحيح: «البكر بالبكر: جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب: جلد مائة، ورجم بالحجارة»[٢].

قال: وماذا تأخذ من هذا الحديث؟ قلت: تعلم فضيلتك أن الحنفية قالوا في

---

(١) رواه البخاري (٦٨١٣) ومسلم (١٧٠٢).

(٢) رواه مسلم (١٦٩٠) عن عبادة بن الصامت.

الشطر الأول من الحديث: الحد هو الجلد، أما التغريب أو النفي، فهو سياسة وتعزير، موكول إلى رأي الإمام، ولكنه ليس لازما في كل حال.

وعلى هذا نقول في الشق الثاني من الحديث: إن الحد هو الجلد، والرجم سياسة وتعزير، مثل التغريب والنفي، فنثبت ما جاءت به الروايات من الرجم في العهد النبوي، فقد رجم يهوديين، ورجم ماعزا، ورجم الغامدية، وبعث أحد أصحابه في قضية امرأة العسيف، وقال له: اغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها[1]. وكذلك ما روي أن عمر رجم من بعده، وأن عليا رجم كذلك. ولكنا نفسر هذه الوقائع على أنها لون من التعزير والسياسة الشرعية. والأحكام التعزيزية ليست لازمة دائما، كما هو معلوم.

ولكن الشيخ لم يوافق على رأيي هذا، وقال لي: يا يوسف، هل معقول أن محمد بن عبد الله الرحمة المهداة، يرمي الناس بالحجارة حتى الموت؟ هذه شريعة يهودية، وهي أليق بقساوة اليهود.

وكان رأي الشيخ الزرقا مع الجمهور، ولكنه يخالف الجمهور في تعريف «المحصن» فعندهم: أن المحصن من حصل له الزواج، وإن فارقته زوجه بطلاق أو وفاة، وبات في واقع الحال لا زوجة له، وعند الزرقا: المحصن: من له زوجة بالفعل. وهذا رأي الشيخ رشيد رضا ذكره في تفسير المنار.

توقفت طويلا عند قول الشيخ أبي زهرة عن رأيه: أنه كتمه في نفسه عشرين عاما: لماذا كتمه، ولم يعلنه في درس أو محاضرة أو كتاب أو مقالة؟ لقد فعل ذلك خشية هياج العامة عليه، وتوجيه سهام التشهير والتجريح إليه، كما حدث له في هذه الندوة.

وقلت في نفسي: كم من آراء واجتهادات جديدة وجريئة تبقى حبيسة في صدور أصحابها، حتى تموت معهم، ولم يسمع بها أحد، ولم ينقلها أحد عنهم!!

---

(١) رواه البخاري (٢٣١٥) ومسلم (١٦٩٨) عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني.

ولذلك حين تحدثت عن معالم وضوابط الاجتهاد المعاصر، في كتابي «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية» جعلت منها: أن نفسح صدورنا للمخطئ في اجتهاده، فبهذا يحيا الاجتهاد ويزدهر، والمجتهد بشر غير معصوم، فمن حقه ـ بل من الواجب عليه ـ أن يجتهد ويتحرى ويستفرغ وسعه، ولا يلزمه أن يكون الصواب معه دائما، وما دامت صدورنا تضيق بالرأي المخالف للجمهور، فلن ينمو الاجتهاد، ولن يؤتي ثمراته.

على أن ما يحسبه بعض الناس خطأ، قد يكون هو الصواب بعينه، وخصوصا إذا تغير المكان والزمان والحال.

ويبدو أن هذه الحملة الهائجة المائجة التي واجهها الشيخ أبو زهرة، جعلته يصمت عن إبداء رأيه، فلم يسجله مكتوبا بعد ذلك. وربما لأن الشيخ الكبير لم يعمر بعد ذلك طويلا، فقد وافته المنية في شهر إبريل سنة ١٩٧٤م، عليه رحمة الله ورضوانه.

وقد رأيت الشيخ نسب هذا الرأي في كتابه «العقوبة» إلى الخوارج، واستدل لهم بما ذكره في ندوة ليبيا، وأعتقد أن ذلك كان أسبق من الندوة.

لقاء القذافي:

بعد أن انتهت الندوة، قالوا لنا: أنتم مطلوبون للقاء العقيد القذافي قائد الثورة في مدينة طرابلس، فاستعدوا للذهاب إلى بني غازي، ومن هناك، ستأخذنا طائرة خاصة إلى العاصمة طرابلس. وقد وصلنا في حوالي العاشرة مساء، ثم نقلنا إلى مقر مجلس الثورة، لننتظر نحو نصف ساعة، حتى حضر العقيد، ومعه اثنان من القادة، أحدهما يجلس عن يمينه، وهو عبد السلام جلود نائبه، والثاني: لا نعرفه.

وكان يصحبه بعض المدنيين، منهم الأستاذ إبراهيم الغويل المحامي، ومنهم

صحفي يساري، اسمه: صادق نيهوم، كان كأنه المتحدث باسمه، وهو علماني جريء طويل اللسان.

وقد أثار القذافي موضوعات شتى، كان من أهمها كلام حول أمرين خطيرين: «السنة» وإن لم يفصح تماما عن أفكاره حولها، ولكن عباراته وتعليقاته أوحت، بأن لديه شكوكا وشبهات حول ثبوت السنة، وحول حجيتها.

والثاني حول «الردة» ولماذا يقتل المرتد؟ وتكلم العلماء يدافعون عن حد الردة، وعقوبة المرتد، وأثار الصادق نيهوم سؤالا محرجا: هل الردة موقف عقلي أو هي جريمة ضد الجماعة؟ وأجاب هو عن سؤاله فقال: إن الردة موقف عقلي، إنسان اقتنع بدين، ثم تغير فكره وتحول اقتناعه، فلم يعد يؤمن به، فلماذا يعاقب؟

قلت له: إن الردة ليست مجرد موقف عقلي، إنها تغيير للولاء من أمة إلى أخرى، هل يباح للإنسان أن يغير ولاءه لوطنه إلى أعداء وطنه بدعوى أنه حر في ولائه؟ إن أحدا لا يقبل منه ذلك، ويرى كل الناس ذلك منه خيانة وطنية، يعاقب عليها بالإعدام، والردة هي تغيير الولاء من أمة الإسلام إلى أعدائها، فهو بردته أصبح عدوا لأمته، مواليا لأعدائها.

وتطرق الحديث إلى العلماء ودور العلماء، وعزلة العلماء عن المشاركة في توجيه المجتمع، وتحدث الإخوة المشايخ: أن العلماء لا يتأخرون عن القيام بواجبهم، إذا فتح الباب لهم، وأتيح لهم أن يبينوا للناس شرع الله.

وقلت في ذلك: إن العلماء مستعدون أن يكونوا خدما لمن يخدم الشريعة.

وهنا قال الشيخ أبو زهرة: إننا لسنا خدما لأحد كائنا من كان.

قلت: يا مولانا، إننا خدم لمن يخدم الشريعة، فخدمتنا في الحقيقة إنما هي للشريعة.

قال: نحن سادة ولسنا خدما!

وهكذا كان الشيخ رحمه الله معتزا بنفسه وبعلمه، ولا يفرط في كرامة العلم، ولا بأدنى كلمة.

وقد طالت الجلسة إلى ما يقرب من الثانية مساء.. ثم انفضت، وانصرف العقيد وصحبه، ولكن قبل انصرافه فوجئت بالعضو الذي كان عن يسار القذافي، يقبل عليّ ويصافحني بحرارة، ويقول: أنا المقدم بشير هوادي عضو مجلس الثورة، وأنا من قراء كتبك ومن المعجبين بك، وقال: عندي كذا وكذا من كتبك، قلت له: اسمح لي أن أبعث إليك ببقية الكتب. قال: أكون شاكرا وممتنا، ويكون هذا فضلا منك.

وقد بقينا بعدها يومين في طرابلس لقيت فى أثنائها الأخ الفاضل المهندس الحاج أحمد حلمي عبد المجيد، أحد قادة الإخوان، ونائب عثمان أحمد عثمان، وممثله في ليبيا، التي لشركة عثمان فيها مشروعات كبرى.

ذكرت للحاج حلمي ما قاله بشير هوادي، فشجعني على إرسال الكتب إليه، ولكنه أضاف: هناك رجل آخر مهم في مجلس الثورة، هو من قرائك ومحبيك أيضا، هو المقدم مصطفى الخروبي، فحبذا أن ترسل إليه هو الآخر مجموعة كتبك. وقد فعلت ذلك، بمجرد رجوعي إلى قطر. أما بشير هوادي، فبعد عدة سنوات اختلف مع القذافي وأطيح به. وأما الخروبي (اللواء مصطفى الخروبي الآن) فما زال أحد القيادات المهمة في ليبيا، ولا تزال بيني وبينه مودة، حتى إنه زار قطر، منذ سنوات، ولم أكن موجودا، فأرسل إلي باقة ورد إلى منزلي. وحين زرت ليبيا في العام قبل الماضي، (٢٠٠٢م) أرسل إلي بهدية في الفندق الذي أنزل فيه.

والعجيب أني سألت الإخوة في ذلك الوقت (١٩٧٢) عن كتبي، فوجدتها ممنوعة من دخول ليبيا!

العودة إلى قطر عن طريق بيروت:

وآن لي بعد هذه الأيام الحافلة، أن أعود إلى قطر، فامتطينا الطائرة من طرابلس إلى بيروت، وقد بت فيها عند الأخ الصديق زهير الشاويش، الذي رأى البحث الذي قدمته للندوة في ليبيا، فطلب مني أن يتولى نشره، وصدرت الطبعة الأولى منه عن المكتب الإسلامي في بيروت، وبعد أن نزلت إلى مصر سنة ١٩٧٣م، نشرته مع عدد من الكتب في مصر، وقد نقحته وأضفت إليه، في طبعات لاحقة، كما أفعل في كثير من كتبي، وهو شأن كل مؤلف، يستدرك على نفسه، فيزيد ويحذف، ويهذب ويعدل، طلبا للكمال الممكن، ما وجد إليه سبيلا.

إجازة صيف ١٩٧٢م

سفر الأولاد إلى مصر:

وعدت إلى قطر، لأواجه امتحانات آخر العام، وأستعد للإجازة الصيفية التي دنا موعدها، وبعد البحث والتشاور: وجدت أن الوقت غدا مناسبا لسفر الأولاد وحدهم هذا العام، بعد انقطاع ثماني سنوات عن السفر إلى مصر، وبعض أولادي لم يروا مصر قط، مثل أبنائي الذكور: محمد وعبد الرحمن وأسامة، وبناتي لم يرين مصر إلا صغيرات جدا، لذا لا يعرفن عنها شيئا، فإذا كانت ظروفي حتى الآن لا تسمح بالسفر، فليسافر الأولاد مع أمهم على بركة الله.

وقد سافرت والأسرة إلى بيروت، وبقينا فيها أياما في فندق شبلي بسوق الغرب، ثم ودعتهم في مطار بيروت ليصلوا إلى القاهرة بسلام.

وبقيت وحدي في لبنان، متنقلا بين جبالها في الشمال والجنوب، فقد ذهبت فترة إلى منطقة (الضِّنّية) بالقرب من طرابلس، وهي منطقة إسلامية سنية، ولكن للأسف رأيت المناطق الإسلامية غير معنيّ بها، مثل المناطق المسيحية والدرزية.

السفر مع الأخ سامي صهري وأهله إلى سورية:

وفي هذا الوقت جاء صهري - شقيق زوجتي - الأخ سامي عبد الجواد وأسرته من الدوحة في إجازة، ليقضي أياما قليلة في لبنان، ثم ينطلق لزيارة سورية لزيارة مصايفها، وزيارة الأخ الصديق أبي البراء سليمان الستاوي في منزله في حلب، وهو زميل مصري متزوج منها وأصهاره هناك.

وكانت فرصة: أن أجدد عهدي بسورية، بعد عشرين عاما من زيارتي الأولى لها (سنة ١٩٥٢م) ولكن بقيت مشكلة، فالمفروض أن مثلي ممنوع من دخول سورية، كما أن كتبي ممنوعة من دخولها.

ومع هذا قررت أن أجازف بالدخول، عن طريق السيارات بالبر، وهم في البر لا يدققون في جوازات الداخلين في الصيف كثيرا، تشجيعا للسياحة.

وفعلا، ركبنا السيارة أنا وصهري وزوجته وابنه الصغير أيمن، ولا أذكر هل كان معنا أحد آخر أو لا؟ وكنت ألبس البذلة الإفرنجية، فهي الأنسب لي في هذه الظروف. وعند الدخول إلى سورية قدمنا الجوازات مجموعة، وكانت عدة سيارات داخلة معنا، فنظروا في الجوازات نظرة سطحية، وبخاصة أن جوازي قطري، وليس بين سورية وقطر أي حساسية في العلاقات، وختموا الجوازات بسهولة وسرعة، وردوها إلينا.

وحمدت الله أن لم تحدث مشكلة في الدخول، فهل يحدث شيء بعد الدخول؟ الواقع أني لا أنوي القيام بأي نشاط من أي نوع، فإنما جئت سائحا أتمتع بهواء سورية فقط، ولم أجئ داعية ولا مدرسا، ومن كان كذلك لم يلفت إليه نظر أحد وهذا ما كان.

يا سبحان الله! منذ عشرين سنة دخلت سورية التي كانت تحكم حكما عسكريا، واضطررت أن أتخفى في تعاملي مع الناس تحت اسم «عبد الله المصري»، واليوم أدخلها تحت ستار «سائح عربي» وحتى اليوم (٢٠٠٣) وأنا أكتب هذه المذكرات لم يتح لي دخول سورية بوصفي عالما وداعية مسلما؟! [(١)].

بعد دخول سورية، ذهبنا أول ما ذهبنا إلى منطقة جميلة بالقرب من دمشق

---

(١) الآن وأنا أهيئ هذه المذكرات للمطبعة في شهر مايو (٢٠٠٤) أقول: قد أتيح لي أن أزور سورية وأدخلها جهارا نهارا، بدعوة من مجمع الشيخ أحمد كفتارو المفتي العام لسورية، وأن ألقى الرئيس بشار الأسد ونائبيه، وأن يرحب الجميع بي، ويدعونني ألا أنقطع عن زيارة سورية، وأن أتحدث في محاضرات عامة، وفي التلفزيون السوري، وكل شيء بأجل مسمى، وقد عَدّ كثيرون من الإسلاميين زيارتي لسوريا فتحا من الله تعالى. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تسمى «العين الخضراء»، استأجرنا فيها حجرتين، وبقينا فيها، نمتع أعيننا وحواسنا كلها بماء العين الدافق البارد، والخضرة حولها، وكانت أياما جميلة، مرت كما يمر النسيم الناعم، ثم ودعناها لنسير إلى عاصمة الأمويين (دمشق) أو (جِلّق) كما سميت من قبل.

ورأينا نهر «بَرَدَى» وتذكرت قول شوقي:

سلام من صبا بردى أرقُّ

ودمع لا يكفكف يا دمشق!

وقوله في مقام آخر:

آمنت بالله، واستثنيت جنته

دمشق روح وجنات وريحان!

وبعدها مررنا على مصايف دمشق، حتى انتهينا إلى «الزبداني» وبقينا فيه عدة ساعات، وأذكر أننا لم نبت هناك، ، ولكن عدنا إلى دمشق، لنزور تحفتها المعمارية الرائعة، «الجامع الأموي» وما فيه من فخامة وروعة في أعمدته وسقوفه وجدرانه، وساحاته وحجراته، من جميل الفسيفساء وزخارف البناء.

وأذكر مما أرانا إياه الإخوة في المسجد: قبر نبي الله هود.

قلت لهم: ومن أين جاء هود إلى الشام، وقد كان بالأحقاف، وهي في الجزيرة العربية؟!

وكم كانت حسرتي وحزني، وأنا أتجول في هذا الجامع العظيم، الذي شهد عظمة الأمويين واتساع الدولة الإسلامية في عهدهم، التي وصلت الصين شرقا والأندلس غربا، حتى رأيناها في وقت واحد، تحارب في جبهات أربع في أنحاء العالم، يقود جيوشها أربعة من قوادها الكبار: مسلمة بن عبد الملك في الصين، وقتيبة بن مسلم في سمرقند، ومحمد بن القاسم في الهند، وموسى بن نصير ومعه طارق بن زياد في الأندلس أو إسبانيا.

أين الخلفاء والأمراء العظام الذين كانوا يؤمون الناس في محراب هذا المسجد،

أو يعتلون منبره ليخطبوهم؟ وحكام هذا البلد اليوم لا علاقة لهم بالمسجد ولا بالصلاة؟

وتذكرت هنا قول أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته عن دمشق:

مررت بالمسجد المحزون أسأله:

هل في المصلى أو المحراب مروان؟

تغير المسجد المحزون واختلفت

على المنابر أحرار وعبدان!

فلا الأذان أذان في منارته

إذا تعالى ولا الآذان آذان!

كما زرنا قبر صلاح الدين الأيوبي، الذي زاره القائد الفرنسي «غورو» في أثناء الحرب العالمية الأولى، وقال له بشماته بعد انتصارهم على الأتراك:

ها قد عدنا يا صلاح الدين!

بقينا يومين أو ثلاثة في دمشق، في أحد الفنادق هناك، واشترينا بعض الأشياء من «سوق الحميدية» منها بعض التحف، ومنها بعض المفارش، وكسوة لطقم عندنا. واستضافنا آل دعبول، في منزلهم هناك، ولم يكن الأخ رضوان أبو مروان موجودا، حيث لا تسمح الظروف بدخوله. وهنا تذكرت الكثيرين من أبناء دمشق الذين لا يستطيعون دخولها: العالم الداعية الأديب الأستاذ عصام العطار، والعالم المفكر الأستاذ محمد المبارك، والعالم الداعية الدكتور محمد الهواري، والعالم المؤلف الداعية الدكتور محمد أديب الصالح، والعالم المحدث الشيخ محمد الصباغ، والعالم المحقق الناشر الشيخ زهير الشاويش، وكثيرين.

ثم عقدنا العزم على الذهاب إلى حلب، مرورا بحمص وحماة، مستأجرين سيارة تاكسي لتوصيلنا، وعند مرورنا بحمص ترحمنا على علامة سوريا، الفقيه الداعية، ابن حمص: الشيخ مصطفى السباعي عليه رحمة الله.

وتذكرت الأيام الطيبة التي قضيتها مع الإخوة في حمص سنة ١٩٥٢م. وتذكرت الإخوة من علماء حمص، المحرومين من العودة إليها، مثل الشيخ محمد علي مشعل وغيره.

وعند مرورنا بحماة تذكرت عالمها ومرشدها الكبير رجل التقى والورع الشيخ محمد الحامد رحمه الله، وتذكرت عالمها المعاصر، الداعية الثائر الشيخ سعيد حوى، وتذكرت إخواننا الحمويين الذين يعملون في قطر وغيرها، ولا يستطيعون العودة إلى بلدهم الحبيب: مصطفى الصيرفي، وعدنان سعد الدين، ونعسان عرواني، وغيرهم.

وعند حماة توقفنا قليلا للاستراحة والصلاة، وشراء بعض الحلوى الحموية الشهيرة (الشعيبيات).

وانتهينا إلى حلب (الشهباء) لننزل ضيوفا على زميلنا في قطر، الأخ الصديق سليمان الستاوي، المصري الذي صاهر أهل حلب، وقد رحب بنا هو وأهله وأحباؤه، وأكرموا وفادتنا غاية الإكرام، وقابلنا أقارب صديقنا ورفيقنا في قطر: الأستاذ عادل كنعان، وإن كان هو لا ينزل إلى سورية، ككل إخواننا الذين لا يأمنون لحزب البعث، وإن لم يؤخذ عليهم أي جرم، ولكن الأنظمة الشمولية القاهرة لا تفرق بين بريء ومسيء.

وتذكرت إخواننا الكرام من علماء سوريا ودعاتها الذين غادروها من سنين، ولم يعودوا إليها: العالم المحدث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، والعالم الفقيه الشيخ مصطفى الزرقا، والعالم الشاعر الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، والعالم السياسي الدكتور معروف الدواليبي، والعالم الداعية أبو الفتح البيانوني، وشقيقه الحركي النشيط الأستاذ علي البيانوني. وآخرين كثيرين لا يتسع المقام لذكرهم.

وبعد يومين أو ثلاثة أيام قضيناها في حلب، زرنا فيها قلعتها الشهيرة وسجنها

الرهيب، وتجولنا في أنحاء حلب، فهي مدينة عريقة، لها تاريخ ولها أريجها الخاص، وهي مدينة سيف الدولة الحمداني، وأبي فراس الشاعر الفارس، وأبي الطيب المتنبي، وغيرهم من العلماء والأدباء والفلاسفة.

ومن حلب انطلقنا إلى منطقة «اصطياف» قريبة من الحدود التركية أظن أن اسمها «كَسَب» وبقينا فيها مدة لا أذكرها، ثم انتقلنا إلى منطقة أخرى قرب اللاذقية، إلى مصيف على البحر اسمه «عين البسيط».

ثم انطلقنا من هذه المنطقة إلى اللاذقية، ليستضيفنا شقيق الأخ الصديق الأديب الباحث الأستاذ هاني طايع، الذي لا يستطيع أيضا النزول من قطر إلى سورية.

ومن اللاذقية ودعت الأخ سامي وأهله، ليستكمل إجازته في سورية، وسافرت أنا إلى لبنان عن طريق طرطوس، ونزلت بفندق شبلي في سوق الغرب.

إلى تركية مع الشيخ عبد المعز:

وبعد رجوعي إلى لبنان، حضر فضيلة الأخ الكبير الشيخ عبد المعز عبد الستار إلى بيروت في طريقه إلى تركية، فسأل عني، ولقيته، وأخبرني أنه مسافر إلى تركية، ويريد أن أكون معه، وبخاصة أنني ذهبت مرتين إلى تركية، وأصبحت خبيرا بمداخلها ومخارجها، وجوامعها ومتاحفها وأسواقها.

وسافرنا من بيروت إلى إستانبول مرة واحدة، عن طريق الطيران التركي، وكان مع الشيخ ابناه محمد وعبد الستار.

وفي هذه الزيارة جددت العهد بزيارة المناطق التي زرتها من قبل سنتي ١٩٦٧، و١٩٦٨م، فزرتها مرة أخرى مع الشيخ عبد المعز.

وسافرنا إلى «يالوا» وإلى «بورصة» وركبنا «التلفريك»، واستمتعنا بجبل بورصة، وأكلنا اللحم المشوي، وحلينا بالبطيخ، على العادة في تلك الزيارة.

وفي عودتنا حدثت لنا حادثة، لولا لطف الله تعالى بنا لكنا هلكنا، فقد كان في الطريق مطر مستمر، تسبب في انزلاق «الباص» الذي نركبه، وكاد ينقلب بنا، لولا أنه اتجه نحو الجبل، ومن شدة الصدمة وقع الناس في داخل الباص، واصطدم بعضهم ببعض، وجرح بعضهم، وسقطت الأمتعة التي كان يحملها بعض الناس، وخصوصا «الكربوز» وهو البطيخ، «والقاوون» وهو الشمام، و«الشفتلي» الخوخ أو الدرّاق، فقد تدحرجت هذه الأشياء، ونزلت من الحافلة، وهي تجري وتركض بسرعة في الطريق النازل من أعلى إلى أسفل. وسقطت إحدى النساء من الحافلة، واصطدمت بالأرض، وسالت منها الدماء، ونقلتها إحدى السيارات إلى أقرب مستشفى، ولا ندري ماذا فعل الله بها.

وتعطلت السيارة، ووقفنا حتى جيء لنا بسيارة أخرى، وقلنا: الحمد لله، لو اتجهت الحافلة (الباص) نحو الوادي، لكان في ذلك هلاك محقق. والعجيب أن أحدا لا يعرف عنا شيئا، فلله الفضل والمنة، ففي كل قدر لطف. وقد قال ابن عطاء: من ظن انفكاك لطفه تعالى عن قدره، فذلك لقصور نظره: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف: ١٠٠).

ثم عدنا إلى لبنان مرة أخرى، وقد أوشكت الإجازة أن تنتهي، وقرب موعد وصول الأولاد من القاهرة إلى بيروت.

وبعد أيام قليلة عادت زوجتي وأولادي، بعد أن عاشوا هذه الإجازة في مصر، واستمتعوا بجو مصر، ونيل مصر، وأريج مصر، وإن قالوا: إن عدم وجودك معنا جعلنا نشعر دائما أن هناك فراغا لا يسده أحد، قلت: أرجو الله ألا يحدث ذلك في المستقبل.

ومن لبنان عدنا إلى قطر - أنا والعائلة - نستقبل عاما دراسيا جديدا، نسأل الله أن يكون خيرا من سابقة، وأن يمدنا فيه بعونه، ويحرسنا بعينه، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقل من ذلك.

(٨)
السنة الدراسية
١٩٧٢ ـ ١٩٧٣م

السنة الدراسية ١٩٧٢ - ١٩٧٣م

استقبلنا العام الدراسي الجديد بهمة ونشاط، بعد عودة أولادي من مصر، وبعد سفري إلى سورية وتركية في الصيف.

عودة للبحث عن الدكتوراه في الأزهر:

بعد موت عبد الناصر، وتولي أنور السادات، وإزاحة مراكز القوى، التي كانت امتدادا لحكم عبد الناصر، والإفراج عن المعتقلين، وإعلان سيادة القانون، تنفست مصر الصعداء، وأحس الناس أن الغُلّ الذي كان يطوق أعناقهم قد فك عنهم.

وفي هذا الجو الذي هبت فيه نسمات الحرية، التي طالما حرمها أهل مصر: بدأت أفكر في العودة إلى الأصل، لأخذ الدكتوراه من الأزهر، ومن كلية «أصول الدين» التي سجلت فيها أطروحتي عن: «الزكاة وأثرها في حل المشكلات الاجتماعية».

ولكن كان أمامي عقبات، منها: أن أقصى مدة يسمح فيها لطالب الدراسات العليا بتقديم رسالته، هي: ست سنوات، وقد مضى حوالي ضعف هذه المدة، فهل يمكن الاستثناء؟

والعقبة الأخرى: أن بحثي عن الزكاة قد نشر، وشرط قبول الأطروحة: ألاّ تكون منشورة.

وكان من فضل الله ورحمته : أن وجدنا قانون أقصى مدة للتقديم قد عدل في عهد وزارة الشيخ عبد الحليم محمود للأوقاف وشؤون الأزهر : من ست سنوات إلى اثنى عشر عاما . وهذا لم نكن نعلمه .

ولكن حتى هذا القانون لا يسمح لي بالتقديم ، فقد مضى اثنا عشر عاما أو أكثر على التقدم بأطروحتي لكلية أصول الدين .

ولكن المفاجأة الغريبة التي لم أكن أتوقعها قط : أني وجدت مجلس الكلية لم يعتمد الموضوع الذي تقدمت به إلا بعد سنة من تقديمه إلى الكلية ، وهذا أمر لو عرفته في حينه لغضبت أشد الغضب ، وأنحيت باللائمة على من أخره كل هذا الوقت .

ولكن كان لله حكمة لا نعلمها في هذا التأخير ، وكما يقول المثل : كل تأخيرة فيها خيرة ، فقد أتاح لي هذا التأخير أن أجد بصورة قانونية فرصة للتقدم من جديد إلى الكلية لتعيين مشرف جديد على رسالتي ، واستجابت الكلية بسرعة ، وعينت أحد شيوخنا الفضلاء مشرفا هو الشيخ الدكتور عبد الرحمن عثمان أستاذ التفسير المساعد بالكلية .

وكان الذي يركض وراء ذلك كله ، ويحرك العجلة إلى الأمام ، ويحل المشكلات المعقدة ، هو الأخ الحبيب ، والصديق الصدوق ، الشيخ حسن عيسى عبد الظاهر ، الذي كان يعمل مدرسا مساعدا بالكلية ، ولم يأل جهدا في تتبع الأمور ، وتسهيل كل صعوبة تعترض الطريق .

بقي موضوع الرسالة التي يشترط ألا تكون منشورة قبل ، وقد نشرت بحثي الأصلي . ومن حسن الحظ : أن البحث الذي نشرته كان بعنوان «فقه الزكاة» والبحث الذي سجلته في الكلية كان بعنوان «الزكاة ، وأثرها في حل المشكلات الاجتماعية» .

لهذا صممت بحثا جديدا ، استقيته من ثلاثة مصادر :

١ ـ من كتابي «فقه الزكاة».

٢ ـ ومن كتابي «مشكلة الفقر».

٣ ـ ومن بحوث جديدة لم تنشر من قبل.

وأكملت الرسالة المطلوبة من ناحية البحث، ثم من ناحية الطباعة على الآلة الكاتبة، وهي تحتاج إلى وقت غير قليل، حتى يسر الله طباعتها ومراجعتها، وفهرستها، ثم إرسالها إلى القاهرة لتسلم إلى الكلية، لتعيِّن لجنة المناقشة، وترسلها إلى الأعضاء، حتى يمكن مناقشتها في إجازة الصيف إن شاء الله.

والحمد لله، تم إرسالها إلى القاهرة مع حماتي رحمها الله، وتسلمها صديقي الشيخ حسن عيسى، وسلمها في الحال إلى الكلية، لتتخذ إجراءات تعيين لجنة المناقشة، وقد عينت برئاسة شيخنا العلامة الشيخ محمد علي السايس عضو مجمع البحوث الإسلامية، وعميد كلية أصول الدين من قبل، وعضوية أستاذنا الدكتور عوض الله حجازي عميد كلية أصول الدين وقتئذ، والمشرف على الرسالة الأستاذ الدكتور عبد الرحمن عثمان، وأبلغت بذلك وأنا في قطر.

إنشاء كليتي التربية في قطر:

وفي هذه الأثناء كانت كليتا التربية للبنين والبنات على وشك الإنشاء في قطر، نواة لجامعتها المنشودة، وقد أخذ المشروع وقتا كافيا في الدراسات والمناقشات والتهيئة والإعداد، وعقدت اجتماعات شاركت في بعضها، وشارك فيها عدد من الأكاديميين والتربويين، منهم الأستاذ الدكتور محمد الشبيني، ومنهم صديقنا الدكتور يوسف عبد المعطي، الذي يعمل من زمن طويل في الكويت، ومنهم من قطر: الدكتور كمال ناجي، والدكتور أحمد رجب عبد المجيد، والأستاذ عبد العزيز عبد الله تركي، وآخرون.

وقد وقع الاختيار على المربي الكبير الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم كاظم عميد

كلية التربية بجامعة الأزهر، ليكون عميدا للكلية، أو قل: للكليتين، وكان الذي رشحه لذلك هو الدكتور كمال ناجي مدير المعارف في قطر، بناء على تزكية من الدكتور عبد العزيز كامل، الذي يعرفه معرفة جيدة.

ورأى الجميع أن هذه فرصة لتحسين وضعي المادي والأدبي، وإن كنت لم أحصل على الدكتوراه بعد، وبخاصة أن الكلية سيكون فيها قسم للدراسات الإسلامية، وكلمت الشيخ خليفة في الأمر، فأصدر قراره فورا بتعييني في الكلية رئيسا لقسم الدراسات الإسلامية بدرجة أستاذ مساعد (أستاذ مشارك في مصطلح بعض الجامعات) هذا مع بقائي مديرا للمعهد الديني، إلى جوار عملي الجديد، وكان رقم وظيفتي في الكلية هو (٦) بعد التعاقد مع الدكتور كاظم وأربعة آخرين معه.

تعليقات «دار الاعتصام» على كتاب «الحلال والحرام»:

في سنة ١٩٧٢ أرسل إلي الأخ أسعد السيد، وقد خرج من السجن، يخبرني أنه يريد أن يبدأ عملا مستقلا في الطباعة والنشر، وقد كان قبل ذلك يعمل موظفا في إحدى دور النشر. وأنه يريد أن يستهل عمله بنشر كتاب ذي قيمة مرغوب فيه، وأنه اختار كتابي «الحلال والحرام في الإسلام» ليكون باكورة هذا العمل، وبخاصة أن الكتاب مفقود في السوق المصرية منذ طبعته مكتبة دار العروبة من عدة سنين.

وكان كتاب «الحلال والحرام» قد طبع أول طبعة في مطبعة عيسى الحلبي، وثاني طبعة في المكتب الإسلامي في بيروت، وقد طبع على نفقة الشيخ فهد بن علي آل ثاني، الذي قام بتوزيعه احتسابا لوجه الله ولنفع المسلمين. ثم ظل المكتب الإسلامي يطبعه بعد ذلك، وأحسبه طبع منه خمس طبعات خلال الفترة الماضية، غير الطبعة الأولى والثالثة، وطلب الأخ أسعد أن يطبعه الطبعة الثامنة، واستجبت للأخ الكريم وأعطيته إذنا بالنشر.

ولكني فوجئت بعد بضعة أشهر بالكتاب أرسله إلي الأخ أسعد مطبوعا، وقد أخرجته «دار الاعتصام» التي تنسب إلى إخواننا في الجمعية الشرعية، وصاحبها المرحوم الشيخ أحمد عيسى عاشور، وأنهم علقوا على عدة مواطن في الكتاب، معترضين عليها، ووضعوا هذه التعليقات في صلب الكتاب دون أن يستأذنوني فيها.

وما أن رأيت هذه التعليقات وقرأتها بسرعة، حتى غلى الدم في عروقي، وثار ثائري، كيف يفعلون هذا دون إذن مني؟ ثم إني لم أعط الكتاب للاعتصام، وإنما أعطيته لأسعد.

ولكن لأن أسعد لم يكن أنشأ داره بعد (دار الأنصار)، اضطر إلى أن يبحث عن دار تتبنى نشر الكتاب، فكانت «دار الاعتصام» التي لم يرُقْها اتجاه الكتاب إلى التيسير، فردت عليه في جملة موضوعات.

أرسلت برقية عاجلة إلى الأخ أسعد، أقول له: أوقف توزيع الكتاب، حتى أكتب ردا على تعليق الاعتصام، وسأكتبه في أيام إن شاء الله.

وبدأت أكتب الرد، وطبعته على الآلة الكاتبة، وأرسلته بأقصى سرعة ممكنة، وأرسله أخونا أسعد ليجمع، وقد جمع فعلا، ولكن الكتاب قد نزل إلى الأسواق، ووزع هنا وهناك، ولم يعد إلى الاستدراك سبيل، وأرسل إليّ أخونا أسعد يخبرني بذلك آسفا.

ولكني حمّلت التبعة لأسعد، وكان جزاء ذلك أن سحبت الكتاب منه، ومن الاعتصام بالتالي.

وعندما نزلت مصر في صيف ١٩٧٣، واتفقت مع الأخ الفاضل الحاج وهبة حسن وهبة رحمه الله - الذي كنت تعرفت عليه من قبل في الإخوان - على أن أنشر عنده سائر كتبي، التي نشرت في بيروت طيلة الأعوام التسعة الماضية التي لم أنزل فيها مصر، مثل: الإيمان والحياة، العبادة في الإسلام، مشكلة الفقر وكيف عالجها

الإسلام؟، الناس والحق، عالم وطاغية، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا؟، الحل الإسلامي فريضة وضرورة، فقه الزكاة، درس النكبة الثانية، شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان. وعلى رأس هذه الكتب: الحلال والحرام.

وطلبت من الأخ وهبة: أن ينشر تعليق الاعتصام وردي عليه، وتركت له التعليق والرد، وبعد فترة مررت عليه، فقال لي: إن هذا التعليق والرد عليه، سيأخذ أكثر من ثلاث ملازم، وهذه عبء على الكتاب، ستغلي ثمنه على القارئ المسلم، دون ضرورة إلى ذلك، فالأمور التي علقوا عليها واضحة في الكتاب، وسوف تبلبل القارئ بالتعليق والرد عليه، ورأيي أن لا ضرورة لنشره. واستجبت لرغبته، ولم ينشر الرد إلى الآن، وهو عندي، وأرجو أن تتاح لي طبعة خاصة موسعّة، تضم ردودا على من نقدوا الكتاب، والله المستعان.

السفر إلى القاهرة:

وانتهى العام الدراسي، وكان لا بد من السفر إلى القاهرة، بعد غياب تسع سنوات كنت أقضي الإجازة فيها بين لبنان والأردن وتركية، وقد استقرت الأمور، وأمن الناس من خوف، في عهد الرئيس السادات، وأفرج عن المعتقلين، بل أغلقت المعتقلات، وأعلن عن سيادة القانون، وتنفس الناس ملء صدورهم، واستقبلوا لأول مرة: أنسام الحرية، لتنعش أرواحهم، التي طالما شعرت بالاختناق في العهد الغابر.

لهذا عدت وأنا مطمئن غير قلق، آمن غير خائف، وهذا ما شعرت به منذ وطئت قدماي مطار القاهرة، فلم يسألني أحد: لماذا تغيبت عن مصر طوال هذه المدة؟ ولم يرسل إلى أحد من المباحث العامة لأقابله، كما كان يفعل أحمد راسخ من قبل.

وعشت فترة إجازة الصيف في أمان واطمئنان، والحمد لله، سافرت إلى قريتي صفط تراب، لأزور الأهل والأقارب، وسافرت إلى زفتى لأزور أختي من أمي،

وسافرت إلى طنطا، لأزور خالتي التي حوكمت من أجلي، وسافرت إلى المحلة الكبرى، لأزور فيها إخواني وأحبابي القدامى.

وكانت شقتي القديمة في شبرا باقية كما هي، وكان يسكن فيها أصهاري، ونزلت بها، وجددنا الصلة بجيراننا، الذين كدنا ننساهم، وقد لاحظت أني أول ما نزلت القاهرة ـ وسط البلد ـ كنت أشبه بالناسي للأماكن والاتجاهات، وكأنها أمست مختلطة علي، ولكن سرعان ما استعدت الخارطة، واستردت ذاكرتي ما غاب عنها.

مناقشة الدكتوراه في ٢٣ يوليو:

وسرعان ما أبلغت بتعيين موعد المناقشة لرسالة الدكتوراه، وذلك يوم ٢٣ يوليو، وكان الفضل في هذا التعجيل يرجع إلى سعي الأخ الحبيب والصديق القديم: الأستاذ عبد العظيم الديب، الذي كان يعرف الشيخ السايس رئيس اللجنة، فزاره في بيته، وأعطاه فكرة كافية عني، وعرفه بأن وقتي في القاهرة محدود، وأن السرعة من صالحي، فقرأ الشيخ الرسالة بسرعة، وحدد مع العضوين الآخرين يوم ٢٣ يوليو للمناقشة.

وتوكلت على الله، وذهبت إلى قاعة المناقشة في اليوم الموعود، فوجدت قاعة الشيخ محمد عبده شبه ممتلئة، برغم أن اليوم يوم إجازة، لأنه يوم عيد الثورة، وكذلك تتم المناقشة في عطلة الصيف، ومع هذا كان الحضور كبيرا، ولبست (الروب) الأسود المعتاد في مثل هذه المناسبة، وكان المفروض أن أعد بيانا مكتوبا لإلقائه، ولكني اعتمدت على قدرتي في الخطابة والارتجال، فارتجلت بيانا شفهيا أعددته في نفسي، لخصت فيه الرسالة، وما انتهت إليه من نتائج، وقد لاقى البيان استحسان الحاضرين.

وتكلم فضيلة رئيس اللجنة العلاّمة الشيخ محمد السايس رحمه الله، ففاجأ

الحاضرين بما ليس معتادا في هذه المناسبات، أثنى ثناء عاطرا على مقدم الرسالة، ودوره في خدمة العلم والإسلام، وأن الله تعالى كتب له المحبة والقبول عند الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (مريم: ٩٦).

وقال الشيخ فيما قاله: إن الأستاذ القرضاوي فعل كذا وكذا، فقال الشيخ الدكتور عوض الله حجازي مداعبا: يا مولانا، هو لم يصر أستاذا بعد! فقال: بل هو أستاذ ونص!!

وقد سألني بعض أسئلة أجبت عنها، وكان منها: لماذا لم تتحدث عن زكاة العقارات والمصانع، وعن زكاة الأسهم والسندات، وعن زكاة الأموال الحديثة التي لم يكن يعرفها الناس من قبل؟

فقلت له: يا مولانا، لقد تكلمت عن هذه الأشياء، وأبديت فيها رأيي، ولكن أجبرني مشرفي من قبل أن أحذف هذه الفصول من رسالتي، وإلا رفض الإشراف عليها، فاضطررت إلى أن أحذفها تنفيذا لرغبة مشرفي.

وسألني الدكتور عوض الله بعض أسئلة أجبته عنها.

ولم يوجه المشرف أي سؤال إلي.

وانتهت المناقشة، بقيام اللجنة لصلاة المغرب، ثم للتداول، وأخيرا عادت فأعلنت نجاح الطالب بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى في الحديث وعلومه.

وقد علمت أن اللجنة ترددت: لأي القسمين تنسبني: لقسم التفسير وعلوم القرآن، أم لقسم الحديث وعلومه؟ وذلك أني حين انتسبت إلى الدراسات العليا، كانت الشعبة التي تقدمت إليها تشمل القسمين معا: القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، ولكنهم وجدوا أن العمل الحديثي في الرسالة أوسع بكثير من العمل التفسيري، فنسبوني إلى الحديث.

وكان من حضور المناقشة أستاذنا وشيخنا البهي الخولي، الذي قال لي: إن هذا لم يكن يوم مناقشة، إنه كان عُرْس القرضاوي، إنه كان يوم احتفال بك في الأزهر! قلت له: هذا بعض ثمار غرسكم يا أستاذ، قال: بل هو ثمرة جدك واجتهادك، ومن زرع حصد.

وكان صهري الأخ سامي عبد الجواد يصور الحفل تصويرا سينمائيا، فلم تكن كاميرات الفيديو قد ظهرت بعد.

وكان هذا المهرجان فرصة لأرى فيه كثيرا من الأقارب والأحبة الذين انقطعت عنهم من سنين من أهل قريتي، خالي عبد الحميد، والحاج سيد مولانا، ومن أهل طنطا والمحلة الكبرى. فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله .

لك الحمد مولانا على كل نعمة

ومن جملة النعماء قولي: لك الحمد!

التعرف على الدكتور كاظم:

بعد انتهاء المناقشة كان علي أن أسعى لاستخراج ورقة من جامعة الأزهر بحصولي على الدكتوراه، فإن الشهادة الأصلية لا تستخرج إلا بعد مدة، وهذا جعلني أتردد على مدير الجامعة وكان في حينها الأستاذ الدكتور بدوي عبد اللطيف، أستاذ التاريخ، الذي كان قد سمع عني، فاستقبلني بحفاوة، ورحب بي، وتحدثنا في أمور الجامعة. وآمال الناس فيها. . وحدثته في السنة التأهيلية وأهميتها في تكوين من ينسب إلى الأزهر، وما يجب أن يكون عليه، فقال لي: ليتك تكتب لي هذا الكلام، أو خلاصته في بضع صفحات لأستفيد به، ففعلت ذلك وذهبت إليه بعد يومين أو ثلاثة، فوجدت عنده أستاذا قدم لي نفسه، وقال: أنا سآتي عندكم إلى قطر في العام القادم. قلت له: من حضرتك؟ قال: أنا الدكتور محمد إبراهيم كاظم عميد تربية الأزهر، وقد

اخترت عميدا لكليتكم الناشئة. قلت له: أهلا بك في قطر، وقد سمعت عنك قبل أن أراك.

وسرعان ما أنس كلانا بالآخر، كأنما تعارفنا من قديم، وقال لي: إذا لم يكن لديك مانع، فتعال نترافق في بعض المشاوير معا. وقبل خروجنا من إدارة الجامعة دعاني إلى زيارة نائب رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور زكي شبانة، فصحبته إليه، فرحب بي د. شبانة ترحيبا حارا، وقال: أنا أعرفك، منذ زرتنا في قريتنا «ششتا» وألقيت محاضرة في المسجد هناك، وتركت أثرا طيبا في البلدة. وكنت لا تزال طالبا! قلت له: الحمد لله، الكلمة الطيبة لا تضيع ثمرتها.

وبعد أحاديث تبادلناها استأذنا، وخرجت مع د. كاظم.

وركبت معه سيارته، وذهب بي إلى مكتبه في كلية التربية بجامعة الأزهر في مدينة نصر، وأخذ منه بعض الأوراق، ثم ذهبت معه لزيارة وزير الأزهر فضيلة الشيخ عبد العزيز عيسى، وكان الشيخ يعرفني، وقد زارنا فى قطر، فرحب بي كثيرا.

بعد ذلك استأذنت من الدكتور كاظم في الانصراف، على أن نلتقي كلما سنحت الفرصة، لأحدثه عن قطر وأوضاعها، ليستكمل فكرته النظرية عنها.

وبعد أن استخرجت الورقة المؤقتة، بحصولي على الدكتوراه، أصبحت قادرا على التحرك إلى حيث أريد.

السفر إلى مصيف الإسكندرية:

وهنا طلب الأولاد مني أن أكافئهم بالذهاب إلى مصيف الإسكندرية، ليستمتعوا بنسيم البحر، ويأخذوا قسطا من الراحة والاستجمام، وليستنشقوا الهواء الطبيعي بدل الهواء الصناعي الذي يوفره «التكييف» في قطر.

وقلت لهم: من حقكم - ومن حقي معكم - أن تستمتعوا بشاطئ الإسكندرية،

واستأجرنا شقة جميلة في حي «ميامي» قريبة جدا من البحر، ونراه بوضوح، وقد استأجرناها لمدة شهر، فقضيناه في جو من الهدوء والمرح، نأكل ونشرب، ونلهو ونلعب، وقد اشترينا شمسية وبعض الكراسي، لنستخدمها على الشاطئ، وفي المساء نمشي على الكرنيش لنأكل الذرة المشوية أو البطاطا المشوية، أو الترمس ونحوه.

ولم يكن أحد يعرف أني في الإسكندرية، فقد خبأت نفسي عن إخواني وأصدقائي، ولم أخبر أحدا منهم بمقدمي إلى عروس البحر الأبيض المتوسط، ثم خطر لنا أن نسأل عن صديقنا الدكتور عبد العزيز بغاغو زميلنا في قطر، وطبيب الصحة المدرسية البارع، وهو من سكان الإسكندرية، وحين عرف بوجودنا أبى إلا أن يدعونا إلى غدوة سمك، يوم الجمعة القادم في منزله، وقد دعا الواعظ البليغ والخطيب الشهير الشيخ محمود عيد، خطيب جامع السلام في الإسكندرية على الغداء معه، وذهبت يوم الجمعة لأصلي عند الشيخ محمود، ودخلت مستخفيا قابعا في ركن قصي من المسجد، حتى لا ألفت إليّ نظر أحد، كما أني لا ألبس الجبة والعمامة، ولكن لا أدري كيف عرف الشيخ محمود أني موجود بالمسجد، فإذا هو يعلن في الخطبة الثانية عن وجودي، ويدعوني لإلقاء كلمة بعد الصلاة. وهناك اجتمع الناس وعرفوا أني مقيم بالإسكندرية، وأني مقيم بالعمارة رقم كذا في شارع إسكندر إبراهيم. . فلم أعد بعدها أملك نفسي، فقد دعيت إلى عدة محاضرات، وإلى عدة لقاءات، وإلى عدة دعوات: غداء وعشاء. . وانتهت الأيام التي كنت أشعر فيها بالإجازة بعيدا عن هموم الدعوة، ومزاحمة الناس، وهذه هي ضريبة الدعوة، وضريبة الشهرة، لكن المهم أن يعمل المرء العمل، ويتقبله الله منه، فإنه تعالى قال في كتابه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧). وقضينا شهرنا في الإسكندرية وما أسرع ما انقضى، ثم عدنا إلى القاهرة، لنتهيأ للعودة إلى قطر.

(٩)

السنتان الدراسيتان

١٩٧٣ ـ ١٩٧٤م

١٩٧٤ ـ ١٩٧٥م

السنة الدراسية ١٩٧٣-١٩٧٤م

كليتا التربية في قطر:

بعد قضاء الإجازة الصيفية في مصر، التي كانت إجازة غير عادية، رأيت فيها مصر بعد انقطاع تسع سنوات، ورأيت الأهل والأقارب والأحبة، بعد أن فرقت الأيام بيني وبينهم، وحصلت على الدكتوراه، التي كنت يئست في وقت من الأوقات أن أنالها من مصر، وقضيت أوطارا كثيرة في هذه الفترة القصيرة، بعد هذا كله كان لا بد من العودة إلى قطر، لمباشرة عملي الجديد في كليتي التربية.

رأى المسؤولون في قطر: أن يبدءوا تعليمهم العالي أو الجامعي بإنشاء كليتي التربية بأقسامها المختلفة: العلمية والأدبية، وبهذا تكون الكلية كأنما هي نواة لجامعة مكتملة.

ففي الأقسام العلمية نجد: قسم الفيزياء، وقسم الكيمياء، وقسم الحيوان، وقسم النبات، وقسم الجيولوجيا، وعلوم البحار، وقسم الرياضيات.

وفي الأقسام الأدبية: نجد قسم الدراسات الإسلامية، وقسم اللغة العربية، وقسم اللغة الإنجليزية، وقسم الجغرافيا، وقسم التاريخ، وقسم الاجتماع، وقسم علم النفس، وأقسام التربية المختلفة.

ونظرا لأن دولة قطر دولة محافظة، ولا يوجد فيها اختلاط في التعليم بين البنين والبنات، فمدارس البنات فى جميع مراحلها كلها مؤنثة من التدريس إلى الإدارة إلى التوجيه، كلها تقوم بها المرأة، حتى الرئاسة العامة لتوجيه البنات تقوم عليها امرأة.

ومن هنا كان التفكير من أول الأمر: أن تنشأ الدراسة الجامعية بكليتين: إحداها للطلاب، والأخرى للطالبات.

ولم يكن الوقت يسعف بانتظار بناء خاص يشاد لهذه الغاية، فرئي الاستفادة من مدرستين ابتدائيتين جديدتين أنشئتا في مدينة خليفة الشمالية للبنين والبنات فحولتا، لتكونا كليتين للبنين والبنات، وهما متقاربتان في المسافة، فيسهل التنقل بينهما لأعضاء هيئة التدريس، إذ كان معظم المدرسين من الرجال، وكانت توجد بعض الدكتورات، مثل الدكتورة كوثر عبد الرسول أستاذ الجغرافيا، والدكتورة صفاء الأعسر أستاذ علم النفس، زوجة الدكتور كاظم عميد الكلية، والدكتورة زينب في الفيزياء.

وكان الدكتور كاظم عميد الكلية ـ أو قل: عميد الكليتين ـ يحسن اختيار الرجال، فاختار عددا من الأساتذة الأقوياء الأمناء في التخصصات العلمية والأدبية، مثل الدكتور محمد فتحي سعود في الأحياء، والدكتور كمال البتانوني في النبات، والدكتور حسين أبو ليلة في الفيزياء، والدكتور عمر عبد الرحمن في الكيمياء، والدكتور محمد سليمان فى الجيولوجيا، والدكتور ماهر حسن فهمي، والدكتور عبد العزيز مطر في اللغة العربية، وغير هؤلاء ممن قامت على كواهلهم جامعة قطر.

وكان معي في قسم الدراسات الإسلامية مدرس واحد هو: الدكتور أحمد يونس سكر رحمه الله، وهو متخصص في الفقه، وفي كل سنة تنمو الكلية، وينضم إلينا أساتذة جدد، من أمثال الدكتور جابر عبد الحميد في علم النفس، والدكتور عبد العزيز بيومي في علم النبات، والدكتور محمد نصار، والدكتور عبد العظيم الديب في الدراسات الإسلامية، ولم تزل الكلية تنمو رويدا رويدا، حتى صدر القرار الأميري بأن تصبح جامعة مكتملة، تشمل أربع كليات: كلية للشريعة والدراسات الإسلامية، وكلية للإنسانيات والعلوم الاجتماعية، وكلية للعلوم، بالإضافة إلى كلية التربية.

ماذا كنت أدرس؟

كنت في السنوات الأولى أدرس لجميع طلاب الكلية وطالباتها: الثقافة الإسلامية، كما أدرس لطلاب الأدبي العام وطالباته: فقه السيرة النبوية.

كما كنت أدرس للطلاب المتخصصين والطالبات المتخصصات في الدراسات الإسلامية: معظم المواد، كنت أدرس لهم التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والعقيدة، والفقه وأصول الفقه.

حتى إني أشرفت على الدفعة الأولى من طالبات قسم الدراسات الإسلامية في مقرر «التربية العملية»: في السنة الثالثة، والسنة الرابعة. فلم يكن أساتذة التربية قد اكتملوا بحيث يسدون الثغرات المطلوبة كلها، وقد عرف المسؤولون في الكلية أني درست علوم التربية في «تخصص التدريس»، فكلفوني أن أنهض بعبء الإشراف على الطالبات، وقبلت ذلك، فكنت أزور معهن مدارس البنات، وأكلف إحداهن بتحضير درس نموذجي، لتلقيه في الفصل وتناقشها زميلاتها بعد ذلك، لتعرف نقاط القوة، ونقاط الضعف في درسها.

ولقد أفادتني بالفعل دراستي القديمة في إجازة التدريس، فقد درسنا هناك أصول التربية، وطرق التدريس العامة، وطرق التدريس الخاصة، والتربية العملية، وأذكر أني حصلت في مادة «التربية العملية» على ٥٠ من ٥٠ في السنة الأولى، وفي السنة الثانية.

تفوق الطالبات:

ولقد لاحظت - كما لاحظ غيري من الأساتذة - تفوق الطالبات على الطلاب، وكان هذا شائعا في جميع الأقسام العلمية والأدبية، كما كان ظاهرا بوضوح عندنا في الدراسات الإسلامية، والعجيب أني وجدت هذا موجودا ومعترفا به في كل أقطار الخليج.

ترى ما السر في هذا؟ وأين ما يقال عن تفوق الرجل على المرأة في الذكاء؟ وأن مخ الرجل أثقل وزنا من مخ المرأة، إلى آخر ما يقوله البيولوجيون في هذا المجال؟

وأود أن أذكر بحكم ملاحظتي وتجربتي: أن هناك أسبابا ثلاثة رصدتها، ورأيتها وراء تفوق الطالبة القطرية في الجامعة.

الأول: أن جميع الطالبات المتفوقات يدخلن جامعة قطر، حيث لا يتاح لهن الابتعاث إلى الخارج، كما هو الشأن في كثير من الطلبة المتفوقين في الثانوية، حين يذهبون على نفقة الدولة في بعثات خارجية، إلى البلاد العربية، وإلى أوربا، وربما إلى أمريكا، أما البنات فلا تسمح ظروفهن الاجتماعية بمثل هذا الابتعاث.

والثاني: أن الطالبات أكثر استقرارا في الجامعة من الطلاب، فالطالبة تأتي من الصباح، وتبقى في الكلية، ولا تغادرها حتى تنتهي دراستها، أما الطالب فمعه سيارته، يحضر المحاضرة، ويركب سيارته، ويمضي هنا وهناك، فهو في الجامعة ساعة المحاضرة فقط، كما أنهن في بيوتهن أكثر لزوما للبيت وقرارا فيه من الأولاد، وهذا مما يساعد على المراجعة والمذاكرة.

والثالث: أن البنات أكثر حرصا على الدراسة، والتنافس بينهن أشد، وحب التفوق على الأخريات أقوى وأعظم، وهذا عامل نفسي مهم في دفعهن إلى المزيد من الاجتهاد والتحصيل.

حرب العاشر من رمضان:

وكان من أهم ما حدث في هذا العام وفي شهر رمضان المبارك: ما فاجأنا وفاجأ العالم كله من حدث اهتزت له القلوب طربا، وابتسمت له الثغور فرحا، ولهجت به الألسنة ثناء، وسجدت الجباه من أجله لله شكرا.

إنه الحدث الذي عوضنا عما فوجئنا به من قبل في الخامس من حزيران (يونيو)

١٩٦٧م، والذي خسرت به الأمة ما خسرت، وكسبت إسرائيل ما كسبت، وضاعت به - إلى اليوم - القدس والضفة والقطاع والجولان، بالإضافة إلى سيناء التي استردتها مصر فيما بعد.

وهذا الحدث الذي أحيا الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، بل الأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط، هو: حرب العاشر من رمضان، وأنا أحب أن أسميها دائما: معركة العاشر من رمضان، وليس السادس من أكتوبر، لأن شهر رمضان ونفحاته وبركاته وإمداداته التي هبت نسماتها على الجنود الصائمين والمصلين، كان له أثره في تحقيق النصر، وإمداد المقاتلين بشحنة إيمانية دفعتهم إلى البذل والفداء، أما أكتوبر، فليس له أي إيحاء أو دخل في هذا النصر.

ما زلت أذكر هذا اليوم المشرق، وقد خرجت من درس العصر في مسجد الشيخ خليفة، فإذا الأنباء المبشرة تستقبلني، وإذا الهواتف تدق ولا تتوقف، للاتصال بي من هنا وهناك، مهنئة بما وقع، شاكرة لله تعالى، الذي صدق وعده، وأعز جنده، وهزم الظالمين وحده.

في أول الأمر خفت أن نكون مخدوعين، كما خدع كثيرون أيام نكبة ٥ يونيو ١٩٦٧م، فقد كانت إذاعة القاهرة تذيع الأكاذيب على الناس، وتخدرهم بأخبار لا أساس لها: طائرات إسرائيلية تسقط بالعشرات، والحقيقة أن طائراتنا هي التي ضُربت في مدرجاتها، ولم تطر حتى تسقط، ولكن كانت الشواهد كلها تؤكد أن هذه حقيقة وليس حلما، وأنه واقع وليس من نسج الخيال.

ألا ما أحلى مذاق النصر، وخصوصا بعد تجرع مرارة الهزيمة المذلة من قبل! وللأسف طالت هزائم الأمة في معارك شتى، وذرفت الدموع كثيرا على هزائمها، حيث لم تغن الدموع، وآن لها أن تجد مناسبة تفرح بها بعد حزن، وأن تضحك بعد طول بكاء.

لقد عبر الجيش المصري القناة! صنع قناطر أو جسورا للعبور عليها، مكونة من أجزاء، تركب في الحال، ويوصل بعضها ببعض، فتكون جسرا فوق الماء تعبر فوقه

المصفحات والمجنزرات والدبابات إلى البر الآخر، وقد بدأ بالعمل فيها من سنوات، ثم بدأت تجربتها، والتدريب عليها منذ شهور، في تكتم وسرية بالغة، وهذا عمل مصري خالص، لم يشترك فيه خبراء أجانب، ولهذا حفظ السر، ولم يبح به أحد.

بعد عبور القناة بسلام وأمان ونجاح، اقتحمت القوات المصرية: ما عرف باسم خط بارليف، الذي أقامته إسرائيل، ليكون حاجزا ترابيا بعد الحاجز المائي، وكانت العدة قد أعدت لتخطيه بإحكام ومهارة.

وكان كل شيء، معدا بجدارة وأناة وحكمة، ولم يكن هناك شيء مرتجل، وقام كل سلاح بدوره: سلاح المهندسين، وسلاح الفرسان والمدرعات، وسلاح الطيران، كل قام بما هيئ له، وما كلف به.

وقد اختير التوقيت المناسب لبدء المعركة، وكان رمضان هو الوقت الملائم نفسيا وروحيا، لما يمد به الجنود من نفحات، وما يعطيهم من شحنة روحية، وكان أكتوبر مناسبا، من حيث المناخ، وليس فيه حرارة الصيف، ولا برد الشتاء.

وكان الوقت مناسبا من ناحية أخرى: إنه يوم الغفران، أو عيد الغفران عند اليهود، فلننتهز غفلتهم وانهماكهم في الاحتفال بالعيد، لنفاجئهم بضربتنا، كما فاجئونا بضربتهم في يونيو ١٩٦٧م.

ولا يقال: كيف نباغتهم ولا ننذرهم؟ فمثل هذه الحرب لا تحتاج إلى إنذار ولا إبلاغ، لأنها حرب دفاع للمحتل، وهي مستمرة معه لم تتوقف.

وأهم من هذا كله: الروح المعنوية التي كان يحملها المقاتل المصري: إنها روح الإيمان؛ الإيمان بالله تعالى، وأنه ينصر من نصره، والإيمان بأننا أصحاب الحق، والحق لا بد أن ينتصر، والباطل لا بد أن يزهق ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١). وقد عملت العودة إلى الله، التي تنادى بها الجميع، وشعروا بالحاجة إليها بعد حرب ١٩٦٧، عملت عملها في تجديد الإيمان، وتقوية الأرواح، فتجلت أوضح ما تكون في ميدان القتال.

وفرق كبير بين هذه الحرب وحرب يونيو ١٩٦٧، فقد كان العنصر الإيماني والروحي مغيبا عنها تماما، لذلك لم يحالفها النصر.

كانت كلمة السر في حرب ١٩٦٧ : بَرّ بحر جو، ولكن الواقع يقول: إنهم لم ينتصروا في بر ولا بحر ولا جو، ولم يكن الذنب ذنب الجيش وجنوده، ولكن ذنب القادة الذين جروهم إلى حرب لم يخططوا لها، ولم يهيئوا لها الجند، ولم يعدوا لها العدة، ولم يأخذوا لها الحذر، كما أمر الله.

لقد ترك الجنود أسلحتهم، وتركوا دباباتهم ومصفحاتهم، لم يحاولوا أن يشعلوا فيها النار بعد أن تركوها، حتى لا يغنمها العدو ويستفيد منها؛ لأن هم كل واحد منهم كان هو النجاة بنفسه، واللياذ بالفرار.

لقد اعتمدوا على الآلات، فلم تغن عنهم الآلات، واتكلوا على السلاح فلم ينجدهم السلاح، لأن السلاح لا يقاتل بنفسه، إنما يقاتل بيد حامله، ويد حامله إنما يحركها إيمان بهدف، وإيمان برسالة، وهذا لم يُعَبَّأ به الجنود.

يقول أبو الطيب:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا
إذا لم يكن فوق الكرام كرام!

ويقول الطغرائي في لاميته:

وعادة السيف أن يُزْهَى بجوهره
وليس يعمل إلا في يدَيْ بطل!

ماذا تجدي خيل بغير خيال، وفرس بغير فارس، وسيف صارم بغير بطل يضرب به؟!

فلا عجب أن كانت الهزيمة الثقيلة المذلة في ١٩٦٧، فهذه نتيجة منطقية لمقدمتها، كما قال العرب: إنك لا تجني من الشوك العنب، وصدق الله إذ

يقـــول : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْـرُجُ نَبَـاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَـبُثَ لا يَخْـرُجُ إِلاَّ نَكِداً ﴾ (الأعراف: ٥٨).

سئل الرئيس حسني مبارك، عندما كان نائبا للرئيس السادات في ٢٧/ ٩/ ١٩٧٥م، سأله بعض الصحفيين: ماذا أخذنا من دروس ١٩٦٧ في الإعداد لقتال ٦ أكتوبر؟ قال: باختصار.. في ١٩٦٧.. لا تخطيط.. لا إعداد.. لاتدريب.. لا تنسيق بين العمل السياسي، والعسكري. اهـ.

وأهم من ذلك: أننا لم نزود جنودنا بالإيمان، في حين تجتهد إسرائيل أن تزود جيشها بتعاليم التوراة، وتوجيهات التلمود، ونصائح الحاخامات. حتى العلمانيون من الإسرائيليين يحرصون على ذلك.

وكان من ثمرات محنة ١٩٦٧ : أنها أيقظت في الناس المعنى الديني، والضمير الديني، والرجعة إلى الله، وبدأت حركة إيمانية قوية في القوات المسلحة، وكان الحرص على إقامة الصلاة، وقام وعاظ الأزهر بدورهم في التنبيه والإحياء، وكان هناك شعور عام بالحاجة إلى الله، والدعاء بنصر الله، فلا غرو أن كان شعار المعركة «الله أكبر».

إن الجندي المصري في ١٩٧٣ هو نفسه في ١٩٦٧ من حيث الشكل والمظهر، ولكنه غيره من حيث الباطن والجوهر، إن الإنسان إنما يقاد من داخله، لا من خارجه، ولا يقود الناس في بلادنا شيء مثل الإيمان، ولا يحركهم محرك مثل الإيمان.

وهذا ما لم تفهمه قيادة ١٩٦٧، فقد عزفوا على منظومة القومية، ومنظومة الاشتراكية، ومنظومة الثورية، فلم تحرك ساكنا، أو تنبه غافلا في الجندي المصري، أو الجندي العربي عموما.

ولكنك إذا حركته بـ «لا إله إلا الله والله اكبر» إذا رفعت أمامه المصحف، إذا قلت: يا ريح الجنة هبي، إذا ذكرته بالله ورسوله، وذكرته بالأبطال العظام: خالد

وأبي عبيدة وسعد وطارق وصلاح الدين وقطز وعبد القادر الجزائري، وعمر المختار، فقد خاطبت جوانيته، ودخلت في أعماقه، وأوقدت جذوته، وحركت حوافزه، وبعثت عزيمته، وهنا لا يقف أمامه شيء، إنه يصنع البطولات، ويتخطى المستحيلات، لأنه باسم الله يتحرك، وباسم الله يمضي، وعلى الله يتوكل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: ٣). ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٠١).

ولأن إيماننا لم يكن كاملا، كان نصرنا غير كامل أيضا، فعلى قدر الإيمان يكون النصر. ولهذا ابتلينا بقضية «الثغرة» والتفاف العدو علينا، وهو ما كلفنا الكثير من الجهد، وأفقدنا الكثير من ثمرات النصر.

مؤتمر الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد في بيروت:

في هذه السنة الدراسية (١٩٧٣ ـ ١٩٧٤م):

دعت الجامعة اللبنانية في بيروت إلى مؤتمر كبير، يدور حول موضوع أساسي ومهم هو: «الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد». وكان يشتمل على عدة محاور علمية وأدبية ودينية وفلسفية واقتصادية واجتماعية، ودعت للمشاركة فيه عددا من كبار الباحثين والمفكرين، وممثلين عن الجامعات العربية في الوطن العربي.

وكانت كلية التربية في قطر ممن دعي إلى هذا المؤتمر، وكنت قد قرأت الدعوة، ووجدت من عناصر البحث: الفقه الإسلامي، فأعددت بحثا عن «الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد».

وكانت الكلية قد رشحت لهذا المؤتمر الزميل الكريم والصديق العزيز الدكتور ماهر حسن فهمي رئيس قسم اللغة العربية، وأستاذ الأدب العربي، وقد أعد هو الآخر بحثا حول تخصصه في «الأدب العربي»، وكان الدكتور ماهر من خيرة من

عرفت من أساتذة الأدب العربي، وسعدت بزمالته زمنا طويلا في رحاب جامعة قطر، حتى أحيل على التقاعد، ثم توفي في حادث سيارة رحمه الله.

وقد فوجئ الدكتور كاظم عميد الكلية بأني أعددت بحثا للمؤتمر، وكأنه أحرج بأنه لم يرشحني، فقلت له: لا عليك، فإني أستطيع أن أذهب على حسابي، قال: بل تذهب على حساب الجامعة، ويذهب د. ماهر على حساب الدولة.

وسافرت أنا والدكتور ماهر، وحضرنا المؤتمر الذي استمر عدة أيام، وكان مؤتمرا حافلا بالشخصيات العلمية والفكرية، وبالبحوث الأصيلة والمجددة، وبالحوارات الحية.

هل حضارتنا عربية أو إسلامية؟

وكان أول ما نوقش في المؤتمر هو: عنوان المؤتمر ذاته، وهل حضارتنا عربية أم إسلامية؟ ودار نقاش طويل يحتد حينا، ويخف حينا حول هوية الحضارة.

وكان الرأي الذي تبنيته وأعلنته: أن حضارتنا عربية وإسلامية معا، فهي عربية بحكم أن آثارها مكتوبة باللغة العربية، وأن أهم عنصر في تأسيسها وإقامتها كان هو العنصر العربي، حتى إن مؤرخا مثل «غوستاف لوبون» المفكر الفرنسي المعروف، حين أرخ لهذه الحضارة آثر أن يسمي كتابه «حضارة العرب» مع أنه في الواقع والغالب يتحدث عن حضارة المسلمين.

وهي كذلك حضارة إسلامية، بحكم الدوافع والبواعث والفلسفة التي دفعت إلى إنشائها وإعلائها، فهي بواعث إسلامية لأهداف إسلامية، منبثقة عن تصور إسلامي ونظرة إسلامية للإنسان والعالم والدين والدنيا.

وهي إسلامية كذلك بحكم العناصر التي شاركت فيها، فلم يكن العرب وحدهم، هم الذين صنعوا هذه الحضارة، بل شاركهم فرس وأفغان وهنود وروم ومصريون وأتراك وأفارقة، ومن أجناس شتى.

وهي إسلامية أيضا بحكم الرقعة التي قامت فيها الحضارة، فقد وسعت العالم الإسلامي كله، بما فيه بلاد العرب والعجم، فنجد معالم الحضارة الإسلامية في

إيران وهراة وسمرقند، كما نجدها في الهند، كما نجدها في إستانبول، مثلما نجدها في دمشق وبغداد والقاهرة وبلاد المغرب.

وكان المحور الثاني الذي أخذ حظا من النقاش، هو: الأصالة والتجديد، وما المراد بهما؟ ولم يكن مصطلح «الأصالة والمعاصرة» قد شاع في ذلك الوقت، كما عرف بعد ذلك.

وكان الاتجاه العام للمؤتمر أن الأصالة والتجديد لا يتقابلان، حتى نقول: بين الأصالة والتجديد، فكأننا مخيرون بينهما، مع أن كلا منهما مطلوب، فنحن نريد تجديدا في ظل الأصالة.

والواقع أننا بقينا تلك الأيام في جو علمي وفكري حي، وكانت أياما خصبة ومثمرة، وقد ألقيت فيها بحثي عن الفقه بين الأصالة والتجديد، وبينت أوجه التجديد الذي ينبغي أن تدخل في الفقه من ناحية الشكل، ومن ناحية الموضوع، وقد نشرت البحث بعد ذلك في رسالة خاصة تحمل هذا العنوان نفسه.

ثم عدنا إلى الدوحة، وإن كنت لم أحصل من الجامعة على ثمن التذكرة، كما وعد. د. كاظم، ولكن ما كسبته من المؤتمر كان أغلى وأعظم من ذلك.

وفاة الأستاذ الهضيبي:

وفي موسم الحج، (سنة ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م) خرج الأستاذ الهضيبي لأداء شعيرة الحج إلى بيت الله الحرام، لينضم إلى الآتين من كل فج عميق ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ (الحج: ٢٨).

وكان من المنافع المشهودة في ذلك الموسم: أن لقيه الإخوان الذين قدموا من أقطار شتى من أنحاء العالم.

ولم يقدر لي أن أذهب إلى الحج في هذا الموسم، إذ لم يكن لديّ علم بأن

الأستاذ على نية السفر إلى الحج، وهكذا قدر الله أن لا أرى المرشد في الحج، ولا ما بعد الحج، حتى وافاه الأجل في ١٤ من شوال سنة ١٣٩٣هـ- الموافق ١١ من نوفمبر سنة ١٩٧٣م.

كلمة عن الأستاذ الهضيبي:

تحدثت عن الأستاذ حسن الهضيبي في الجزء الثاني، بمناسبة اختياره مرشدا عاما للإخوان، بعد وفاة مرشدهم الأول حسن البنا.

وكانت شخصية الأستاذ الهضيبي مختلفة تمام الاختلاف عن شخصية الأستاذ البنا، التي تتلمذ عليها الإخوان، وعايشوها، وأخذوا عنها، طوال عشرين عاما، التي عاشها الإمام الشهيد مرشدا ومربيا وموجها للجماعة.

كانت شخصية البنا: شخصية المعلم الداعية، الذي يجيد الخطبة إذا خطب، والمحاضرة إذا حاضر، والمقالة إذا كتب، والتأليف إذا ألف، والحديث إذا حدث. وكان يأسر سامعه بحسن حديثه، وحلو نكاته. وهو الذي شد هذه الجموع إلى الله، وجندهم لخدمة الإسلام.

وكانت شخصية الهضيبي: شخصية القاضي، الذي يستمع كثيرا، ويتكلم قليلا، فإذا تكلم كان كلامه حكما صارما، يجب على الآخرين الإذعان له، وتنفيذه بكل دقة، ولم تكن لديه مؤهلات الخطابة والمحاضرة والتصنيف.

كان البنا ذا ثقافة واسعة، تكونت لديه من الدراسة في دار العلوم، ومن قراءاته الخاصة الطويلة والمتنوعة، فهو عالم متبحر في علوم اللغة العربية وآدابها، وفي العلوم الشرعية: العقيدة والفقه والأصول والتفسير والحديث والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، وله إلمام جيد بالعلوم الاجتماعية.

وكان الأستاذ الهضيبي: حقوقيا متميزا، متفوقا في علم القانون وفروعه، وما يتصل به من معارف، قارئا جيدا في علم الفقه، ولا سيما في «المحلى» لابن حزم.

كان حسن البنا رجلا «شعبيا» قريبا من الناس، يلقاه العامل والفلاح وابن القرية الفقير، فلا يشعر بأنه يكلم إنسانا من طبقة فوق طبقته، بل يندمج معه، ويحس بأنه من البنا، وأن البنا منه.

وكان حسن الهضيبي - بحكم منصبه ودرجته الإدارية والمالية ورتبة «البكوية» التي يحملها - رجلا «أرستقراطيا» كما يقولون، لا تكلفا منه، ولا تعاليا على أحد، ولكن هكذا شاءت له الأقدار أن يكون!

كان البنا صاحب قلب حي، وعاطفة جياشة، وكان إذا لقي الإخوان كل أسبوع في «حديث الثلاثاء» يبدأ حديثه بما يسميه «عاطفة الثلاثاء» يوقد فيها جذوة الإيمان والربانية في الصدور، وشعلة الحب والأخوة في القلوب. فإن الحب في الله من أوثق عرا الإيمان.

وكان الهضيبي صاحب عقل يقظ، يزن الأمور والأشخاص والأحداث والمواقف بميزان دقيق، ولم يكن للعواطف عنده كبير اهتمام بحكم تكوينه ومسار حياته.

كان أقرب الناس إلى حسن البنا في الجماعة: مكوّنين من طبقات شتى، من علية القوم، ومن أواسط القوم، ومن فقراء القوم، كما يظهر في تكوين مكتب الإرشاد العام الذي يقود الجماعة.

وكان أقرب الناس إلى حسن الهضيبي: من كانوا في مثل طبقته، من العلْية غالبا، وإن لم يبعد الآخرين أو يطردهم، ولكن كما قيل: شبيه الشيء ينجذب إليه، وإن الطيور على أشكالها تقع. هذه سنة ماضية.

واختلاف ما بين الشخصيتين للمرشدين: الأول والثاني: كان له أثر - على المدى الطويل - في أنفس بعض الإخوان. وربما كون بعضهم لنفسه فكرة غير صحيحة عن المرشد الثاني، وأنه رجل متكبر أو متعال على غيره. ولم يكن هذا صحيحا عند من اقترب من الرجل، وعرفه عن كثب.

كان للأستاذ الهضيبي كلمات مأثورة في بعض المواقف، تُعَدّ من روائع الحكم،

حفظها الإخوان ورددوها مثل قوله: أخرجوا الإنجليز من قلوبكم يخرجوا من أرضكم!

وقوله: أقيموا دولة الإسلام في صدوركم تقم على أرضكم!

وكان له نظرات صائبة في الأحداث والمواقف. فعندما كان الإخوان يتحدثون عن المحنة التي أصابتهم في عهد الملكية، يقول لهم: لا تكثروا من الحديث عن محنة الماضي، فإنكم لا تدرون ما يخبئه المستقبل!

ومن المواقف التي تذكر له: أنه حين قُدِّم إبراهيم عبد الهادي عدو الإخوان، ليحاكم - في عهد الثورة - محاكمة عسكرية، عارض الهضيبي ذلك، وقال: يجب أن يحاكم أمام محكمة مدنية، وتوفر له كل وسائل الدفاع عن نفسه.

وهو هنا متمسك بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

كما أنه يريد أن يتقرر هذا المبدأ، وهو أن يحاكم كل متهم أمام قاضيه الطبيعي. أما المحاكمات الاستثنائية فلا ضمان لها.

وأنا لم أختلط بالأستاذ الهضيبي كثيرا، فقد كنت طالبا في كلية أصول الدين وفي تخصص التدريس، أيام ولايته، ولكني لقيته عدة مرات من قريب، ووجدته رجلا سهلا سمحا، قريبا، على غير ما يظن به.

أول ما لقيته كان في مدينة المحلة الكبرى، وقد أقام الإخوان له حفلا كبيرا، كنت من المتحدثين فيه، وكنت شابا متحمسا، فكانت كلمتي معبرة عني، وعن شخصيتي في ذلك الوقت.

وعندما تحدث هو بعد خطباء الحفل قال: أنا لا أحسن الخطب الحماسية مثل الشيخ القرضاوي، ولكني أنصحكم بكذا وكذا أو بكذا. فكانت كلماته أشبه بتعليمات محددة.

ودعاه رجل المحلة الأول - رجل البر والخير - عبد الحي باشا خليل في بيته، فذهبنا معه، وكان موضع التجلة والاحترام من هؤلاء الأعيان.

وكذلك ذهبنا معه في اليوم التالي لزيارة مصنع المحلة للغزل والنسيج، فكان الجميع يحترمونه ويقدرونه.

وزارنا في المحلة مرة أخرى، ومعه سيد قطب، وعبد الحكيم عابدين، فتعرفت به أكثر.

وذهبت معه مرتين قبل الثورة إلى مدينتين من مدن مصر: مرة في مدينة كفر الشيخ، ومرة في مدينة السويس. وكان معه في كلتا الزيارتين: الشيخ أحمد حسن الباقوري، فقد كان قريبا منه. وكان الإخوة في قسم نشر الدعوة يريدون أن أحضر مع المرشد والباقوري لأكملهما، فكلاهما يحدث الخاصة، ولا يخاطب الجماهير. وكأن الأستاذ المرشد استراح إلى ذلك، فكان يرحب بوجودي.

وفي عودتنا من رحلة السويس، كنت رفيقهما في السيارة التي حملتهما، وهنا اقتربت أكثر من الأستاذ الهضيبي، واستمعت إلى بعض نكاته، ومنها نكات يعدها بعض الناس خارجة! ويبدو أن الأستاذ الهضيبي - من خلال هاتين المرتين - كون عني فكرة حسنة.

ففي أوائل الثورة في شهر أغسطس: أبلغت بأن الأستاذ المرشد يريدني أن أذهب لزيارة الإخوة في سورية والأردن، أنا والأخ محمد علي سليم من إخوان الشرقية. وقد تحدثت عن تفاصيل هذه الرحلة في الجزء الأول من هذه المذكرات. وبعد عودتي كتبت له تقريرا عن الرحلة، ولما لقيته في مناسبة بعدها، قال لي: لقد قرأت تقريرك عن رحلتك إلى بلاد الشام، واهتممت به، وخصوصا ما كتبته عن «حزب التحرير».

وعندما أنشأ عبد الناصر «هيئة التحرير» لتكون سنده الشعبي، بدلا من الإخوان، وبدأت تحدث تحديات وصدامات في بعض البلدان، أرسلني الأستاذ

المرشد لأجوب مدن الصعيد كلها من الفيوم إلى أسوان، لألقى الإخوان، وأحثهم على أن يتمسكوا بدعوتهم، ولا يذوبوا في أي جماعة أخرى، كما لا يصطدمون بأحد يريد أن يجرهم إلى الصدام بوسيلة وأخرى.

وفعلا قمت بهذه الرحلة، وكانت من أخصب الرحلات، وأكثرها بركة.

وعندما اعتقلنا في المرة الأولى في عهد الثورة في يناير ١٩٥٤م، وأخذنا إلى العامرية، ثم نقلونا ـ أنا وخمسة من الإخوان ـ إلى السجن الحربي: أنزلونا في سجن رقم ٤، وكان فيه الأستاذ الهضيبي وكبار الإخوان، وكانوا يغلقون الزنازين في أول الأمر علينا، ثم فتحوها لنا. فكنا نصلي جماعة. وهنا أمرني الأستاذ أن أؤم الإخوان، وقد أطلت في بعض الصلوات الجهرية، فنصحني ألاّ أطيل، مراعاة للكبير والمريض وذي الحاجة.

ثم نقل الأستاذ وكبار الإخوان إلى عنبر الإدارة، وكان هذا آخر عهدي به، حتى إني لم أحضر اللقاء الكبير الذي أقيم في المركز العام يوم خروج الإخوان من السجن الحربي، بعد أن اصطلحوا مع عبد الناصر، فقد كنت المعتقل الوحيد الذي تأخر الإفراج عنه يوما واحدا، كما حكيت في الجزء الثاني من هذه المذكرات.

حتى إني حين اعتقلت في المرة الثانية بعد حادث المنشية: بقيت فترة في حجز مباحث المحلة الكبرى، التي تولت التحقيق معي فلم أصل إلى السجن الحربي إلا يوم خروج الأستاذ الهضيبي منه بعد أن صدر الحكم عليه وعلى ستة معه بالإعدام!

وقد تحدثت في الجزء الماضي عن الخلاف الذي حدث بين الأستاذ الهضيبي وجماعة من الإخوان القدامى، على رأسهم الأستاذ البهي الخولي، والمشايخ: الغزالي وعبد المعز عبد الستار وسيد سابق ومحمد جودة وآخرون. وأني كنت ـ أنا وأخي العسال والدمرداش وآخرون ـ أقرب إلى صف المشايخ، لاعتبارات ذكرتها هناك. فلما وقعت الواقعة، انضممنا إلى ركب الجماعة، وحوكمنا مع من

حوكموا، وعذبنا مع من عذبوا، ونرجو أن يكون ذلك في ذات الله تعالى، وألاّ نحرم أجره عند الله.

لا يختلف اثنان من الإخوان - حتى من المعارضين - في أن الأستاذ الهضيبي مسلم عظيم، وأنه من الذين أخلصوا دينهم لله، فليس من المتاجرين بالدين ولا بالدعوة، ولا يريد من وراء عمله للإسلام جزاء ولا شكورا، وأنه رجل نظيف لا يماري أحد في نظافته، وأنه لم يسع إلى قيادة الإخوان، ولكن الإخوان هم الذين سعوا إليه، وأنه لم يستفد لنفسه ولا لأسرته من وراء الدعوة شيئا ماديا قط، إلا ما أصابه من لأواء في سبيل الله، وأنه رجل صلب لا يداهن في دينه، ولا يجامل أحدا في أمر الدين، وهو يقول الحق ولا يخشى فيه لومة لائم، وأنه أوذي في الله - مع كبر سنه - فما وهن ولا ضعف ولا استكان، ولا طأطأ رأسه لمخلوق، وأنه كان يعامل عبد الناصر ورجال الثورة بعزة واستعلاء، معاملة الند للند، والسيد للسيد، اعتزازا منه بأنه يمثل دعوة الإسلام.

ولعل هذه النقطة الأخيرة هي التي جعلت بعض الإخوان يقولون: إن موقف الأستاذ الهضيبي من رجال الثورة عامة، ومن عبد الناصر خاصة، ومعاملتهم باستعلاء وربما بازدراء! هي التي ولّدت هذه الجفوة بين الطرفين، التي انتهت إلى خصومة، ثم انتهت إلى صراع بين الطرفين. ويقولون: لو كان حسن البنا في موقف حسن الهضيبي لكان له موقف آخر، ولاستطاع برفقه وتلطفه ولين طبعه: أن يجذبهم إلى ساحته، وأن يأخذهم بالتي هي أحسن، وأن يهتدي بقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

ولكنه نفر منهم ونفروا منه، وأغلظ عليهم وأغلظوا له، وساء ظنه بهم، فساءت ظنونهم بالجماعة.

هكذا رأيت بعض الإخوان يفكرون، وسمعتهم يتكلمون، فهل هذا المنطق مسلّم؟ وأن موقف الأستاذ الهضيبي هو السبب الأول فيما جرى؟! ومن يدري ماذا

كان سيفعل حسن البنا لو كان حيا؟ فهذا علمه عند الله، ولا يملك أحد أن يقوّل غيره في ذلك ما لم يقل.

على أن الذي يبدو لي من تسلسل الأحداث، ومما أظهره عبد الناصر من أفكار وتوجهات: أن الرجل لم يكن يريد لأحد - لا الإخوان ولا غيرهم - أن يشاركه في الحكم، ولو بالمشورة والتسديد. وقد أعلن في الأيام الأولى للثورة: أنها مستقلة ولا وصاية لأحد عليها. . وقال بصراحة للإخوان: إنه يريد أن يضغط على زر فتتحرك مصر من الإسكندرية إلى أسوان، ويضغط على زر آخر، فتتوقف مصر من الإسكندرية إلى أسوان!

كان في إهاب عبد الناصر «دكتاتور» يريد أن يستبد بالأمر، ولا يكون لأحد معه رأي ولا قول، إلا ما كان يسير في ركبه، ويدور في فلكه. ومثل هذا المستبد المتجبر في الأرض: لا يمكن أن ينسجم مع أي رجل ينصح له، أو يقول له كلمة حق، أو يأمره بمعروف، أو ينهاه عن منكر، سواء كان حسن البنا أم حسن الهضيبي.

بين الهضيبي والغزالي:

وربما تساءل بعض الإخوة هنا عن موقف الشيخ الغزالي وما كان من خصومة بينه وبين الأستاذ الهضيبي، اشتد لهيبها بعد فصل الشيخ من الجماعة، فأطلق لقلمه العنان، فقال ما قال.

وكان ذلك من آثار الفتنة التي بذر عبد الناصر بذورها بين الإخوان بعضهم وبعض. ومما هيج الشيخ أكثر، واستثار غضبه: أن بعض المتحمسين من الإخوان تحداه، وهدده بالقتل إن تكلم أو كتب.

ومع هذا، حين تبين له طغيان عبد الناصر، وسوء موقفه من الإسلام، ومن دعوة الإخوان، وسمع ما سمع عن التنكيل والتعذيب الذي تجرع مرارته إخوانه في السجون والمعتقلات، وعن صلابة الأستاذ الهضيبي وثباته في وجه الجبابرة، وأنه لم يحن لهم رأسا، ولم يوطئ لهم ظهرا: غير موقفه من المرشد الهضيبي ونوه

بموقفه، وأشاد بإيمانه ورجولته. وحين أفرج عنه، سارع بالذهاب إلى منزله، ليهنئه ويصافحه ويعانقه بحرارة وإخلاص، وقد قابله المرشد بنفس الحرارة، وروح الأخوة، التي كانت دائما إحدى السمات الأولى المميزة لعلاقات الإخوان بعضهم ببعض.

بعد أن كتب الغزالي ما كتب من مقالات ـ في فترة الغضب بعد فصله من الجماعة ـ رأى أن يطوي بعضها فلا ينشره في كتاب، ونشر بعضها ثم حذفه، بعد أن هدأت نفسه، واستجابت لنصح بعض إخوانه.

وأبقى بعض الأشياء ـ على ما فيها من آثار الحدة والغضب ـ للتاريخ، ومع هذا عقب في إحدى الحواشي عليها بقوله:

«في هذه الصفحات مرارة تبلغ حد القسوة، وكان يجب ألا يتأدى الغضب بصاحبه إلى هذا المدى، بيد أن ذلك ـ للأسف ـ ما حدث. وقد عاد المؤلف إلى نفسه يحاسبها وتحاسبه في حديث أثبته آخر هذا الباب»(١).

ثم عاد آخر الباب إلى الحديث عن الأستاذ الهضيبي ـ رحمه الله وأكرم مثواه ـ فقال:

«إنه ما ادعى لنفسه العصمة، بل من حق الرجل أن أقول عنه: إنه لم يسع إلى قيادة الإخوان، ولكن الإخوان هم الذين سعوا إليه، وإن من الظلم تحميله أخطاء هيئة كبيرة مليئة بشتى النزعات والأهواء.

ومن حقه أن يعرف الناس عنه: أنه تحمل بصلابة وبأس كل ما نزل به، فلم يجزع ولم يتراجع، وبقي في شيخوخته المثقلة عميق الإيمان، واسع الأمل، حتى خرج من السجن.

الحق يقال... إن صبره الذي أعز الإيمان، رفعه في نفسي، وإن المآسي التي نزلت به وبأسرته لم تفقده صدق الحكم على الأمور، ولم تبعده عن منهج الجماعة

---

(١) حاشية ص ٢١٦ من معالم الحق.

الإسلامية منذ بدأ تاريخها. . . على حين خرج من السجن أناس لم تبق المصائب لهم عقلا.

وقد ذهبت إليه بعد ذهاب محنته، وأصلحت ما بيني وبينه، ويغفر الله لنا أجمعين»أ. هـ.

وكان مما هز الشيخ الغزالي وقدره من مواقف للأستاذ الهضيبي: أنه أوصى في مرض موته أن يدفن في مقابر الصدقة، التي يدفن فيها الفقراء والغرباء! وهو من هو منزلة ومنصبا وجاها. فهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الرجل من الله بمكان أي مكان! ولم يكن من عبّاد المظاهر، التي فتنت الكثيرين، ولا أزكيه على الله.

رحم الله حسن الهضيبي وغفر له، وتقبله فى الصالحين من عباده، وأجره أجر المجتهدين على ما أخطأ فيه، وجزاه عن دينه وأمته خير ما يجزي الدعاة الصادقين، الذين صبروا وصابروا ورابطوا، والذين أوذوا في أنفسهم وأهليهم وإخوانهم، ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦ـ١٤٨).

الحج سنة ١٣٩٣هـ (١٩٧٣ـ١٩٧٤م):

وفي سنة ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م) جاءتني دعوة من لجنة التوعية بالحج، وكانت قد تكونت عن طريق الرئاسة العامة للإفتاء والبحوث والدعوة والإرشاد.

وقد استجبت للدعوة، وكنت لم أحج من سنة ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م) وكان الوقت مناسبا بالنسبة للجو، فقد كان في فصل الشتاء، وهو مما يغري الناس بالإقبال على الحج، لأن جو مكة دائما أقرب إلى الحر.

وقد كان معي وفد إعلامي مسافر من قطر، يمثل الإذاعة والتليفزيون. وكنا نسافر على ثلاث مراحل: من الدوحة إلى الظهران، وفيها نتمم إجراءات

الجـوازات، وندخل المملكة، ومن الظهـران إلى الرياض، ثم من الريـاض إلى جـدة. فكـانـت الرحلـة إلى جدة تستغـرق حوالي يـوم كـامل. وخصـوصـا أننا ننتقـل في الظهـران من مطار إلى آخـر، أي من الطيـران الخـارجي أو الدولي إلى الطيران الداخلي، وهذا يقتضي أن نتسلم حقائبنا ونحملها إلى المطار الآخر.

مشكلة في مطار الظهران:

وفي مطار الظهـران: حـدثت مشكلة، فبـعض الإخوة من وفد قطر الإعـلامي كـانوا فلسطينيين يحـملون «وثائق سـفـر» قطرية، فـتوقـفـوا معـهـم: وقـالوا: نريد جوازاتكم الأصلية، وقالوا لهم: ليس معنا جواز أصلي. قالوا: أنتم فلسطينيون، فلا بد أن معكم جوازا آخر.. وقال الإخوة: لا بد أن نتصل بالدوحة، ونبحث عن حل للمشكلة مع القوم.

وجـاء الـدور عليّ، فنظر المسـؤول عن الجـوازات في الجـواز الذي مـعي، وهو جواز قطري، وقال: أين جوازك الأصلي؟

قلت له: هذا جوازي الأصلي!

قال: ألست أنت الشيخ يوسف القرضاوي الذي نشاهده في التلفيزيون ونترقب برنامجه بشغف؟

قلت: بلى، أنا هو.

قال: ألست مصريا؟

قلت: أنا الآن قطري.

قال: ولكنك مصري، ونريد جوازك الأصلي.

قلـت: يا أخي، لقـد اخـتلط عليك الأمـر، الإخـوة الذين أوقـفـتـهـم من الفلسـطينيين يحـملون «وثائق سـفـر» صـالحـة لسفـرة واحدة أو لـمدة سنة. أمـا أنـا فأحـمـل «جواز سفر» كاملا. فلأكن مصريا أو أستراليا أو من أي جنس كان. أنت تتعـامل مع الأوراق. أمامك ورقة رسـمية صادرة من قطر، ومن صاحب العظمة

حاكم قطر. ودعك من أنك تعرفني أحمل جنسية أخرى من قبل. وهذا جواز زرت به بلاد العالم كلها، ولم يوقفني أحد كما أوقفتني أنت، لأنك تعرفني وتشاهدني في التليفزيون!

قال: وهل دخلت به المملكة من قبل؟

توقفت قليلا، ثم تذكرت، وقلت: نعم، دخلت به المملكة من قبل، ومن هذا المطار نفسه! وفعلا نظروا في الجواز فوجدوا فيه ختم دخول المملكة من الظهران.
وقال الرجل: أنا آسف. أنا والله من المعجبين بك، والمتابعين لبرنامجك.

قلت له: متابعتك هذه ضرتني ولم تنفعني، وكادت تعطلني بلا مبرر، ولو كنت شخصا عاديا لمر بسلام.

وكانت الطائرة قد كادت تطير، وتدعني، ولكن الله سلم، وأدركتها في آخر لحظة، وانتقلت إلى الرياض، لننزل فيها فترة من الزمن، لنذهب منها إلى جدة، ومنها إلى بلد الله الحرام: مكة المكرمة، لأداء العمرة، ثم التحلل منها متمتعا بالعمرة إلى الحج.

وقد انضممت إلى العلماء الذين دعوا إلى ما دعيت إليه، وكان منهم بعض إخواننا وأصدقائنا الذين نعرفهم من قديم، مثل: الشيخ محمد الراوي وقد قدم من الرياض، والشيخ محمد السيد الوكيل وقد قدم من المدينة، وبعض الإخوة من مشايخ السعودية وغيرهم. وكنا نقوم بإلقاء محاضرات، لتوعية الحجيج، في خيم كبيرة تعد لذلك، وخصوصا في أيام منى.

مناقشات بيني وبين المشايخ:

وكان بيني وبين الإخوة من مشايخ السعودية جدل لا ينقطع حول بعض مسائل الحج، فأنا من دعاة التيسير عموما، وفي مسائل الحج خصوصا، ولا سيما في هذه السنين التي يشتد فيها الزحام في موسم الحج، حتى ليبلغ الحجاج مليونين أو أكثر

في بعض السنين. وهذا يقتضي منا التيسير على عباد الله، ورفع الحرج عنهم. فما جعل الله في هذا الدين من حرج، وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع عن أمور كثيرة مما يتصل بالحج، فما سئل عن أمر قدم ولا أخر، إلا قال: افعل، ولا حرج.

وهذا الزحام الهائل هو الذي حفز الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله: أن يتنازل هو ومن حوله عن الحج في أحد الأعوام، مخالفا سنة من سبقوه، ليؤثر الحجاج الوافدين، وليكون قدوة لغيره من أهل المملكة.

وكان من أهم النقاط التي احتد فيها الجدل: مسألة الرمي قبل الزوال، وأنا أفتي بمشروعيته، وقد أفتى بذلك من فقهاء التابعين عطاء وطاووس، كما أفتى بذلك أبو جعفر الباقر من أئمة آل البيت. وأفتى بذلك بعض علماء الشافعية المتأخرين. وأفتى به من المعاصرين الشيخ عبد الله بن زيد المحمود في قطر، والشيخ مصطفى الزرقا في سورية.

وهذا ما دفعني أخيرا إلى أن أخرج كتابا حول الحج بعنوان «مائة سؤال عن الحج والعمرة والأضحية» ضمنته ما أراه من رخص وتيسيرات في أمر الحج، مثل النفرة من عرفة قبل الغروب، كما هو مذهب الشافعية، والبقاء في مزدلفة بمقدار الصلاة والتقاط الحصى، ورمي جمرة العقبة من بعد منتصف ليلة العيد، وعدم المبيت بمنى لمن يشق عليه ذلك، ورمي الجمار قبل الزوال في الأيام كلها.

وهو ما أصبح كثيرون من العلماء يميلون إليه ويفتون به، ممن كانوا يعارضونه. وإنما ألجأهم إليه ما لمسوه من ضرورات الناس وحاجاتهم. والضرورات تبيح المحظورات، فكيف بأمور أجازها بعض الفقهاء في غير ضرورة ولا حاجة؟! ولكن مما يؤسف له: أن كتابي المذكور لم يفسح له، ليدخل السعودية، فهو من الممنوعات!

وفي حج هذا الموسم أذكر أني، وقد كنت ألقي محاضرة في بعض المخيمات في

مني، وبعد المحاضرة والإجابة عن الأسئلة بعدها: لقيني شاب مصري يتوقد ذكاء وحماسة، وقدم لي نفسه قائلا: أنا عصام العريان، طالب بكلية الطب جامعة القاهرة، وقد كنا نسمع بك، ولكن لم يقدر لجيلنا أن يراك، فنحن من الجيل الذي يسمونه «جيل الثورة» الذي لم ير العلماء والدعاة الذين اضطروا إلى أن يغادروا مصر، ولا يرجعوا إليها، ولكنا قرأنا بعض كتبكم مثل: «الحلال والحرام»، و«العبادة في الإسلام» و«الإيمان والحياة»، وغيرها.

وأذكر مما قال هذا الشاب المتوقد (الدكتور عصام العريان الداعية والقيادي الإخوانى المعروف بعد ذلك): لقد فوجئت حين رأيتك ملتحيا!

قلت له: وما الذي فاجأك؟

قال: لأنك سهلت في أمر اللحية فيما كتبته عنها في «الحلال والحرام» حيث لم تجعل إعفاءها واجبا، ولا حلقها حراما.

قلت: وهل قلت ذلك لأبرر لنفسي أن أحلق لحيتي؟ إن العالم يقرر ما يصل إليه اجتهاده بعد البحث والتحري، ويدين الله به، حتى وإن كان سلوكه ضده. فقد رأيت الشيخ محمود شلتوت رحمه الله يميل إلى تحريم التدخين، مع أنه كان يدخن، ولكن الحق أحق أن يتبع ويعلن، دون تحيز ولا محاباة.

نهاية السنة الدراسية ١٩٧٣ـ ١٩٧٤م:

انتهت السنة الدراسية ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤م، وامتحنا طلاب كلية التربية وفق الفلسفة التعليمية الجديدة، لا سرية ولا كنترول، ولا شيء من ذلك. فالامتحانات مستمرة طوال السنة في فصليها الدراسيين، هناك امتحانات شفهية، وامتحانات تحريرية، وتكليف ببحوث ينجزها الطلاب بأنفسهم، وإن كنت لاحظت أن بعض الطلاب يستعينون بآخرين يكتبون لهم البحوث من ألفها إلى يائها، وكثيرا ما يعرف هذا بسؤال الطالب في بعض ما كتب في بحثه، فإذا هو لا يعرف عنه شيئا، كمثل الحمار يحمل أسفارا!!

ومن الطرائف أن الدكتور إبراهيم كاظم عميد الكلية، كان يقول في اجتماعاته مع الأسباتذة: إن الامتحان لا يخصص له وقت معين، إنما يكون في المحاضرة الأخيرة، يقصد في وقت المحاضرة الأخيرة.

ولكن زميلي في قسم الدراسات الإسلامية الدكتور أحمد سكّر، فهم أن الامتحان في آخر محاضرة فقط، يعني: أن الطلبة لا يمتحنون ولا يسألون في كل ما أخذوه، طوال مدة الفصل الدراسي، ولكن في المحاضرة الأخيرة، وأبلغ الطلبة ذلك، ووضع الأسئلة على هذا الأساس، وأخذ جميع الطلبة عنده: درجة (أ) أي امتياز!!

وفي هذا العام حصلت ابنتاي «إلهام» و«سهام» على الشهادة الإعدادية، وتهيئتا لدخول المرحلة الثانوية، وانتقلت «علا» إلى السنة الثانية الإعدادية، أما أسماء فلا تزال في المرحلة الابتدائية، وأما محمد فقد نجح في السنة الأولى الابتدائية، وكانت ترتيبه الأول، وقد أدخلته مدرسة أبي بكر الصديق، بجوار المعهد الديني.

قضاء الإجازة الصيفية في مصر:

انتهت السنة الدراسية الأولى في كلية التربية، وأنهى أولادي امتحاناتهم بنجاح وتفوق، والحمد لله، وكان لا بد لنا أن نسافر لقضاء الإجازة.

كنا في الفترة الماضية نقضيها في بلاد الله ما بين لبنان والأردن وتركية، واليوم، وقد فتحت لنا الكنانة أبوابها، فليس لنا إلا أن نقضي إجازتنا بين الأهل والأقارب والأصحاب في مصر.

وكانت شقتنا في شبرا، قد ضاقت بنا، ولذا فكرنا في أن نستأجر في الصيف شقة مفروشة، تكون ملائمة لنا في سعتها وفي أثاثها، وفي مناخها. فاقترح بعض الإخوة علينا: أن نستأجر شقة في مدينة نصر، في عمارات عثمان الشهيرة،

قريبا من أخينا وصديقنا عبد العظيم الديب الذي يمتلك شقة هناك، وقد وفقنا لأخذ شقة مناسبة بالقرب منه .

وهذا ما شجعنا للبحث عن أرض نشتريها في مدينة نصر، لنبني عليها منزلا لنا، عندما ييسر الله ذلك، وهو ما سعينا إليه، وأنجزناه بحمد الله .

كما سافرت مع الأسرة إلى الإسكندرية لقضاء شهر هناك في نفس الشقة التي سكنا بها في الإجازة الماضية شارع إسكندر إبراهيم، وبعدها عدنا إلى القاهرة .

دخول التلفزيون المصري لأول مرة:

وفي صيف سنة ١٩٧٤م، دخلت مقر التلفزيون المصري في القاهرة لأول مرة، لأسجل مع الإعلامي الذائع الصيت، الأستاذ أحمد فراج ثلاث حلقات في برنامجه الشهير «نور على نور» الذي كان يستضيف فيه كبار علماء الأمة أول ما ظهر، مثل المشايخ: الشعراوي، وأبي زهرة، والخفيف، والمدني، وفرج السنهوري، وغيرهم. وقد اتصل بي الأستاذ فراج، وقال: إن كثيرين في مصر والوطن العربي، كتبوا إلينا يعتبون علينا، قائلين: لماذا لا نرى فلانا ضمن العلماء الذين يظهرون في هذا البرنامج؟ وتعلم أن المانع هنا كان مانعا سياسيا أو قل: أمنيّا. والحمد لله، الآن الجو هادئ ومناسب لظهورك دون أدنى حرج إن شاء الله .

وكانت الحلقات التي سجلتها عن «الزكاة» بمناسبة ظهور كتابي «فقه الزكاة» وانتشاره في الأوساط العلمية، واعتماده مرجعا لدى رجال الشريعة ورجال المالية والاقتصاد .

وكان صدى هذه الحلقات طيبا لدى جمهور الناس. وأذكر أن من الأجوبة التي حظيت بتعليق الناس في قضية الزكاة: ما يتعلق برواتب الموظفين، فإن لي في كتابي

اجتهادا خاصا بشأن الرواتب الكبيرة، كرواتب أهل الخليج وأهل أوربا وأمريكا ونحوها، فقد رجحت فيها: أن يدفع الموظف فيها زكاة ما بقي من راتبه بعد حوائجه الأصلية (المسكن والنفقة والكسوة والعلاج والتعليم ونحوها) إذا بلغ نصابا، يزكيه في الحال، ولا ينتظر حتى يحول عليه الحول، بناء على ما ذهب إليه بعض الصحابة (ابن مسعود وابن عباس ومعاوية) من وجوب زكاة المال المستفاد عند قبضه إذا بلغ نصابا، إذ لم يصح حديث في اشتراط الحول ـ إلا في المال الذي زكي من قبل فلا يزكى إلا بعد عام ـ وكان ابن مسعود يزكي العطاء (راتب الجنود) يسلم لهم نصيبهم، ويأخذ من كل ألف خمسة وعشرين (ربع العشر أو ٥ ,٢٪) من باب «الحجز في المنبع».

ولكني عندما سئلت عن الموظفين في مصر، قلت: إنهم ـ بصفة عامة ـ لا ينطبق عليهم هذا الأمر، فإن أكثرهم لا يكاد راتبه يكفي حاجاته الأساسية حتى نهاية الشهر. بل الحق يقال: إن كثيرا من الموظفين المصريين هم ممن يستحقون الزكاة لا ممن تجب عليهم الزكاة!!

وأذكر أني سجلت هذه الحلقات بنظارة قريبة إلى اللون الأسود، حتى نبهني صديقي وبلديي وقريبي العالم المحقق الشيخ سيد أحمد صقر (ابن صفط تراب) على هذه النقطة، وقال: إن الذي لا يعرفك، ويراك بهذه النظارة يحسب أنك كفيف البصر!! وأنصحك أن تخلع هذه النظارة وتغيرها في الحال. وكانت نصيحة في محلها، وعجبت كيف لم ينبهني أحد على ذلك، وقد استخدمتها عدة سنين. وفي الحال ذهبت إلى نظاراتي وغيرتها، مكتفيا بلون بني خفيف، أكثر قبولا، وبدت الأشياء في عيني أكثر حسنا مما كانت. وقد قال الشاعر المهجرى إيليا أبو ماضي: كن جميلا تر الوجود جميلا!

ولم يقدر لي أن أدخل التليفزيون المصري إلا بعد أكثر من عشر سنوات، حين سجلتْ معي الإعلامية المتألقة الفاضلة كريمان حمزة، ثلاث حلقات عن «الوسطية في الإسلام» أذيعت منها حلقتان، ومنعت الثالثة، وأخبرتني الأخت كريمان: أن

جهات الأمن هي التي منعت إذاعة الحلقة الثالثة، في حين أرسلت إليها رئاسة الجمهورية شكرا على هذه الحلقات!!

كما أخبرتني كريمان: أن دخول التلفزيون أمسى محرما عليّ وعلى مجموعة من الإسلاميين الملتزمين، ولم أجد إلا بيت شوقي أردده:

أحــــــــرام على بلابله الدوح،

حـــلال للطيــر من كل جنس؟!

أما الإذاعة المصرية، فلم يقدر لي دخولها إلا في شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٧هـ-نوفمبر ١٩٨٦ من خلال برنامج «شاهد على العصر» الذي كان يعده ويقدمه الإذاعي الكبير الأديب الشاعر، الأستاذ عمر بطيشة، وقد سجل معي لقاء طويلا حول الإسلام والصحوة والقضايا المعاصرة، استغرق حلقتين من برنامجه.

هذا بالإضافة إلى أحاديث كان يأخذها مني بعض المذيعين لإذاعة القرآن الكريم.

زيارة الشرق الأقصى

عدت إلى الدوحة قبل أن تنتهي الإجازة الصيفية تماما، إذ هي تنتهي في منتصف سبتمبر، فالظاهر أني تركت الأولاد في القاهرة ورجعت قبل أن تنتهي الإجازة الصيفية، وفي الشهر الثامن أغسطس سنة ١٩٧٤م قمت بأول زيارة لبلاد الشرق الأقصى: ماليزيا، وإندونيسيا، وسنغافورة، وهونج كونج، والفلبين، وكوريا الجنوبية، واليابان. وقد استغرقت هذه الرحلة حوالي ثلاثة أسابيع من (٢٣/٨ إلى ١٢/٩) من هذه السنة. كما هو مسجل في جواز سفري القطري الذي سافرت به. وهذه بلاد سأزورها لأول مرة، فما أشوقني إلى رؤيتها، ومعرفة أحوالها. وقديما قالوا: السفر نصف العلم!

كانت الزيارة بتكليف من الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، أمير البلاد حفظه الله، وكان ذلك بطلب من المسلمين في جنوبي الفلبين أن نزورهم، ونزور معاهدهم ومدارسهم ومؤسساتهم، فقام وفد من قطر مكون من فضيلة الشيخ عبد الله الأنصاري، ويوسف القرضاوي، والأستاذ سيد أبو يوسف موجه اللغة الإنجليزية مترجما لنا، أمر الشيخ خليفة لكل منا بخمسة آلاف ريال للإنفاق منها على الإقامة والمعيشة.

والحق أنها كانت رحلة نافعة وممتعة من وجوه عدة، فهذه أول مرة يتاح لي أن أزور تلك الديار، وفيها بلاد إسلامية مثل ماليزيا وإندونيسيا، وبلاد فيها أقلية إسلامية كبيرة وأصيلة مثل الفلبين، وبلاد فيها أقليات إسلامية حديثة مثل كوريا واليابان.

وقد قال الأقدمون: الرفيق قبل الطريق، وكان رفيقاي في هذه الرحلة الطويلة: الشيخ عبد الله الأنصاري والأستاذ سيد أبو يوسف، وهما نعم الرفيقان.

فلقد عرفت الشيخ الأنصاري من قبل، وازددت معرفة به في هذه الرحلة الطويلة، فقد قيل: إنما سمي السفر سفرا، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، ومن لم تستطع أن تعرفه وتسبر أغواره في الحضر، أمكنك أن تعرفه في السفر، والشيخ الأنصاري رحمه الله كان رجلا سمحا سهلا كريما رقيقا رفيقا، ييسر ولا يعسر، ويبشر ولا ينفر، ويجود ولا يبخل، ولا تصدر منه كلمة تجرح شعور صاحبه، ولا تصرف يؤذيه.

كذلك كان رفيقنا الأستاذ سيد أبو يوسف، فهو رجل حيي كريم مستقيم في قوله وفعله، نقي في ظاهرة وباطنه، ليس مهذارا ولا ثرثارا، ولكن يتكلم بحساب، ويتصرف بحكمة، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ (البقرة: ٢٦٩).

ومن نعمة الله على المرء في سفر كهذا: أن يرزق بمثل هذه الرفقة الطيبة.

المبيت في كراتشي:

كانت أول محطة نزلنا بها هي كراتشي، فقد بتنا بها، واستقبلنا هناك سفير قطر في باكستان: الأستاذ مبارك الكواري، وقد صحبنا إلى بعض المحلات لنشتري منها بعض التحف والهدايا، وفعلا اشترينا بعض الأشياء، ورآها معنا بعض الإخوة الباكستانيين، فقالوا: إنكم اشتريتموها بضعف ثمنها أو أكثر، ولو نزلتم «السوق» لوجدتموها رخيصة جدا، فتعلمنا ألاّ نمشي مع «السفراء» في قضية الشراء، لأنهم يشترون من المحلات «الفاخرة» والأولى أن نذهب مع أهل البلد، فأهل مكة أدرى بشعابها وأسواقها.

وتكفلت السفارة: أن تبعث الأشياء التي اشتريناها إلى الدوحة، فليس معقولا أن نحملها معنا طوال هذه الرحلة، وجلها أشياء خشبية ثقيلة.

ساعات في مطار بانكوك:

ومن كراتشي امتطينا طائرة أوصلتنا إلى مطار «بانكوك» عاصمة «تايلاند» وهو بعيد عن المدينة، ولذا لم نفكر في النزول إلى المدينة، برغم أننا ظللنا أكثر من أربع ساعات.

وظللنا نتجول في المطار، وكان مطارا متواضعا - ولم يكن بفخامة مطار بانكوك الحالي - ورأينا فيه بعض الهدايا التي يمكن أن تشترى، وقد اشتريت منها فصا من الأحجار الكريمة يسمى «عين القط» أهديته بعد العودة لزوجتي.

وصلينا الظهر والعصر في المطار قصرا وجمعا، ثم ركبنا الطائرة الماليزية، لتوصلنا إلى «كوالا لامبور» عاصمة ماليزيا.

في ماليزيا:

وجدنا «كوالالامبور» مدينة فخمة، فيها بنايات شاهقة، وشوارع نظيفة وواسعة، وأسواق على الطراز الأوربي، وبنوك وفنادق وغيرها من مظاهر الحضارة والمدنية، ولكن فهمنا من مرافقنا من الماليزيين: أن هذه العمارات والمتاجر الكبرى والمصارف والفنادق والمطاعم والأماكن السياحية وغيرها، أكثر من ثمانين في المائة منها يملكها الصينيون والهندوس. والعنصر الملاوي «المسلم» الذي هو أصل هذه البلاد وصاحبها لا يملك إلا أقل من عشرين في المائة.

كانت هذه البلاد تعرف قديما باسم بلاد «الملايو» والأصل في أهلها: أنهم مسلمون سنيون، على مذهب الإمام الشافعي، وكان لنا زملاء في الأزهر الشريف من الملايو، وهذه البلاد لم يدخلها جيش مسلم، ولا وصلتها الفتوحات الإسلامية المعروفة تاريخيا، وإنما دخلها الإسلام عن طريق التجار الذين جاءوا من اليمن، وخصوصا من حضرموت والجنوب، يبيعون ما لديهم من بضائع، ويشترون ما عند القوم من سلع تتميز بها بلادهم، وكان هؤلاء التجار أمثلة حسنة لأخلاق الإسلام، وأدب المسلم، في تعامله مع الله، وتعامله

مع الناس، فرأى الناس فيهم الطهارة والنظافة والخشوع لله، والمسارعة إلى الصلوات في أوقاتها، مع الالتزام بالصدق في القول، والإحسان في العمل، وحب الخير للناس، والرحمة بالضعفاء، وبذل المعروف، وإغاثة الملهوف، والعدل مع من تحب ومن تكره، وتقديم العون لمن يحتاج إليه من خلق الله، مسلما أو غير مسلم، لا يريد مكافأة ولا محمدة من أحد ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا﴾ (الإنسان: ٩). رآهم الناس كذلك، فأحبوهم، وسألوهم: من أنتم؟ ومن علمكم هذه الفضائل؟ فقالوا: نحن مسلمون، علمنا الإسلام! قالوا: وكيف نصير مسلمين؟ قالوا: تشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وبذلك تدخلون في الإسلام، ثم تؤدون أركان الإسلام الأربعة من الصلاة والزكاة والصيام كل سنة في شهر رمضان، والحج مرة في العمر، وبعد ذلك تحبون للناس ما تحبون لأنفسكم، وتفعلون الخير ما استطعتم، وتتجنبون الشر ما استطعتم، وبذلك تصبحون مسلمين، لكم ما لنا وعليكم ما علينا..

وبهذه السهولة دخل الناس في دين الله أفواجا، في بلاد الملايو، كما دخلوا فيه في جاوه وسومطره وغيرها من الجزر، التي توحدت وسميت بعد باسم «إندونيسيا» فهكذا دخلت «الملايو» في دين الإسلام، وأصبحت عضوا في الأمة الإسلامية، وفي الجسم المسلم.

ولكن الإنجليز حينما احتلوها ـ في عصر الاستعمار ـ جلبوا عناصر للعمل من خارج الملايو، معظمهم من الصينيين، وبعضهم من الهندوس، فزاحموا أهل البلاد الأصليين، وظلوا يكثرون ويكثرون حتى قاربت نسبتهم نسبة أهل البلاد الأصليين في العدد، وأخطر من ذلك: أنهم بمهارتهم وتضامنهم، وتسهيل الاستعمار لهم: أضحوا يملكون معظم ثروة البلاد بأيديهم، فهم يملكون التجارة والصناعة، وأهل البلاد يشتغلون بزرع المحصولات التي يشتريها منهم الصينيون. وقد ظلوا مدة من الزمن على جنسيتهم الأصلية من صينية وهندية، ولكن الإنجليز ضغطوا على تنكو

عبد الرحمن رئيس وزراء «الملايو» التي غير اسمها، لتصبح «ماليزيا» فصدر في عهده قراران خطيران:

أولهما: فصل جزيرة سنغافورة عن ماليزيا، لتمسي دولة مستقلة، لتكاثر العنصر الصيني بها.

ثانيهما: منح الجنسية للصينيين والهنود المقيمين في البلاد بعد عشرين سنة، على أن يبقى الجيش والقوات المسلحة في أيدي الماليزيين.

وما أسرع ما مرت العشرون سنة، وحصل الوافدون على الجنسية الماليزية، فاكتسبوا قوة جديدة، بالإضافة إلى قوتهم الاقتصادية والعلمية.

بقينا يومين وبعض يوم في ماليزيا، تعرفنا فيها على أهم معالمها، ولقينا بعض الوزراء، وأحدهم دعانا إلى بيته على غداء، ولا أذكر اسمه، كما لقينا بعض العلماء، وبعض الشخصيات الإسلامية.

وممن زرناهم في ذلك الوقت: الشاب الذكي المتحمس الطموح: «أنور إبراهيم» مؤسس جماعة «الشبيبة المسلمة» في ماليزيا، ويطلق عليها اسم «أبيم» وكان خارجا من قريب من السجن، وكان لقاؤنا به طيبا ومثمرا، وكان أساسا لأخوة وصداقة لا تزال ممتدة إلى اليوم، فك الله أسره، ورد كيد خصومه في نحورهم، وأعاذه من شرورهم، (حكمت المحكمة أخيرا ببراءته، وخرج من سجنه).

كما زرنا الجامعة الوطنية، وغيرها. ثم ودعنا ماليزيا إلى إندونيسيا.

إلى إندونيسيا:

وبعد ماليزيا استقللنا الطائرة الإندونيسية إلى جاكرتا عاصمة إندونيسيا، أكبر دولة إسلامية في العالم، والمسافة قريبة، بين جاكرتا وكوالالامبور.

غارة تنصيرية على إندونيسيا:

ومما أذكره: أننا سألنا المضيّفة التي تخدمنا في الطائرة وهي إندونيسية: هل أنت مسملة؟ قالت: لا، ولكن عائلتي مسلمة! فقلنا في أنفسنا: لا حول ولا قوة إلا

بالله، معنى ما تقوله هذه الفتاة: أن التنصير أخرجها من دينها، وسلخها من أسرتها.

وكان معنا مضيِّف رجل، فسألناه نفس السؤال: أأنت مسلم؟ فقال: لا، ولكني متزوج مسلمة!

وهذا زواج باطل في نظر الإسلام، فإن المسلمة لا يجوز ابتداء: أن تتزوج غير مسلم، ولو كان كتابيا ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (الممتحنة: ١٠).

وكان قد زارنا في قطر: الأخ عز الدين بليق، صاحب «دار الفتح» للنشر في لبنان، وحدثنا عن الأخطار التي تواجهها إندونيسيا ـ التي زارها من قريب ـ من قبل التنصير الأوربي والأمريكي، الذي أجلب بخيله ورجله، على إندونيسيا، أكبر بلد إسلامي الآن في العالم، بعد انفصال باكستان الشرقية عن باكستان الغربية، وهم يضعون الخطط لتنصير إندونيسيا وتغيير هويتها، وتغليب المسيحيين فيها على المسلمين في «خمسين سنة» ووفروا لذلك ميزانيات هائلة، وقرروا قرارات بعضها معلن، وبعضها مكتوم، والمسلمون عن ذلك غافلون، لذا ألف أخونا عز الدين كتابا بعنوان «أنقذوا إندونيسيا يا مسلمون»!

وكان للإرساليات التبشيرية ـ أو التنصيرية ـ الغربية أكثر من خمسين مطارا في إندونيسيا، فالمسلمون من أهل البلاد يتنقلون بين الجزر بالقوارب، والمنصرون يتنقلون بالطائرات، فمن المعلوم أن إندونيسيا تتكون من ألوف الجزر، بعضها كبير وبعضها صغير.

ولاحظنا أنهم نجحوا في تحويل بعض المسلمين والمسلمات إلى دينهم بالفعل، في حين لا يطمعون في ذلك في البلاد العربية، التي قنعوا فيها بزعزعة إيمان المسلم بدينه، وتشكيكه في مسلماته العقدية، وإن لم يدخل في النصرانية.

كان الذي استقبلنا في المطار، ورحب بنا هو: المسلم الكبير الدكتور محمد ناصر، ـ رحمه الله ـ رئيس وزراء إندونيسيا الأسبق، ورئيس حزب «ماشومي»

السابق، وأحد رجال الجهاد والدعوة الكبار، والذي تفرغ هو وعدد من إخوانه ومحبيه وتلاميذه، للعمل الدعوي، والوقوف في وجه تيار التبشير أو التنصير، ومقابلة تخطيطه الماكر الهدام بتخطيط مثله وعلى مستواه في الفكر والوعي، وإن لم يمكن أن يكون مثله في الإمكانات المادية الهائلة.

أنشأ د. ناصر «المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية» لإحياء الإيمان في أنفس الشعب الإندونيسي في جاوه وسومطرة وغيرهما من الجزر، والقيام بتوعية إسلامية شاملة، وتثقيف إسلامي مركّز، حتى يملك المسلم «مناعة» ذاتية تقيه من التأثر بأي دعوة هدامة، تريد أن تنزعه من ذاته، وتخلعه من هُويّته.

وبالإمكانات القليلة المحدودة التي لا تساوي شيئا، بالنسبة لما تملكه قوى التنصير: استطاع الدكتور ناصر ومن معه: أن يقفوا في وجه العاصفة، وأن يشعروا المهاجمين أن حصون المسلمين منيعة، وأنها لا يمكن أن تسقط بسهولة. وشرع الإخوة ينشئون بقدر استطاعتهم المؤسسات الدعوية والتعليمية والتقنية، وهي تتنامى بفضل الله.

وقد اجتمعنا مع المجلس الأعلى، وشددنا على أيديهم، ووعدناهم بمد يد المساعدة الممكنة ماديا وأدبيا.

وقلنا: يا سبحان الله، كانت إندونيسيا مستعمرة من هولندا، وكانت إندونيسيا أكثر من خمسين مليونا، وهولندا نحو خمسة ملايين.

ولكن جرى على المسلمين ما جرى، حتى باتت بلادهم في وقت من الأوقات، ترزح تحت نير الاستعمار الغربي، أو الشرقي، ولم ينج من الاستعمار إلا السعودية واليمن.

وقد كان الإسلام - كالعادة - هو المحرك الأول للبلاد الإسلامية كلها لمقاومة الاستعمار. وكما هو معلوم لكل مسلم من أمة الإسلام: يفرض هذا الدين على أبنائه فرضا عينيا: أن يجاهد مع المجاهدين، لقتال الاستعمار المحتل، حتى يطردوه من دار الإسلام، ومن قتل في هذه المعركة فهو شهيد حي عند الله.

وكما هي العادة التي أصبحت وكأنها قانون: نجد أن الإسلاميين يزرعون، والعلمانيين يحصدون، فهم دائما يسرقون الثورات من أهلها، ويرثون وحدهم غنائمها، ويمسي الإسلام غريبا، وهو صاحب الدار!

هذا ما حدث في تركية، وما حدث في إندونيسيا، وما حدث بعد ذلك في الجزائر، وما حدث في بلاد شتى.

المهم أنا وجدنا النصارى متمكنين في هذا العهد (عهد سوهارتو) بعد أن كان الشيوعيون هم الممكَّنين في عهد «سوكارنو» فقد طردوا الشيوعيين ليحل محلهم المنصرون. وقد لقينا بعض الوزراء المسلمين المسؤولين، فكان يحدثنا همسا في مكتبه، مخافة أن تكون هناك أجهزة تسجيل وتنصت، ترصد ما يقوله، وتنقله إلى السادة المتحكمين، وهكذا أصبح المسلمون في ديارهم لا يملكون حرية التعبير ولا حق الكلام، وبعضهم يعد من المسؤولين والمشاركين في السلطة، فما بالك بغيرهم؟!

غيبة العلماء عن الوعي بالعصر:

ولم يكن كثير من علماء الدين على المستوى المأمول الذين يواجهون به هذه الحملة الصليبية الغازية إلا قليلا منهم، ممن تفتح أفقه على الدعوات التجديدية والإصلاحية المعاصرة، ومن هؤلاء: الجمعية المحمدية التي لها مدارس ومنشآت كثيرة زرنا بعضها، ومنهم قليل ممن تعرفوا على دعوة الشيخ حسن البنا ممن درسوا في مصر، أو في غيرها من العالم العربي. ومن الإندونيسيين ـ كالماليزيين ـ كثيرون ممن درسوا في الأزهر، ومنهم من اتصلوا بدعوة الإخوان، واستفادوا منها.

ومن عدا هؤلاء كانوا يعيشون في الماضي السحيق، ويقرأون في الكتب الصفراء، ولا يعرفون عن حاضرهم، ولا عن حاضر الأمة شيئا، ولعله لا يحس بما يبيته له دعاة التنصير من مكايد ودواه لاقتلاع جذور دينه، وهو لا يدري.

غياب فقه الأولويات:

وأذكر ما قاله لنا وزير الشؤون الدينية حين قابلته مع الشيخ الأنصاري رحمه الله: أن إحدى القبائل الوثنية الكبرى أرادت الدخول في الإسلام، فاتصل زعماؤها، ببعض كبار مشايخ الدين في منطقتهم، وعرضوا عليهم رغبتهم في الدخول في دين المسلمين، فماذا يطلب منهم في ذلك؟ فقالوا لهم: مطلوب منكم شيء واحد حتى يكون إسلامكم مقبولا؟

قالوا: وما هو؟

قال المشايخ: أن تختتنوا!!

قال ممثلوا القبيلة: وهل هذا أمر لازم؟

قالو: هو من شعائر الإسلام، والفارق بين المسلم وغير المسلم!

وهنا قال القوم: نشاور أهلينا في ذلك، وذهبوا ولم يعودوا، خشية من هذه المذبحة الجماعية!

فتصور هذا الفقه الأعوج، الذي يضع العقبات في طريق من يرغب في الإسلام، ولقد دخل الألوف وعشرات الألوف أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته، فما رأيناهم اشترطوا على الناس أن يختتنوا، أو يكشفون على الناس، ليروا من اختتن ومن لم يختتن!

وقد قال الرسول الكريم: «بني الإسلام على خمس»، وعدّها، فلم يكن منها الاختتان!

فانظر يا أخي إلى المنصّرين الذي جاءوا من أمريكا وأوربا وأستراليا: كيف يقدمون المغريات للناس ليدخلوهم إلى النصرانية؟ وكيف يضع مشايخنا المعوقات أمام الناس ليصدوهم عن الإسلام؟!

وشيء آخر عرفته من الإخوة هناك، وهو: أني وجدت الكتاب المقدس عند النصارى (العهد القديم والعهد الجديد) في كل حجرة في الفندق الذي ننزل فيه،

وقلت لهم: ألم يكن الأولى أن نضع لهم مصحفا معه ترجمة، قياما بواجبنا نحو الدعوة إلى الإسلام؟

فقال لي الإخوة: إن المشايخ لم يجيزوا ذلك؛ لأن المصحف لا يمسه إلا المطهرون، وهؤلاء نجس، فلا يجوز لهم مس القرآن!! وكأن المشايخ بهذه الفتاوى المتشددة يصدون عن سبيل الله، ويحولون بين الناس ومعرفة الإسلام!

زيارة المدرسة الشافعية والظاهرية:

ومن مزايا إندونيسيا: أن فيها مدارس دينية كبيرة تعلِّم طلابها وطالباتها اللغة العربية، كما تعلمهم القرآن والتفسير، والحديث وعلومه، والعقيدة، والفقه، وغيرها.

منها: المدرسة الظاهرية، والمدرسة الشافعية، وكل من المدرستين تكاد تكون جامعة، ففيها دراسات من الحضانة إلى المرحلة العالية، وكثير من خريجيها يذهب إلى الأزهر في القاهرة، ليستكمل دراسته.

وقد حضرنا حفلا في إحدى المدرستين، ألقت فيه التلميذات الصغيرات بصوت مؤثر: النشيد الديني المعروف:

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع

وقد تأثر الشيخ الأنصاري، وتأثرت معه بهذا النشيد، حتى ذرفت أعيننا الدموع.

ومما أذكره: أن أحد العلماء وقف يقدمني، وكان أكثر ما أدهشني: أنه قال: أقدم لكم العالم الجليل، والداعية الكبير. . صاحب كتاب «درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف ننتصر؟» وقد ترجم إلى الإندونيسيه، كما ترجم «الحلال والحرام»، و«الإيمان والحياة»، وغيرها.

وعجبت أن الذي أهمه هو هذا الكتاب الصغير، ولم يقدمني بأني مؤلف «فقه الزكاة» أو غيره من الكتب، وعرفت من ذلك: أن الكتاب الصغير قد يؤثر أحيانا في نفس القارئ ما لا يؤثر فيه الكتاب الكبير.

ومن الطريف: أن جاكرتا فيها منطقة يسكنها يمنيون من قديم ما زالوا يحتفظون بلغتهم العربية، ويتزاوجون فيما بينهم، وقد ذهبنا إليهم وتناولنا طعام الفطور عندهم، وكنا كأنما نعيش في قرية بالقرب من تعز أو صنعاء!

إلى سنغافورة:

وأخذنا طريقنا إلى «سنغافورة» وكانت إحدى «المضايق» البحرية التي كان يهيمن عليها المسلمون، مثل «باب المندب» و«جبل طارق» و«البسفور» و«الدردنيل» ويسميه الأتراك «البوغاز» وقد كانت سنغافورة: كما ـ قلنا ـ جزءا من بلاد الملايو، وهي بلاد إسلامية، فلما كثر فيها الصينيون، سعوا إلى فصلها عن ماليزيا، ليتخذوا منها دولة نموذجية مستقلة، يقوم اقتصادها على الصناعة والسياحة، وتقوم سياستها على الديمقراطية، وتراعى بشدة: النظافة والنظام والانضباط، ولا تسمح بأي خلل في هذه النواحي.

والمسلمون يكونون فيها أقلية كبيرة، ولهم مدارسهم وجوامعهم وجمعياتهم ومؤسساتهم الخاصة، وقد زرنا الجمعية الإسلامية هناك، وقد تعرفنا على عدد من أعضائها وأطلعونا على أنشطتهم الدعوية والثقافية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية، فسررنا بها، ودعونا لهم بالتوفيق.

ولليمنيين خاصة جالية مرموقة، وقد صحبونا إلى مدرسة لهم تسمى «مدرسة الجنيد».

إلى الفلبين:

بعد سنغافورة ولينا وجهنا شطر «الفلبين» ونزلنا على عاصمتها «مانيلا» وقضينا فيها يومين، زرنا فيها بعض الجهات والمؤسسات الإسلامية في المدينة،

وقابلنا بعض المسؤولين الذين اهتموا بنا وبزيارتنا اهتماما غير عادي، وكان ذلك في عهد الرئيس ماركوس طاغية الفلبين المعروف، وقد عرفوا أنا نقصد الجنوب الذي يسكنه المسلمون، فهيئوا لنا طائرة عسكرية خاصة، تنقلنا إلى أقرب مطار لمدينة «مراوي ستي» إحدى عواصم الجنوب الإسلامي، وهي المقصودة بالزيارة.

ومن المعروف: أن الجنوب الإسلامى تقوم فيه ـ منذ سنوات ـ مقاومة ضد حكومة مانيلا، تطالب بالاستقلال، والحكومة تطاردهم وتحاول سحقهم، ولم تستطع ذلك حتى اليوم.

وقد كان لإسرائيل أصابع فى التهييج على المسلمين هناك، منذ أعلنوا غضبهم على سفارتهم هناك.

وبالفعل ركبنا الطائرة العسكرية ووصلنا إلى المطار، وكان الناس في استقبالنا بأعداد كبيرة، وقد طوقونا بالورود والأزهار على عادة أهل تلك البلاد في تكريم الضيوف.

ووصلنا إلى «مراوي ستي» لنجد المدينة، وكأنما خرجت على بكرة أبيها تستقبلنا، فالمسلمون هناك يحسون باليتم والضياع، حتى يأتيهم ضيف مسلم كبير، فيلتفوا حوله، وكأنما يقولون لخصومهم: نحن لسنا وحدنا، نحن جزء من أمة كبرى، تملأ الأرض من المحيط إلى المحيط!

كان المسلمون حكام الفلبين من قبل:

كان المسلمون في الفلبين هم أول من وجّه لنا الدعوة لنقوم بهذه الزيارة، فهم المقصودون أولا وبالذات، ولذا وجب أن نبقى معهم أطول مدة ممكنة، لنتعرف على أحوالهم، وأوضاعهم وحاجاتهم ومشكلاتهم، ونجتهد أن نساهم ما أمكننا في حلها.

وكان المسلمون قديما هم الذين يحكمون هذه البلاد، حتى جاء الإسبان، بما

يملكون من عتاد حديث، وأسلحة غير الأسلحة التقليدية، التي في أيدي المسلمين، ووقعت الحرب بين الفريقين، وانتهت إلى أن لاذ المسلمون بالجنوب واستقروا فيه، وأصبحت لهم الغلبة عليه، والتمكن في أرضه، والإسبان هم الذين أطلقوا على هذه البلاد اسم «الفلبين» نسبة إلى فيليب أحد ملوكهم، ولم يكن هذا اسمها التاريخي.

وقد وقعت بين المسلمين وبين «ماجلان» الرحالة الاستعماري المعروف معركة قتل فيها «ماجلان».

المسلمون والدولة المركزية في مانيلا:

وفي العصر الحديث أرادت الدولة المركزية في «مانيلا» أن تخضع المسلمين في الجنوب لها، ورفض المسلمون أن يدينوا لها بالولاء والطاعة، لأنهم لا يرون أنفسهم جزءا من الدولة، ولا يجوز للمسلم أن يذعن لغير المسلم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (النساء: ١٤١).

أصدرت الدولة في منتصف القرن الماضي قانونا يفرض على كل مالك أرض أن يسجلها رسميا، وإلا عُدَّت أرضا لا مالك لها، فيجوز للدولة أن تأخذها وأن تعطيها للآخرين. ورفض المسلمون هذا القانون، وانتهزت الدولة المركزية الفرصة لتهجِّر من نصارى المناطق الأخرى من يستولي على هذه الأرض بقوة السلاح، ومعه قوة الشرطة، وقوة القانون.

وهذا ما دعا المسلمين في تلك المناطق إلى أن يحملوا السلاح ليدافعوا عن أملاكهم ووجودهم وأرضهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم.

وزاد الطين بلة: أن المسلمين رفضوا أن يدخلوا مدارس الدولة، وأن يتعلموا في جامعاتها، إلا قليلا منهم، فترتب على ذلك أن أصبح المسلمون لا يعملون في دوائر الحكومة المختلفة، لأنهم لا يملكون مؤهلات أي عمل في الحكومة.

وأصبح للمسلمين تعليمهم الخاص، الذي تقوم عليه المدارس والمعاهد العربية الكثيرة في الجنوب الإسلامي، وهي مدارس تعلم طلابها وطالباتها: العلوم الشرعية والعربية، على الطريقة التقليدية القديمة، التي هجرها الأزهر وغيره من المعاهد الدينية، واختاروا طرقا أيسر منها وأقرب في تعلم النحو والصرف والبلاغة، وغيرها من العلوم.

ولا يتعلم هؤلاء اللغة الإنجليزية، وهي ضرورية للناس في هذا البلد، كما لا يتعلمون العلوم الطبيعية والرياضية، فلا يعرفون شيئا عن الفيزياء والكيمياء والأحياء، والهندسة والجبر وغيرها، كما لا يدرسون شيئا عن الجغرافيا أو التاريخ.

إن هذه المدارس ـ وهي بالعشرات بل بالمئات ـ بمناهجها وكتبها ومدرسيها، تعيش خارج العصر، وكأنما هم أهل الكهف، حين خرجوا من نومهم، فوجدوا دنيا غير الدنيا، ولكن هؤلاء لم ينهضوا من نومهم، ولم يخرجوا من كهفهم بعد!

هذا هو واقع القوم الذين ذهبنا إليهم، والذين دعونا إلى زيارتهم، وقد نزلنا ضيوفا على محافظ المدينة، فقد كان القوم حريصين على أن نظل تحت أعينهم، خوفا من أن نتصل بالمجاهدين الذين يقُضّون مضاجعهم، والذين يطالبون بحكم فدرالي، يستقلون بمقتضاه في هذه المنطقة.

المدارس العربية في جنوبي الفلبين:

بدأنا زيارة المدارس العربية، التي احتفت بنا احتفاء لا نظير له، وجلسنا مع مديريها ومع مدرسيها ومدرساتها، وقدمنا لهم من النصائح ما نرى أنه أصلح لهم.

وكان من هذه المدارس: ما أسسته جمعية «إقامة الإسلام» التي أسسها الشيخ أحمد بشير رحمه الله، وقد زارنا في قطر وفي المعهد الديني أكثر من مرة. وأخرى أقامتها هيئات شعبية، وجمعيات خيرية، ورجال أخيار صالحون.

وكان من نصائحنا لهذه المدارس ورجالها: أن تكون لها رابطة أو اتحاد، يجمع بينها، ينشئ جمعية عمومية، وينتخب مجلس إدارة، يقوم على تهيئة ما يلزمها من طلبات، ويرتب أولوياتها، ويعمل على تطوير مناهجها وكتبها، وإدخال ما هو ضروري من العلوم والمواد الدراسية.

قالوا: إن هذا التطوير يحتاج إلى مبان تصلح له، وهذه ليست عندنا، ويحتاج إلى معلم متخصص، ونحن لا نملك هذا المدرس، ويحتاج إلى إدارة تديرها، وهذه ليست عندنا.

فقلنا لهم: إذا اتحدتم، وحددتم مطالبكم، وطلبتم المساعدة من بعض البلاد العربية والإسلامية، يمكنها أن تقدم إليكم العون، ولو بالتدريج.

كان أهل الخير في قطر يثقون بالشيخ الأنصاري، ويدفعون له مبالغ عند زيارته لبلاد المسلمين، يفوضونه في إنفاقها، وكان الشيخ كلما زرنا مدرسة دفع إليها مبلغا، وكلما عرفت المدارس الأخرى ذلك، تزاحموا على الشيخ يريدون نصيبهم من هذا الخير الذي ساقه الله إليهم، وقد ظهر عدد من المدارس لا حصر له، وخصوصا الصغيرة منها، وقلت للشيخ رحمه الله: هذا أمر لا نهاية له بهذه الطريقة، لا بد أن نكلف من ثقاتهم المأمونين العارفين بقيمة هذه المدارس ومدى عطائها، ومدى حاجتها، ونعطيهم المبالغ، ونكلفهم صرفها على مستحقيها بما يرون، والعهدة عليهم، وهم أعلم بقومهم منا.

جامعة مندناو:

وكان أبرز مؤسسة في مدينة «مراوي» هي «جامعة مَنْدناو» التي يفترض أن يكون للمسلمين فيها نصيب الأسد، بوصفها في منطقة إسلامية، ولكن المسلمين ـ كما ذكرنا ـ لا يتعلمون في المدارس الحكومية ـ الابتدائية والإعدادية والثانوية ـ التي تؤهلهم للقبول في هذه الجامعة، لذا لم ينالوا حظهم منها كما ينبغي، وفي هذه الجامعة: معهد الملك فيصل للدراسات الإسلامية، وقد دعيت لإلقاء محاضرة فيه،

قام بعض الإخوة المصريين الذين يعملون هناك بترجمتها، (أظنه الأستاذ حسّوبة) وكان لها وقع حسن في نفوس الأساتذة والطلاب.

وقد كرمتنا الجامعة وأعطتنا شهادات تقدير للشيخ الأنصاري، والأستاذ سيد أبو يوسف، ولي.

أحمد ألونتو:

كما زرنا جمعية «أنصار الإسلام» التي أسسها الزعيم المسلم الفلبيني «أحمد ألونتو» الذي كان عضوا لمجلس الشيوخ هناك، وكان صديقا للدكتور إبراهيم كاظم عميد كلية التربية، والذي حصل فيما بعد على جائزة الملك فيصل في خدمة الإسلام.

وقد أنشأ «ألونتو» جامعة سماها «الجامعة الإسلامية» وقد زرناها مع الشيخ الأنصاري، ودعيت لإلقاء محاضرة فيها على طلابها.

وظللت طوال هذه الأيام في جنوبى الفلبين أتحدث في كل مدرسة نذهب إليها، وكان معنا أكثر من مترجم، يتناوبون واحدا بعد الآخر، حتى تعب المترجمون، وبحت أصواتهم، وأحمد الله أن بقيت سليما لم يصبني شي، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

إلى كوريا الجنوبية:

ومن جنوبى الفلبين، نقلتنا الطائرة العسكرية لتعود إلى مانيلا لنبيت فيها ليلة، اشترينا فيها بعض التحف الخشبية الفلبينية، وبعض اللوحات المزينة بصدف البحر، ثم غادرنا «مانيلا» إلى مدينة «سؤول» عاصمة كوريا الجنوبية، ونزلنا في فندق «هيَاتْ»، ولما سألناهم عن معنى هذا الاسم، قالوا: لا نعرف له معنى، لأنه من غير لغتنا، قلنا لهم: إن أصله عربي، وهو «حياة». ومن الطريف: أن بعض الفنادق في البلاد العربية نقلت هذا الاسم، وتسمت به منطوقا كما هو بالهاء لا

بالحاء، ولما سألناهم، قالوا: هذا اسم لا نعرف أصله، فقد جاءنا من بلاد الشرق الأقصى!!

كان همنا في زيارة كوريا هو: زيارة جامع كوريا ومركزها الإسلامي، الذي ساهمت دولة قطر في إنشائه، وغدا محور النشاط الإسلامي.

وكوريا بلد بوذي، لكن دخله الإسلام بعد الحرب العالمية الثانية، حين وقعت الحرب بين الكوريتين، وأرسلت بعض البلاد جنودا من جيوشها لحماية كوريا الجنوبية من خطر الزحف الشيوعي، الذي تمثله كوريا الشمالية.

وكان من البلاد التي شاركت بجنودها هناك: تركية، وكان في الجيش التركي: جنود مسلمون ملتزمون بأداء الصلاة في أوقاتها، وكان الكوريون ينظرون إليهم، وهم يؤدون الصلوات كل يوم خمس مرات بانتظام، وكثيرا ما يصلونها جماعة بأذان وإقامة، ثم يقفون صفا متراصا خلف إمامهم، وكان هؤلاء الجنود في غاية النظافة والاستقامة في القول والعمل والأدب مع الناس، فسألهم الناس عن هذا العمل الذي يلتزمون به كل يوم، فقالوا: هذه صلاتنا نحن المسلمين فرضها الله علينا خمس مرات في اليوم والليلة، لتكون صلة بين المرء وربه.

وسألوهم عن الإسلام، فشرحوه لهم بإيجاز: إنه إيمان بالله الواحد، وبدار يجزى فيها الناس بعد الموت، ثم عمل الصالحات، وفعل الخيرات، واجتناب الشرور والسيئات، فأعجب كثيرون بهذا الدين، وأعلنوا أنهم مسلمون، وتكاثروا يوما بعد يوم، حتى أمسوا نحو عشرين ألفا في ذلك الوقت.

وكان من هؤلاء: المسلم الغيور النشيط «الحاج صبري» الذي سافر إلى البلاد العربية، ليعرّف بمسلمي كوريا، ويلتمس لهم المعونة، وخصوصا لإقامة مسجدهم ومركزهم الإسلامي.

وقد التقينا بعدد من المسلمين الجدد، والقائمين على النشاط هناك، وألقينا بعض الدروس في المسجد، وزرنا قرية لهم أسلم أهلها، وأقاموا مدرسة لتعليم أطفالهم بجوارهم.

وأخذونا إلى المناطق الجبلية والمتميزة التي يرتادها السائحون، لنأخذ حظنا منها، وزرنا جامعة كوريا، وألقيت فيها محاضرة على طلاب قسم اللغة العربية، وقد أُهدي كل عضو في الوفد القطري فصا من الحجر الكريم التي تمتاز به كوريا، وهو حجر «التوباس».

كما اشترينا بعض الحرير الطبيعي الذي تشتهر به كوريا.

إلى اليابان:

ومن سؤول في كوريا، استقللنا الطائرة إلى طوكيو عاصمة اليابان، هذه الدولة التي هُزمت في الحرب العالمية الثانية، وألقت عليها أمريكا قنبلتين ذريتين على مدينتين من مدنها: هيروشيما وناجازاكي، وقتلت عشرات الألوف، وتركت آثارها الضارة على آخرين أضعاف من قتلوا، ولكن اليابان التي هزمت في الحرب: انتصرت بعد ذلك في ميدان آخر هو: ميدان الصناعة والتكنولوجيا.

فأضحت منتجاتها تغزو أسواق أمريكا وأوربا، وأصبحت تملك اقتصادا قويا ينافس - إن لم يفق - أعظم اقتصادات العالم.

لقد بدأت اليابان نهضتها العلمية والصناعية تقريبا مع مصر، في عهد محمد علي، وإن شئت الدقة قلت: إن مصر سبقتها بقليل، فانظر أين مصر اليوم؟ وأين اليابان؟ وهل هناك وجه للشبه أو المقارنة؟ نزلت في فندق غاية في الفخامة، وفيما يقدم من خدمات متطورة، ولكنه غال جدا، والحياة في اليابان تكوي السائحين كيا، لشدة غلائها، أحسبها أغلى بلد في العالم.

لذا لم نبق فيها كثيرا، وبخاصة أن رحلتنا طالت، فاتصلنا بالمركز الإسلامي، وجاءنا الأخ الكريم والصديق العزيز الدكتور صالح السامرائي، الذي عاش في اليابان مدة طويلة، وحصل على الدكتوراه منها، وهو الآن مدير المركز الإسلامي بها، وحامل هموم نشر الدعوة فيها، وإقامة المؤسسات بها.

زرنا المركز الإسلامي، ورتب لنا لقاء مع المسلمين في طوكيو، حيث تعشينا معهم، ثم تحدثنا إليهم، ثم وجهوا إلينا أسئلتهم، وأجبناهم عنها، وكان ممن لقيناه: الدكتور علي السمني، أستاذ اللغة العربية، وهو من مصر ويقيم في اليابان من فترة طويلة.

وزرنا المسجد الذي بناه الأتراك، الذين هاجروا قديما من تركية، وزرنا بعض البلاد الأخرى، التي نسيت اسمها بطول الزمن، وكان فيها الأخ المسلم الياباني د. خالد كيبا.

ودعانا بعض الإخوة اليابانيين للغداء عنده، فرأينا بيوتهم المتواضعة، والصغيرة والبسيطة، في بنائها وفي أثاثها ومحتوياتها، والتي ينتفعون فيها بكل جزء من المنزل، وكل شبر فيه، وترى الحجرة تستخدم للجلوس، فإذا جاء وقت الطعام تحولت بسهولة إلى حجرة طعام، وبقليل من التحوير تنقلب إلى حجرة نوم، وقد هيأ لنا إخواننا زيارة بعض الأماكن السياحية، فهكذا يحاول إخواننا في كل بلد أن يوفروا لنا حظا من ذلك، وإن قل، ترويحا لنا من عناء السفر، ومتاعب اللقاء والكلام المستمر في كل مكان ننزله، وهو شعور مشكور منهم جزاهم الله خيرا.

كما هيئوا لنا زيارة لبعض المتاجر الكبرى التي كان فيها تنزيلات، لنشتري بعض ما يلزمنا، وخصوصا من «اللؤلؤ الياباني» الشهير، فاشترينا نحن الثلاثة: الشيخ الأنصاري وأبو يوسف وأنا: ما رأيناه مطلوبا لنا، ويروق أسرنا، فالمفروض بعد هذه الغيبة أن يعود كل منا إلى أهل بيته بما يسرهم، وهذا من أدب المسلم مع أهله، ومما نصح به الرسول الكريم المسافر.

إلى هونج كونج:

ثم بدأنا طريق العودة، لنزور مدينة «هونج كونج» الشهيرة، وهي آخر محطة لنا في رحلتنا، وقد أخرناها، لنخفف من طول الطريق في العودة.

وهونج كونج ـ كما هو معلوم ـ مدينة صينية يديرها الإنجليز، وقد جعلوا منها قلعة صناعية وتجارية تنافس أعظم مدن العالم، وعواصمه التجارية.

والإسلام قد دخل الصين من القرن الأول الهجري، فلا غرابة أن يكون في هذه الجزيرة مسلمون، على أن من المسلمين فيها مهاجرين جائوا من بلاد شتى، وكان فيها ـ على ما أذكر مسجدان ـ زرناهما كليهما وتحدثنا فيهما، وهم يحاولون أن يبنوا مسجدا كبيرا في منطقة حية في وسط المدينة.

وكان فيها قنصل مصري نشيط، سهل لنا كثيرا مما نحتاج إليه، وقد دعانا إلى بيته، وأكرم وفادتنا، ولما جاء وقت الصلاة أردنا أن نصلي، فجاء بسجادة وفرشها لنا متجهة إلى القبلة، وبعد أن بدأنا الصلاة، رأتنا زوجته، فقالت: إن القبلة على عكس ما تصلون، وخجل الرجل خجلا شديدا، وقال الشيخ الأنصاري: يا سبحان الله، رجل مسلم لا يعرف أين القبلة في بيته؟! معنى هذا: أن الرجل لم يصل يوما في هذا البيت، وتعرف القبلة امرأته! بارك الله فيها، وهداه الله!

ولا ريب أن هذا من تأثير الاستعمار الثقافي الذي غزا المسلمين في عقر دارهم، فقطع بعضهم عن فرائض دينه الأساسية كالصلوات الخمس، حتى إن هذا الرجل الخير المهذب لا يعرف أين القبلة في بيته؟

وزرنا مدرسة إسلامية لهم، وتعرفنا بأحد الإخوة المسلمين، وهو الأخ: يوسف يو، الذي لقيناه بعد ذلك في مناسبات ومؤتمرات شتى في أنحاء العالم. حفظه الله وسدد خطاه.

العودة إلى الدوحة لبداية عام دراسي جديد:

ثم ودعنا «هونج كونج» لنركب الطائرة، في طريق العودة إلى الدوحة عن طريق كراتشي، ودعونا بأدعية السفر، وزدنا فيها ما يتعلق بالإياب: آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون. ووصلنا الدوحة في أمان الله، لنبدأ عاما دراسيا جديدا، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

العام الدراسي ١٩٧٤-١٩٧٥م

عدت إلى الدوحة من رحلتي الطويلة إلى الشرق الأقصى، وعادت زوجتي وأولادي أيضا إلى الدوحة. بعد أن قضوا الإجازة الصيفية في مصر، واستمتعوا برؤية الأهل والأقارب والأحباب، وودعوا «أم الدنيا» كما يسمونها! عدنا جميعا إلى قطر، وقد بتنا نحن إلى قطر، ونشتاق إليها، فقد أصبحت لنا وطنا ثانيا، وكيف لا، وقد ولد فيها خمسة من أولادي؟ واثنتان من بناتي، قدمتا إلى قطر، وإحداهما لم تكمل السنة، والأخرى لم تكمل السنتين.

والإنسان بطبيعته المدنية والاجتماعية يألف المكان وأهله، كما يألفه المكان وأهله، والمرء المؤمن تقوم بينه وبين البيئة من حوله ألفة وصلة ودودة، حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم في أحد: «هذا أحد جبل يحبنا ونحبه!»(١) فانظر كيف عبر عن الجبل أنه يحبهم، كأن له قلبا تصدر عنه مشاعر الود، وعواطف الحب كالإنسان!

توديع المعهد والتفرغ لكليتي التربية:

ظللت في السنة الدراسية (١٩٧٣ - ١٩٧٤) محتفظا بوظيفتي في إدارة المعهد الديني، جامعا بينها وبين عملي في كلية التربية، مع ما يكلفني هذا من جُهد وجَهد، فقد كان المعهد جزءا مني، وأنا جزء منه، وكان عزيزا علي أن أودعه وأتركه بعد اثني عشر عاما قضيتها في إرساء دعائمه، وإعلاء بنيانه، وكان إخواني في المعهد يرغبون أن أبقى معهم لمصلحة المعهد و طلابه، والاحتفاظ بما كسب من سمعة طيبة.

والحمد لله، وفقني الله أن أؤدي لكل عمل منهما حقه، ولكن كان هذا على حساب صحتي من ناحية، وأمور أخرى مثل الكتابة والبحث، ولذا استخرت الله تعالى، وتوكلت عليه، وقررت في هذه السنة (١٩٧٤، ١٩٧٥) أن أدع المعهد لأحد إخواني يقوم على إدارته، ورشحت لذلك الأخ الكريم العالم الداعية الشيخ علي محمد جماز، المدرس بالمعهد رحمه الله، ووافقت الإدارة على ذلك، وقام بواجبه خير قيام، ولا سيما أن هناك من الزملاء الأفاضل من يعاونه، مثل الشيخ عبد اللطيف زايد، والشيخ مصباح محمد عبده، والأستاذ رشدي المصري وآخرين.

ولم يمنعني هذا أن أزور المعهد بين حين وآخر، للاطمئنان على سير العمل فيه، أو إلقاء محاضرة، أو المشاركة في مناسبة معينة أو نحو ذلك.

عدت إلى كلية التربية - أو كليتي التربية - وقد زادت سنة، فأصبح الطلاب والطالبات الذين نجحوا فيها في السنة الثانية، وإن كان نظام الكلية لا يحسب بالسنوات، ولكنه يحسب بالساعات المكتسبة. وكان على الطالب أن يكتسب ١٤٤ ساعة في مدة دراسته، وهي في الغالب موزعة على ثمانية فصول دراسية، كل فصل ١٨ ساعة، ومن شعر بصعوبة هذا المقدار من الساعات عليه، يمكنه أن يأخذ أقل، ويقضي بالجامعة مدة أطول، ومن أراد أن يأخذ أكثر فلا يسمح له، إلا إذا عرف أستاذه أو مرشده الأكاديمي، أن لديه استعداد لذلك، وأن درجاته في الفصول السابقة تشهد له بذلك.

زاد عدد الطلاب والطالبات، كما زاد عدد أعضاء هيئة التدريس، وفي قسم الدراسات الإسلامية ضم إلينا الأخ الصديق، والزميل الكريم الدكتور محمد عبد الستار نصار، المعار من كلية أصول الدين بالأزهر الشريف، والمتخصص في العقيدة والفلسفة، فأصبحنا ثلاثة في قسم الدراسات الإسلامية بدل اثنين.

الخطابة في مسجد أبي بكر الصديق:

كنت في السنوات الماضية، أخطب الجمعة في بعض المساجد، بصفة غير منتظمة، خطبت فترة في مسجد الشيخ خليفة، وفترة أخرى في مسجد بنّة الدرويش (شقيقة الشيخ قاسم درويش فخرو)، وفي مساجد متفرقة خطبا متنوعة، ثم شرعت رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية المسؤولة عن المساجد، في إنشاء جوامع كبيرة تتسع لعدد كبير من المصلين في صلاة الجمعة، وكان مسجد أبي بكر الصديق هو أول هذه المساجد، وقد طلب مني أن أتطوع بخطبة الجمعة فيه، ورضيت بذلك، والتزمت بخطبة الجمعة فيه، ما دمت في الدوحة، إلا مريضا أو على سفر.

وأنا أؤيد سياسة الجوامع الكبيرة التي تجمع ألوف المصلين فيها كل جمعة، فهذا يتفق مع ما كان عليه سلف الأمة، فالأصل أن يبنى المسجد ليسع أهل البلد جميعا، كما رأينا المسجد النبوي في المدينة قد بني ليسع أهلها في الجمعة، فلما كثر الناس في عهد الصحابة وسعوا المسجد.

ولما فتح عمرو بن العاص مصر، بنى مسجده في الفسطاط ليسع أهل الفسطاط.

وحين بنى أحمد بن طولون مدينة القطائع بنى مسجده الكبير ليسع أهلها.

وحين بنى جوهر الصقلي مدينة القاهرة بنى فيها الجامع الأزهر ليسع أهلها.

وكانت هذه المدن كلها مستقلة بعضها عن بعض: الفسطاط (مصر القديمة) و(القطائع) و(القاهرة)، ثم امتد العمران واتسع، ودخل بعضها في بعض، ودخل غيرها، حتى أصبحت القاهرة الكبرى اليوم تشمل مناطق كثيرة كل منها كان يعد مدينة أو قرية منفصلة.

والناس في عصرنا أحوج ما يكونون إلى المساجد الجامعة الواسعة، نظرا للكثافة العالية للسكان، وامتداد المباني إلى أعلى، حتى إن بعض العمارات

والأبراج العالية، فيها من السكان ما يقارب سكان قرية قديمة من القرى الكبرى أو يزيد.

المهم أني ظللت أخطب في جامع أبي بكر الصديق، حتى أنشئ مسجد عمر بن الخطاب وكان أرحب منه وأوسع، وفي منطقة أكثر حيوية، فطلب مني أن أقوم بالخطبة فيه احتسابا، فلم أملك إلا الترحيب بذلك، وظللت حتى اليوم أخطب في هذا المسجد احتسابا، وإن كانت كثرة الأسفار والمشاغل، تحرمني من المواظبة على الخطبة فيه. واعتاد تليفزيون قطر أن يذيع هذه الخطبة على الهواء، وأصبح الناس يترقبونها في بقاع شتى، وخصوصا بعد أن تحول تليفزيون قطر إلى قناة فضائية تشاهد في أنحاء كثيرة من العالم، وهذا من فضل الله علينا أن غدت الكلمة الإسلامية الموجهة تسمعها آذان العالم في التو والحال.

(١٠)

السنة الدراسية

١٩٧٥ ـ ١٩٧٦م

السنة الدراسية ١٩٧٥ـ١٩٧٦

إلهام وسهام تختاران شعبة «العلمي»:

بدأت السنة الدراسية ١٩٧٥ـ١٩٧٦، وفيها:

انتقلت كل من إلهام وسهام ابنتَيَّ، إلى الصف الثاني من المرحلة الثانوية، وهو الصف الذي ينقسم فيه الطلبة والطالبات إلى شعبتين: علمي وأدبي، وكلتاهما قد اختارتا شعبة العلمي، وأنا لا أحب أن أضغط على أبنائي ولا بناتي في اختيار توجههم التعليمي، ولا أفرض عليهم ما أحب، كما نجد كثيرا من الآباء ـ مثل الأطباء ـ يفرضون على أولادهم أن يرثوا مهنتهم، وربما لم يكن لهم أي ميل لهذه المهنة. فلسفتي: أن يختار كل امرئ لنفسه بعد أن نشرح له مزايا كل توجه، وعيوبه إن كان فيه عيوب.

وقد عرضت على ابنتيّ ـ مجرد عرض ـ أن ينوعا في اختيارهما، فتختار واحدة العلمي، والأخرى الأدبي، فقالتا في نفس واحد: يا أبت إن الأدبي لا يدخله غير البنات الكسلانات! فقلت: وفقكما الله فيما اخترتماه، وجعله خيرا لكما في دينكما ودنياكما.

درجة أستاذ:

بعد سنتين في الكلية أحسست بفارق الدرجات في الكادر الجامعي، فدرجة المدرس غير درجة الأستاذ المساعد، وهي غير درجة الأستاذ، وقد كنت عينت

بدرجة أستاذ مساعد، ولم أبال بذلك يومها، ثم تبين الفرق بينها وبين درجة الأستاذ، لا في الناحية المادية فحسب، ولكن في القيمة الأدبية.

وكلمت الدكتور كاظما في ذلك، وأن الجامعات السعودية تعطي الدرجات بالأهلية والشهرة العلمية، وليس بالشهادات ولا بالأقدمية، فالشيخ الشعراوي، والشيخ الغزالي، والشيخ سيد سابق، والشيخ سيد صقر، والشيخ علي الطنطاوي، والأستاذ محمد المبارك، والأستاذ محمد قطب وغيرهم لا يحملون شهادة دكتوراه، ولكنهم جميعا يعينون في درجة أستاذ، لما تميز به عطاؤهم العلمي. وإني لأرجو أن أعامل كهؤلاء! وإذا كانوا محتاجين إلى أبحاث للترقية، فعندي أبحاث جاهزة، وأكثر من المطلوب.

وتجاوب معي الدكتور كاظم، وقال: نزور معا: الشيخ قاسم بن حمد وزير التربية، والرئيس الأعلى للجامعة في ذلك الوقت ونكلمه في هذا الأمر، فكانت استجابة الرجل أسرع مما توقعنا، وقال له: يا دكتور كاظم، الشيخ يوسف عندنا شيخ الأساتذة!

وما هي إلا أيام حتى صدر القرار بتعييني في درجة أستاذ.

د. عبد العظيم الديب في قطر:

وفي هذه السنة (١٩٧٥م، ١٩٧٦م) أضيف إلى قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية: الأخ الحبيب، والصديق الوفي، والزميل القديم في معهد طنطا: الدكتور عبد العظيم الذيب، الذي حصل على الدكتوراه حديثا من «كلية دار العلوم» عن «فقه إمام الحرمين»، والذي حقق كتابه الشهير (البرهان) في أصول الفقه، وعكف على تراث الإمام، لخدمته وتحقيقه وإعداده للنشر.

وقد أشرت في الجزء الأول إلى الصلة الوثيقة، التي كانت تربطني بعبد العظيم منذ كان طالبا في المرحلة الابتدائية بمعهد طنطا، وقد فرقت الأيام بيننا حتى التقينا

مرة أخرى عند نزولي في سنة ١٩٧٣ ومناقشتي لرسالة الدكتوراه، وجددنا الذكريات، وأنشدنا قول الشاعر:

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما

يظنان كل الظن أن لا تلاقيا!

وقد اتفقنا بمجرد الفراغ من رسالته، وإنهاء إجراءاته: أن يقدم أوراقه في أسرع وقت إلى قطر. وهذا ما كان.

ومن الطريف أننا حينما كنا في معهد طنطا كنا نناديه بـ «عبد العزيز الديب» ثم فوجئنا بأنه الآن «عبد العظيم الديب» فعرفت أن الاسم الأول هو الاسم الذي سمته به والدته، وهو كان ينادى به في قريته وبين أصدقائه وإخوانه، والاسم الآخر هو المكتوب في شهادة الميلاد والأوراق الرسمية.

ومنذ جاء عبد العظيم إلى قطر، حمل العبء معي، وكان الساعد الأيمن لي، وقد هضم نظام الساعات المكتسبة، وأصول الإرشاد الأكاديمي، وساهم في تيسير ذلك للطلاب مساهمة فعالة. كما أنه رجل مخلص في تدريسه، يتعب على دروسه، ويعد محاضراته، ويقترب من تلاميذه، ويبتكر في طرائقه، حتى إنه كان يدرس كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» فاخترع له أسئلة على الطريقة الأمريكية، بملء الفراغات، أو الإجابة بعلامة صح أو غلط أو بكلمة: نعم أو لا.. إلى غير ذلك. ولهذا كان قريبا من الطلبة والطالبات، محببا إليهم، محوطا بعواطفهم، حتى بعد أن يتخرجوا، يظلون على صلة به، وقرب منه، وسؤال دائم عنه. وهذا ما لم أجده إلا عند القليلين من الأساتذة.

فمن الأساتذة من يحبه الطالب، ولا يحترمه، لأنه طيب القلب، دمث الأخلاق، جياش العاطفة، فمثله يحب، ولكن ليس عنده من العلم والموهبة والشخصية ما يجعل الطالب يحترمه.

ومن الأساتذة: من يحترمه الطالب لقوة شخصيته، وسعة علمه، وضبطه

لقواعد الدرس، ولكنه لا يحبه، لفظاظته أو كبريائه، أو جلافة طبعه، أو نحو ذلك، مما لا يجذب القلوب إليه.

ومنهم: من لا يحترمه الطالب ولا يحبه، فليس عنده من العلم والشخصية ما يحترمه الطالب ويقدره لأجله، ولا عنده من العاطفة، وحسن المعاملة، وانبساط الشخصية: ما يحببه إلى الطالب.

ومنهم: من يجمع له الطلاب بين التقدير والحب معا، لما وهبه الله من علم، وما منحه من مواهب، وما يبذل من جهود: تفرض على كل من اتصل به أن يقدره ويحترمه، ويعطيه حقه من الإكبار والتقدير، كما أن لديه من الفضائل النفسية، والمكارم الأخلاقية، والسلاسة والعذوبة في الشخصية: ما يجعله يألف ويؤلف، ويُحِب ويُحَب.

وأحسب أن عبد العظيم كان - إلى حد كبير - مع طلابه من هذا الصنف. ليست هذه شهادة صديق لصديق، وإنما هي شهادة رئيس أو عميد لأستاذ.

على أن شهادة الصديق لصديقه ليست دائما موضع تهمة، فالله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

ومن الأصدقاء من يجور على صديقه، أو لا يعطيه حقه من الثناء إذا كان أهلا لذلك، حتى لا يتهم بالتحيز، وهو بهذا قد ظلم صديقه، وظلم الحق معا. كما قيل: إن بعض القضاة حكموا على بعض الأمراء ظلما ليشتهروا بالعدل! وقد شاهدت بنفسي بعض الأساتذة - وأنا عميد لكلية الشريعة - ظلم ابني، ولم يعطه الدرجة التي يستحقها، حتى لا يقال: إنه جامل ابن العميد!! هكذا اعترف لي بلسانه.

اشتغل عبد العظيم بالتحقيق أكثر مما اشتغل بالتأليف. مع أنه قادر على التأليف بمنهجية وجدارة، ولقلمه نفحة أدبية ظاهرة، وله اهتمام بالثقافة العامة، وبالتاريخ الإسلامي خاصة، وله فيه دراسات وكتابات جيدة، نشرت له «الأمة» في سلسلة

كتبها الدورية: كتابا منها، «المنهج في كتابة التاريخ الإسلامي عند المستشرقين» حتى إنه كتب قبل ذلك كتابا عن «أبي القاسم الزهراوي» الطبيب الجراح المسلم المعروف. وقلما يعنى المشايخ بمثل هذه الأشياء!

ولكن الذي استغرق وقته هو تحقيق تراث إمام الحرمين الفقهي، الذي أمسى من المختصين به، أو قل: من العاشقين له، فحقق ونشر من تراثه: «البرهان» في أصول الفقه، و«الغياثي» في السياسة الشرعية، و«الدرة المضية» في الخلاف بين الحنفية والشافعية. وأخيرا أنجز عمله الكبير، في تحقيق «نهاية المطلب ودراية المذهب» وهو أعظم أعمال إمام الحرمين، وأحد أمهات كتب الشافعية، وقد عكف عليه أكثر من عشرين سنة، وعانى فيه معاناة لمستها بنفسي، وبخاصة أن بعض أجزائه كان من نسخة واحدة، وهو الآن في سبيل نشره، يسر الله له الأمر. وقد سعدت بكتابة مقدمة له.

تأسيس أول بنك إسلامي في دبي:

في سنة ١٩٧٥م أعلن في إمارة دبي عن تأسيس أول «بنك تجاري إسلامي» أي لا يتعامل بالفوائد الربوية أخذا ولا إعطاء، ويلتزم أن يجري معاملاته وفق أحكام الشريعة الإسلامية وقواعدها. إنه «بنك دبي الإسلامي».

كان إعلان ذلك حدثا في التاريخ الاقتصادي للأمة، يعد انتصارا لها في معركة من أخطر المعارك التي تخوضها، لتحرر اقتصادها من رجس الربا، ومن هيمنة الاقتصاد الرأسمالي بفلسفته وتطبيقاته ـ منذ عصر الاستعمار ـ على جميع مصارفها ومؤسساتها المالية.

ولقد كان إنشاء بنك بلا فائدة حلما، فأصبح اليوم حقيقة!

كان «عبيد الفكر الغربي» كما سميتهم في كتاباتي، وأسرى الاقتصاد الوضعي، يقولون لنا: لا تحلموا ـ مجرد حلم ـ بإقامة بنوك بلا فوائد. فهذا مستحيل. إن الاقتصاد عصب الحياة، والبنوك عصب الاقتصاد، والفائدة عصب البنوك، ومن زعم إقامة بنك بغير فوائد، فهو واهم أو مغرق في الخيال!

وشاء الله أن يتحول الحلم أو الوهم أو الخيال، إلى واقع نشهده بأعيننا، ونلمسه بأيدينا. وكان هذا تطورا محمودا في موقف الأمة من هذه القضايا وأمثالها، وكان هذا تجسيدا للصحوة الإسلامية في ميدان الاقتصاد.

لقد مر فكر الأمة في مواجهة الغرب الذي غزانا وانتصر علينا بأطوار ومراحل:

أ ـ كان هناك طور الاستسلام والتبعية المطلقة، التي قال فيها طه حسين باتباع الحضارة الغربية في خيرها وشرها، وحلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب.. وحكى زكي نجيب محمود عن نفسه: أنه كان يرى في وقت ما: أن نأكل كما يأكل الغربيون، ونلبس كما يلبسون، ونتصرف كما يتصرفون، ونكتب من الشمال إلى اليمين كما يكتبون! وهؤلاء يرون شرعية اتباع نهج الغرب في كل شيء جهرة لا خفية، وصراحة لا ضمنا.

ب ـ وجاءت مرحلة أخف من تلك، وإن كانت أخطر، لأنها تريد أن تأخذ نهج الغرب بعد أن تسوِّغه بفتاوى شرعية، وأسانيد دينية، تجعل حرامه حلالا، ومنكره معروفا، أي أنهم أرادوا أن يلبسوا الخواجة الأوربي «عمامة» بدل القبّعة أو «البرنيطة» ـ كما يقول المصريون ـ حتى يقبل إسلاميا.

وفي هذا ظهرت محاولات للقول بإباحة «الربا» الذي تقوم عليه البنوك، تحت عناوين شتى: منها: أنه غير ربا الجاهلية.

ومنها: أن المحرم هو ربا الاستهلاك للنفقة الشخصية، وليس ربا التجارات والإنتاج.

ومنها: أن المحرم هو ربا الأضعاف المضاعفة.

ومنها: أن المجتمع أصبح في وضع ضرورة لهذه الفوائد، والضرورات تبيح المحظورات..

وكل هذه المحاولات باءت بالإخفاق، ورد عليها العلماء الراسخون، وكشفوا

عن زيفها من الشرعيين، من أمثال الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز، والشيخ أبي زهرة، والشيخ أبي الأعلى المودودي. . ومن الاقتصاديين من أمثال د. عيسى عبده إبراهيم. ود: محمد عبد الله العربي، ود. محمود أبو السعود، ود. أحمد النجار. وآخرين.

جـ- وكانت ردود هؤلاء العلماء على المحاولات التسويغية التي تعبر عن هزيمة نفسية: تمثل طورا جديدا، انضم فيه علماء اقتصاديون، لهم وزنهم وثقلهم العلمي، إلى علماء الشرع، ليعلن الجميع: أن «الربا» لا ضرورة إليه، ولا يمكن أن يحرم الله على الناس شيئا يحتاجون إليه، فضلا عن أن يضطروا إليه. وأن من الممكن إقامة بنوك بلا فوائد. ونشروا في ذلك مقالات ورسائل وكتبا، بأكثر من لغة، فقد ساهم إخواننا الباكستانيون والهنود في ذلك مساهمة طيبة.

د- ثم جاء طور آخر تعاون فيه: رجال المال والأعمال، مع رجال الشرع، ورجال الاقتصاد الإسلامي، لينشئوا أول بنك إسلامي، وانفردت إمارة دبي بهذه الفضيلة، وحازت قصب السبق في ذلك، وقد قيل: الفضل للمبتدي، وإن أحسن المقتدي.

وكان ممن له الفضل - بعد الله تبارك وتعالى - في إقامة هذا الصرح الإسلامي: صاحب الهمة العالية، والعزيمة القوية: الحاج سعيد لوتاه، رجل الأعمال المستنير، الذي صمم على أن يقيم هذا البنك، برغم تخويف المخوفين له، مما وراء ذلك من مخاطر ومجازفات غير مأمونة، ولكنه توكل على الله، ومضى في الطريق ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: ٣). ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٠١). وكان من رجال الاقتصاد الإسلامي الذين أسهموا بدور أساسي في إنشاء هذا البنك هو: الأستاذ الدكتور عيسى عبده إبراهيم، فيجب أن يذكر فيشكر.

وأيد الحاج سعيد افتتاح هذا الصرح بإقامة أول مؤتمر علمي شرعي للبنوك

الإسلامية، فدعا كوكبة من علماء الأمة في دبي، ليبحثوا عدة موضوعات، ويصدروا فيها فتاوى بالإجماع أو بالأغلبية، ليعمل البنك بموجبها.

وقد اعتبرني الحاج سعيد لوتاه رئيس مجلس إدارة البنك: مستشارا شرعيا غير متفرغ للبنك، فيما يحتاجون إليه، فكانوا يتصلون بي هاتفيا، أو أذهب إليهم بين الحين والحين، على فترات متباعدة.

وكنت أقوم بهذا العمل محتسبا، دون أي مقابل، فقد كان فرحي بقيام هذه المؤسسة الإسلامية، وإسهامي في إنجاحها أعظم عندي من أي أجر أو مكافأة مادية.

شركة الاستثمار الخليجي:

بدأت فكرة البنوك الإسلامية تتسع، فأنشئ «بنك فيصل الإسلامي» في مصر، و«بنك فيصل الإسلامي» في الخرطوم، وكان يرأس مجلس إدارة كل منهما: الأمير محمد الفيصل آل سعود، الذي تبنى فكرة البنوك الإسلامية، وخدمها ورعاها بماله ونفوذه، ورأى أن يخلد ذكر أبيه، الملك المحبب لدى جمهور المسلمين «فيصل بن عبد العزيز» بأن ينشئ سلسلة من البنوك الإسلامية تحمل اسمه، فنشأ البنكان في مصر والسودان.

ثم اقتُرِح على الأمير محمد: أن يؤسس في أقطار الخليج العربي: شركة للاستثمار، تجمع فيها أموال من لديه مدخرات يحب أن يستثمرها في الحلال المشروع. فكثير من الناس يجمد أمواله، ولا يستثمرها في حرام. فهذه الشركة فرصة تتيح للناس أن يستثمروا أموالهم وفق صكوك للمضاربة لمدة سنة، أو ثلاث سنوات، ثم يستردونها.

وقامت حملة إعلامية كبيرة لهذه الشركة، ومر الأمير محمد الفيصل ببلاد الخليج: الكويت والبحرين والإمارات، ثم قطر، للدعاية لهذه الشركة الوليدة،

وكان معه الأستاذ الدكتور عبد العزيز حجازي رئيس مجلس الوزراء المصري سابقا، والشيخ محمد خاطر مفتي مصر سابقا، والدكتور إبراهيم كامل أحد رجال المال والأعمال المرموقين، والذي يقيم بجنيف بسويسرا.

وقبل أن يصلوا إلى قطر، اتصلوا بي، وطلبوا مني أن أشد أزرهم في مسيرتهم، فقلت لهم: أنا معكم في وجهتكم في المعركة ضد الربا. فقالوا: نريدك أن تنضم إلينا وتكون أحد المتحدثين الرئيسيين في بلاد الخليج، فوافقت على ذلك.. وأقيمت ندوة حافلة حاشدة في فندق الخليج في قطر، في إحدى القاعات الكبرى، وقد ازدحمت على آخرها. تحدث الأمير محمد والشيخ خاطر والدكتور حجازي، ثم تحدثت بكلمة قوية شدت الجماهير إليها، ثم بدأ الناس يسألون ويستفسرون، وتجيبهم المنصة عن أسئلتهم.

والحقيقة: أن هذه الليلة كانت السبب الأكبر وراء نجاح شركة الاستثمار الخليجي، ولولاها لفشلت الشركة تماما، فقد تبين أن الذين ساهموا من قطر، كانوا حوالي الثمانين في المائة، أو أكثر، فلم يستجب الناس في بلاد الخليج الأخرى للنداء. ولا أريد أن أزكي نفسي، ولكنها الحقيقة تقال للتاريخ. فلولا ثقة الناس في قطر بي، واستماعهم لكلمتي، وأسئلتهم المتتابعة بعد ذلك لي: هل نشترك أو لا؟ ما قامت لشركة الاستثمار الخليجي قائمة.

كما اصطحبني الدكتور إبراهيم كامل معه في زيارات للكويت وللإمارات.

وبعد أن قامت الشركة، رأى الأمير محمد الفيصل والمسؤولون عن الشركة: أن يؤسسوا لها هيئة رقابة شرعية، تكون موضع ثقة عند الناس، وقد طلبوا مني أن أشارك فيها، فاعتذرت، ولكنهم ألحوا علي لكي تنجح الفكرة، فقبلت، وشكلت هيئة، كان رئيسها الشيخ المفتي محمد خاطر، وأعضاؤها الشيخ صديق الضرير، والشيخ عبد الله بن علي المحمود عالم الشارقة، ويوسف القرضاوي.

وكان مقر الشركة في ولاية الشارقة، وقد دعينا لافتتاحها هناك، وكان في يوم الخميس، وقد بتنا هناك وخطبت الجمعة في مسجد الشيخ سلطان القاسمي حاكم الشارقة وبحضوره، وقد دعانا للغداء عنده.

وكان نجاح هذه الشركة حافزا للتفكير في تأسيس شركة أكبر وأوسع، وهي التي سميت «دار المال الإسلامي» التي قامت في جنيف، ويديرها د. إبراهيم كامل، وسيأتي لها حديث يخصها في حينه.

عضوية مجلس إدارة بنك فيصل المصري:

فوجئت في أمسية يوم من الأيام باتصال من الأخ الصديق المهندس يوسف ندا، أظنه كان من القاهرة، وقال: إننا نريد أن تكون معنا في مجلس إدارة «بنك فيصل الإسلامي المصري». وقد رشحك أكثر من واحد في المجلس، منهم المهندس أحمد حلمي عبد المجيد، ورحب الأمير محمد الفيصل بذلك. وذكر أنك عاونتهم معاونة كبيرة في إقامة شركة الاستثمار الخليجي، وأن معاونتك كان لها الأثر الأول في قيام الشركة، قلت له: أنا أرحب بكل ما يوسع قاعدة الاقتصاد الإسلامي، ويضيق دائرة الربا في مجتمعاتنا المسلمة. ولكن أخاف أن يجور ذلك على وقتي الذي نذرته للعلم والدعوة. قال: احتسب ذلك في سبيل الدعوة أيضا، ووجود عنصر شرعي مهم في المجلس، على أن المجلس يجتمع كل شهرين مرة ولن يعطلك كثيرا. وقلت: على بركة الله. وكان المجلس الأول لا يحتاج إلى جمعية عمومية، ويكفي ترشيح بعض الأعضاء وموافقة أغلبية المجلس.

وأصبحت منذ ذلك الحين عضوا في مجلس إدارة بنك فيصل المصري، وحضرت أول جلسة عقدت بعد الانتخاب، ثم تعددت اللقاءات والجلسات وفيه تعرفت على سائر الأعضاء، ومنهم من لقيته قبل ذلك، ومنهم من لم ألقه: الأمير محمد، رئيس المجلس، ود. عبد العزيز حجازي نائب الرئيس، ود. توفيق

الشـاوي، والحـاج حلمي عـبـد المجـيـد، ود. عـمـر عـبـد الرحـمن عـزام، ود. عبدالعزيز، الفذّ والأستاذ حيدر بن محمد بن لادن، والأستاذ كمال عبد العزيز المحامي، والدكتور أحمد ثابت عويضة، ود. أحمد محمد عبد العزيز النجار، والأستاذ علي حمدي. ود. عبد الصبور مرزوق، وغيرهم.

ملاحظة على البنوك الإسلامية:

وما لاحظته: أن البنوك الإسلامية قد استعجلت في ظهورها، قبل أن تُهيأ لها «الكوادر» المطلوبة، على مهل. هذه الكوادر التي تجمع بين العلم المصرفي، والفقه الشرعي، والالتزام الإسلامي، والحماسة للفكرة والإيمان بها.. وهذا لم يكن حاصلا كما ينبغي.

بل قامت البنوك الإسلامية أول ما قامت على أناس جاءوا من البنوك الربوية، فليس عند أكثرهم أي فقه شرعي، ولا عندهم أي إيمان بفكرة بنك إسلامي، ولا عند كثير منهم أي التزام بخلق إسلامي، حتى كان منهم من لا يقيم الصلاة، ومن تدخل عليه وهو يدخن سيجارة. بل حكى لي بعضهم: أن منهم من كان يفطر في رمضان! فهل يؤمن هؤلاء على إقامة مؤسسة إسلامية يأتمنها المسلمون على تنمية أموالهم في الحلال، وهم لا يعرفون حلالا من حرام؟!!

لقد دخلت على مسؤول كبير في البنك يوما فوجدته يلبس في يده خاتما كبيرا من الذهب، فقلت له: هذا حرام على الرجال في الإسلام. قال: إن والدتي أهدته إلي حينما تزوجت! قلت: والدتك لم تكن تعرف أنه حرام. قال: ولا أنا أعلم أنه حرام. قلت: سأهديك كتابا يعطيك فكرة معقولة عن الحلال والحرام. فأهديته كتابي «الحلال والحرام في الإسلام». فلما قابلته بعد ذلك. قال: إن كتابك قد علمني كثيرا مما كنت أجهله. لقد كنا في جهالة وعمى، ففتح عيني. ووجدته قد خلع خاتمه الذهبي، ولم يعد في يده.

ومما أذكره: أن أحد الموظفين في إدارة الاستثمار في البنك سألني عندما

حضرت في أحد اجتماعات المجلس، سؤالا عجيبا، قال: هل يجوز أن يغير طالب المرابحة الشيء الذي اتفق على شرائه بشيء آخر؟ مثلا هو اتفق على شراء سيارة نقل كبيرة، فخطر له أن يغيرها ويشتري بثمنها جرارا زراعيا مثلا، هل هذا يجوز؟

قلت له: يا بني هذا لا يتصور أصلا، لأن طالب المرابحة لا يعطيه البنك نقودا في يده يشتري بها ما يريد، حتى يفكر في تحويلها من سلعة إلى أخرى. لكن البنك هو الذي يشتري له البضاعة التي أمر البنكَ بشرائها له، ولا بد أن يشتريها البنك لنفسه أولا، ويتملكها ويحوزها، ثم يبيعها له بعد ذلك، حتى لا يبيع ما لا يملك. فإذا كنت أعطيته الفلوس في يده، فهذا لا يجوز شرعا، وقد خالفت ما أفتت به هيئات الرقابة الشرعية جميعا، وخنت الأمانة التي ائتمنت عليها. فقال: والله ما كنت أعرف ذلك. ولن أفعلها بعد ذلك.

وحكيت ذلك لنائب محافظ البنك الأخ الكريم الأستاذ أحمد عادل كمال، فقال لي: يجب أن نجمع لك الموظفين لتشرح لهم هذه المسألة وغيرها من مسائل المعاملات التي يغلطون في تطبيقها، ويسيئون إلى سمعة البنك، ويطعمون الناس الحرام.

وبالفعل جمع لي الموظفين، وجلست معهم وقتا طويلا، أشرح لهم بعض ما غمض عليهم، وأجيب عن استفساراتهم حول معاملات البنك، وما قد يقعون فيه من أخطاء.

والآن قد تجمع لدى البنوك أو المصارف الإسلامية رصيد كبير من «فقه المعاملات» وبحوث ومناقشات مستفيضة عن الاقتصاد الإسلامي، صدر بعضها في فتاوى لبعض البنوك، وبعضها صيغ في كتب ورسائل، وبعضها مخزون في الكمبيوتر مثل «ندوات البركة» السنوية وغيرها. كما أنشأت هيئة المحاسبة المالية في البحرين «مجلسا شرعيا» يشرف على تطوير البنوك الإسلامية ورقابتها الشرعية.

نرجو أن تنتفع به هذه البنوك، بجوار «مجلس للمعايير» أصدر عددا من المعايير المحاسبية الإسلامية.

مشاغبات سنوية في جمعية بنك فيصل:

ومن ذكريات بنك فيصل: ما كان يحدث في اجتماع الجمعية كل عام، من صراع على مقاعد المجلس، فقد كان هناك فئة لها مجموعة كبيرة من أسهم البنك من آل عزام ومن يلوذ بهم، وكانوا على خلاف مع الأمير محمد، على ما بينهم من قرابة، وكانوا كل سنة يثيرون غبارا ودخانا في جلسة الجمعية العامة، ويقدمون الأسئلة المحرجة، ويرفعون درجة التوتر إلى أقصاها، ويزداد هذا ويتضاعف كل ثلاث سنوات، حين يكون هناك انتخاب مجلس جديد، فتراهم يرسلون إلى كل مساهم خطابات مطولة، فيها اتهامات وانتقادات، وربما شتائم لمجلس الإدارة، ولإدارة البنك.

وعند عقد الجمعية، يتكتلون في القاعة، ويبدأون المشاغبة، ويدفعون بعض الناس معهم ليقوموا بذلك.. ونظل أحيانا معظم الليل في هذا الجو الخانق المؤلم من الصراع.. والأمير محمد يقابلهم بصبر الحليم، وخلق الكريم، والإنسانية التي تليق بالرجل الكبير، مع أن بعض ما يقومون به يثير الرجل الهادئ، ويغضب الرجل الحليم. وبمثل هذا الحلم والخلق يسود الرجال. ثم ينتهي الأمر دائما بفوز مجموعة الأمير محمد، لأنها تملك معظم أسهم البنك! وهم يعلمون ذلك تماما، ولكنهم يقولون: العيار الذي لا يصيب يترك دويا.

وكثيرا ما كنت أستأذن وأنصرف قبل أن تنتهي الجلسة، لأني لم أعد أطيق البقاء في هذا الجو الساخن المجهد للأعصاب.

تجربة بنك فيصل الإسلامي بالخرطوم:

وكما قام بنك فيصل الإسلامي بالقاهرة: قام نظيره في الخرطوم، ولكن كان حظه في التهيئة والإعداد البشري أفضل من حظ بنك القاهرة. فقد كان المتحمسون

لإنشائه من الإسلاميين المتمرسين، وممن يجمعون بين الوعي الفكري والقدرة على الحركة معا. وهذا كان له أثره في حسن نشأة البنك أول الأمر.

فهم لم يقبلوا كل من تقدم إليهم، بل انتقوا منهم أفضل العناصر الملائمة للعمل المنشود، عن طريق إجراء امتحانات تحريرية، ومقابلات شفوية، تنبئ عن قدرات الشخص المتقدم: الذهنية والمعرفية والمهنية، وعن اتجاهاته الفكرية والسلوكية.

ولقد اشترك في وضع هذه الاختبارات: رجال من ذوي الدراسة والكفاية من الشرعيين والاقتصاديين والإداريين والتربويين، منهم: الأستاذ الدكتور جابر عبد الحميد وكيل جامعة قطر فيما بعد، والأخ محمود نعمان الأنصاري، مساعد الأمين العام لاتحاد البنوك الإسلامية، وزميلي في السكن في عهد الطلب بشبرا، وكان الأمين العام هو الدكتور أحمد النجار، المتحمس لفكرة البنوك الإسلامية وترويجها.

ولم يكتف بهذا الامتحان التحريري، فلا بد للمتقدم: أن يجتاز مقابلة شخصية، للجنة مختصة، يظهر فيها ما لا يظهر في الامتحان التحريري.

ومن ينجح في الامتحانين يختار منهم الأفضل فالأفضل، والعرب تقول: من أخصب تخيّر.

ولم يقف الإخوة في السودان عند هذا الحد، بل أقاموا دورة لعدة أسابيع لتثقيف المختارين، بإعطائهم جرعات مركزة في كل الجوانب التي يحتاج إليها العاملون في البنك: شرعية واقتصادية وإدارية ومحاسبية وسلوكية، يختار لها خبراء متخصصون في سائر هذه الجوانب من داخل السودان ومن خارجها. وقد دعيت للمشاركة في هذه الدورة النافعة، وبقيت في الخرطوم عدة أيام لإلقاء عدد من المحاضرات، والإجابة عن الأسئلة التي يثيرها الدارسون حول النواحي الشرعية.

بهذا كان حظ بنك فيصل السوداني من إعداد العنصر البشري أفضل من سائر البنوك. ولا أدري لماذا لم تستفد البنوك الإسلامية من هذه التجربة الفذة، كلما أرادوا أن ينشئوا بنكا إسلاميا جديدا!

إن العنصر البشري هو المؤثر الأول في نجاح أي مؤسسة، فكيف إذا كانت مؤسسة إسلامية ذات رسالة ربانية إنسانية أخلاقية، بجوار رسالتها الاقتصادية؟

والقرآن يحدد الصفات الأساسية في العنصر البشري المطلوب، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦).

فالقوة: تمثل القدرة على إنجاز العمل والخبرة فيه، وما يتطلبه ذلك من معرفة وثقافة ومهارة.

والأمانة: تمثل الجانب الأخلاقي، الذي يرعى حدود الله، وحقوق الناس، والذي يدفع لإحسان العمل، لإرضاء الله، لا إرضاء الناس، ويجعله يراقب الله في عمله قبل أن يراقب البشر.

وهذا يحتاج إلى حسن الاختيار والانتقاء من أول الأمر، فيختار العنصر الصالح، دون محاباة ولا محسوبية، ولا لأي اعتبار غير الكفاية والأمانة.

وبعد ذلك: يكون التدريب المستمر والتوعية الدائمة، ليظل المرء في حالة ترقٍّ أبدا من حسن إلى أحسن، ومن أحسن إلى الأحسن. كما هو شأن المؤمن دائما، ينشد الأحسن والأمثل في كل شيء، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر: ١٧، ١٨).

بعض إنجازات اتحاد البنوك الإسلامية:

ولقد شعر اتحاد البنوك الإسلامية الذي كان الأمير محمد الفيصل يرأسه، ويقوم بأمانته الدكتور أحمد النجار، بحاجة العاملين في المصارف الإسلامية إلى ثقافة شرعية واقتصادية، فشرع في عمل «موسوعة للبنوك الإسلامية»

ضمنها كثيرا من التوجيهات والدراسات، التي كانت مهمة في بداية نشأة البنوك. وإن كانت البحوث والدراسات المصرفية الإسلامية بعد، قد تجاوزتها كثيرا.

كما اجتهد الدكتور النجار - برعاية الأمير محمد - أن ينشئ معهدا لتثقيف العاملين في هذه البنوك، وكان مقره «قبرص» الإسلامية التركية، وظل عدة سنوات، يرسَل إليه أفراد لتدريبهم وتخريجهم، ثم توقّف، لما يتطلبه من تكاليف للدارسين والمحاضرين، وكان الأولى أن يكون في مصر لا في قبرص.

والمهم هنا هو الشعور العام بالحاجة إلى إمداد العاملين في المصارف - أو البنوك - الإسلامية بما لا بد منه من المعارف والثقافات اللازمة لمن يعمل في هذا الميدان، وهي معارف تنمو وتتطور يوما بعد يوم، وفي حاجة إلى من يلاحقها ويساير ركبها.

الزيارة الأولى للسودان:

كانت زيارتي للخرطوم بمناسبة إنشاء بنك فيصل الإسلامي، هي الزيارة الأولى للسودان الشقيق، على ما بين مصر والسودان من صلة طبيعية وتاريخية، حتى كان الإمام حسن البنا يقول: السودان هي مصر الجنوبية، ومصر هي السودان الشمالي.

وقد كنا - ونحن طلاب - ننادي بمطلبين وطنيين أساسيين: جلاء الإنجليز عن مصر والسودان جميعا، ووحدة وادي النيل. وكان من هتافاتنا المألوفة: النيل لا يتجزأ.

والحق أني وجدت نفسي في الخرطوم كأني في مدينة في صعيد مصر، ووجدت الإنسان السوداني أقرب شيء إلى الإنسان المصري، فالوحدة بين الشعبين قائمة، ولكن المشكلة في الحكام.

وكانت فرصة للقاء بعدد من الإخوة الذي عرفناهم في أيام الدراسة بالقاهرة، أو جمعنا بهم السجن الحربي، كما التقيت الدكتور حسن الترابي، والشيخ صادق عبد الماجد، وعددا من قادة الحركة الإسلامية.

وقد دعيت لإلقاء محاضرة فى جامعة الخرطوم عن موقف الإسلام من الأقليات الدينية فى مجتمعه، أعقبتها أسئلة ومناقشات مفيدة.

حضور مهرجان ندوة العلماء بالهند:

كان من أهم ما حدث في تلك السنة (أواخر شهر أكتوبر سنة ١٩٧٥م): المشاركة في «مهرجان ندوة العلماء» بلكهنو بالهند، الذي دعا إليه الداعية الإسلامي الكبير حبيبنا العلامة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي رئيس ندوة العلماء، وذلك بمناسبة مرور خمسة وثمانين عاما على تأسيس ندوة العلماء، التي قامت بدور مذكور مشكور، معروف غير منكور، في إقامة تعليم إسلامي، يأخذ من التراث ما صفا، ويدع ما كدر، يجمع بين العلم الواسع والإيمان الراسخ، يوفق بين صحيح المنقول وصريح المعقول، يرحب بكل جديد نافع، ويحرص على كل قديم صالح، يؤمن بثبات الأهداف ومرونة الوسائل، هو في الأولى في صلابة الحديد، وفي الثانية في ليونة الحرير.

قام على هذه الندوة منذ تأسيسها رجال كبار، جمعوا بين النقل الصحيح، والعقل الصريح، واغترفوا من التراث، ولم يغفلوا عن العصر: جمعوا بين عقلانية الفيلسوف، وروحانية المتصوف، وانضباط الفقيه، ولم يكتفوا بالرواية عن الدراية، ولا بالدراية عن الرواية، من هؤلاء الرجال الأفذاذ: العلامة شبلي النعماني، مؤسس «دار المصنفين» في أعظم كره، ومؤلف «السيرة النبوية» الشهيرة، التي كتبها بالأردو، والعلامة سليمان الندوي مكمل سيرة النعماني، وصاحب المؤلفات القيمة، والتي نقل إلى العربية منها محاضراته في «مدْراس» عن «السيرة النبوية» وخصائصها، والعلامة الشيخ عبد الحي الحسني - والدَ الشيخ أبي الحسن - مصنف كتاب «نزهة الخواطر» في أعلام الهند. . وغيرهم من الرجال الربانيين الذين عَلِموا وعملوا وعلَّموا.

فكانت ندوة العلماء ومؤسساتها التعليمية مثل «دار العلوم» وكلياتها المختلفة في علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية، ومعهد الفكر الإسلامي وغيرها: نموذجا يحتذى في الجمع بين الأصالة والمعاصرة. أراد العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي أن يجمع كبار علماء الأمة ودعاتها بهذه المناسبة، ليروا هذه المؤسسة الفريدة بأعينهم، ويلمسوا آثارها بأيديهم، ويتحسسوا حاجاتها بأنفسهم، ويساهموا في إقامة مشروعاتها المستقبلية، وهم على بينة من أمرها.

ولهذا لم يسعنا حين وصلتنا دعوة الشيخ إلا أن نلبي النداء، ونهرع إلى هناك، وكنا وفدا من قطر مكونا من فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، وفضيلة الشيخ عبد المعز عبد الستار، والفقير إليه تعالى، وقد دعي عدد من علماء الإمارات على رأسهم فضيلة الشيخ أحمد عبد العزيز المبارك رئيس القضاء الشرعي، وعدد من علماء المملكة العربية السعودية ورجالها، ومن الكويت والبحرين ومصر وسورية والأردن وغيرها.

وكان على رأس الوفد المصري الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر، وفضيلة الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي وزير الأوقاف.

وصلت الوفود إلى دلهي، فاستقبلنا إخوة من الندوة في مطار دلهي، ومن دلهي ركبنا الطائرة إلى لكهنو، حيث وجدنا استقبالا حافلا في المطار، وقد ألبسونا عقودا من الأزهار والورد، على عادة أهل تلك البلاد. ثم رأينا الاستعدادات الضخمة في مقر ندوة العلماء لاستقبال الضيوف، ونزلنا في فندق من فنادق الدرجة الأولى في المدينة، وكان مسلمو المدينة (لكهنو) ومسلمو الهند عامة في خدمتنا، فما من مدينة في الهند إلا أرسلت ممثلين لها، وكأنا كنا ضيوفا على مسلمي الهند جميعا، فبالغوا في إكرامنا، حتى قال أخونا وصديقنا الدكتور محمد المهدي البدري ـ الذي جاء من عجمان من دولة الإمارات ـ مازحا: لم يبق على الشيخ الندوي إلا أن يزوج كل ضيف هندية مسلمة!

وفي مقر الندوة أقيم سرادق ضخم يسع ألوفا مؤلفة، لأن الندوة أقامت

مؤسساتها في أطراف المدينة، وأخذت منطقة واسعة، فأمكنها أن تقيم حفلها الكبير بها.

كان الحفل يضم المسلمين وغير المسلمين، فقد بهز الهندوس هذا الاستعداد الكبير، وعلموا أن شيوخا كبارا من العالم العربي والعالم الإسلامي سيحضرون، فرغبوا في المشاركة، وحضر ألوف منهم في المهرجان. كما أن كثيرا منهم حضروا إكراما للشيخ الندوي، لما له مكانة كبيرة في الهند كلها.

وسمح الشيخ الندوي لأول مرة للمصورين أن يحضروا، ويلتقطوا الصور للحفل وللضيوف، وللمتكلمين، وقال الشيخ: إن علماء الهند لا يجيزون التصوير، ولكن لأجل خاطر إخواننا من علماء العرب سمحنا بالتصوير، نزولا على رأيهم في إباحته.

وكان المتبع في مثل هذه الأحوال: أن يكون الشيخ أبو الحسن الندوي هو رئيس هذا المهرجان أو المؤتمر، ولكنه أبى إلا أن يكون الرئيس هو شيخ الأزهر الشيخ عبد الحليم محمود.

وتحدث عدد من المدعوين، يقدمهم عريف الحفل، ولكن اثنين منهم حرص الشيخ الندوي على أن يقدمهم للجمهور بنفسه، أحدهما: العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، الذي يعرفه علماء الهند بآثاره العلمية، والذي له عناية خاصة بعلماء الهند وآثارهم العلمية، ولا سيما عالم لكهنو المحدّث الشهير الشيخ عبد الحي اللكنوي، الذي نشر الشيخ آثاره مثل «الرفع والتكميل في الجرح والتعديل» وغيرها، وعلق عليها تعليقات ضافية.

والثاني، هو: يوسف القرضاوي، الذي ألبسه الشيخ ثوبا فضفاضا، وأضفى عليه من الصفات والمحاسن ما يليق بالمقدِّم لا المُقدَّم.

ارتجلت في الحفل الكبير الذي لا تكاد ترى آخره؛ كلمة قوية مركزة، أثرت في الحضور، حتى الذين لا يعرفون العربية تأثروا بها، ربما لأنها خرجت من أعماق

القلب، فأثرت في القلوب، حتى قال لي الشيخ أبو الحسن: لعلك تعجب إذا علمت أن المسلمين الذين لا يعرفون العربية تأثروا بكلامك لما فيه من حرارة وحيوية، وإن لم يعرفوا معناه. وأعجب من ذلك أن الهندوس الذين حضروا الحفل تأثروا بكلامك وإن لم يفهموه!! قلت له: إنها نفحات ندوة العلماء وشيوخها هبت علينا، فما كان في كلامنا من خير، فهو منكم وإليكم.

وقد قسم أعضاء المؤتمر إلى لجان، شاركت في إحداها، أظنها: لجنة التربية والتعليم، كما شاركت في لجنة الصياغة العامة لتوصيات المؤتمر.

كانت أيامنا في «لكهنو» أياما طيبة، حافلة بالخير، فياضة بالحب، سعدنا فيها بإخوتنا وأحبابنا في الندوة، الذين عرفناهم من قبل، والذين لم نعرفهم: الشيخ محمد الرابع، والشيخ واضح رشيد، والشيخ سعيد الأعظمي، وغيرهم من العلماء والدعاة من أرباب القلم واللسان.

وكانت دولة الهند - إكراما للشيخ أبي الحسن، واعترافا بمنزلته في العالم الإسلامي - قد استضافت عددا من الضيوف، وهيأت لهم زيارة بعض المناطق السياحية، في دلهي، وفي تاج محل وغيرها.

وكان الشيخ عبد الحليم محمود، والشيخ الذهبي، والشيخ الأنصاري، والشيخ عبد المعز، وأنا، ممن نزلوا ضيوفا على الدولة، وذهبنا للسلام على رئيس الجمهورية، وكان مسلما، وهو الدكتور ذاكر حسين، والمعروف أن رئيس الجمهورية في الهند ليس له سلطات تذكر، وإنما السلطة في قبضة رئيس الوزراء، على غرار النظام الإنجليزي، فرئيس الجمهورية يملك ولا يحكم.

وقد دعانا رئيس الجمهورية على الغداء، ثم رافقنا عدد من رجال الحكومة لزيارة بعض الأماكن المهمة التي يحرص السياح عادة على زيارتها، فزرنا القلعة الحمراء في دلهي، ومنارة قطب الدين، وغيرها.

وكان أهم معلم سياحي زرناه هو «تاج محل» الذي هُيئت لنا زيارته بسيارات خاصة، وحجز لنا في أحد الفنادق هناك، وهو فعلا تحفة هندسية معمارية فنية لا

نظير لها، وهو يعد من عجائب الدنيا السبع، وقد أعده الملك «شاهجهان» - أحد ملوك المغول - ليكون قبرا لزوجته التي يحبها.

ولا ريب أن هذا من السرف والبذخ والترف المحرم في الإسلام: أن تنفق ألوف الألوف من أموال الدولة على مقبرة لميت، مهما تكن منزلته، وقد أنكر هذا كثير من الدعاة والمفكرين الإسلاميين، ولعل أشدهم في ذلك كان الأستاذ أبا الأعلى المودودي.

ولكن ربما لو نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى: أن الرجل أراد أن يبين مبلغ الرقي العمراني والحضاري للمسلمين في دولته، وتمكنها من العلم والهندسة والفنون، وأن يكون البناء معْلَما دالا على عظمة الحضارة الإسلامية في الهند.. لو نظرنا للأمر بهذه العين: ربما وجدنا له عذرا. كما بنى المصريون الفراعنة «الأهرام» مقابر لملوكهم، ولكنها بقيت آثارا دالة على شموخ المدنية المصرية القديمة، وارتقائها في فن المعمار، إلى مدى لم يعرف سره البشر إلى اليوم.

ومن المهم أن نعلم أن كل المعالم السياحية التي تباهي بها الهند وتفخر: هي معالم إسلامية، فلم نكد نجد شيئا له قيمة يمكن أن يزار غير ما خلفه المسلمون.

كانت هذه أول مرة أزور فيها الهند، وهي زيارة لا شك نافعة، تعلمت منها الكثير، ورأيت فيها الكثير، وفي ختامها دعانا سفير قطر في الهند - ولا أذكر: أكان الأستاذ شريدة الكعبي أم الدكتور حسن نعمة - على الغداء في بيته، وشكرنا له حسن ضيافته، وطلبت منه أن يحجز لي للعودة إلى قطر، فأنا مرتبط بعملي الجامعي، ولا أستطيع أن أتغيب عنه كثيرا.

وحجزت السفارة العودة لي عن طريق «بومباي» التي بت فيها ليلة في ضيافة القنصلية القطرية هناك، ورأيت في بومباي ما رأيته في دلهي: مناطق تراها غاية في النظافة والرقي والتحضر، وأخرى غاية في الفقر والقذارة حتى ليكاد الناس لا يجدون ما يسترهم.

وقيل لي في بومباي: إن هنا أناسا يولدون ويعيشون ويموتون في الشارع لا

بيوت لهم!! إنها الطبقية الصارخة، التي تجعل بعض البشر كالآلهة، وبعضهم أدنى مرتبة من الحيوان!!

زيارة وفد اتحاد الطلبة المسلمين بأمريكا:

ومن أهم أحداث هذه السنة: زيارة وفد من اتحاد الطلبة المسلمين في أمريكا (MSA) لدولة قطر، وكان الوفد يتكون من ثلاثة من الإخوة المسؤولين عن الاتحاد، منهم الأخ الدكتور التيجاني أبو غديري، وهو سوداني الأصل، والأخ الدكتور جمال برازنجي، وهو عراقي الأصل، ونسيت الثالث.

وقد زاروا الأمير الشيخ خليفة بن حمد، وتحدث الأخ جمال البرازنجي، فكان حديثه في غاية التوفيق، فلخص له دورهم الذي يقومون به أحسن تلخيص، وعرضه أجمل عرض، كما بين حاجاتهم ومطالبهم التي ينشدونها من قطر، وتتحدد في أن تساهم قطر في بناء مركزهم الذي يريدون بناءه في منطقتهم التي اختاروها في ولاية «إنديانا بولس»، وأعتقد أن الأمير انشرح صدره لهم، ووعدهم خيرا، وسافروا من قطر ليكملوا جولتهم في بلاد الخليج، وكلفوني أن أتابع الأمر أنا والشيخ عبد المعز عبد الستار، مع الأمير.

وقد وجهوا دعوة بعد ذلك إليّ عن طريق الجامعة، لأشارك في مؤتمرهم السنوي الذي يعقد في شهر مايو من كل عام، ووافقت الجامعة على سفري للمؤتمر، وقابلت الأمير وذكرته بوعده للوفد الذي زاره، فكتب لهم شيكا بمبلغ نصف مليون دولار لبناء مكتبة مركزهم، وتكون باسم أمير دولة قطر، وكلفني أن أحمل الشيك معي، وأقدمه إليهم، معونة من الأمير لهم.

السفر إلى أمريكا:

وفي الموعد المحدد، تهيأت للسفر إلى أمريكا، لأول مرة، وقد كانت زوجتي ترافقني، حيث الطريق طويل، ويحتاج المرء فيه إلى رفيق يهون عليه طول الرحلة،

ووعثاء السفر. فرأيت أن أصطحب زوجتي، ونقطع تذكرتين على الدرجة السياحية بثمن تذكرة الدرجة الأولى المصروفة لي، فإن الدرجة السياحية مع الرفقة المؤنسة خير من الأولى مع الانفراد في هذا السفر الطويل. وقد سافرت من الدوحة إلى القاهرة، وبت ليلة في القاهرة، ومنها قمت من الصباح الباكر لأسافر إلى لندن، حيث ركبت الطائرة الأمريكية TWA ـ على ما أذكر ـ من مطار لندن الساعة الثانية عشرة ظهرا إلى نيويورك، ومنها إلى مطار شيكاغو حيث وجدت بعض الإخوة ينتظرونني، لأبيت هناك وألتقي بعض الإخوة الكرام، ونعقد جلسة فكرية روحية طيبة، في بيت أحد الإخوة، لعله الشيخ أحمد زكي حماد، الذي كان يقيم في شيكاغو في ذلك الوقت هو وأهله.

وفي اليوم التالي سافرت إلى مقر الاتحاد، وسلمت الإخوة؛ الشيك الذي حملني إياه الشيخ خليفة أمير قطر، تسلمه مني الأمين العام لاتحاد الطلبة المسلمين: الأخ الكريم الدكتور محمود رشدان، الذي كان شعلة متوقدة من الحيوية والنشاط، مع إيمان صادق، والتزام صارم، ووعي بالحاضر، واستشفاف للمستقبل، ومرونة بصيرة في التعامل مع الأحداث.

وكان الاتحاد قد مر بدور الطفولة ثم الصبا، وقد بدأ دور الشباب، وهو دور القوة والحيوية والنشاط الدافق، وقد بدأت تنبثق منه جمعيات وأجهزة ومنظمات لها قيمتها ووزنها.

مثل جهاز التعليم الذي يشرف عليه الأخ التيجاني أبو غديري.

ومثل جهاز «الوقف الإسلامي» الذي يشرف عليه الأخ جمال برزنجي.

ومثل جهاز آخر، يشرف عليه الأخ الدكتور هشام الطالب.

ومثل رابطة العلماء الاجتماعيين، ويشرف عليها الدكتور إسماعيل الفاروقي.

وكذلك الجمعية الطبية الإسلامية، وجمعية العلماء والمهندسين المسلمين.

وهكذا أطلعني الإخوة على مؤسساتهم وفروع أنشطتهم، مما زادني اطمئنانا على سداد خطواتهم، ورشد مسيرتهم.

وقد بقينا في مقر الاتحاد يومين ثم انتقلنا إلى مدينة «بولمنتو» حيث يعقد المؤتمر، وهي المدينة التي يقيم فيها الأخ النشيط المتحرك الواعي: مانع الجهني من طلاب السعودية.

كان الإخوة يستأجرون عادة مساكن إحدى المدن الجامعية في إحدى الإجازات لعدة أيام، ليستفيدوا من حجرات المساكن، ومن المطاعم، والقاعات، والساحات.

وكانت هذه الأيام كلها نشاطا مكثفا: فكريا وروحيا ورياضيا واجتماعيا.

وكان كل مؤتمر يدور حول محور معين تلقى فيه محاضرات، وتدار حوله الأسئلة والمناقشة، وهناك محاضرات عامة للجميع. وهناك حلقات ولقاءات نوعية خاصة، مثل لقاء للنساء، أو لقاء لذوي اختصاص معين.

وكان التركيز شديدا علي، فكنت أشارك في المحاضرات العامة، وألتقي لقاءات خاصة، ولا سيما مع الأخوات، ونعقد جلسة عامة للإجابة عن الأسئلة الفقهية والدعوية، وأقول كلمات موجزة بعد الصلوات، وبخاصة صلاة الفجر.

ونظرا لاختلاف التوقيت في أمريكا عن الدوحة اختلافا شاسعا، فقد أصبح نهاري ليلا، وليلي نهارا، واختلاف نوع الأكل عما اعتدته في قطر، وانشغالي الشديد بالنشاط، فقد نسيت نفسي، فلم أدخل المرحاض للتبرز أكثر من ثمانية وأربعين ساعة، وأصابني إمساك شديد، لم أستطع أن أخرج ما تخرجه أمعائي الغلاظ، رغم تكرار المحاولة والمعاناة، التي جعلتني أتلوى من الألم، ولا أخرج شيئا، وكانت نتيجة ذلك: أن أصبت بشرخ في الشرج، ظللت أشكو منه عدة سنوات، ولم أشف منه إلا بعملية جراحية أجريتها في «مستشفى الرميلة» بالدوحة. أجراها د. النجار، أستاذ الجراحة في طب الأزهر. وكان طبيبا زائرا، استدعاه المستشفى للقيام ببعض العمليات المهمة. وكان من الأطباء المتميزين في الجراحة، وفي هذه العملية خاصة، جزاه الله خيرا.

على أن الإخوة المسؤولين عن المؤتمر، أحضروا لي طبيبا ممن يشاركون في المؤتمر، وهم كثر، والحمد لله، وقد نصح باستعمال الحقنة الشرجية، لتسهيل إنزال المخزون في البطن، وبعد ذلك تمشي الأمور طبيعية، وخصوصا مع مراعاة الإكثار من الخضراوات والفواكه ونحوها مما يجنب المرء الإمساك المحظور.

الجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء:

وكان الإخوة قد اعتادوا في مؤتمراتهم: أن يصلوا كل صلاة في وقتها، مع أن ٩٩٪ من المشاركين مسافرون، وكان الإعداد للصلاة يأخذ من الإخوة جهدا ووقتا ليس بالقليل، فالمنطقة التي تقام فيه الصلاة مشغولة في العادة بأشياء، فلا بد أن تفرغ من كل ما فيها من نشاط، وأن تفرش، ويطوى الفرش بعد الصلاة.

فقلت للإخوة: لماذا لا نأخذ برخصة الجمع، ونحن في هذا المؤتمر أحوج ما نكون إليها، لازدحام الوقت بالنشاط المكثف، ولأن أداء كل صلاة في وقتها يرهقنا من أمرنا عسرا.

قالوا: إن إخواننا من الهند وباكستان يرفضون الجمع؛ لأنهم أحناف، والمذهب الحنفي - كما تعلم - لا يجيز الجمع إلا في عرفة ومزدلفة في الحج.

قلت: لهم أن يقلدوا غير مذهبهم في هذه القضية، ولا سيما أن القول فيها أرجح، والحاجة إليه ماسة، والله يحب أن تؤتى رخصه، ولا داعي للتعصب المذهبي، والتعسير على سائر الإخوة.

أنا سأدعو إلى الجَمْع بين الصلاتين إذا أقمنا صلاة الظهر، ومن قبل قولنا صلى وراءنا، ومن لم يقبل صلى ما شاء بعد ذلك، وعندما أقيمت الصلاة أخبرتهم بما سنفعل، وسكت الإخوة على مضض، وأكثرهم صلى خلفي، ثم ما لبثوا أن صلوا جمعا، وقالوا: ما كان أغبانا! عسرنا على أنفسنا ما يسر الله.

وبذلك وفرنا الجهد والوقت، وأصبح هذا هو المعمول به في كل المؤتمرات بعد ذلك، والحمد لله.

مؤتمر للإخوة والأخوات جميعا:

كان مؤتمر الاتحاد يضم الإخوة والأخوات، ويحضر الجميع المحاضرات، ويشارك الجميع - رجالا ونساء - في الأنشطة المشتركة، ثم تكون حلقات خاصة للنساء.

وكان الرجال عادة يجلسون في جانب والنساء في جانب، وأحيانا يكون الرجل وعائلته: هو وزوجته وأبناؤه وبناته يأخذون مكانهم في أحد الصفوف، وعائلة أخرى بجوارهم، فهناك أماكن مخصصة للعائلات، وأماكن أخرى للعزاب، أو للرجال الذين ليس معهم عائلاتهم.

لم يكن كل الحضور عربا، بل كان منهم الهنود والباكستانيون والماليزيون والأمريكيون وغيرهم ممن لا يعرفون العربية، وكان لا بد من مترجم ينقل معنى كلامي إلى الإنجليزية، وكان هناك أكثر من مترجم، ولكن أفضل مترجم لي كان هو الأخ العلامة الدكتور جمال بدوي، فقد كان لجودة معرفته باللغتين: العربية والإنجليزية، ولخلفيته العلمية الإسلامية، ولروحه الدعوية، كان ينقل كلامي بمعانيه وأفكاره، وبروحه وحرارته، وقد قال لي الشيخ أبو الحسن الندوي في لكهنو: إننا إذا وجدنا من يترجم معاني كلامك، فأنى نجد من يترجم حرارتك وحيويتك؟ ولكني وجدت الدكتور بدوي، يترجم الفكر والروح جميعا، بارك الله فيه، ونفع به.

بعد انتهاء أيام المؤتمر، عدنا إلى مقر الاتحاد، ومن هناك رتب الإخوة عدة زيارات لبعض المدن، ومنها: مدينة «نيوجرسي» التي تعد لنيويورك، مثل الجيزة للقاهرة، فهما متصلتان.

إلى مدينة نيوجرسي:

وفي نيوجرسي يوجد مركز إسلامي قوي، فيه حركة ونشاط، ويقوم عليه عدد من الإخوة معظمهم مصريون، وإمامه عالم أزهري مصري كبير، هو أستاذنا الدكتور سليمان دنيا، أحد علماء الأزهر المتمكنين، وأحد أساتذة العقيدة والفلسفة، الذين دخلوا تخصص المادة، وحصلوا على شهادة العالمية من درجة «أستاذ» بامتياز، وابتعث إلى لندن، مع زميليه: حمودة غرابة، ومحمد بيصار، لإتقان اللغة الإنجليزية، والحصول على الدكتوراه من لندن، وقد أحيل على التقاعد، واختار أن يقيم في أمريكا إماما ومستشارا دينيا لهذا المركز الإسلامي الكبير، وقد سعدت بالتعرف عليه وجها لوجه، بعد أن كنت أعرفه بالاسم وقراءة كتبه فقط.

كان هذا المركز في الأصل كنيسة اشتراها المسلمون، وحولوها إلى مركز إسلامي، يسع أنشطتهم المختلفة، وأولها: الصلاة، ففيها صالة كبيرة ومنصة، تتحول عند الصلاة إلى مسجد جامع، تتراص فيه الصفوف، وفق علامات معينة، ترسم خطوطا، تحدد القبلة.

وبعد الصلاة يجلس الناس في هذه القاعة الكبيرة، التي تتحول إلى قاعة محاضرات، يجلس المتحدثون فيها على المنصة المعدة لذلك من أول الأمر، ويجلس الناس فيها على الكراسي، ويولون وجوههم شطر المنصة.

جنوح إلى التشديد لامبرر له:

وهنا وجدنا ـ كالعادة ـ بعض الإخوة الذي يجنحون إلى التشديد والتعسير، يعترضون ـ فيما يعترضون عليه ـ على جلوس الناس على الكراسي، وتوجهم إلى غير القبلة في الجلوس، وعلى لبس «البنطلونات» ولبس الساعة في اليد اليسرى، بدل اليمنى.. إلخ.

نظم الإخوة لي محاضرة في المركز، لا أذكر موضوعها، وبعد المحاضرة: يخصص وقت للأسئلة للإجابة عنها ما وسعنا الوقت والجهد.

وكان من الأسئلة هذه الأشياء، التي يعترض بها الإخوة الذين يوصفون بأنهم «سلفيون» وقلت للإخوة: إن الإسلام يقوم على التيسير، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥). وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨). وقال رسوله: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» رواه البخاري، وقال: «يسروا ولا تعسروا» متفق عليه، والمسلمون في هذه البلاد خاصة - ومثلهم كل من يعيش خارج المجتمعات الإسلامية - أولى الناس بالتيسير ورفع الحرج عنهم، لبعدهم عن دار الإسلام، والله يحب أن تؤتى رخصه.

والمسلمون ينتهزون يومي الإجازة: السبت والأحد، ليلتقوا فيها في هذا المركز وأمثاله، ليتعلموا دينهم، ويتدارسوا أمورهم، ويتفاهموا ويتوادوا، ويقترب بعضهم من بعض، وهم يقضون سحابة النهار - وربما بعض الليل - في المركز، ويتغدون فيه، وقد يتعشون أيضا، ولا بد أن نهيئ لهم أسباب الراحة، حتى يمكثوا هذه المدة دون تعب كثير، وتوفير المقاعد والكراسي التي اعتادوا الجلوس عليها مما يساعدهم على ذلك.

والاتجاه إلى القبلة في الجلوس: أدب من الآداب، وليس فرضا ولا واجبا ولا سنة مؤكدة، وخصوصا إذا عارضه ما هو أهم منه، وهو ضرورة الجلوس في مواجهة المنصة التي يجلس عليها المتكلمون.

وأما لبس البنطلونات، فهو مطلوب في هذه البلاد، لأن الأزياء تتغير بتغير الأعراف، والإسلام لم يلزمنا بزي معين نراه وحده الزي الشرعي، لكن له مواصفات لا بد من مراعاتها: من ستر العورة، وأن لا يشف ولا يصف، وأن لا يكون زيا اختص به الكفار، وهو يريد أن يتشبه بهم، وقد أصبح هذا الزي معتادا في كثير من بلاد العالم، ومنه بلاد المسلمين، فإذا كان الناس في مصر والشام والعراق والمغرب والخليج وباكستان، يلبسون هذا الزي، فكيف لا يلبسه المسلم الذي يعيش في قلب أمريكا نفسها؟ بل الأولى أن يلبس لبسهم - ما دام غير محرّم - حتى يكون قريبا منهم، غير مخالف لهم، فهذا أدعى إلى تأثيره فيهم، وتجاوبهم

معه. ونحن ندعو إلى أن يندمج المسلم في المجتمع لا أن ينعزل عنه، ما دام محافظا على هويته الدينية.

سؤال من المسلمين الجدد حول الصوم:

وهنا سأل أحد الإخوة الأمريكيين الجدد سؤالا، حول أمر الصيام، وهو: لماذا اختار الإسلام للصيام شهرا قمريا يتنقل بين الفصول الأربعة، ولم يثبّته في شهر شمسي بحيث يظل ثابتا لا يتغير؟

وقبل أن أجيب عن السؤال قام شيخنا إمام المسجد ـ رحمه الله ـ فقال للسائل: كل من له سؤال في العبادات يحتفظ به، لأننا ندرس فقه العبادات للمسلمين الجدد، كل يوم ثلاثاء، هنا في المركز، ونحن ندرس الفقه في كتاب يدرس في القسم الثانوي بمعاهد الأزهر الشريف، وهو: «الشرح الصغير على الدردير»، وسكتُّ، ولم أعلق على كلام شيخنا، فلم يكن من اللائق أن أرد عليه أمام الناس، ولكني بعد ذلك أشرت إليه: أن هذا الكتاب يستصعبه طلاب الأزهر، وهم عرب متخصصون، فكيف يسهل على مسلمين جدد غير متخصصين يدرسونه بغير العربية؟ وإذا كان الشيخ يُدرسهم الآن فقه الطهارة، فمتى يصل إلى الصوم؟ على أنه لو وصل إليه لن يجد فيه جواب السؤال الذي طرح.

وجواب السؤال واضح، وهو: أن يتعبد المسلم لربه سبحانه بالصيام في كل فصول السنة، ما كان فيها حارا، وما كان باردا، وما كان معتدلا، ما كانت أيامه قصيرة، وما كانت أيامه طويلة، وهذا يدل على قوة الإذعان والطاعة والاستجابة لأمر الله في سائر الأحوال.

رسالة من الشيخ المجذوب:

كان الشيخ محمد المجذوب من دعاة سورية، الذين يجمعون بين العلم والأدب والشعر. وكان قد ترك سورية، كما تركها كثير من أبنائها المخلصين من أهل العلم والدعوة، فرارا من طغيان حكم البعث النصيري المتعصّب. وكنت لقيت المجذوب، وتعرفت عليه عند الشيخ العلامة الدكتور مصطفى السباعي، حينما

لقيته في المدينة في موسم الحج سنة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م. كما تعرفت عليه في المدينة المنورة مع أخي في الدعوة وزميلي في معهد طنطا: العالم الداعية الشيخ محمد السيد الوكيل رحمهما الله.

كما سمع الشيخ المجذوب عني من الإخوة السوريين الذين يعملون في قطر، ولا سيما زوج ابنته (أبو العز) الأستاذ محمد نعسان عرواني، مدرس التاريخ، وزميلنا في قطر لعدة سنوات، وقد كان مثالا عاليا في الأدب وحسن الخلق، وسلامة الذوق، وحسن التعامل مع إخوانه.

وقد أراد الشيخ المجذوب أن يصنف كتابا بعنوان «علماء ومفكرون عرفتهم» وخطط لأن يكون اسمي فيهم، وأرسل إلي رسالة مطولة، يرجوني فيها: أن أجيب عن أسئلته التي أرسلها إلى كل من سيكتب عنهم، لتعينه على استكمال فكرته عن الشخص، ورسم صورة له أقرب ما تكون إلى الحقيقة.

وكنت في أول أمري متثاقلا أو متكاسلا عن إجابة الشيخ، ولكنه استعان عليّ بصهره وإخوانه في قطر، فدفعوني إلى تحقيق ما طلب، وأجبته عن أسئلته، إجابة مفصلة بعض التفصيل، وقد سر بها، وشكرني عليها. وصدرت في الجزء الأول من كتابه المذكور، والذي ضم عددا من أعلام العلم والفكر والدعوة، وكنت عندما أرسل إليّ كتابه أخطو إلى الخمسين من عمري.

وقد لقيني قبل أن يرحل إلى العالم الآخر بقليل، وقال: إنه يحاول الآن تحديث كتابه، وأرسل إلى كل من كتب عنهم، أن يضيفوا، أو يهذبوا ما شاءوا من ترجماتهم، فلعلك تبعث إليّ بما يعن لك في ذلك، فشكرت له، وقلت له: أدعو الله أن يعينني على ذلك. ولكن الأقدار لم تسعفني فبقيت الترجمة على ما هي عليه.

رسالة مهمة من الشيخ عبد العزيز بن باز:

ومما أذكره من وقائع تلك المدة من الزمن: أني تلقيت رسالة من سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، علامة الجزيرة العربية، والمفتي العام للمملكة العربية

السعودية، خلاصتها: أن وزارة الإعلام طلبت رأيه في كتابي «الحلال والحرام في الإسلام» لأن بعض الناشرين طلبوا من الوزارة أن «تفسح» له، وكلمة «الفسح» غدت مصطلحا معروفا في المملكة يقصد به الإذن بنشر الكتاب ودخوله في السعودية.

وكان الشيخ صالح الفوزان من شباب علماء المملكة قد أثار ضجة بما كتبه في الصحف، وأصدره في كتاب سماه «الإعلام بنقد كتاب الحلال والحرام» وهو يمثل وجهة النظر السلفية في المسائل الخلافية المعروفة من قديم، مثل تغطية وجه المرأة هل هو واجب أو لا؟ وحكم خروج المرأة للتعلم والعمل، وحكم الغناء بآلة وبغير آلة، وحكم التصوير الزيتي والضوئي، وغير ذلك، مما تتفاوت فيه فتاوى المفتين بين ميسر ومعسر، وبين من يميل إلى الظاهر، ومن يرجح الالتفات إلى المقاصد.

فلا غرو أن ذكر الشيخ ابن باز بأدب العالم الكبير، ورفق الداعية البصير: أنه يريد أن يفسح للكتاب وأن يشترى كمية كبيرة منه لتوزيعه، لما فيه من نفع للمسلمين لسلاسته وجمال أسلوبه، وأخذه بمنهج التيسير، ولكن المشايخ في المملكة خالفوه في ثمانية مسائل. وسرد الشيخ رحمه الله هذه المسائل الثمانية، ومنها: ما يتعلق بزي المرأة وعملها، وما يتعلق بالغناء والسماع، وما يتعلق بالتصوير، وما يتعلق بالتدخين، وأني لم أحسم الرأي فيه بالتحريم، وكذلك لعب الشطرنج، وما يتعلق بمودة غير المسلم.. إلخ. والشيخ يؤيد تحريم هذه الأمور كلها.

وقال الشيخ رحمه الله: وإن كتبك لها وزنها وثقلها في العالم الإسلامي، وقبولها العام عند الناس، ولذا نتمنى لو تراجع هذه المسائل، لتحظى بالقبول الإجماعي عند المسلمين.

والواقع: أني ظللت محتفظا بهذه الرسالة سنين طويلة ثم اختفت مني، ويبدو أنها غرقت في بحر الأوراق الخضم الذي عندي، والذي قل أن ينجو ما غرق فيه![1]

(١) الحمد لله. لقد وجدت هذه الرسالة أخيرا في هذا البحر، وأنا أنقل أغراضي إلى بيتي الجديد، وسيراها القارئ منشورة بنصها في الملاحق إن شاء الله.

هذا، وقد رددت تحية الشيخ بأحسن منها، وكتبت له رسالة رقيقة، تحمل كل مودة وتقدير للشيخ، وقلت له: لو كان من حق الإنسان أن يدين الله بغير ما أداه إليه اجتهاده، ويتنازل عنه لخاطر من يحب، لكان سماحتكم أول من أتنازل له عن رأيي، لما أكن لكم من حب وإعزاز واحترام، ولكن جرت سنة الله في الناس أن يختلفوا، وأوسع الله لنا أن نختلف في فروع الدين، ما دام اختلافا في إطار الأصول الشرعية، والقواعد المرعية. وقد اختلف الصحابة والتابعون والأئمة الكبار، فما ضرهم ذلك شيئا، اختلفت آراؤهم، ولم تختلف قلوبهم، وصلى بعضهم وراء بعض.

والمسائل التي ذكرتموها سماحتكم، منها: ما كان الخلاف فيها قديما، وسيظل الناس يختلفون فيها، ومحاولة رفع الخلاف في هذه القضايا غير ممكن، وقد بين العلماء أسباب الاختلاف و ألفوا فيها كتبا، لعل من أشهرها كتاب شيخ الإسلام «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».

ومن هذه المسائل: ما لم يفهم موقفي فيها جيدا، مثل موضوع التدخين، فأنا من المشددين فيه، وقد رجحت تحريمه في الكتاب بوضوح، إنما وهم من وهم في ذلك؛ لأني قلت في حكم زراعته: حكم الزراعة مبني على حكم التدخين، فمن حرم تناوله حرم زراعته، ومن كره تناوله كره زراعته، وهذا ليس تراجعا عن التحريم.

وأما مودة الكافر، فأنا لا أبيح موادة كل كافر، فالكافر المحارب والمعادي للإسلام وللمسلمين لا مودة له، وفيه جاء في هذا قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (المجادلة: ٢٢). ومحادة الله ورسوله ليست مجرد الكفر، ولكنها المشاقة والمعاداة.

وتعلم سماحتكم أن الإسلام أجاز للمسلم أن يتزوج كتابية، كما في سورة المائدة ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ (المائدة: ٥) فهل يحرم على الزوج أن يود زوجته، والله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١)؟ وهل يحرم على الابن أن يود أمه الكتابية؟ أو يود جده وجدته،

وخاله وخالته، وأولاد أخواله وخالاته؟ وكلهم تجب لهم صلة الرحم، وحقوق أولي القربى.

على كل حال، أرجو من فضيلتكم ألا يكون الاختلاف في بعض المسائل الاجتهادية الفرعية حائلا دون الفسح للكتاب، وهاهو ذا الشيخ الألباني يخالفكم في قضية حجاب المرأة المسلمة، فهل تمنعون كتبه؟

وختمت الكتاب بالتحية والدعاء.. وأعتقد أن الشيخ استجاب لما فيه، وفسح لكتاب «الحلال والحرام» ولغيره من كتبي، والحمد لله[1].

مسابقة القرآن الكريم للمدارس:

ذكرت فيما سبق: أن من السنن الحميدة التي سنتها وزارة التربية والتعليم في قطر - باقتراح من فضيلة الشيخ عبد الله بن تركي رئيس تفتيش العلوم الشرعية - إقامة مسابقة في حفظ القرآن وتلاوته، مفتوحة لجميع الطلاب والطالبات في جميع مدارس قطر بالدوحة، وغيرها من مناطق قطر.

وكان الفائزون الأوائل الثلاثة من كل فصل يأخذون جوائز نقدية تشجيعية، وكانت المدارس تتنافس في ذلك، كما يتنافس الأبناء والبنات، في حفظ كتاب الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٦). وقد أدى ذلك إلى تسابق كثير من الطلاب والطالبات في حفظ القرآن، وأن تجد البيوت قبيل الامتحان مشغولة بالقرآن.

كما فتحت الوزارة جزاها الله خيرا باب التسابق للطلاب ولغير الطلاب في حفظ القرآن كله، أو نصفه أو أجزاء منه، ويعطى الحافظ جائزة قيمة على قوة حفظه وحسن تلاوته.

---

(١) عثرت على رسالتي إلى سماحة الشيخ ابن باز، وسأنشرها بنصها في ملاحق هذا الجزء.

وكانت بناتي إلهام وسهام وعلا ثم أسماء بعد: يدخلن كل عام هذه المسابقة ويفزن فيها، ويحصلن على جائزتها.

بل دخلت إلهام هذه المسابقة في الأجزاء الخمسة الأخيرة، ونجحت فيها، وحصلت على جائزتها، ودخلت سهام في ثلاثة أجزاء، وأسماء في جزأين.

عضوية المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة:

وفي شهر ذي القعدة من سنة ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) وصلتني رسالة من فضيلة الشيخ الدكتور عبد المحسن بن حمد العباد، نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة هذا نصها:

فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي الأستاذ بكلية التربية ـ قطر ـ حفظه الله ـ

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

يسرني أن أبلغ فضيلتكم أنه صدر الأمر الملكي رقم أ/ ٢٣٣ في ٢٩/ ٩/ ١٣٩٥هـ بتعيينكم عضوا بالمجلس الأعلى للجامعة الإسلامية ـ بالمدينة المنورة ـ لمدة ثلاث سنوات طبقا للمادة (١٣) من نظام الجامعة.

وأبعث مع كتابي هذا إليكم بصورة من الأمر السامي المشار إليه، ومن نظام الجامعة، وتوزيع الاختصاصات والصلاحيات التي وردت به.

وسوف نخطركم بموعد الدورة الأولى لانعقاد المجلس الأعلى في وقت لاحق، إن شاء الله، نأمل أن يكون قريبا.

وإني لأسال الله تبارك وتعالى أن يعينكم ويسدد خطاكم، وأن يوفقنا جميعا لخدمة هذه الجامعة والنهوض برسالتها السامية رسالة الإسلام الخالدة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نائب رئيس الجامعة الإسلامية

عبد المحسن بن حمد العباد

ومع الخطاب الأمر الملكي الصادر من الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود بتعيين ثلاثة عشرة عضوا، بعضهم بشخصه، مثل الشيخ الندوي، والشيخ الغزالي، والشيخ الألباني، والشيخ ابن الخوجه، والشيخ غوشه، ود كامل الباقر، والشيخ صالح الحصين، ود. أحمد الكبيسي، والفقير إليه تعالى، وبعضهم لوصفه، مثل مدير جامعة الأزهر، ومدير جامعة الرياض، ومدير جامعة الملك عبد العزيز.

وكان يمثل هذه الجامعات في هذه الدورة: الشيخ محمد فايد عن الأزهر، والدكتور عبد العزيز الفدا عن الرياض، ود. محمد عمر زبير عن الملك عبد العزيز.

وكان رئيس المجلس الأعلى هو الأمير فهد بن عبد العزيز ولي العهد والنائب الأول لرئيس الوزراء. وقد التقينا به أكثر من مرة في المجلس. ونائب الرئيس هو سماحة العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز رئيس الجامعة الإسلامية.

وقد سعدت بعضوية المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية خلال هذه الدورة، للعمل مع الإخوة الأعضاء، وكلهم خيار من خيار، وخصوصا أننا نجتمع في رحاب مسجد الحبيب المصطفى وقبره عليه الصلاة والسلام، ونعمل في خدمة جامعة أنشئت للمسلمين في كل مكان، فكان فيها طلاب من ثمانين جنسية.

وقد رأس مجلسنا الأمير فهد بن عبد العزيز أكثر من مرة، على الأقل يحضر جلسة الافتتاح، ثم ينيب عنه نائبه الشيخ ابن باز رحمه الله.

حج بدعوة من رابطة العالم الإسلامي:

وفي موسم حج سنة ١٣٩٥هـ (ديسمبر١٩٧٥م) دعتني رابطة العالم الإسلامي إلى الحج والمشاركة في موسمها الثقافي الذي تعقده كل عام، وتقيم فيه محاضرات

وندوات في موضوعات إسلامية مختلفة، ويكون فرصة لالتقاء عدد من رجال العلم والدعوة والفكر من أنحاء العالم الإسلامي.

ولا ريب فى أنها سنة حسنة استنتها الرابطة لتحقيق الحكمة من هذه السفرة العظيمة، وشهود المنافع التي ناط الله بها هذه العبادة المتميزة ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ (الحج: ٢٨). وليست المنافع هنا مقصورة على ما يتوهمه كثيرون من المنافع التجارية والمادية، بل المقصود منافع الأمة بكل ما تتضمنه الكلمة من معان، وكما تتسع المنافع للجانب المادي والاقتصادي: تسع الجوانب الروحية والفكرية والسياسية والاجتماعية لأمة الإسلام كلها، التي تشترك في هذا الموسم العالمي من جميع الأجناس والألسنة والألوان والأقطار والطبقات.

ولقد استجبت للدعوة، وصحبت زوجتي معي، ونزلنا ضيوفا على الرابطة في مبناها الكبير بمنى، الذي أعطونا حجرة منه لي ولزوجتي.

وكانت هناك سيارات تنقل من أراد الصلاة في الحرم، على أن منى من الحرم، وفيها أجر الصلاة في الحرم، على القول المختار.

وفي يوم التروية (الثامن من ذي الحجة) أحرمنا من حيث نقيم في منى، وقد كنا تمتعنا بالعمرة إلى الحج، وفرغنا من العمرة منذ أول يوم.

وفي صباح يوم عرفة نقلتنا سيارات الرابطة إلى عرفة، وقد وصلنا إليها بسرعة مذهلة، وقد أفردوا لي خيمة مع زوجتي، وكذلك لكل من صحب معه أهله. وهناك خيمة مشتركة لصلاة الجماعة، واللقاء العام.

وقضينا يومنا في ذكر وتسبيح، وتهليل وتكبير، ودعاء واستغفار، وتلاوة للقرآن، لنرضي الرحمن، ونرغم أنف الشيطان، الذي ما رئي في يوم أصغر ولا أدحر ولا أحقر منه في يوم عرفة، إلا ما رئي يوم بدر، يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان.

في هذا اليوم العظيم، وفي هذا الصعيد المبارك، نرى الناس يجأرون إلى الله بالدعاء، منهم من يعلن، ومنهم من يسر، منهم من هو مشغول بنفسه،

وأكثرهم يدعو لمن يحب من أهل وأصحاب، ومنهم من هو مشغول بأمر المسلمين، يدعو أن ينصرهم الله على عدوهم، وأن يوقظهم من سباتهم، وأن يجمع كلمتهم على الهدى، وقلوبهم على التقى، وأنفسهم على المحبة والتعاون على البر والتقوى.

وصدق الله إذ يقول: فمنهم من يقول: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ البقرة: ٢٠٠، ٢٠١).

وكنت أُكثر من هذا الدعاء، الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر منه، وأدعو لنفسي ولأهلي، ولكل من أحب، وكل من له حق علي، وكل من سألني الدعاء، وكل المسلمين حيثما كانوا: أن يحقق الله آمالهم من كل خير، وأن يفرج عنهم كل كرب، ويجعل لهم من عسرهم يسرا، ويبدلهم بعد خوفهم أمنا. ويمكن لدينهم في الأرض، ويجعل كلمته هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى.

وعندما أوشكت الشمس أن تضيّف للغروب، استعددناً للرحيل، ولم يكن يسمح لأحد أن يرحل من عرفات قبل غروب الشمس على ما هو مذهب الجمهور، وإن كان مذهب الشافعي يجيز ذلك وفيه تيسير على الناس. قد استعددنا بركوب السيارات حتى إذا غربت الشمس، وأذن مؤذن الرحيل أن ننفر من صعيد عرفات: انطلقت بنا السيارات إلى «المشعر الحرام» إلى مزدلفة، لنحط رحالنا، ونذكر الله كما أمرنا، ونصلي المغرب والعشاء جمع تأخير.

وقد جمعنا بين الصلاتين، وتناولنا بعض الطعام، والتقطنا حصى جمرة العقبة يوم العيد، وحصى اليومين بعدها، فنحن عادة نتعجل كمعظم الناس، فالتقطنا لكل منا ٤٩ حصاة.

وبقينا إلى أن ظهر القمر بعد الحادية عشرة، فانطلق من كان معه نساء أو ضعفة، إلى منى، لنرمي جمرة العقبة الكبرى، وهي الجمرة الوحيدة المطلوبة في يوم العيد،

وعندها تنتهي التلبية، وبعدها ذهبنا إلى مسكننا في منى، لأقصّر، وتقصر زوجتي، وأتحلل التحلل الأول، وأخلع ملابس الإحرام، وألبس ملابسي العادية، ثم نستعد للنزول إلى مكة والطواف والسعي، قبل أن يهجم الزحام، ويتدفق السيل العرم، من حجاج بيت الله الحرام. خطر لي أن آخذ برأي شيخ الإسلام ابن تيمية: أن المتمتع يكفيه سعي واحد كالقارن، عملا بظاهر بعض الأحاديث، فأكتفي بسعي العمرة، ولكني آثرت الأخذ برأي الجمهور عملا بالأحوط، ولا سيما أن المسعى لم يكن قد ازدحم بعد.

وفعلا طفنا وسعينا، وأتممنا منسكنا، داعين الله بما دعا به خليل الرحمن، وابنه الذبيح إسماعيل: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧). اللهم اجعله حجا مبرورا، وسعيا مشكورا، وعملا مبرورا، وذنبنا بعده مغفورا، وتجارة لا تبور.

وأذكر أننا في عودتنا من مكة إلى منى: لقينا نصبا، وفاجأنا زحام الطريق الذي لم نكن نتوقعه، حتى إننا لم نصل إلى مكاننا في منى إلا بعد ساعات! فلم تكن حركة المرور قد نظمت كما هي الآن.

وفي اليومين التاليين ليوم العيد، كنت أذهب من الصباح أنا وزوجتي لنرمي الجمرات الثلاث، عملا بقول الأئمة الذين رأوا مشروعية الرمي في أيام منى قبل الزوال، وهم: عطاء وطاووس وأبو جعفر الباقر، ورجح ذلك بعض علماء الشافعية وغيرهم، وتبنينا الأخذ بالأيسر في أمور الحج، وخصوصا في هذه السنين التي يشكو فيها الحجاج من شدة الزحام، ويموت منهم من يموت تحت الأقدام!

وبعد ذلك نزلنا إلى مكة، ثم طفنا طواف الوداع، وودعنا المسجد الحرام، ومكة البلد الحرام. ثم انتقلنا إلى المدينة المنورة، لنصلي في المسجد النبوي، والروضة الشريفة، وننعم بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره، والسلام

على صاحبيه، وخليفتيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ونزور معالم المدينة، ونصلي في مسجد قباء، ومسجد القبلتين.

ثم عدنا من المدينة إلى جدة بالسيارة، ومن جدة إلى الرياض، ومنها إلى الظهران، فالدوحة. وشكرنا رابطة العالم الإسلامي: أن أتاحت لنا هذا الحج الميسر المرفه، الذي جعل زوجتي تقول: هل نثاب على هذا الحج الذي لم ننم فيه على الحصى؟ ولم نَشْكُ فيه زحمة الرفقاء معنا على المرافق المحدودة، وقد وفر لنا المطعم والمشرب والمركب وكل ما نحتاج إليه؟

وقلت لها: أما إجزاء ذلك الحج، فلا شك فيه، وإن كان حجا مريحا ومرفها، ولكن ثوابه ليس كثواب من يعاني المشقات في حجه: في طريقه وتنقله، وفي مأكله، ومشربه، ومسكنه. فكل ينال أجره على وفق أمرين:

الأول: على قدر حجم النصب والمشقة، كما قال صلى الله عليه وسلم لعائشة: «أجرك على قدر نصبك».

الثاني: على قدر خلوص النية، كما في الحديث الصحيح: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى».

المؤتمر العالمي الأول في الاقتصاد الإسلامي:

كان من أهم المؤتمرات العالمية التي شاركت فيها بالبحث والمناقشة والمحاضرة: المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي الذي عقد بالمملكة العربية السعودية، والذي جسد الصحوة الإسلامية في تلك المرحلة، في ميدان من أخطر الميادين التي غزتها الثقافة الغربية، وهو ميدان الاقتصاد.

أقيم المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي في مكة المكرمة، في الفترة ما بين ٢١-٢٦ صفر ١٣٩٦هـ، الموافق ٢١-٢٦ فبراير ١٩٧٦م. تحت رعاية جامعة الملك عبد العزيز، وكانت الجامعة تضم كليات في جده، وأخرى في مكة،

وهي التي استقلت بعد ذلك، وضمت إليها كليات جديدة، وبها ظهرت جامعة «أم القرى».

أعدت الجامعة لهذا المؤتمر الكبير إعدادا جيدا، واستعانت بعدد من المعنيين والمختصين في الاقتصاد الإسلامي، وكان المدعوون من قارات العالم كله، من الغرب والشرق، من العرب والعجم، من علماء الاقتصاد، وعلماء الشرع، من رجال النظر، ورجال التطبيق.

وقد اختيرت الموضوعات بعناية، وكلف بها أخص الناس ببحثها، وأوصلهم رحما بمعرفتها.

وكانت دعوة الباحثين قبل المؤتمر بمدة كافية، وقد حدد موعد المؤتمر، ثم اضطروا إلى تأخيره بسبب حادث جلل، وهو اغتيال رجل الأمة، وبطل المرحلة، الملك الصالح، فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمة الله عليه. الذي اجتمعت الأمة على حبه وتقديره، لما لمسته فيه من إخلاص وتفان في خدمة الإسلام، ومقاومة أعدائه. لهذا حزنت الأمة كلها من المحيط إلى المحيط، على وفاته.

وكان في هذا التأجيل فرصة لمزيد من الإنضاج وحسن الإعداد، أكثر وأكثر.

كان مدير جامعة الملك عبد العزيز في ذلك الوقت، صديقنا الحبيب الرجل الشعلة، الذي يعمل ولا يكل ولا يمل ولا يهدأ، من أجل خدمة الإسلام، ونصرة قضايا الإسلام. إنه الدكتور محمد عمر زبير، الذي وفقه الله للإعداد الجيد لهذا المؤتمر، بمن معه من الأعوان الصادقين من عمداء الكليات، وأساتذة وإداريين.

وقد عقد المؤتمر في فندق «إنتر كونتيننتال مكة» وكان فندقا جديدا وواسعا، وفيه قاعات تسع المؤتمرين والضيوف، وقاعات فرعية للحلقات المتخصصة، ومسجد جامع كبير للصلاة، وهناك فرصة لمن يريد الصلاة بالحرم الشريف، تنقله إليه «باصات» وسيارات خاصة، مهيأة للضيوف.

كان المؤتمر جامعا لكل من تحب أن تراه من كبار رجال الفقه والشريعة والدعوة، ورجال الاقتصاد والمحاسبة والإدارة: الشيخ ابن باز، والشيخ الزرقا، والشيخ الندوي، والأساتذة عيسى عبده، ومحمد المبارك، ومعروف الدواليبي، والبهي الخولي، ومحمود أبو السعود، وأحمد النجار، ومناع القطان، وعبد العزيز حجازي، وخورشيد أحمد، وحسين حامد حسان، ومحمد نجاة الله الصديقي، ومحمد صقر، وأنس الزرقا، ومنذر قحف، وشوقي الفنجري، وعبد الرحمن يسري، ورفيق يونس المصري.

وآخرين من أهل العلم والفضل، لا أستطيع أن أتذكرهم، فقد كانوا نحو ثلاثمائة عالم وخبير.

وهناك عدد من الإعلاميين المرموقين، قد دعوا ليغطوا هذا المؤتمر، بعد أن يشاركوا فيه، ويروه رأي العين، أذكر منهم الكاتب الإسلامي المرموق: الأستاذ فهمي هويدي.

كان في المؤتمر محاضرتان عامتان، يدعى إليها أعضاء المؤتمر وغيرهم: محاضرة في أول المؤتمر، ألقاها الداعية الإسلامي الكبير الأستاذ محمد قطب، ومحاضرة في خواتيم المؤتمر يلقيها الفقير إليه تعالى يوسف القرضاوي.

كانت جلسات المؤتمر غنية بالبحوث الأصيلة في بابها، والمناقشات الحرة المستفيضة حولها، وكان بحثي الذي كلفت بكتابته حول «دور الزكاة في علاج المشكلات الاقتصادية».

وكان من البحوث التي احتدّ فيها النقاش: بحث «التأمين بين الحل والحرمة» وقد كتب فيه عدة أشخاص، وكان جل النقاش بين العلامة الشيخ مصطفى الزرقا، والأستاذ الدكتور حسين حامد حسان، حيث يميل الزرقا إلى الإباحة بقيود، ويميل حسان إلى التحريم.

ومما ذكره الأستاذ فهمي هويدي: أنه حضر منذ سنوات مؤتمرا في «كوالالامبور»

في ماليزيا، فرأى الحضور هناك انقسموا إلى قسمين: قسم يحرم فوائد البنوك، وقسم يحاول تسويغ الفوائد، بإيجاد سند شرعي لها، ولكن هذا المؤتمر لم تثر فيه هذه القضية قط، بل هو مجمع على تحريم الفوائد تحريما باتا.

قلت له: وأضيف إليك ملاحظة أخرى، وهي أن رجال الاقتصاد هنا كانوا أشد حماسة للتحريم من رجال الشريعة!

كان من حضور المؤتمر أستاذنا البهي الخولي، الذي شارك في المؤتمر بالمناقشة، وبكلمة شفوية ألقاها في إحدى الجلسات، وقد حضر هو وزوجته، واقتضت ظروفه الصحية أن يسافر قبل انتهاء المؤتمر، وعند موعد سفره زرته في حجرته لأودعه، وأبيت إلا أن أحمل حقيبته التي فيها حاجياتهما، وهو يأبى علي، وأنا مصرّ، وهنا تطلع إلى زوجته وقال لها: يا أم مجيد، أتعرفين من يحمل حقيبتك؟ إن من يحملها هو فقيه العصر! قلت: يا مولانا إنما نحن تلاميذك، ومن غرس يدك. وقد كان الأستاذ البهي حسن الظن بتلميذه القديم، فألبسه ثوبا أوسع منه!

وختم المؤتمر جلساته بالجلسة الختامية، وفيها توصيات وقرارات مهمة، مما اتفق عليه المؤتمرون، تتعلق بالموضوعات التي بحثت، ومنها: التوصية بإنشاء مركز عالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي، توفر له الإمكانات المادية والبشرية، ليقوم بمهمته وسط الصراع العالمي، الذي اتخذ طابعا أيديولوجيا محوره الاقتصاد، ليظهر الاقتصاد الإسلامي: الاقتصاد الوسط الذي يقيم الموازين القسط بين الاقتصادين الفردي (الرأسمالي) والاقتصاد الجماعي (الشيوعي).

والحمد لله قام هذا المركز في جامعة الملك عبد العزيز، ودعيت للمحاضرة فيه، والاجتماع برجاله أكثر من مرة، وقام عليه إخوة كرام، على رأسهم: أ. د الزبير، الذي تفرغ له حينا من الدهر، ود. أنس الزرقا، ود. محمد نجاة الله الصديقي، ود. منذر قحف، ود. رفيق المصري، وآخرون من أفاضل العلماء في الاقتصاد الإسلامي.

اجتماع تاريخي للإخوان معي:

وكان من أهم الأحداث التي وقعت لي خلال هذا المؤتمر: أن التقى بي ثلاثة من كبار الإخوان، هم الأستاذ هارون المجددي، الذي كان مسؤولا عن الإخوان المصريين في الخارج أيام محنة ١٩٦٥م وأعقابها، والأستاذ صالح أبو رُقَيِّق عضو مكتب الإرشاد، وأحد القيادات التاريخية في الإخوان، والذي كان قريبا من الأستاذ الهضيبي، والأستاذ محمود أبو السعود عضو الهيئة التأسيسية، وأحد الإخوان القدامى، والاقتصادي الإسلامي البارز، وقد عرضوا عليّ أمرا في غاية الأهمية، قالوا: إن الأستاذ الهضيبي المرشد الثاني للإخوان قد انتقل إلى رحمة الله تعالى، وأصبحت الجماعة في فراغ من القيادة، والإخوان في هذه المرحلة في حاجة إلى قيادة شابة واعية مؤمنة، تجمع بين فقه الشرع، وفقه العصر، والإخلاص للدعوة، وتجتمع عليها كلمة الإخوان، ولم نجد أحدا تجتمع فيه هذه الصفات غيرك، ونحن نتحدث بلسان من وراءنا من الإخوان، وهم كثيرون، فإن كنت حريصا على مصلحة الدعوة التي نشأت فيها، وأفنيت زهرة شبابك في إعزازها ونشرها والذود عنها، حريصا على جمع كلمة أبنائها، حريصا على أن تستمر الدعوة وتتقدم إلى الأمام بوعي وبصيرة وثبات وقوة، فتوكل على الله، واقبل هذا الأمر، محتسبا عند الله، مبتغيا الأجر منه، لتكمل الطريق الذي بدأه حسن البنا، وخلفه حسن الهضيبي!

واستمر الإخوة يتحدثون بعضهم وراء بعض، ليقنعوني بقبول ما عرضوه علي، وأن في ذلك الخير للإسلام ودعوته وأمته إن شاء الله، وإنما لكل امرئ ما نوى.

قلت للإخوة: إن ما عرضتموه علي ليس بالأمر الهين، بل هو أمر جلل، وهو قيادة دعوة عالمية في ظروف غير مواتية، وقد فاجأتموني بهذا الطلب، الذي ما فكرت فيه قط، فما كنت في الجماعة إلا جنديا من جنودها، لم أتطلع يوما إلى زمام القيادة، لتكون في يدي، وهذه منة من الله علي، أني لست من الذين يجرون خلف سراب الزعامة، وكأنها طبيعة فيّ لا متكلفة ولا مفتعلة.

قال الإخوة: وهذا مما يزيدنا تمسكا بك، وإصرارا عليك، وأنت تعرف الحديث الذي يقول ما معناه: «إن أعطيتها بغير سؤال أعنت عليها، وإن أخذتها بسؤال وكلت إليها».

قلت لهم: أعطوني مهلة أفكر فيها على مهل، أشاور نفسي، وأراجع حساباتي، وأستخير ربي، وأستشير بعض إخواني، ثم أرد عليكم. وإن كنت مبدئيا لا أراني أهلا لهذا الأمر.

قالوا: نعطيك شهرين للتفكير والمراجعة.

قلت: لا بأس بذلك.

قالوا: ليكن ردك على الأستاذ أبو السعود، لأنه يعيش في أمريكا، فالرد عليه أضمن وأحوط من الرد على من يعيشون داخل مصر.

إعتذار عن عدم قبولي منصب المرشد العام:

وبعد طول تفكير، واستخارة، واستشارة، على ما جاء في الأثر: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار»، وإن كنت لم أستشر إلا قليلين جدا، لأن جل من أستشيرهم يحثونني على القبول، ولكني لم ينشرح صدري لهذا الأمر، وكتبت إلى الدكتور أبو السعود الرسالة التالية:

أخي الدكتور محمود أبو السعود حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(وبعد)

فلقد كانت فرصة طيبة تلك التي جمعتنا في ظل المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي في رحاب مكة المكرمة، وبجوار بيت الله الحرام، وكانت أياما مباركة تلك التي سعدت فيها بلقائكم بعد غيبة أكثر من عشرين عاما، افترقت فيها الأبدان، ولم تفترق القلوب.

وأسأل الله تعالى أن يديم هذه الأخوة التي انعقدت أواصرها على دينه وفي سبيله، حتى يظلنا بها في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

هذا وقد فكرت طويلا فيما عرضتم علي عند لقائنا ذاك، وقلبت الأمر على وجوهه، كما استخرت الله تعالى في الأمر، وتبين لي بعد ذلك ما سبق أن أبديته لكم لأول وهلة، وهو أني لست الرجل المنتظر للمسؤولية التي تحدثتم عنها، ولا أرى نفسي أهلا للقيام بها. ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه.

أخي، إن الله تعالى قد وزع المواهب والقدرات على عباده، فمنهم من فتح له في مجال العلم، ومنهم من فتح له في مجال السياسة، ومنهم من فتح له في مجال الإدارة، ومنهم من جمع له أكثر من موهبة، وهو سبحانه يختص برحمته من يشاء، وأحسب أني، إن كان لي موهبة، فهي في المجال الأول، والحمد لله على ذلك أولا وآخرا، وقد قيل: من بورك له في شيء فليلزمه، وذلك ليكون أقدر على إتقانه والتفوق فيه.

وقد عرف النبي صلى الله عليه وسلم خصائص أصحابه، فوضع كلا في المكان اللائق به، فلم يضع حسانا ولا أبا هريرة في مكان خالد، أو زيد بن حارثة، ولم يضع أبا ذر في مكان عمرو بن العاص، وإن كان أبو ذر أحب إليه، وأعز عليه، وآثر لديه.

ولما سأله أبو ذر أن يوليه على بعض أعماله، قال له بصراحة: إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها خزي وندامة يوم القيامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها[1].

فهذا توجيهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي ذر وهو الذي قال فيه: «ما أقلّت الغبراء، ولا أظلت الخضراء، أصدق لهجة من أبي ذر»[2].

---

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٥) عن أبي ذر.

(٢) رواه أحمد (٦٤٨٣) والترمذي (٣٨٠١) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (١٥٦) عن عبد الله بن عمرو.

إن دعوتنا ـ وان كانت دينية المصدر والغاية ـ فهي سياسية من حيث الوسيلة والمواجهة، ولذا تحتاج إلى رجل يعرف السياسة وألاعيبها وأغوارها، بجوار معرفته للدين ومصادره، وأنا لا أحسن هذا الفن، إلا في خطوطه العامة، ولم أتمرس به، ولا أظن طبيعتي تصلح له. ولا أرضى لنفسي ـ ولا ترضى لي أنت أيضا ـ أن أكون جهازا في أيدي آخرين، يحركونه فيتحرك، ويوقفونه فيتوقف!

وفضلا عن هذا كله، فإن هذه الدعوة الربانية التي جعلت شعارها من أول يوم «الله غايتنا» تحتاج إلى أن يكون على قمتها رجل غامر الروحانية، عامر القلب بالخشية والتقوى، متألق الجوانح بمعاني اليقين والإنابة، ليستطيع أن يفيض من قلبه على قلوب من حوله، وأراني دون هذا الأفق بمراحل، وفاقد الشيء لا يعطيه.

لا تظن يا أخي أن ما أقوله لك من باب التواضع أو هضم النفس، فإنما هو من باب تقرير الحقائق، ووصف الأشياء بما هي عليه، وقديما قالوا: «من سعادة جدك، وقوفك عند حدك».

وقد تقول: إن تقدير كفايتك وأهليتك لعمل ما ليس من شأنك أنت، وإنما هو شأن أهل الحل والعقد الذين وكل إليهم الاختيار، وهم الذين يقولون: هذا يصلح، وهذا لا يصلح، فإذا رشحوك فهم أعرف بك، وأقدر على تقويمك، وأقول: إن كل إنسان أدرى بعيوب نفسه، ونقاط ضعفه، والناس تحكم بما يطفو على السطح لا بما يرسب في الأعماق.

ومن النعم التي أحمد الله عليها: أنه رزقني السلامة من الانتفاخ الكاذب، والغرور بالباطل، ولعل هذا هو فضلي الوحيد: أن مرآتي لم تصدأ ولم تتغير، حتى أرى فيها وجها غير وجهي، أو شخصا غير شخصي، ولهذا أرى نفسي على حقيقتها بضعفها وغفلاتها وبمواهبها المحدودة، دون تضخيم أو تزييف.

وقد قال ابن عطاء الله في حكمه: الناس يمدحونك لما يظنونه فيك، فكن

أنت ذاما لنفسك لما تستيقنه منها. أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس!

إني أعتقد أن من مصلحة الدعوة التي أنتمي إليها، ومصلحة الإسلام عامة، الذي نذرت نفسي لخدمته: أن أظل مشتغلا بالعلم وبالبحث، لإتمام ما عندي من مشروعات علمية أراها مهمة ونافعة إن شاء الله.

وقد أتيح لي الآن - من خلال موقعي ومعرفة الناس بي - أن أتصل بالمجتمعات العلمية في مؤتمرات عربية وإسلامية وعالمية شتى. ومن الخير أن يستمر هذا الاتصال بعد أن فرضت على العزلة مدة طويلة في مكان قصي منعزل.

إن جماعتنا لم تخل - ولن تخلو إن شاء الله - من الكفايات القادرة على قيادة السفينة بقوة وأمانة، ولن تعدموا «القوي الأمين» أو «الحفيظ العليم» في صفوف الحركة، بعون الله.

والله يتولى الجماعة ويرعاها بعينه التي لا تنام، وهو ولي الصالحين.

أخوكم

يوسف القرضاوي

وقد علق الأستاذ محمود أبو السعود برسالة، جاء فيها:

الأخ الكريم فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي

وعليكم من الله السلام والرحمة والبركات - أعزك الله، ونفعك ونفع بك، وأعانك على ما فرغت له نفسك من خير وعلم، وجعلك أبدا مهوى القلوب، ومقصد الحق، و واسطة عقد الأخلاء.

يا أخي: «لقد أسكتت جهيزة قول كل خطيب» ولم يعد لي ما أقول، وما حدثتك فيه أمر تمناه غيري كما تمنيته، أما وقد قطعت فيه برأي، فالخيرة ما اختاره

الله. وإني لأعلم - كما تعلم أنت - أن ليس لما دعوناك إليه من يرتضيه الخاص والعام غيرك، ولا من أوتي ما أوتيته من تجرد وفضل، وعلم وخلق، لا أمتدحك سعيا وراء مغنم، وإنما هكذا عهدناك وخبرناك. والأغلب أن يظل الوضع الراهن كما هو، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا. على كل حال يا أخي شكر الله لك، وجزاك بنيتك أضعاف ما يجزيك بحسن عملك.

الفقير إلى ربه

محمود أبو السعود

٢٠ ربيع أول سنة ١٣٩٦

٢٠/ ٤/ ١٩٧٦

(١١)

السنة الدراسية

١٩٧٦ ـ ١٩٧٧م

رحلة طويلة في أمريكا وكندا

وفي سنة ١٩٧٦ سافرت إلى أمريكا في الموعد المعتاد في أواخر شهر مايو حيث يقوم مؤتمر اتحاد طلاب المسلمين. وكانت تصحبني أم محمد زوجتي، وقد حضرنا المؤتمر الذي يستمر في العادة ثلاثة أيام أو أربعة، ولا أذكر في أي مدينة كان. وقد دعا إليه الأخوة المسؤولون فى الاتحاد: عددا من العلماء والدعاة وقادة العمل الإسلامى فى البلاد العربية والإسلامية، ليروا بأعينهم مظاهر الصحوة الإسلامية فى أمريكا، ويستفيدوا منها فى تطوير العمل الدعوى فى بلادهم، كما يسهمون بنصحهم وتوجيههم وثمار تجاربهم فى ترشيد العمل فى أمريكا، والمسلمون قوم نصحة بعضهم لبعض ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١).

كان من المدعوين فى هذه السنة: القاضى يحيى الفسيّل، المشرف العام على المعاهد العلمية فى اليمن، وأحد العلماء والقضاة المرموقين. وكان منهم الدكتور حسن الترابى، زعيم الحركة الإسلامية فى السودان.

وأذكر أن الترابى قد أثار زوبعة فى المؤتمر، عندما أشار إلى جواز أن تبقى المرأة مع زوجها الكتابى، إذا أسلمت هي وبقى هو على دينه.

وقامت القيامة عليه، ورد عليه العلماء الشرعيون الحضور فى المؤتمر، ومنهم: القاضى يحيى الفسيّل، وكنت ممن رد عليه أيضا. وكنت أظن أن فى المسألة إجماعا يجب أن يحترم، ولا يخترق.

وبعد نحو ربع قرن من الزمان: ثارت القضية من جديد فى «المجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث» وتبين لى أن المسألة التى كنت أظنها إجماعية ـ وهى التفريق بين المرأة وزوجها إذا أسلمت، ويبقى هو على دينه ـ فيها «تسعة أقوال» ذكرها الإمام ابن القيم فى كتابيه «أحكام أهل الذمة» منها عن عمر وعن على رضى الله عنهما فى جواز بقائها مع زوجها، وعدم فسخ النكاح الأول. كما نقل عن بعض السلف: أنهما على نكاحهما ما لم يفرق بينهما سلطان، أى ما لم تحكم محكمة قضائية بوجوب التفريق بينهما[1].

وقد أعدّ زميلنا فى المجلس الأوروبى الشيخ عبد الله الجديّع: بحثا معمّقا مفصلا مدلّلا، مستمدّاً من كتب الأحاديث والآثار، وجد فيه ثلاثة عشر قولا فى الموضوع، ورجح بالأدلة جواز بقاء المرأة مع زوجها الكتابى، ولو لم يسلم.

وهكذا يتطور الفقه، وتتغير الفتوى بتغيير المعلومات، والعثور على أدلة لم تكن معروفة لنا من قبل. وسحبنا اتهامنا للترابى بأنه خرق الإجماع، وخالف النصوص، وإن كان هو حين عرض رأيه، لم يؤيده بقول أحد، كما أن قوله أوهم أنه يجوز أن تتزوج المسلمة كتابيا ابتداء، وهو ما لا يجيزه أحد وما نفاه هو أيضا.

وبعد أن انتهينا من المؤتمر: رتب لنا الإخوة في الاتحاد: زيارة لعدد من الولايات في أمريكا وكندا، استغرقت ما يقرب من أربعة أسابيع: ولايات في الغرب، وفي الوسط، وفي الجنوب، والشمال والشرق.

وقد زرت سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس في كاليفورنيا، وزرت سياتل وواشنطن (غير واشنطن العاصمة) وزرت كولمبوس وأوهايو ومزّوري وغيرها، بالإضافة إلى إنديانا بولس، وشيكاغو، ونيويورك ونيوجرسي وواشنطن وبَفَلُو، قرب الحدود من كندا.

ومن «بفلو» انتقلنا بالسيارة إلى «كندا» حيث جاء أحد الإخوة ونقلنا بسيارته إلى هناك. وقد زرنا «تورنتو» و«أوتاوا» و«مونتريال» ومدنا عدة لا أذكرها.

---

(١) انظر هذه المسألة فى كتابنا «فى فقه الأقليات». نشر دار الشروق بالقاهرة.

كما زرنا شلالات «نياجرا» واستمتعنا بمناظرها الجميلة.

استمرت هذه الزيارات في أمريكا الشمالية - الولايات المتحدة وكندا - نحو شهر، أحيانا أقضي في الولاية يوما وليلة، وأحيانا يومين. لا أزيد على ذلك، وقد أكتفي بزيارة عاصمة الولاية، وربما أضيف إلى ذلك زيارة بعض المدن الأخرى، وقد أكون في الصباح في مكان، والعصر في مكان، وأبيت في مكان ثالث.

وقد كررت هذه الرحلة بعد عدة سنوات، وكان يرافقني فيها الابن العزيز والأخ الكريم علي محمد يوسف المحمدي، وكان معيدا في كلية الشريعة بجامعة قطر، وقد أذهله الجهد الذي أبذله في هذه الرحلات من بلدة إلى أخرى، ومن مركز إلى آخر، ومن مسجد إلى غيره، ومن منتدى إلى منتدى، وقد يتم ذلك كله في يوم واحد، وفي كل مرحلة من هذه التنقلات أتكلم وأوجه وأجيب عن الأسئلة، وأجلس جلسات خاصة، فكان مما قاله الأخ علي حفظه الله (الأستاذ الدكتور علي الآن): إن الشيخ يتكلم ١٨ ساعة، في كل ٢٤ ساعة!

إنشاء جامعة قطر بكلياتها الأربع

عرفنا أن قطر بدأت تعليمها العالي بكليتي التربية للطلبة والطالبات في مبنيين منفصلين، وهيئة تدريس مشتركة، وعميد واحد، هو الدكتور محمد إبراهيم كاظم، وكان ينوب عنه في مبنى البنات الأستاذة الفاضلة الدكتورة كوثر عبد الرسول، زوجة الأستاذ الفاضل الدكتور محمد رياض.

وقد صدر القرار الأميري في أواخر سنة ١٩٧٦ - ١٩٧٧م الدراسية بإنشاء جامعة قطر، التي تبدأ بكليات أربع، هي:

١ - كلية التربية.

٢ - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية.

٣ - كلية العلوم.

٤ - كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية.

وفي قانون تأسيس الجامعة: أكد بصورة واضحة: هويتها الإسلامية، وانتماءها العربي، وجمعها بين الأصالة والمعاصرة.

وأصبح الدكتور كاظم مدير الجامعة، أما الرئيس الأعلى للجامعة، فهو أمير البلاد نفسه الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني.

كلية الشريعة:

وقد كلفت بإعداد كل ما يلزم لتأسيس كلية الشريعة، ووضع المناهج اللازمة لها، لتخريج العالم الشرعي المسلم، الذي إذا استُفتي أفتى بعلم، وإذا دعا إلى الله

دعا على بصيرة، وهو الذي ينظر إلى الشرع والتراث بعين، وينظر إلى الواقع والعصر بالعين الأخرى، فيزاوج بين الواجب والواقع، كما قال الإمام ابن القيم. فيرتبط بأصله، ولا ينعزل عن عصره.

واستعنت بمناهج الكليات المناظرة، وانتقيت أفضل ما فيها، كما طعمتها بأفضل ما رأيته ضروريا لتكوين العالم الشرعي المعاصر، مستعينا بإخواني وزملائي في قسم الدراسات الإسلامية.

وكان نظام الجامعة يفرض علينا أن يدرس الطالب مواد مساعدة، ومواد اختيارية، بالإضافة إلى متطلبات الجامعة، تستغرق ٥٤ ساعة من مجموع الساعات التي يدرسها الطالب، ليتخرج بعدها، وهي: ١٤٤ ساعة مكتسبة.

ومعنى هذا: أن عندنا (٩٠) ساعة، تتصرف فيها الكلية، وقد قسمناها إلى تخصصين: تخصص للشريعة، وتخصص لأصول الدين. ولهذا اخترنا تسميتها: «كلية الشريعة والدراسات الإسلامية» لتدخل علوم «أصول الدين» ضمن «الدراسات الإسلامية».

وكانت فكرتي تقوم على أن هناك قدرا من الدراسات الشرعية، يجب أن يدرسه كل طالب في الكلية، أيا كان تخصصه، من التفسير والحديث والفقه والعقيدة، وهو ما يسمى في بعض الجامعات: «الجذع المشترك». ثم يبدأ التخصص «الشريعة أو أصول الدين» عادة في السنة الثالثة، أو الفصل الدراسي الخامس.

وقد ضمت الكلية صفوة من خيرة الأساتذة في شتى التخصصات، توافدوا عليها فى سنوات عدة، منهم في العقيدة: د. محمد عبد الستار نصار، و د. محمود حمدي زقزوق (وزير الأوقاف في مصر الآن) ود. أحمد الطيب (رئيس جامعة الأزهر الآن) ود. عبد الفتاح بركة.

وفي الفقه: د. عبد العظيم الديب، ود. علي السالوس، ود. علي القرة داغي، ود. محمد الدسوقي.

وفي الدعوة: د. حسن عيسى عبد الظاهر، ود. رؤوف شلبي، ود. عبدالستار نوير.

وفي التفسير: د. إسماعيل الطحان، ود. عدنان زرزور، ود. محمد البلتاجي.

وفي الحديث: د. موسى شاهين لاشين، ود. علي جماز، ود. يوسف عبدالمقصود، ود. إسماعيل الدفتار.

وبعد ذلك ضمت الكلية عددا من أبناء قطر وبناتها، ومنهم من خريجى الكلية ذاتها وخريجاتها. منهم من تولى عمادة الكلية، مثل د. على المحمدى، ود. عائشة المناعى، عميدة الكلية الآن.

وقد بدأت الدراسة في الكلية ـ كما في سائر كليات الجامعة الأخرى ـ منذ بدأ العام الدراسي ١٩٧٧م ـ ١٩٧٨م.

وقد عينت بقرار أميري عميدا للكلية، وظللت عميدا لها اثنتي عشرة سنة، حتى أعرت إلى الجزائر (سنة ١٩٨٩م ـ ١٩٩٠م) وسيأتي الحديث عن ذلك في حينه إن شاء الله.

وكان عمداء الكليات معي في ذلك الوقت: أ. د جابر عبد الحميد جابر عميد كلية التربية، وأ. د. ماهر حسن فهمي عميد كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، وأ. د. عبد الحليم كامل عميد كلية العلوم.

ابنتاي إلهام وسهام تدخلان الجامعة:

وفي هذه السنة دخلت ابنتاي (إلهام وسهام) جامعة قطر، وكانتا قد حصلتا على الثانوية بتفوق كما ذكرنا من قبل. وقد أشار علي بعض زملائنا في الجامعة بإرسالهما إلى مصر، ليدخلا كلية الطب، فهذا هو التوجه المصري العام لدى الناس: أن الطالب المتفوق أو الطالبة المتفوقة لا بد أن يلتحق بكليات «القمة» كما يسمونها. وقلت لأحد الزملاء، وهو أستاذ متميز في كلية العلوم: وما عيب كلية

العلوم وأنت فيها الآن أستاذ ملء السمع والبصر؟! قال: يا فضيلة الأستاذ، انظر إلى دخلي ودخل الطبيب الذي أخذ الثانوية ودخل الجامعة معي؟ ما أعظم الفرق بيني وبينه!

وكانت ابنتاي غير متحمستين للطب. وهذا من فضل الله علينا، لأنهما لو كانتا حريصتين عليه، لوقعنا في مشكلة: هل تعيشان وحدهما؟ أو هل تنقسم الأسرة الأب هنا والأم هناك؟

والحمد لله، لقد اتفقت مع ابنتَيّ: أن يكون همهما الحصول على الماجستير والدكتوراه، وهناك تتساوى الرؤوس. وهكذا استراحت ابنتاي إلى دخول جامعة قطر، والبقاء في حضن العائلة.

وبحكم تخرجهما في القسم العلمي، ستدخلان «كلية العلوم» التي أنشئت هذا العام.

وقد اختارت إلهام قسم «الفيزياء» التي تهوى البحث فيها، واختارت سهام قسم الكيمياء التي تحبها أيضا.

ولكن طلبة الجامعة وطالباتها لا يدخلون الأقسام التي يريدونها مباشرة، بل يدرسون السنة الأولى دراسة عامة، مقسمة إلى قسمين: العلمي العام، والأدبي العام. فطلاب كلية العلوم والأقسام العلمية في كلية التربية: يدرسون مواد مشتركة في هذا «العلمي العام». وطلاب الشريعة والإنسانيات والأقسام الأدبية في كلية التربية: يدرسون مواد مشتركة في الأدبي العام. كما يدرس الجميع «متطلبات الجامعة» من الثقافة الإسلامية، واللغة العربية، واللغة الإنجليزية.

صحوة الشباب الجامعي في مصر

في منتصف عقد السبعينيات من القرن العشرين: كانت الصحوة الإسلامية، قد بدأت تبزغ شمسها في أفق مصر. وكان ذلك نتيجة لجو الحرية الذي أحسه الناس، وطفقوا يستنشقون نسائمه، بعد الجو الخانق الذي كانوا يعيشون في دخانه أيام عبد الناصر. ودائما تنتعش الدعوة الإسلامية وتزدهر في مناخ الحرية. وتذبل ـ وقد تموت ـ في جو الفاشيّة والاستبداد.

وكان أول ظهور الصحوة بين الشباب، فهم أقرب استجابة من غيرهم للدعوات الدينية والإصلاحية، وهم أقدر على حمل أعبائها بما حباهم الله من قوة وحيوية. وأول ما يظهر هذا في الشباب الذي استنار بنور العلم، وأمسى لديه قدر من الوعي بنفسه وبأمته وبرسالته. وهو الشباب الجامعي بخاصة.

ولذا وجدنا رجلا مثل الإمام حسن البنا يوجه رسالة خاصة «إلى الشباب» يقول في مطلعها:

«إنما تنجح الفكرة إذا قوي الإيمان بها، وتوافر الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، ووجد الاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها. وتكاد تكون هذه الأركان الأربعة: الإيمان، والإخلاص، والحماسة، والعمل، من خصائص الشباب، لأن أساس الإيمان: القلب الذكي، وأساس الإخلاص: الفؤاد النقي، وأساس الحماسة: الشعور القوي، وأساس العمل: العزم الفتي. وهذه كلها لا تكون إلا للشباب! ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (الكهف: ١٣).

كما وجدنا الإمام أبا الأعلى المودودي وجه نفس العناية إلى الشباب، فألقى محاضرة عنوانها «واجب الشباب اليوم» وأخرى بعنوان «تحديات العصر الجديد والشباب» ألقاها على جمعية الطلبة المسلمين، التي ترعاها الجماعة الإسلامية، وثالثة بعنوان: «دور الطلبة المسلمين» في بناء مستقبل العالم الإسلامي.

ولا غرو أن تجلت الصحوة أول ما تجلت في شباب الجامعات المصرية، بدءا بجامعة القاهرة أولى جامعات مصر المدنية وكبراها، فظهر ما عرف باسم «الجماعات الإسلامية». وقد اقتبسوا هذا الاسم من «الجماعة الإسلامية» في باكستان والهند، التي أسسها المفكر والداعية الكبير أبو الأعلى المودودي. فأخذوا منهم اسم الجماعة واسم رئيسها، وهو «الأمير» لم يسموه الرئيس أو المدير أو المرشد أو الأمين، مما يدل على تأثرهم بجماعة باكستان.

واستفادت هذه الجماعات من أساليب الجماعات قبلها، مثل جماعة الإخوان المسلمين، وجماعة أنصار السنة، والجمعية الشرعية، ولا سيما الإخوان، من إلقاء الدروس والمحاضرات، وعقد الندوات، وعمل المعسكرات في إجازة الصيف وغيرها.

وكان التشدد والتطرف هو الغالب على هذه الجماعات أول ما نشأت، حتى إني لأذكر أن أحدهم سألني في معسكر أقامه طلاب جامعة عين شمس قائلا: أليست مصر دار حرب؟ لأنها لا تنفذ شريعة الله، وتبيح شرب الخمر، والتعامل بالربا، ونشر الخلاعة في وسائل إعلامها، ولا تطبق أحكام الحدود؟ . . . إلخ ما قال.

حين سمعت هذا السؤال: ثار ثائري، وقلت له: يا أخي! أتدري معنى كلامك هذا وما يلزمه؟ إن معناه: أن مصر ليست لنا نحن العلماء والدعاة إلى الإسلام، بل هي بلد النصارى والشيوعيين واللادينيين وأمثالهم، ونحن فيها غرباء!

ومن لوازم هذا الكلام: أن دولة الكيان الصهيوني - إسرائيل - لو اعتدت على مصر، لا ندافع عنها، بل نتركها لليهود، ليحتلوا أرضها، ويهتكوا عرضها،

ويغنموا مالها، ويسْبوا نساءها: لأن المسلم لا يطالب بالدفاع إلا عن أرض الإسلام، فإذا خرجت مصر عن أرض الإسلام ودار الإسلام، فمقتضى هذا: أن ندعها لليهود وغيرهم، لأننا لم نعد مسؤولين عن الذود عنها. وهذا كلام في غاية الخطورة، لا يوافق عليه مسلم ولا عاقل.

وما زال هذا الشباب الذي يتوقد حماسة، ويغلي صدره من الغيظ على المنكرات التي انتشرت، والفساد الذي استشرى، يتصل بالعلماء والدعاة المعتدلين، من أمثال الشيخ الغزالي، والشيخ سيد سابق، والفقير إليه تعالى.. يلقاهم الشباب في جلسات خاصة في بيوتهم، ويزورهم العلماء في جامعاتهم في محاضرات، وفي دروس ومناقشات في معسكراتهم الصيفية.. وما زالوا هكذا حتى هدأت ثائرتهم، وخفت حدتهم، وأخذوا يستمعون لصوت الحكمة والتعقل، ويناقشون الأمور بهدوء وتبصرة، حتى تغير موقفهم، ونجوا - أو قل: نجا أكثرهم - من آفة الغلو، وانتقلوا من خط التشديد إلى التيسير، ومن الغلو إلى الاعتدال، ومن الشطط إلى الوسط. والحمد لله.

وقد كنت أرى لزاما عليّ: أن أقترب من هؤلاء الشباب ما استطعت، وأن أستجيب لهم إذا دعوني، لمحاضرة في الجامعة، أو لزيارتهم في مخيّماتهم التي يقيمونها في الصيف، أو لجلسات خاصة أجيب فيها عن أسئلتهم، وأرد فيها على شبهاتهم، وأصحح فيها المفاهيم التي التبست عليهم، بل كثيرا ما كنت أستقبلهم في منزلي، ليفضوا إلي بما عندهم، فهم يحبون أن يفهموا، وأن يستوثقوا، ولهذا يستفسرون عن أمور كثيرة، ولا يسلمون بما يقال لهم بسهولة، بل يناقشون ويجادلون، ولكنهم - والحق يقال - ليسوا مكابرين، ولا ممارين بالباطل. بل يذعنون للحق إذا تبين لهم، ويركضون وراء الدليل، ولا يحيدون عنه، وهذا ما يحمد لهم. ومثلي يرحب بهذه النوعية من الشباب، ويفرح بها فرح من فقد ضالته ثم وجدها.

كان هؤلاء الشباب صوَّاما قوَّاما قراء للقرآن والحديث، مستغفرين بالأسحار، متحمسين لقضايا الإسلام: عقيدة وشريعة، دعوة ودولة، حضارة وأمة. وقد كنت

أرى فيهم مستقبل مصر. وكثيرا ما قلت: إن أعظم ما في مصر، وأغلى ما في مصر، ليس ذهبها الأبيض: القطن، ولا الأسود: النفط، ولا الأهرام ولا أبا الهول، ولكنه هذا الشباب المؤمن المستقيم المستعد للبذل في سبيل الله. إنهم ثروة مصر الأولى، وغدها المشرق.

صلاة العيد في ميدان عابدين:

وكان من سنن الخير التي أحياها هؤلاء الشباب: صلاة العيد في الميادين الكبرى، كما هي سنة النبي صلى الله عليه وسلم: أنه لم يكن يصلي العيد في المسجد إلا لعذر كالمطر. وإنما كان يصليه في الخلاء، ليتسع المكان لأكبر عدد ممكن من الناس، فيجتمع في مصلى العيد: الرجال والنساء والصبيان في صورة «مهرجان إسلامي» فريد، لا يهتفون فيه باسم مخلوق، بل باسم الله وحده: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر ولله الحمد.

وكان المسلمون في مصر قد هجروا سنة الصلاة في الخلاء، إلا ما كانت تقوم به الجمعية الشرعية وأنصار السنة، في نطاق محدود.

فلما ظهر شباب الصحوة الإسلامية: أرادوا أن يحيوا هذه السنة التي أماتها الناس، وأن يظهروها بقوة تليق بقوة الصحوة، وقوة شبابها، وتليق بمكانة مصر بلد الأزهر، والكعبة الثقافية للإسلام، فاقترحوا أن يجعلوها في الميادين الكبرى في القاهرة، واختاروا «ميدان عابدين» الشهير في وسط القاهرة، ليصلوا فيه. وقد بدأوا في أول الأمر بأعداد محدودة، ظلت تتكاثر عيدا بعد عيد، حتى أصبح الذين يتجمعون فيها بعشرات الألوف، فكانوا ينتقون لها الخطباء المعروفين أمثال شيخنا الشيخ محمد الغزالي رحمه الله.

وكان أول تجمع جماهيري فاق ما قبله من تجمعات: في عابدين سنة ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م، وقد سبقته دعاية واسعة، وفكر الشباب في خطيب يجتمع الناس عليه، ويهرعون إلى استماعه، فكان اسم الفقير إليه تعالى هو الذي

اختاروه، واستدعوني من قطر، لأشاركهم في احتفالهم الكبير، وأخاطب هذه الجماهير.

ولم أخيب رجاءهم، فنزلت من قطر لأجل ذلك، وأذكر أن أول خطبة لي كانت في عيد الأضحى، وكان الرئيس السادات في ذلك الوقت في زيارته الأولى لإسرائيل، التي فاجأ بها العالم، واتفقت مع الإخوة: ألا نتعرّض لموضوع السياسة، وأن نتكلم في القضايا الأساسية للأمة، حتى لا نمكن رجال الأمن من أن يجدوا فرصة لمنعنا، ونحن نريد أن نثبّت هذه السنة: الصلاة في ميدان عابدين كل عيد. ومر الأمر بسلام بحمد لله وتوفيقه.

وكنت أجد بعض المصورين يصورون الصلاة والخطبة، ولا ندري من هؤلاء، فهم ليسوا مصريين، لأن الإعلام المصري لا يتحدث عنا ببنت شفة، كما يقولون. بل يتجاهلنا تماما.

وهكذا ظللت أحضر في كل عيد - أو في أحد العيدين - من قطر لأخطب العيد، وأؤم المصلين. وبعد سنة كان السادات في عيد الأضحى في منتجع كامب ديفيد في أمريكا، ليعقد اتفاقية السلام. واستدعيت من قطر لإلقاء الخطبة، ومضينا على سياستنا: ألا نهاجم ذلك، لأن أي هجوم سيثير الجماهير، ويشعل النار، فلا نملك إطفاءها.

وظللنا هكذا حتى كان آخر عيد أقمناه في عابدين، وكان الحضور مكثفا لم أر مثله من قبل. كان هناك احتشاد هائل، سد كل الشوارع الموصلة إلى عابدين من جميع النواحي، حتى إني كنت في كل مرة أصل بالسيارة إلى قرب المنصة.. أما هذه المرة، فقد تركت السيارة بعيدا بعيدا، ومشيت على قدمي طويلا أتخطى الناس في طريقي، وأشق الزحام، حتى وصلت إلى المنصة. أقل ما يقال في هذا العدد: نصف مليون!

وفي خطبة من الخطب علق الرئيس السادات على هذا التجمع الإيماني الحاشد، فقال: يقولون: إنه ربع مليون، وأنا أقول: إنه مائة ألف فقط. ومن أين له ذلك، وهو لم ير ولم يشهد؟!

زيارة السادات لإسرائيل وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد:

كان فرح المصريين بانتصار العاشر من رمضان (السادس من أكتوبر) عظيما، وكان كل مصري مزهوا بهذا النصر، وكان الإسلاميون والمتدينون بصفة عامة أكثر فرحا من غيرهم، لاعتقادهم أنه تم بنفحات إيمانية، ومعونات ربانية!

ومن الحق أن نذكر أن العرب جميعا ـ بل المسلمين عامة ـ شاركوا مصر فرحتها، وشاركوا المصريين احتفالهم بهذا النصر المبين، فانتصار مصر إنما هو في الواقع وفي النهاية: انتصار لأمة العرب والإسلام.

ولكن للأسف لم تطل هذه الفرحة الغامرة، التي وحدت مشاعر العرب والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، بل حدث ما كدر صفاء هذه الفرحة، بل أحالها إلى غم وحزن، وحول وحدة الشعور، ووحدة الموقف إلى خلاف وفرقة، مزقت الأمة شر ممزق.

كان ذلك عندما أعلن الرئيس السادات في خطاب له: استعداده لأن يذهب إلى إسرائيل، وأن يلقى رئيس وزرائها في ذلك الوقت مناحم بيجن، وأنه مستعد لتوقيع سلام مع إسرائيل.

والتقطت إسرائيل الخيط، ورحبت بزيارة السادات، وكأن الأمر كان معروفا من قبل! وسرعان ما رتبت الأمور، وهيئت الأسباب، وفتحت الأبواب، لزيارة السادات.

وفوجئ الشعب العربي، وفوجئت الأمة الإسلامية كلها بزيارة أول رئيس عربي لإسرائيل، وخطابه في الكنيست -وصلاة عيد الأضحى في المسجد الأقصى- والدخول في درب المفاوضات، التي انتهت بعد سنة بتوقيع اتفاقية «كامب ديفيد» في أمريكا بين مصر وإسرائيل.

كانت هذه أول معاهدة تعقد بين إسرائيل وبلد عربي، فكيف وقد عقدت مع أكبر بلد عربي؟ وأهم بلد عربي؟!

لقد كسبت مصر بهذه المعركة استعادة سيناء، وكسبت معونة أمريكية تقدر بنحو ملياري دولار.

ولكن إسرائيل كسبت ما هو أكبر وأخطر: كسبت (تحييد مصر) وإخراج أكبر قوة عسكرية عربية، وأكبر قوة بشرية وعلمية من المعركة. فلم تعد مصر شريكة في القضية الفلسطينية، وفي معركة التحرير المفروضة على العرب جميعا، بل أصبحت وسيطا بين الفلسطينيين وإسرائيل!

كما أنها أشاعت روح الاستسلام في المنطقة، وبداية الاتفاقات بين إسرائيل وبلاد عربية أخرى ـ مثل الأردن ـ ما كانت لتجرؤ عليها، لولا أن مهدت مصر لها الطريق، وفتحت الباب المسدود!

كما أن إسرائيل بهذه الاتفاقية: اخترقت جدار الأمن القومي العربي، واستطاعت أن تنفذ إلى البلاد العربية، فأصبحت لها بعد ذلك سفارات في مصر وفي الأردن، وفي موريتانيا، وأصبحت لها مكاتب في بعض البلاد مثل قطر. وكان كل هذا من كبائر المحرمات قبل ذلك.

بل شجعت هذه الاتفاقية كثيرا من البلاد الإفريقية وبلاد عدم الانحياز ـ التي كانت مقاطعة لإسرائيل ـ على تغيير موقفها، حتى إن الكثير منها سعى في إعادة العلاقات مع إسرائيل، وعادت بالفعل.

كما سببت هذه الاتفاقية في شق العالم العربي وتمزيقه إلى من يؤيد السلام مع الصهاينة، ومن لا يؤيده بحال، إلى من يسمي الاستسلام حكمة، والمقاومة حماقة! وكان ذلك بداية انقسام عربي، وتصدع في الجدار العربي لم يلتئم حتى اليوم.

وكذلك انقسم الناس داخل مصر نفسها، فالمؤمنون بالإقليمية يقولون: إن مصر حققت نصرا بلا حرب، وحررت سيناء بلا دماء، وتفرغت للبناء الداخلي، بعد أن خاضت أربع حروب من أجل فلسطين.

والعروبيون والإسلاميون يقولون: إن مصر فقدت دورها القيادي في الوطن العربي، وأمست في موضع التهمة، بعد أن كان كانت في موضع الريادة، وفتحت الباب لأمريكا للتدخل في توجيه المنطقة العربية سرا وعلانية، وأدت إلى كل ما جرى بعد ذلك من هزائم ونكبات من فلسطين إلى العراق.

وقد لاحظت هذا الانقسام المؤلم بنفسى، وساءنى أن أجده فى شتّى المجالس والأندية والاتجاهات، ولا أملك أمامه إلا الحوقلة والاسترجاع!

المؤتمر العالمي الأول لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة

كانت المملكة العربية السعودية في العقد الأخير (عقد التسعينيات) من عقود القرن الرابع عشر الهجري (عقد السبعينيات من القرن العشرين) في حالة من اليقظة والحركة، فقد وصلت إليها الصحوة الإسلامية التي بدأت في مصر، بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧م وطفق كثير من شبابها الذين حصلوا على الدكتوراة من خارج البلاد يعودون إليها، ويقودون زمام التعليم والتربية و الثقافة في كثير من المؤسسات، كما ضمت المملكة في رحابها كثيرا من دعاة الحركة الإسلامية ليعملوا في مدارسها ومعاهدها وجامعاتها.

وكان من ثمرة ذلك كله صحوة عامة ظهرت بشائرها في صور مختلفة، ومسارات عدة.

تأثير شخصية الملك فيصل وسياسته:

وكان وجود الملك فيصل بن عبد العزيز، دافعا للعمل الإسلامي الرسمي والشعبي إلى الأمام، بفضل توجهه الإسلامي الواضح، وغيرته على الدعوة الإسلامية، وحماسته للقضايا الإسلامية، وتعاطفه مع الدعاة المسلمين، وتقريبه للعلماء والصلحاء من الناس، وتبنيه للقضية الفلسطينية، ومواقفه المشرفة في أمور كثيرة تتعلق بالأمة الإسلامية. كل هذا جعل الناس تلتف حوله، وجعل من المملكة مهوى أفئدة الغيورين على الإسلام وأمته وحضارته.

فلا غرو أن تتبنى المملكة كل ما من شأنه أن يعلي كلمة الإسلام من مؤتمرات وندوات.

ولهذا عقدت في المملكة عدة مؤتمرات إسلامية عالمية في فترة وجيزة، حضرها المئات من العلماء والخبراء المختصين والمهتمين في العالم الإسلامي، وخارج العالم الإسلامي.

من ذلك: المؤتمر العالمي الأول للتعليم الذي أقيم في جدة.

والمؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي الذي أقيم في مكة، وكان مقررا أن يعقد في حياة الملك فيصل، ثم حدث اغتيال الملك رحمه الله ـ الذي فجعت به أمة الإسلام في المشارق والمغارب ـ فأجل حتى عقد في عهد الملك خالد في صفر ١٣٩٦هـ، فبراير ١٩٧٦م.

ثم دعي إلى مؤتمر إسلامي عالمي آخر، يعقد تحت رعاية الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، التي كان يرأسها حينذاك سماحة العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ونائبه الشيخ عبد المحسن العباد، وكان موضوع هذا المؤتمر هو: توجيه الدعوة وإعداد الدعاة، وكان موعده في صفر ١٣٩٧هـ، شباط أو فبراير ١٩٧٧م.

دعي إلى هذا المؤتمر نحو ثلاثمائة عالم مسلم، اجتمعوا في رحاب المدينة المنورة، بجوار مسجد رسول الله وقبره الشريف صلى الله عليه وسلم، وبإشراف الجامعة الإسلامية التي تضم عدة آلاف من الطلاب المسلمين من نحو ثمانين جنسية.

وكان البحث الذي طلب مني: ما يتعلق بالإعداد العلمي أو المعرفي للداعية. وقد وفقني الله تعالى، فكتبت بحثا جعلت عنوانه «ثقافة الداعية» وبينت فيه أنواع الثقافات التي يجب أن يتسلح بها الداعية، لخوض معركة الدعوة، وهو قوي محصّن، واقف على أرض صُلبة.

هذه الثقافات هي :

١ ـ الثقافة الدينية بأنواعها وألوانها (القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله وقواعده، والعقيدة ومقارنة الأديان).

٢ ـ الثقافة اللغوية والأدبية، وهو ما يسميه الأقدمون «العلوم الآلية».

٣ ـ الثقافة التاريخية، ولا سيما التاريخ الإسلامي الذي يبدأ بالسيرة النبوية.

٤ ـ الثقافة الإنسانية، أعني: التزود بقدر مناسب من العلوم الإنسانية والاجتماعية.

٥ ـ الثقافة العلمية، بدراسة ما لا بد منه من العلوم الطبيعية والرياضية.

٦ ـ الثقافة الواقعية، وهي دراسة الواقع بما هو عليه بلا تهوين ولا تهويل: واقعنا وواقع أعدائنا.

والحمد لله أن البحث كان موضع الرضا والثناء من المشاركين في المؤتمر. ثم صدر في كتاب، انتشر واشتهر، حتى أمسى من المتطلبات الأساسية لتكوين الداعية، وأصبح موضع الاهتمام من الأكاديميين والحركيين على سواء.

وفي الجلسة الافتتاحية للمؤتمر: رشح المؤتمرون سماحة الشيخ ابن باز لرئاسة المؤتمر، كما هي العادة، في ترشيح رئيس كل جامعة لرئاسة المؤتمر، ولكن الشيخ بن باز تنازل عن الرئاسة للشيخ عبد المحسن العباد نائب رئيس الجامعة.

ثم جاء دور ترشيح مقرر عام للمؤتمر، فوقف شيخنا الجليل العلامة سماحة الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي جمهورية مصر الأسبق ليقول: أنا أرشح الداعية الإسلامي الكبير الشيخ يوسف القرضاوي، ليكون مقررا للمؤتمر. وكان بجواري الأستاذ محمد المبارك المفكر الإسلامي السوري المعروف، فقلت له: أنا سأرشح الشيخ الغزالي، وأرجو أن تثنِّي عليّ لأسباب أنت تعرفها. فوافقني على ذلك. فقلت: أنا أعتز بثقة أستاذنا الكبير الشيخ حسنين مخلوف، وأعُدّ ترشيحه لي شهادة لي أفخر بها، ولكني متنازل لشيخنا الداعية الكبير الشيخ محمد

الغـزالي، لأسـباب لا تخفى عليكم، فقـال الأسـتاذ المبارك: وأنا أثني على هذا الترشيح.

وهنا قـال بعض الإخـوة: هـذا يوم الإيثـار: الشـيخ ابن باز آثر الشيخ العبـاد، والشيخ القرضاوي آثر الشيخ الغزالي!

وكـان السبب المباشر لترشيحي للشيخ الغزالي: أن الرئيس السادات هاجمه جهرة في حديث مذاع على الهواء، حين سأله الطالب عبد المنعم أبو الفتوح رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة (الأمين العام لاتحاد الأطباء العرب اليوم): لماذا يفسح المجال للمـداحين والمنافقين، وتغلق الأبواب في وجوه العلماء والدعـاة الصادقين والمعتدلين من الأمة، والواعين لمشكلاتها وعلاجها؟! . . . وضرب مثلا بالشيخ الغـزالي، الذي اضطر إلى أن يغـادر البـلاد، لما ضيق عليه. . إلخ. فـما كـان من السـادات إلا أن رد بغضب وحنق، وكأن هذا السؤال لمس عنده وترا حساسا، هاج هائجه، وأثار ثائرته، ففتح النار على الشيخ الغزالي، وقال فيما قال: هـذا داعية فتنة، ومثير للنعرة الطائفية البغيضة.

وهذه تهمة باطلة بالنسبة للشيخ الغزالي، فما كان الشيخ في يوم من الأيام، داعية لطائفية ولا مثيرا لفتنة بين أبناء البلد الواحد. بل كان من دعاة التسامح أبدا، على نهج شيخه حسن البنا.

ولكن إذا هاجم الإسـلام مهاجم ما من المسلمين أو النصارى: رد عليـه بالمنطق العلمي الرصين، وألزمه الجادة، وهذا لا حرج فيه، ولا يعيبه أحد، إذ لا مجاملة في الحقِ، ولا مداهنة في الدين، والحق أحق أن يتبع.

فهذا ما دفعني إلى أن أقدم الشيخ الغزالي، ليكون ردا على من هاجمه، باختيار علماء الأمة له مقررا عاما للمؤتمر، وكان في الواقع نعم المقرر. فقد أعطي القوس باريها.

ومما أذكـره هنا: أن تليـفـزيون المملكة بالمدينة أرسل جـمـاعـة من المصـورين

والمذيعين، ليلتقطوا صورا للمؤتمر، ويُجْروا بعض المقابلات مع عدد من العلماء، ليبثوها في نشرة الأخبار، أو في برنامج خاص عن المؤتمر، فرفض الشيخ عبد المحسن العباد رئيس المؤتمر أن يسمح لرجال التليفزيون بالدخول إلى القاعة وتصوير المؤتمر، ووقف هو وبعض الأساتذة من الجامعة معه سدا منيعا، ليصدوا هؤلاء عن الدخول. وقالوا لهم: لا يمكن أن تدخلوا أبدا إلى القاعة ونحن هنا!!

وحجة الشيخ عبد المحسن ومن معه: أن التليفزيون قائم على «التصوير» والتصوير محرم في الإسلام! وأشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون. وقد ثبت في تحريم التصوير أحاديث صحاح مستفيضة لا يشك من له صلة بعلم الحديث في ثبوتها وصحتها.

وهذا مسلّم به، ولا نشكك فيه، ولكن التشكيك في دلالة الأحاديث لا في ثبوتها، فهل هي تعني هذا التصوير الفوتوغرافي أو الضوئي؟ أو أن هذا التصوير إنما هو عكس للصورة على الورق، كما تعكس الصورة في المرآة؟ ولذلك نجد أهل الخليج يسمون التصوير عكسا، والمصور عكّاسا، والصور عكُوسا.

والأحاديث قد عللت التحريم بأن المصور يضاهي خلق الله عز وجل، وهنا لا مضاهاة، بل هو خلق الله تعالى نفسه، والذي في التلفاز ليس صورة مضاهية، بل هي خلق الله ذاته.

على كل حال، لم تكن المناقشة مجدية مع الشيخ عبد المحسن، فهو متمسك برأيه، لا يتنازل عنه، ولا يفرط فيه. والحقيقة: أنه رجل صالح ذو دين وتقوى ومخافة لله، ويعمل لخدمة الجامعة بلا كلل ولا ملل، ويبذل من نفسه ووقته وجهده ما لا يصبر عليه إلا أولو العزم من الرجال. وقد لمست ذلك في عملنا معه، بوصفي عضوا في المجلس الأعلى للجامعة، فهذا جعلني أقترب منه، وأعرف بعض فضائله، ولما سألت عنه زملاءه وطلابه أجمعوا على إطرائه ومدحه والثناء عليه، في علمه ودينه وخلقه وسيرته، جزاه الله خيرا. وإن كنا نخالفه في ظاهريته

وتشدده، ولكن المرء مسؤول عما يقتنع به عقله، ويؤديه إليه اجتهاده، ويدين الله تعالى به، ويلقاه عليه، وإنما لكل امرئ ما نوى.

انقسم المؤتمر إلى عدة لجان حسب الموضوعات التي تبحث، والتي طلبت من الباحثين، وكتبوا فيها. وكل لجنة تضم عددا من المدعوين، تختار لها رئيسا ومقررا، ثم يبعث مقرر اللجان الفرعية: تقرير كل لجنة بعد كل جلسة إلى المقرر العام.

وظل المؤتمر عدة أيام في حركة دائبة، ونقاش علمي حي، ينبثق في العادة عن توصيات أو مشروع قرار، يرسل من اللجان الفرعية إلى المقرر العام.

وقبل الجلسة الختامية، عقدت جلسة خاصة لمناقشة التوصيات، ومشروعات القرارات، لإبقائها أو حذفها، أو تعديلها بإعادة صياغتها، حتى اكتملت مجموعة مهمة وقوية من التوصيات، فيها نظرة شاملة لهموم الأمة، ومشكلات الدعوة، وواجبات الدعاة، والعقبات التي تواجههم، وواجب الأمة نحو الدعوة والدعاة.

وقد وضعت هذه التوصيات والقرارات في صيغتها النهائية، وأقرها المؤتمر في جلسة ختامية، قرأها الشيخ الغزالي على المؤتمرين والضيوف. وقد وزعت على الأعضاء، وعلى الصحف وأجهزة الإعلام، بل طبعت مستقلة، ونشرت مستقلة، لما فيها من شمولية وتنوع وتوازن وتكامل. وليت المسؤولين عن أمة الإسلام - حكوميين وشعبيين - التزموا بما في هذه التوصيات، ففيها خير كثير، لو كانوا يعلمون.

كتاب «الخصائص العامة للإسلام»

وفي أوائل سنة ١٩٧٧م: ظهر كتابي «الخصائص العامة للإسلام» الذي كان يدرس لطلاب الجامعة في المقرر الأول لمادة «الثقافة الإسلامية». وكنا ندرس هذا المقرر لطلاب كليتي التربية، قبل أن تنشأ جامعة قطر.

وكانت «الثقافة الإسلامية» مقررا إجباريا مطروحا على طلاب الجامعة، من جميع الكليات وجميع الأقسام. وهي مادة جديدة لم تقرر إلا في بعض الجامعات العربية، مثل جامعات السعودية، وجامعة الكويت، وجامعة قطر، والجامعة الليبية.

وكانت بعض الجامعات تدرسها تحت عنوان «الحضارة الإسلامية». وقد اقترح عليّ هذا العنوان، ولكني خشيت أن يضيع المقصود من تدريس هذا المقرر، وراء الاهتمام بالجانب العمراني والفني في الحضارة الإسلامية. وأنا أريد أن نعطي الطالب جرعة كافية في «فلسفة الإسلام» ونظرته الكلية لله وللإنسان، للحياة وللكون، للدين والدنيا، للفرد والمجتمع، هذا من ناحية. وهذا ما يهتم به المقرر الأول في الثقافة الإسلامية.

ومن ناحية أخرى: نريد أن نبين للطلاب الأخطار التي تهدد الأمة الإسلامية، والوجود الإسلامي: من الاستعمار والصهيونية، والفلسفات المستوردة، من الماركسية والوجودية وغيرها، والاستشراق والتبشير، ونحوها وكيف تواجهها الأمة بوسائل إيجابية. وهذا ما يهتم به المقرر الثاني للثقافة الإسلامية.

وكان الطلاب يدرسون المقرر الأول للثقافة الإسلامية أول ما يدخلون الجامعة، ويدرسون المقرر الثاني في الفصل الأخير عادة.

وكان كتاب الخصائص أنسب وأقرب إلى المقرر الأول، وهو جزء من المنصوص عليه في المقرر بالفعل، وهو: الخصائص العامة للدين الإسلامي.

وكان كتابي «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا» أقرب إلى المقرر الثاني، وإن كان كل من الكتابين لا يوفي المقرر المطلوب حقه كاملا.

وقد ذكرت في مقدمة الكتاب: أن الشهيد سيد قطب قد أخرج - وهو في سجنه - كتابه القيم «خصائص التصور الإسلامي» وهو - كما يبدو من عنوانه - يعنى بجانب واحد من جوانب الإسلام الرحب، وهو جانب التصور والاعتقاد.

أي ما يوضح خصائص الفكرة الكلية للإسلام، عن الله، والكون، والحياة، والإنسان.

أما خصائص المنهج أو المذهب (أو النظام) الإسلامي كله - بما في ذلك العقائد والعبادات والأخلاق والشرائع - فلم يكن ذلك هدفه في الكتاب، وإن عرض لشيء منه في بعض الأحيان تبعا لا قصدا.

لهذا كان هذا الكتاب تتمة لكتاب الشهيد رحمه الله. ولا عجب أن اقتبست بعض العناوين الرئيسية منه، مثل: الربانية، والشمول، والواقعية، والتوازن. وإن لم ألتزم تفسيره لها تماما. فقد أوسع أو أضيق، وقد أزيد أو أنقص.

مثال ذلك: أنه تحدث عن خصيصة «الربانية» بمعنى ربانية المصدر والأساس، وأفاض في ذلك إفاضة بليغة. ولكنه - رحمه الله - لم يلتفت إلى المعنى الآخر للربانية، وهو ما سميناه «ربانية الغاية والوجهة» وهو معنى أساسي وخطير، وربما كان هو المتبادر إلى ذهن المسلم عندما تذكر كلمة «الربانية» أو «رباني».

كما أنه - رحمه الله - ركز على معنى «الثبات» في الإسلام، وأكده تأكيدا قويا. وهذا مقبول في جانب التصور والاعتقاد، كما أنه كان لزاما لمواجهة دعاة «التطور»

المطلق في عالمنا كالماركسيين وأشباههم، ولكن إذا تحدثنا عن الإسلام عقيدة وشريعة، ونظام حياة، أجد أن خصيصة الإسلام هي الجمع بين الثبات والمرونة معا، وهذا ما أثبته هناك، كما أضفت خصائص أخرى لم يذكرها الشهيد مثل: الإنسانية، والوضوح.

وقد تناولت بالشرح والتحليل في هذا الكتاب سبع خصائص هي:

١ ـ الربانية.

٢ ـ الإنسانية.

٣ ـ الشمول، ونعني به شمول الزمان والمكان والإنسان، وهو في الواقع يضم خصائص ثلاثا هي: الخلود، والعالمية، والاستيعاب.

٤ ـ الوسطية، أو التوازن.

٥ ـ الواقعية.

٦ ـ الوضوح.

٧ ـ الجمع بين الثبات والمرونة.

طبعة كثيرة الأغلاط:

وبمناسبة كتاب «الخصائص العامة» أذكر هنا: أن الذي نشر الطبعة الأولى منه كانت «مكتبة وهبة» ولكني فوجئت حين أرسل إلي صديقنا الحاج وهبة عدة نسخ من الكتاب أول ما ظهر: أن الكتاب مليء بالأغلاط المطبعية إلى حد لا يحتمل، فلا تخلو صفحة منه من غلطتين أو ثلاث أو أكثر. وعندما رأيت ذلك غلى الدم في عروقي، وأرسلت برقية عاجلة إلى الحاج وهبة تقول: أوقف توزيع الكتاب، ففيه نحو ألف غلطة!! وأحملكم المسؤولية! وتسلم الرجل البرقية في ذهول، وفتح الكتاب وبدأ يقرأه من جديد، فوجد كلامي حقا. فمنع ما بقي عنده من التوزيع. وأما ما ذهب إلى السوق، فهيهات أن يعاد. والعجيب أني ذهبت إلى المغرب، فوجدت هذه الطبعة قد زورها أحد الناشرين، ووزعها بعُجَرها وبُجَرها وأخطائها. وهذا يدل على أهمية أخذ إذن المؤلف.

ومثل هذه الأخطاء هى التى جعلت علماء الآستانه فى عهد العثمانيين يتوقفون فى إجازة استعمال المطبعة! لأنها مظنة أن تسبب فى أخطاء فاحشة تفسد العلم وتشوهه. بخلاف «النسخ» الذى كان يقوم به فى العادة علماء يعرفون معانى ما ينسخونه!

ولكن مثل هذا التخوف لا يمكن أن يكون سببا فى حرمان الأمة من ثمرات المطبعة وفوائدها، وهى أكبر بكثير من مضارها، التى يمكن تلافيها بإعداد طابعين فاهمين.

والمهم أن مثل هذه الأخطاء الكثيرة والفاحشة فى الكتاب لا يمكن علاجها، إذ كيف تصدر ملحقا يحوي تصويب ألف خطإ؟ إنها فضيحة ولا شك.

تأسف الأخ الكريم الحاج وهبة، وما يغني الأسف؟ وبادر، فقوى جهاز التصحيح، وجاء بمصحح جيد مأمون. وهذا هو الواجب من أول الأمر.

بعد ذلك أصبحت أحرص كل الحرص على أن أصحح النموذج أو (البروفة) الأخيرة بنفسي، على ما يكلفني ذلك من وقت وجهد. أنا في أمس الحاجة إليهما.

الصبر في القرآن الكريم (في التفسير الموضوعي):

كان من المقررات في قسم الدراسات الإسلامية، ثم في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية: «التفسير الموضوعي».

ويقصد بالتفسير الموضوعي: التفسير الذي يتناول موضوعا من الموضوعات التي يهتم بها القرآن الكريم، وتُجمع الآيات المتعلقة به من القرآن كله، مكيه ومدنيه، وتصنف هذه الآيات، بحيث تلقي ضوءا كاشفا على عناصر الموضوع، كما عرضه القرآن.

وكان التفسير الذي درسناه في معاهد الأزهر الثانوية، وفي كلياته العالية، يدور كله حول ما يسمى «التفسير التحليلي» وهو الذي يتناول سورة أو أكثر أو أقل من

القرآن الكريم يحلل ألفاظها، ويشرح معانيها، ويبين أسباب نزولها وأسرار البلاغة فيها، وما يستنبط منها من أحكام أو إرشادات، إلى آخر ما عنيت به تفاسير القرآن المشهورة، وكل مفسر يهتم عادة بما تخصص به ونبغ فيه.

فهناك من يهتم باللغة والبلاغة كالزمخشري، وهناك من يهتم بأحكام الشريعة كالقرطبي، وهناك من يهتم بالعقائد والجوانب العقلية كالفخر الرازي، وهناك من يهتم بالحديث والأثر كابن كثير.

أما هذا اللون الجديد من التفسير، فلم يكن معروفا كثيرا عند الأقدمين، إلا في نحو ما عني به الإمام ابن القيم في كتابه «التبيان في أقسام القرآن» جمع قَسَم.

ثم أصبح المعاصرون يوجهون عناية كبيرة إلى هذا النوع، مثل ما كتبه الشيخ شلتوت من رسالة عن «القرآن والقتال» ورسالة عن «القرآن والمرأة» وما كتبه الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز عن «الدستور الأخلاقي في القرآن» وقد كتبه أولا بالفرنسية ونقله الأستاذ عبد الصبور شاهين إلى العربية، وما كتبه الأستاذ العقاد عن «الإنسان في القرآن الكريم» و«المرأة في القرآن الكريم».

وقد رأينا هذا النوع من التفسير نافعا للطلاب والدارسين، لأنه يطلعهم على الثروة الهائلة، التي يحتويها القرآن من موضوعات لا تكاد تحصر حول الفرد والأسرة والمجتمع والأمة والدولة والعالم، وحول الكون والإنسان والحياة. وقبل ذلك حول بارئ الكون وخالق الإنسان وواهب الحياة.. حول العقائد والعبادات والمعاملات والقيم والأخلاق والآداب والشرائع.. حول علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بمجتمعه، وعلاقته بحكومته، وعلاقته بخصومه، وعلاقته في السلم، وعلاقته في الحرب.

وقد بدأ الكثيرون من الباحثين وطلاب الدراسات العليا يقدمون أطروحاتهم للماجستير والدكتوراة حول موضوع من موضوعات القرآن، وبعد فترة من الزمن سيصبح لدينا كم هائل من موضوعات القرآن المخدومة والمشروحة.

وقـد بدأت أدرس هذا المقـرر لطلابي وطالبـاتي، وخطر في بالي: أن يكون موضوعنا هو «الصبـر في القـرآن الكريم» ولما نضج الموضـوع عندي أخـرجتـه في كتاب.

وكان هو بداية لسلسلة التفسير الموضوعي عندي. وقد صدر بعده كتاب «العقل والعلم في القرآن الكريم».

ومـا زال عندي مسـودات مـوضـوعـات في هذا المجـال، أدعـو الله أن يوفـقني لإتمامهـا وإخراجهـا للناس، مثل موضـوع «الشكر في القرآن» وهو مكمل لموضـوع الصبر، فالإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر، كمـا قـال تعـالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم: ٥). أي للمـؤمن الذي إذا أصـابته سـراء شكر، فكان خيرا له، وإذا أصابته ضراء صبر فكان خيرا له.

ومن المسودات التي عندي «الإيمان في القرآن» وهو موضـوع خصب غني جـدير بأن يخدم، فإذا لـم يسعفني الأجل أرجو من إخواني وأبنائي البـاحثين أن يعنوا به ويخدموه.

وقد فكرت جديا فى بعض الأوقات أن أتفرغ ما أستطعت لكتابة موسوعة قرآنية شـاملة، تتضـمن «مـوضـوعـات القـرآن» فى مجـالات الدين والحياة المختلفة، عقـائد وعبـادات وأخلاقـا ومفـاهيم وتقـاليـد وأنظمـة وقـوانين، فى حيـاة الفـرد، والأسـرة والجـمـاعـة والأمـة والدولة، والعـلاقـات الدوليـة، والعلاقـة بالبيئـة والكون وعـالم الغـيـب، مما يغطي الجـوانب الروحيـة والمادية، والفـردية والاجـتـمـاعـيـة، والمحليـة والدولية، والدينية والسياسية، والثقافية والاقتصادية.

وهذه الموضـوعـات حـاضـرة في ذهني، ولكن وضـعهـا على الورق يحتـاج إلى وقت وجـهـد، وتوفـيق من الله تعـالى. ويبـدو أن العـمـر لا يسـاعـد على إنجـاز هذا المشروع، فـعسى أن يقـوم به بعض أبنائنـا الواعين والمخلصين من أهل القـرآن (أهل الله وخاصته).

اجتماع لوجانو(١)

وفي صيف سنة ١٩٧٧ : تنادت مجموعة من المثقفين الإسلاميين المعنيين بأمر الدعوة والفكر، في ضوء مقتضيات العصر وتطوراته التي لا تتوقف ولا تتناهى، وفي إطار الثوابت الشرعية، التي لا يجوز الخروج عليها وإن تغير الزمان والمكان والإنسان.

تنادت هذه المجموعة بضرورة التلاقي لعدة أيام للحوار والمراجعة حول قضايا حية وجوهرية يدور حولها الجدل في كثير من الأقطار، ولدى كثير من الناس، وتستحق من أهل العلم والفكر والدعوة : البحث الدقيق، والفقه العميق، والنقاش الطويل، حتى تنضج حولها رؤية مستبصرة، وفكرة جلية، يمكن أن تنبثق منها أحكام شرعية اجتهادية لها اعتبارها وفق الأصول المتبعة، والقواعد المرعية، في الاستنباط والاجتهاد، تتحدد على ضوئها مواقف عملية، وتنشأ على أساسها هياكل ومؤسسات فكرية ودعوية وتربوية.

وكان من أهم هذه القضايا : «أسلمة(٢) المعرفة» أو «إسلامية المعرفة» ولا سيما

---

(١) لوجانو : بالجيم القاهرية غير المعطشة، ولا يوجد فى الحروف الهجائية العربية المعروفة : حرف يعبر عنها، ولذا يكتبها بعض العرب «غينا» ويضع آخرون تحتها ثلاث نقط، ولكن هذه لا توجد فى حروف طباعة الكومبيوتر.

(٢) يراد بـ «أسلمة الشيء» جعله إسلاميا . وإن كانت كلمة «أسلم» هنا في الأصل فعلا لازما، يقال : أسلم الرجل : أي دخل الإسلام . أما «أسلم» التي مصدرها «أسلمة» فتستعمل متعدية، ومضارعها «يؤسلم» ولذا لم يقرها اللغويون، أو كثير منهم. فاستُخدِمَتْ بدلها كلمة «إسلامية المعرفة».

بالنسبة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، وأهمية هذا الموضوع وضرورة الإعداد له، وبذل الجهود العلمية من أهل الاختصاص، لإيجاد علوم إنسانية مؤسسة على منظور إسلامي.

كما بحثنا قضية «الوجود الإسلامي» في الغرب، في أوربا وأمريكا، وضرورة توطينه، وأهمية الربط بين المسلمين، وإزالة الخلافات والفجوات القائمة بينهم، ووجوب إدماجهم في المجتمعات التي يعيشون فيها، وخروجهم من صومعة العزلة والتقوقع إلى باحة التفاعل والتأثير والتأثر، مع الاحتفاظ بالعقيدة والهوية الإسلامية، وضرورة تبني رؤية وسطية مستنيرة للإسلام، تقوم على التسامح لا التعصب، والانفتاح لا الانغلاق، والحوار لا الرفض، والاعتدال لا الغلو والتسيب.

وكان الذين فكروا في هذه اللقاء، ودعوا إليه، هم الإخوة في أمريكا، الذين كانوا في حالة نمو وتطور تسمح لهم بهذا النوع من التفكير «الإستراتيجي» والرؤية المستقبلية، وبخاصة «الجمعية الثقافية» التي كان يرأسها في ذلك الوقت - على ما أذكر - الدكتور محمود أبو السعود، ومن حوله الإخوة الذين قادوا أو يقودون «اتحاد الطلبة المسلمين» الذي انبثق عنه عدد من المؤسسات المهمة، مثل: الجمعية الطبية الإسلامية، وجمعية العلماء الاجتماعيين، وجمعية العلماء والمهندسين، ومؤسسة الوقف الإسلامي وغيرها.

وكانت «لوجانو» في سويسرا - المنطقة الإيطالية منها - هي المكان المختار للقاء، حيث يسكن في هذه المنطقة الأخوان الكريمان: يوسف ندا، وغالب همت، اللذان وفرا للمجموعة المنتقاة: المكان الملائم، والعون الملائم، والجو الملائم.

وقد حضر هذه الندوة أو هذا اللقاء عدد من الإخوة لم أعد أذكرهم كلهم، فاختلاف النهار والليل ينسي، كما قال شوقي رحمه الله. ولا أذكر أيضا كم كانوا. ولكني أذكر منهم: الدكتور الشهيد إسماعيل الفاروقي العالم

الاجتماعي رحمه الله، والدكتور محمود أبو السعود العالم الاقتصادي رحمه الله، والمفكر السوري المعروف الأستاذ محمد المبارك، والدكتور خورشيد أحمد، والدكتور أحمد العسال، والدكتور التيجاني أبو غديري، والدكتور عبد الحميد أبو سليمان، والدكتور أحمد التوتنجي، والدكتور أحمد القاضي، والدكتور جمال برزنجي، والدكتور هشام الطالب، والدكتور منذر قحف، والدكتور محمود رشدان، والدكتور رشيد بن عيسى تلميذ مالك بن نبي بالجزائر، والدكتور طه جابر العلواني، وكانت هذه أول مرة ألقاه فيها وأتعرف إليه.

وقد بقينا نحو ثلاثة أيام على ما أذكر في «لوجانو» انتهينا فيها إلى توصيات التقت عليها المجموعة المشتركة في الندوة، كان لها أثرها وصداها في العمل الدعوي والفكري فيما بعد. وكان من ثمار هذا اللقاء: التفكير في إنشاء «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» الذي أسس في واشنطن برئاسة د. عبد الحميد أبو سليمان، ثم د. العلواني، وكان له فرع ناشط في القاهرة، قام عليه الدكتور جمال الدين عطية لعدة سنوات. ثم تولاه من بعده الدكتور علي جمعة (مفتي جمهورية مصرية الآن) لسنوات أخرى.

تيار التكفير في مصر

في هذه الآونة لاحظ المراقبون للتيارات الفكرية في مصر ـ وخصوصا الدينية منها ـ بروز تيار «التكفير»، أعني: الذي يغلو ويتوسع في رمي المسلمين بتهمة الكفر والمروق من دين الإسلام، أو عدم الدخول فيه أصلا، وهو أمر جديد لم يكن معروفا بهذه الحدة في مصر من قبل.

وقد شغل تيار التكفير مصر مدة من الزمن، واستطاع أن يؤثر في مجموعة من الشباب الذي غلبت عاطفته على عقله، وكانت حماسته أكبر من فقهه. فأمسوا يكفرون الناس بالجملة، حتى كفروا آباءهم وأمهاتهم، وإخوانهم وأخواتهم، وكفروا علماء الدين من الوعاظ والخطباء، وأئمة المساجد. بل كفر بعضهم المسلمين بعد القرن الرابع الهجري إلى اليوم!!

وقد ذكرت في كتابي «الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف»: كيف تسرب هذا الفكر إليهم. إنهم يقولون: إنهم أخذوه عن سيد قطب رحمه الله، وربما وجدوا في نصوصه في عدد من كتبه ـ وخصوصا «الظلال» و«المعالم» ـ ما يؤيد وجهة نظرهم.

ولكن الذي مهد لدخول هذا الفكر إلى رؤوسهم، وقربه إلى عقولهم، هو: العذاب الذي قاسوه في السجن الحربي.

ولم يكن هذا التيار بالضخامة التي تصورها أجهزة الإعلام الرسمية، ولكن يبدو أن لهذه الأجهزة هدفا من وراء هذا التضخيم والتهويل. لعل ذلك لتضرب به

التيارات الأخرى الأقدم وضعا، والأطول عمرا، والأرسخ قدما، والأوسع قاعدة، مثل تيار الإخوان المسلمين.

وقد عُني صديقنا الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ فهمي هويدي بفكرهم ومناقشته على صفحات الأهرام، حين كان مسؤولا عن الجانب الديني في الصحيفة، قبل أن ينتقل إلى مجلة «العربي» بالكويت. وكان مما لاحظه: أن وزير الأوقاف علق على هؤلاء تعليقا شديدا يطالب بأخذه بقوة والضرب على أيديهم، فقد مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية. على حين علق وزير الداخلية تعليقا قال فيه: يجب أن نحاورهم ونردهم إلى الرشد والصواب.

وقال الأستاذ فهمي: لقد قال وزير الداخلية ما كان يجب أن يقوله وزير الأوقاف!

ولعل هذا التصريح العنيف من وزير الأوقاف - أستاذنا الشيخ الفاضل الكريم الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله - هو الذي وضعه عندهم في القائمة السوداء، ودبروا لاختطافه، وإن قالوا: إنهم لم يقتلوه! ترى: هل هم الذين خطفوه، ثم قتله غيرهم؟!

لقد قال أحدهم - أظنه «ماهر عبد العزيز» وكان أذكاهم وأبلغهم - إننا لم نقتله، ولكني سعيد بقتله!

وخطورة هذا التيار في هذه المرحلة: أنه لم يعد يكتفي بالجانب النظري، بل طفق يتخذ طريق «التنظيم» والتجنيد للشباب المتحمس. ومن انضم إليه اجتهد أن يغسل دماغه من الأفكار التي يعتنقها جمهور المسلمين، فهي في نظره: أفكار خاطئة؛ بل ضالة، وإن قال بها علماء كبار، لأنها مخالفة لظاهر القرآن والسنة.

وهنا تبدأ مرحلة «تثقيف» مركزة، تقوم على أصولها الخاصة، التي ترفض الآخر، كل الآخر، مسلما أم غير مسلم، وترفض فقه الآخرين كله، والتى

تتمثل في التمسك بظواهر النصوص، وترك المحكمات، وسوء الظن بالناس جميعا.

ثم بدأ الأمر يزداد خطرا حين سلكوا «طريق العنف» فاستخدموه أوّلاً مع كل من سلك طريقهم، ثم رجع عنه حين اكتشف خطأه وضلاله، فهم يَعُدُّونه حينئذ مرتدا، يستحق أن يقام عليه حد الردة بالقتل! وكثيرا ما نفذوه بالفعل!

وبدءوا يصدرون فتاوى خطيرة فيما بينهم، فمن تركهم عَدُّوه مرتدا، وأجازوا لامرأته أن تتزوج غيره وإن لم يطلقها! بل أجازوا أن يخطفوا الفتاة، ويزوجوها لأحدهم، لأن رضا أبيها «الكافر» غير مطلوب، وغير معتبر.

إلى سلسلة من الأخطاء والضلالات، جر بعضها إلى بعض. فقد أعطوا أنفسهم كل سلطات الإفتاء والقضاء والشرطة. فيفتون بإباحة دم من شاءوا من الناس، ثم يصدرون حكمهم المبرم الذي لا راد له، ولا يقبل الاستئناف ولا النقض، وبعد ذلك يشرعون في التنفيذ! وأحدهم لا يحسن أن يفتي في مسألة من مسائل الميراث، ولا يحسن أن يكون قاضيا في محكمة جنح!!

وأشد من ذلك خطرا: أن هذا الفكر المنحرف بدأ يوسع دائرته، ليصدره أهله خارج مصر، ومصر أبدا رائدة في الخير، ورائدة في الشر معا. فهي تصدّر كلا منهما إلى سائر البلاد العربية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رسالة «ظاهرة الغلو في التكفير»:

وأود أن أشير هنا إلى أن من أهم الرسائل التي ظهرت في هذه الفترة وكان لها آثرها ودورها في مقاومة تيار التكفير خاصة، ومواجهة التطرف الديني عامة، ومحاصرة الغلو الفكري، والتي نوه بها الكثيرون، برغم وجازتها: رسالتي التي سميتها «ظاهرة الغلو في التكفير». وقد نشرت الموضوع قبل ذلك في الجزء الأول من كتابي «فتاوى معاصرة» كما نشرته قبل ذلك في مجلة «المسلم المعاصر»، ثم نشرته في رسالة مستقلة بعد إضافات مهمة إليها.

وقبل ذلك ناقشت هذه القضية مع شباب الجماعات الإسلامية، التي ساد فكرها الجامعات المصرية، وكان يغلب عليها خط التشدد في أول الأمر، ثم لم يزل العلماء المعتدلون يوالونهم بنصائحهم ومحاضراتهم ولقاءاتهم، حتى مالوا إلى الاعتدال.

ومما سرني وأثلج صدري: أن شباب الجماعة الإسلامية في جامعة القاهرة، تبنّوا رسالتي، ونشروها في سلسلة إصداراتهم التي تظهر بعنوان «صوت الحق» وقد طبعوا منها عشرات الآلاف، وكانت تباع بمبلغ ١٢ قرشا، فالحمد لله: أن الشباب أنفسهم هم الذين أصبحوا يطاردون الغلو، ولا سيما الغلو في التكفير، الذي أمسى له جماعة تتحدث باسمه وتجتهد في إشاعته وتسعى لتبريره.

ومما كتبته في مقدمة هذه الرسالة المهمة:

«شغلتني قضية التكفير منذ سنوات عديدة عندما حضر إلي بعض الأخوة الذين خرجوا من المعتقلات والسجون بعد محنة الإخوان المسلمين الثالثة[1] في عهد الثورة. وكان مما حدثنا عنه هؤلاء الإخوة: هذه الظاهرة الجديدة التي كانت الشغل الشاغل للمعتقلين والسجناء والسلطة الحاكمة آنذاك، ألا وهي ظاهرة «التكفير» أو الغلو فيه، والتفاف طائفة - جلهم من الشباب الحديث السن، الحديث العهد بالدعوة - حول هذا الفكر المتطرف، إلى حد جعلهم يرفضون الصلاة مع إخوانهم في العقيدة والفكرة، وشركائهم في الاضطهاد والمحنة، وأساتذتهم في الدعوة والحركة.

ولا يصعب على الدارس أن يلمس سبب هذا التطرف، فهو يكمن في المعاملة

---

(١) المحنة الأولى كانت في عهد الثورة (يناير ١٩٥٤م) والثانية: في عهد الثورة أيضا، وهي التي ظهرت في أكتوبر ١٩٥٤م وما بعده، وإن كانت قد بدأت بالفعل قبل ذلك. والثالثة: هي التي أعلنت في أغسطس ١٩٦٥م، والتي ساقت إلى المعتقلات الألوف من الإخوان. وفي هذه المحنة: ظهرت بدعة «التكفير» وأعلن «المكفّرون» عن أنفسهم، وشغلوا سائر المعتقلين بفتنتهم، والرد عليهم، والنصح لهم، وإن ظل كثير منهم مصرا على موقفه.

الوحشية التي عومل بها السجناء، والمعتقلون، والتي لا تتفق مع دين ولا خلق ولا قانون ولا إنسانية.

لقد اقتيد هؤلاء الشباب البرآء من بيوتهم إلى ساحات التعذيب، وصب عليهم من ألوان القهر والإذلال والتنكيل ما لا يكاد يتحمله بشر، لقد تفننوا في إيذاء الأبدان، وإهانة الأنفس، والاستخفاف بالعقول، وتحطيم الشخصية، والاستهانة بالآدمية، إلى حد يعجز القلم عن تصويره، ويتوقف العقل في تصوره.

ولم هذا كله؟ إنهم - في نظر أنفسهم على الأقل - لم يقترفوا ذنبا؛ إلا أن يقولوا: ربنا الله! لم يقترفوا في حق أحد جرما، ولم يفكروا في شر، ولم يجتمعوا على معصية وفجور. كل ما فعلوه أنهم آمنوا بالإسلام نظام حياة، التزموا به فكرا وسلوكا، وعَدُّوا الدعوة إليه وإلى تطبيق شرعه واجبا يأثمون بتركه، والتقصير فيه، فلماذا يشردون ويعذبون، وينكل بهم أشد التنكيل؟

وزاد الطين هنا بلة جملة أمور:

١ - أن الفسقة والفجار والملاحدة واللادينيين طلقاء أحرار، لا يحاسبهم أحد، ولا يعاقبهم أحد، بل وثبوا على أجهزة الإعلام والتوجيه وغيرها يوجهونها كما يشاءون إلى الكفر والفسوق والعصيان.

٢ - وأن الذين يعذبونهم وينكلون بهم لا دين لهم ولا تقوى، بل كان منهم من يسخرون من تدينهم، ومنهم من ظهر على لسانه من الكلمات ما يصل به إلى الكفر البواح، حتى قال واحد منهم: هاتوا ربكم وأنا أحطه في زنزانة! تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

٣ - وأن بعض الكتب الإسلامية الحديثة التي كتبت في هذه الظروف نفسها: كانت تحمل بذور هذا التفكير، وتدفع إليه دفعا، بما تتسم به من قوة التعبير، وحرارة التأثير.

وهكذا احتضنت هذه الفئة هذا الفكر المطبوع بطابع الغلو والعنف، والذي ينظر إلى الناس ـ أفرادا ومجتمعات ـ من وراء منظار أسود قاتم.

وكان السؤال الأول الذي طرح نفسه: ما حكم هؤلاء الناس الذين يعذبوننا بقسوة وجراءة؟ أو على الأصح: ما حكم من وراءهم من الحكام الذين يأمرونهم بتعذيبنا إلى حد الموت، لا لشيء إلا لأننا ندعوهم إلى الحكم بما أنزل الله؟

وكان الجواب عندهم جاهزا: أخذوه من ظاهر بعض النصوص: من آيات القرآن مثل آية المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤). ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، كالأحاديث التي أطلقت الكفر على بعض المعاصي. ولم يقف الأمر عند هذا الحد: فإن الذين لم يوافقوهم على هذا الفهم للنصوص التي استدلوا بها، وقالوا: إنها مؤولة عند أهل السنة والجماعة لاصطدامها بأدلة وقواعد أخرى أقوى منها وأظهر في الدلالة ـ هؤلاء الذين لم يوافقوهم اتهموهم أيضا بالكفر وقالوا: من لم يكفر هؤلاء الحكام ومن والاهم فهو كافر؛ لأن الشك في كفر الكفار يُعدّ كفرا، كمن شك في كفر المشركين واليهود والنصارى والمجوس وأمثالهم.

ومن هنا بدأ نطاق التكفير يتسع، لا ليشمل من والى الحكام أو رضي بحكمهم فحسب، بل من سكت عن تكفيرهم، وهذا يعم جمهور الناس.

وقد اصطدم فكر هذه الفئة القليلة بفكر الجمهرة العظمى للمعتقلين أو المسجونين من الإخوان المسلمين، وبخاصة القدامى منهم، الذين تتلمذوا على حسن البنا مؤسس الحركة، وواضع دعائمها الفكرية والتنظيمية الأولى، وقد كان منهجه يتميز بالاعتدال والرفق، وعلى هذا ربى أنصاره وأعوانه.

وكان مما أخذه على بعض الجماعات الدينية في مصر: سوء رأي بعضها في بعض، إلى حد قد يصل إلى التكفير في بعض الأحيان. لهذا نص في الأصول العشرين من رسالة التعاليم ـ وهي الأصول التي يجب أن يفهم الإسلام في

حدودها ـ على هذا الأصل بهذه العبارات الواضحة: «لا نكفر مسلما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما[1] برأي أو معصية، إلا إذا أنكر معلوما من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب العربية بحال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر».

وقد بلغت القضية مرشد الأخوان المسلمين الثاني، الرجل الصابر الفقيه الأستاذ حسن الهضيبي رحمه الله، وهو في سجنه، فأنكر هذا الاتجاه، وأعلن مجافاته لخط الجماعة وفكرتها، وبين في وضوح أن مذهب الإخوان في هذه القضية وغيرها هو مذهب أهل السنة والجماعة، كما قال كلمته الحكيمة المعبرة: نحن دعاة لا قضاة.

وهذه الكلمة الوجيزة التي أصبحت بعد ذلك عنوانا لكتاب كامل في هذا الموضوع، إنما هي تعبير عن منهج إيجابي عملي، يجب أن يتضح للعاملين للإسلام الغيورين عليه: أنهم دعاة لا قضاة.

وفرق كبير بين القاضي والداعي: القاضي يجب أن يبحث عن حقيقة الناس حتى يحكم لهم أو عليهم، ولا بد له من أن يصفهم ويعرف مواقفهم ليقضي لهم بالبراءة أو العقوبة، ثم إن موقف القضاء يجعلنا ننظر للناس على أنهم متهمون، والأصل أنهم برآء.

أما الداعي فهو يدعو الجميع، ويبلغ الجميع، ويعلّم الجميع، إنه يصدع بكلمة الإسلام يدعو إليها كل الناس، من كان ضالا فليهتد، ومن كان عاصيا فليتب، ومن كان جاهلا فليتعلم، وحتى من كان كافرا فليسلم.

---

(١) تمسك دعاة التكفير بهذه العبارة «وعمل بمقتضاهما» في الأصل العشرين لحسن البنا. وقالوا: إن مفهومها: أن من أقر بالشهادتين ولم يعمل بمقتضاهما: كافر، وهذا ما نقول به. والأستاذ البنا يتحدث عن تكفير الجماعات الدينية بعضها لبعض بسبب آرائها وأقوالها. إذ لا يفترض في هذه الجماعات أن يكون فيها من يترك فريضة أو يرتكب كبيرة، فالجماعات إنما يكفر بعضها بعضا بسبب الأقوال لا بسبب الأفعال. وهو ما أنكره الأئمة والمحققون، مثل ابن تيمية والصنعاني والشوكاني وصديق حسن خان وغيرهم.

والداعي لا يعمل على عقوبة المخطيء، بل يعمل على هدايته، ولا يتعقب المرتد ليقضي عليه بالعقوبة المقررة، بل يتتبعه ليعلّمه وليرده إلى حظيرة الإسلام.

وكان لموقف الإخوان ومرشدهم أثره في تقليص دائرة المنتمين إلى التطرف أو التكفير، وانفضاض الكثيرين من حولهم، وإذ بقي عدد منهم ممن لم ترسخ أقدامهم في الدعوة، ولم تتأصل جذورهم فيها، بل يعدون جددا عليها، فمعظمهم من الجيل الذي يسمونه «جيل الثورة».

وهذا ما وجهني إلى التفكير الجدي في تأليف كتاب في الموضوع نظرا لشدة خطورته وبعد أثره، ولكن لم يقدر لي أن أتم الكتاب، فكتبت البحث الذي نشرته مجلة "المسلم المعاصر" في عددها التاسع الصادر في شهر يناير ١٩٧٧ أي قبل أن يتفاقم أمر التكفير، ويصل إلى ما وصل إليه من اختطاف الشيخ الذهبي وقتله رحمه الله، بحوالي شهرين. وقد بينت في مقدمة البحث: خطورة القضية، والأسباب العامة التي أدت إلى بروزها، والطريقة التي يجب أن تعالج بها، كما وضعت مجموعة من القواعد موثقة بأدلتها المحكمة من الكتاب والسنة، رجوت أن يكون فيها مقنع لمن طلب الحق، ولم يعمه التعصب لرأي. وما أردت بها إلا خدمة الإسلام، ومحاولة الأخذ بيد أبنائه المخلصين حتى لا يضلوا الطريق، أو يحطمهم الغلو، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الغلو والتطرف، وقال فيما رواه أحمد وغيره عن ابن عباس:

«إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين».

وقال فيما رواه مسلم عن ابن مسعود:

«هلك المتنطعون. هلك المتنطعون. هلك المتنطعون».

وهو لا يكرر الكلمة إلا لعظم خطرها، ولتأكيد الاهتمام بمضمونها.

إن هذا الغلو الذي انتهى بهؤلاء الشباب المخلصين الغيورين على دينهم إلى

تكفير من خالفهم من المسلمين، واستباحة دمائهم وأموالهم، هونفسه الذي انتهى بالخوارج قديما إلى مثل ذلك وأكثر منه، حتى إنهم استباحوا دم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وهومن هو، قرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم، وسابقة في الإسلام، وجهادا في سبيله.

ولم يكن الخوارج ينقصهم العمل أو التعبد، فقد كانوا صواما قواما قراء للقرآن، شجعانا في الحق، باذلين النفس في سبيل الله، كما وصفهم أحدهم أبو حمزة الشاري فأبدع في الوصف.

ولكن لم ينفعهم العمل وطول التعبد، وحسن النية، لأنهم ساروا في غير الاتجاه المستقيم، ومن سار في غير الاتجاه المنشود لم يزده طول السير إلا بعدا عن الهدف، فلا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

لقد صح الحديث في ذم الخوارج وفي التحذير منهم من عشرة أوجه - كما قال الامام أحمد - عدد منها في الصحيحين، وفي بعضها: «يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وقيامه إلى قيامهم، وقراءته إلى قراءتهم» ومع هذا وصفهم بأنهم: «يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية»، وبين علامتهم المميزة، وهي أنهم: «يدعون أهل الأوثان، ويقتلون أهل الإسلام».

كما أشار إلى ضحالتهم وسطحيتهم وعدم تعمقهم في فهم القرآن حين قال:

«يقرءون القرآن، لا يجاوز حناجرهم وتراقيهم».

إن العمل المقبول عند الله لا بد له من ركنين أساسيين:

١ - إخلاص النية فيه، بألا يراد به إلا وجه الله.

٢ - وسلامة المنهج، بأن يكون مبنيا على المحكمات البينات من نصوص الشرع وقواعده، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

سبب تأليف هذه الرسالة:

وكان السبب المباشر لكتابة هذه الرسالة: رسالتين ملحّتين وصلتا إلي: إحداهما من القاهرة، والأخرى من اليمن.

الأولى تقول بعد الديباجة:

لعلكم قرأتم وسمعتم ما نشرته بعض الصحف، وما تداولته الألسنة حول الظاهرة الدينية الجديدة، التي يتبناها من سموهم «جماعة التكفير» أو «جماعة الكهف» أو «جماعة الهجرة» أو غير ذلك من الأسماء، فضلا عن آخرين لم يعرفوا باسم ولا لقب.

وهذه الظاهرة تمثل اتجاها عاما يمكن أن يتلخص تحت عنوان «الغلو في التكفير» وإن كان أصحاب هذا الاتجاه يختلفون بعد ذلك في أسباب التكفير وموجباته عند كل فئة منهم.

فمنهم من يكفر مرتكب الكبيرة، على نحو ما كان يذهب إليه الخوارج من قبل.

ومنهم من يقول: أنا لا أكفر مرتكب الكبيرة، بل المصر عليها فقط.

ومنهم من يقول: إن جماهير الناس الذين ينتسبون إلى الإسلام ويُسمَّوْن «المسلمين» اليوم، ليسوا مسلمين.

ولهم على ذلك أدلة ومجادلات لعلكم قرأتم بعضها، ورد عليها بعض العلماء في بعض الصحف.

ولعلي لا أكون مبالغا إذا قلت: إن هذا الأمر ليس بالهين كما يتصوره أو يصوره بعض الناس، بل هو خطير للغاية، وهو يشغل كثيرا من الشباب في مجالسهم وحلقاتهم ومنتدياتهم، ويريدون فيه قولا فصلا، وحكما عدلا.

ولما كان لنا ثقة بعلمك وفهمك، ودينك وإخلاصك للحق دون تحيز لفريق ضد فريق، أو تعصب لرأي دون رأي، لمجرد التقليد أو العصبية أو إرضاء

الجمهور ـ نريد منك أن تبين لنا موقف الإسلام الحق من هذا الاتجاه في ضوء النصوص والأدلة الشرعية المعتبرة عند علماء الأمة. راجين أن ينال هذا الأمر منكم ما يليق به من الاهتمام والعناية، مهما يكن لديكم من المشاغل الأخرى، فهذا ـ في رأينا ـ من الأهم الذي يجب أن يقدم على المهم. ونحن في انتظار بيانكم داعين لكم بالتوفيق.

جماعة من الشباب المسلم القاهرة.

والرسالة الثانية:

من مجموعة من الشباب المسلم، ولكنها من صنعاء، من اليمن الشمالية، ونصها يقول:

ما رأيكم في مسلم يعتقد أن جميع أفراد الأمة في اليمن وغيره «والمجتمع اليمني» وغيره، كفار مرتدون، سواء من كان منهم ملتزما بأركان الإسلام أم لا، وسواء العالم فيهم والجاهل، الذكر والأنثى، وأن الدار دار حرب أو دار ردة، وأن الجمعة والجماعة في المساجد لا تصح، لأنها صلاة وراء كفار مرتدين، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب في مجتمع مرتد، أو أمة مرتدة أو كافرة، بل يدعون إلى «لا الله إلا الله محمد رسول الله» أولًا.

وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يلزم في «المجتمع المسلم» والأمة المسلمة (يعني دار الإسلام) فقط.

فهل هذا المعتقد صحيح، وله سنده الصريح من الكتاب والسنة الصحيحة وعقيدة السلف الصالح وإجماع الأمة.. أم أنه فاسد لفقد سنده من الكتاب والسنة الصحيحة وهدي السلف الصالح وإجماع الأمة؟ نرجو الجواب الكافي.

انتهت الرسالتان.

هذا ما وصلني. ولا يستطيع عالم يشعر بمسؤليته أمام الله تعالى: أن يسكت عن هذا الأمر، أو يؤجله، فإن الشباب لم يدعوا لي عذرا للتأجيل، فبدأت

الكتابة مستعينا بالله سبحانه. وما زلنا إلى اليوم نعانى من آثار هذا الفكر الخطير (التكفير)! وسأكتفي بإيراد بعض المقاطع الضرورية من هذه الرسالة:

أشكر لهذه المجموعة وتلك، من الشباب المسلم في القاهرة وصنعاء ثقتهم بي. وأدعو الله أن يجعلني عند حسن ظنهم، ويغفر لي ما لا يعلمون. وأبادر فأقول:

إنني أقدر خطر الموضوع الذي يسألون عنه، والذي يشغل فكر الكثيرين من أمثالهم. وهو موضوع: «الغلو في التكفير».

وقد لمست بنفسي شيئا من آثاره الفكرية لدى بعض الشباب المخلص النية، السليم الطوية، في أكثر من بلد عربي. وسمعت من بعضهم بعض ما يستندون إليه من أدلة أو شبهات، وقرأت بعضا آخر. ولكني كنت أود أن أقرأ شيئا محددا يوضح فكرة هؤلاء توضيحا تاما مؤيدا بالأدلة التي تؤيد وجهة نظرهم. وبهذا يستطيع الفقيه المسلم أن يرد عليهم بما أعلنوه والتزموه كتابة لا مشافهة.

على أن هذا الذي وددته، إذا لم يتحقق، لا يمنع من مناقشة فكرة التكفير والغلو فيه في حد ذاتها، دون نظر إلى تفصيلاتها.

والقضية لها جذورها في تاريخ الفكر الإسلامي منذ عهد الخوارج، ولعلها أول قضية فكرية شغلت المسلمين، وكان لها آثارها العقدية والعملية (عسكرية وسياسية) لعدة أجيال. ثم لم يلبث الفكر الإسلامي أن فرغ منها، واستقر على ما عليه أهل السنة والجماعة.

ولا أكتم الأخوة السائلين: أني أعد كتابا في «قضية التكفير» منذ سنوات، ولم أفرغ من إتمامه بعد، مع إلحاح الكثيرين من الغيورين على وجوب الإسراع بإكماله، ومع شعوري بشدة الحاجة إليه، ولكن كثرة المشاغل الآنيّة من ناحية، وإيماني بوجوب الأناة في تحقيق الموضوع، من ناحية ثانية، وحرصي على أن أعرف

وجهات نظر من يسمونهم «جماعة التكفير» من ناحية ثالثة ـ كل هذا أخرني عن إخراج الكتاب للناس حتى اليوم.

وأسأل الله تعالى أن يمدني بالتوفيق والعون لإتمامه على وجه يرضيه جل شأنه.

ولا يمنعني هذا من أن أقول في الموضوع شيئا سريعا، قد يبل الغلة، إن لم ينقعها.

ظاهرة تحتاج إلى دراسة لأسبابها:

وأول ما ينبغي أن أقوله هنا:

أن هذه الظاهرة ـ ظاهرة الغلو في التكفير ـ تحتاج إلى دراسة لأسبابها وعواملها، حتى نستطيع علاجها على بصيرة.

أما الذين يفكرون (من رجال السلطة) في علاجها بالقمع والاضطهاد والاعتقال، وما إلى ذلك من ألوان العنف، فهم مخطئون بلا ريب، لأمرين:

أولهما: أن الفكرة لا تقاوم إلا بالفكرة، واستخدام العنف وحده في مقاومتها قد لا يزيدها إلا توسعا، ولا يزيد أصحابها إلا إصرارا عليها، إنما الواجب أن تعالج بالإقناع والبيان، وإقامة الحجة، وإزاحة الشبهات.

ثانيهما: أن هؤلاء المكفرين ـ في مجموعهم ـ أناس متدينون مخلصون، صوامون قوامون، غيورون، قد هزّهم ما يرونه في المجتمع من ردة فكرية، وتحلل خلقي، وفساد اجتماعي، واستبداد سياسي.

فهم طلاب إصلاح، حريصون على هداية أمتهم، وإن أخطئوا الطريق وضلوا السبيل.

فينبغي أن نقدر دوافعهم الطيبة، ولا نصورهم في صورة سباع ذات مخالب وأنياب، تريد أن تنقض على المجتمع، فتهدمه وتجعله يبابا!

والدارس المتتبع لأسباب هذه الظاهرة يجد أنها تتمثل في أمور:

١ - انتشار الكفر والردة الحقيقية جهرة في مجتمعاتنا الإسلامية، واستطالة أصحابها وتبجحهم بباطلهم، واستخدامهم أجهزة الإعلام وغيرها لنشر كفرياتهم على جماهير المسلمين، دون أن يجدوا من يزجرهم أو يردهم عن ضلالهم وغيهم.

٢ - تساهل بعض العلماء في شأن هؤلاء الكفرة الحقيقيين، وعدهم من زمرة المسلمين، والإسلام منهم براء..

٣ - اضطهاد حملة الفكر الإسلامي السليم، والدعوة الإسلامية الملتزمة بالقرآن والسنة، والتضييق عليهم في أنفسهم ودعوتهم. والاضطهاد والتضييق لأصحاب الفكر الحر، لا يولد إلا اتجاهات منحرفة، تعمل تحت الأرض، في جو مغلق، بعيدا عن النور والحوار المفتوح.

٤ - قلة بضاعة هؤلاء الشبان الغيورين من فقه الإسلام وأصوله، وعدم تعمقهم في العلوم الإسلامية واللغوية، الأمر الذي جعلهم يأخذون ببعض النصوص دون بعض، أو يأخذون بالمتشابهات، وينسون المحكمات، أو يأخذون بالجزئيات ويغفلون عن القواعد الكلية، أو يفهمون بعض النصوص فهما سطحيا سريعا، إلى غير ذلك من الأمور اللازمة لمن يتصدر للفتوى في هذه الأمور الخطيرة، دون أهلية كافية.

فالإخلاص وحده لا يكفي، ما لم يسنده فقه عميق لشريعة الله وأحكامه. وإلا وقع صاحبه فيما وقع فيه الخوارج من قبل. الذين صحت الأحاديث في ذمهم في عشرة أوجه، كما قال الإمام أحمد. هذا مع شدة حرصهم على التعبد والتنسك.

ولهذا كان أئمة السلف يوصون بطلب العلم قبل التعبد والجهاد، حتى لا ينحرف عن طريق الله من حيث لا يدري.

وقد قال الحسن البصري: العامل على غير علم كالسالك على غير طريق،

والعامل على غير علم، ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبا لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم، حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا.

يعني بهؤلاء القوم: جماعة الخوارج، الذين عرفوا بالعبادة والصيام والقيام، ولكنهم استحلوا دماء المسلمين[1].

---

(١) انظر: ظاهرة الغلو في التكفير (٣-١١).

الملاحق

ملحــق رقم (١)

رسالة من الشيخ عبد العزيز بن باز

حول كتابي «الحلال والحرام»

نص رسالة الشيخ ابن باز

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة فضيلة الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي سلمه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(وبعد)

فقد أحيل إلى الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد من قبل وزارة الإعلام بالمملكة العربية السعودية مؤلفكم «الحلال والحرام في الإسلام» الطبعة التاسعة عام ٩٥هـ ـ ٧٥م وبعد دراسته اتضح للجهة المختصّة أنكم بذلتم فيه مشكورين جهدا كبيرا ووقتا طويلا لمعالجة كثير من المواضيع الحساسة الهامة في هذا العصر. لذا فإن رئاسة إدارات البحوث العلمية ترغب أن تشتري منه كمية لتعم الفائدة ومساهمة منها معكم في تذليل بعض الصعوبات التي تحول دونكم لتكثيف طباعته، ذلك بعد إعادة النظر في المسائل الموضحة أدناه:

١ ـ تجويز موادة بعض الكفار.

٢ ـ عدم تحريم الدخان إلا بعد تقرير دكتور مسلم بأنه مضر على شخص معين.

٣ـ الاختيار بأن حلق اللحية مكروه وما نسب عن السلف أنهم تركوها عادة .

٤ ـ إباحة اللحوم المستوردة مما أزهقت روحه بالصعق الكهربائي .

٥ ـ كشف وجه المرأة بحضرة الرجال الأجانب .

٦ ـ جواز السفور .

٧ ـ إباحة الغناء والموسيقى .

٨ ـ جواز لعبة الشطرنج .

مع العلم أنني أعتقد تحريم جميع الأمور الثمانية فأرجو العناية بهذا الأمر وبذل ما يستطاع من النظر في الأدلة ، وإليكم نسخة مما كتبه في الموضوع فضيلة الشيخ : صالح الفوزان للاطلاع عليه والاستعانة به في تصحيح هذه الأخطاء على ضوء الأدلة الشرعية ، ولما كانت مؤلفاتكم لها ثقلها وفائدتها العظيمة لما فيها من علم وتوجيه ، ولما أعرفه عنكم من الغيرة والاعتدال في الدعوة إلى الله على بصيرة وبينة . . فإننا نأمل منكم موافاتنا في أقرب وقت ممكن إن شاء الله بنسخة من الطبعة العاشرة مصححة على ضوء ما أشرنا إليه ، مضافا لها ما يظهر لكم عند المراجعة ، لنتمكن بعد ذلك من المساهمة في شراء كمية كبيرة ، لتعم الفائدة إن شاء الله . نفع الله بعلومكم ، وأمدنا جميعا بعونه وتوفيقه لما فيه عز الإسلام وصالح المسلمين . كما أسأل الله لنا ولكم التوفيق والسداد والإعانة على إصابة الحق إنه خير مسؤول .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عبد العزيز بن باز

الرئيس العام لإدارات البحوث

والإفتاء والدعوة والإرشاد

ملحق رقم (٢)

رسالة جوابية إلى العلامة ابن باز

صاحب السماحة العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز

الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(وبعد):

أكتب إلى سماحتكم هذا الكتاب على عجل، وأنا أتجهز للسفر إلى الولايات المتحدة وكندا، بعد أيام، لزيارة الطلاب المسلمين هناك لمدة تستغرق شهرا إن شاء الله.

ولقد وصلتني رسالتكم الكريمة المؤرخة في ٢٨/ ٤/ ١٣٩٦هـ، والخاصة بكتابي «الحلال والحرام» وإني لأشكر لسماحتكم عنايتكم بالكتاب وثناءكم على ما بذلت فيه من جهد، وحرصكم على توسيع نشره، وتعميم النفع به على نطاق أوسع، نفع الله بكم وجزاكم عن الإسلام والمسلمين والعلم وأهله خير الجزاء.

أما المسائل الثماني التي ذكرتموها فضيلتكم في الرسالة، والتي تذهبون فيها إلى رأي يخالف ما انتهى إليه اجتهادي في الكتاب. فأحب أن أؤكد لفضيلتكم: أنكم أول وأولى من أحب وأحرص على موافقته من علماء الإسلام، وذلك لما عرفته ولمسته في سماحتكم من غزارة علم، واستقامة منهج، وغيرة على الحق، وحرص على الإنصاف، وسعة صدر، وتقدير لوجهات نظر الآخرين. هذا إلى فضائل

ومزايا أخرى دينية وأخلاقية. أحسبكم كذلك، والله حسيبكم ولا أزكيكم على الله تعالى. ولكن قضت سنة الله تعالى أن تختلف الأنظار، وتتعدد الاجتهادات، وبخاصة في المسائل الجزئية.

ولعل الذي حدا بي إلى ترجيح ما رجحت في هذه المسائل: أن الكتاب ألف في الأصل ليترجم إلى اللغات الأجنبية للجاليات الإسلامية بها، وللداخلين الجدد في الإسلام، ولهذا توخيت فيه التيسير ما استطعت، ترغيبا في الإسلام.

ثم إني بلوت من فتن هذا العصر، ومغرياته ومعوقاته، التي جعلت جمهور الناس - وخصوصا من يسمونهم المثقفين - يعرضون عن الدين: ما جعلني أتخذ منهجا يقوم على التشديد في الأصول، والتيسير في الفروع، ولا سيما فيما عمت به البلوى. وهذا كله بشرط ألا أخرج على نص محكم أو إجماع متيقن. أعني أنني أختار فيما كان للاختيار فيه مجال، فإذا كان هناك رأيان في مسألة أحدهما أحوط، والآخر الأيسر، أختار الأيسر، لأنه الأليق بروح الشريعة السمحة، وبطبيعة الكتاب المؤلف لعموم المسلمين، وبطبيعة العصر الذي أصبح الإسلام فيه غريبا في أكثر البلدان. وقد صح: «أن النبي صلى الله عليه وسلم ما خيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثما».

على أنه مما يهوّن الخلاف في هذه المسائل جملة أمور:

١ - أنها قُلٌّ من كُثْر.

٢ - وأن لي فيها سلفا من قدماء العلماء، ومن مُحْدثيهم، وعلى رأسهم العلامة السيد رشيد رضا رحمه الله.

٣ - وأنني لا أغفل الرأي المخالف، بل أذكره، ليعرف القارئ أن المسألة ليست إجماعية، بل ربما ذكرت أنه رأي الكثرة أو الجمهور، أو نحو ذلك.

٤ ـ وأنني لم أحكم في هذه المسائل بالإباحة المطلقة، بل أضع عادة قيودا وشروطا تضيق دائرة الإباحة.

٥ ـ وأن دافعي إلى ذلك ـ والله أعلم بالنيات ـ تقريب جماهير الناس من الإسلام، وتحبيبه إليهم عملا بالوصية النبوية: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا».

ولا يفوتني أن أذكر أن ما نسب إليّ في المسألة الثانية وهي «عدم تحريم الدخان» إلا بعد تقرير دكتور مسلم بأنه مضر على شخص معين، غير صحيح.

وليس هذا رأيي الذي أثبته. فقد قررت مبدأ أو قاعدة مضمونها: أن كل ما يضر تناوله بالجسم فهو حرام، وبنيت عليه حكم التدخين قائلا بالنص: «ووفقا لهذا المبدإ نقول: إن تناول التبغ (الدخان) ما دام قد ثبت أنه يضر بمتناوله فهو حرام. وبخاصة إذا قرر ذلك طبيب مختص لشخص معين. ولو لم يثبت ضرره الصحي لكان إضاعة للمال فيما لا ينفع في الدين أو الدنيا. وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال. ويتأكد النهي إذا كان محتاجا إلى ما ينفقه من مال لنفسه أو عياله».

فقد ذكرت مناط التحريم، وهو الإضرار بالصحة، وإضاعة المال، وهذا للناس عامة. فإذا ثبت ضرره على الخصوص لشخص معين، تأكد المنع، وكذلك إذا كان محتاجا إلى المال.

والحقيقة أني ممن يرون التشديد في موضوع التدخين، ولي في تحريمه فتوى مطولة في ضوء النصوص والقواعد الشرعية، أعتقد أنها ستسرك عندما تقرؤها إن شاء الله، وهي لم تنشر بعد(١).

ومع كل هذا أعد سماحتكم بأنني سأعاود النظر في المسائل المذكورة مقارنا

---

(١) قد نشرت في كتابي «فتاوى معاصرة» الجزء الأول ص ٦٥٤ ـ ٦٦٩ انظر: الطبعة العاشرة لدار القلم بالقاهرة.

الأدلة، باذلا العناية المستطاعة لتهذيب ما يمكن تهذيبه من الآراء، أو تعديل بعض العبارات، أو نحو ذلك، على قدر استطاعتي وما يصل إليه ترجيحي، مستعينا بالله تعالى، ومبتهلا إليه أن يلهمني الصواب. ولا يحرمني أجر الخطإ في الاجتهاد.

كل ما أرجوه من سماحتكم: ألا تكون ملاحظاتكم على الكتاب سببا في منع دخوله إلى المملكة. فلا يوجد في الدنيا كتاب من تأليف بشر إلا وعليه مآخذ، وكل واحد يؤخذ من كلامه ويترك، والمهم سلامة الاتجاه في الجملة، وباب النقد مفتوح لمن شاء.

والمسائل التي انتقدت على الكتاب موجودة في مثل «المحلى» لابن حزم، وفي فتاوى السيد رشيد رضا، وبعضها في كتب الشيخ الألباني. وما أظن شيئا من هذه الكتب منع من تداوله في المملكة.

ولا يليق بمثلي ـ وعلاقته بالمملكة الشقيقة على ما تعلم سماحتكم ـ أن تمنع كتبه من أكبر هيئة علمية دينية فيها، لخلاف جزئي في بعض المسائل الاجتهادية.

وختاما: أسأل الله تعالى أن يجعلني عند حسن ظنكم، كما أسأله أن يمد في عمركم، ويبارك في جهودكم، ويؤيدكم بروح من لدنه، ويوفقنا جميعا لما فيه خير الإسلام والمسلمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

د. يوسف القرضاوي

تمهيد

ملاحظات القراء حول الموقف من سيد قطب

حينما نشرت هذه المذكرات في شهر رمضان الماضي (١٤٢٤هـ) في صحيفة الوطن القطرية، ونشرتها جريدة «آفاق عربية» في القاهرة، وقرأها الناس في موقع (إسلام أون لاين نت) على شبكة «الإنترنت»؛ وكان فيها: وقفة مع الشهيد سيد قطب، وفيها تقويم ونقد لبعض أفكاره الأساسية، التي انتهى إليها في المرحلة الأخيرة من مسيرته الفكرية، وهي أفكار انفرد بها في ساحة الدعوة، ويخالفه فيها جمهرة العلماء والدعاة الإسلاميين، في مصر وفي غيرها من العالم العربي، والعالم الإسلامي.

ومن أبرز هذه الأفكار، وأشدها خطرا، وأبعدها أثرا: فكرة «تكفير المسلمين الموجودين في العالم اليوم» إلا فئة قليلة جدا منهم. أما مئات الملايين في العالم الإسلامي - أو العالم الذي كان إسلاميا حسب تعبيره في بعض المواطن - الذين يظنون أنفسهم «مسلمين» أو يحبون أن يكونوا «مسلمين». فهم ليسوا من الإسلام في شيء، وإن كانوا يشهدون أن «لا إله إلا الله» لأنهم يفهمونها على غير مدلولها الحقيقي الذي لا معنى لها - في نظره - غيره، وهو الذي يتضمن معنى «الحاكمية». بل لا يغني عنهم أن يكونوا من المصلّين والصائمين والمزكين وحجاج بيت الله الحرام!

وهو هنا لا يتحدث عن الحكام وحواشيهم، كما يزعم بعض الناس، بل يتحدث عن «مئات الملايين» من المسلمين، أو ممن يظنون أنفسهم مسلمين، والحكام ومن حولهم إنما هم ألوف من الناس لا ملايين ولا عشرات الملايين.

هذه الفكرة الخطيرة التي فتحت أبواب التكفير والعنف واستباحة الدماء والأموال من المسلمين، وقامت عليها - في أوطاننا الإسلامية - جماعات تقاتل قومها، وتحارب أهل وطنها، هي الجديرة بأن يقف العلماء والدعاة في وجهها، ويتصدوا لبيان ما فيها من انحراف عن الأحكام الشرعية المقررة. ويبينوا بطلانها بالأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، مسترشدين بأقوال الأئمة والراسخين من علماء السلف والخلف.

ولذلك وقف جمهور علماء الأمة، بل كل الأمة - إلا عالما أو عالمين - ضد هذا التوجه. أذكر من هؤلاء: الأستاذ حسن الهضيبي المرشد الثاني للإخوان، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ سيد سابق، و د. عبد العزيز كامل، و د. محمد فتحي عثمان، وأ. فريد عبد الخالق، و د. محمد عمارة، ود. محمد سليم العوا، ود. أحمد العسال، ود. حسن الشافعي، ود. حسن الترابي، ود. عصام البشير، ود. أحمد علي الإمام، والشيخ أبا الحسن الندوي، ود. مصطفى السباعي، والشيخ مصطفى الزرقا، ود. وهبة الزحيلي، ود. البوطي، وعامة علماء الأزهر، وديوبند، والزيتونة، والقرويين، وسائر الجامعات والكليات والمدارس الإسلامية.

وقد اجتهدت أن أقاوم خطر هذه الأفكار بهدوء وحكمة، وأن أحمي عقائد الشباب المسلم المخلص وعقولهم من أن تتسرب إليهم، فتفسد عليهم دينهم ودنياهم، وتسقط بهم إلى هاوية الغلو، كما حدث في طائفة «الخوارج» من قبل، الذين كانوا صواما قواما متعبدين، مبالغين في التعبد، قارئين للقرآن، ولكنه - كما صح في الحديث - لم يجاوز حناجرهم، أي لم ينتقل من حناجرهم إلى رؤوسهم وعقولهم، ومعنى ذلك: أنهم لم يفهموه حق الفهم، ولم يفقهوا مقاصده، ويردوا متشابهه إلى مُحْكمه، فاستباحوا دماء غيرهم من المسلمين وأموالهم وحرماتهم، واستحلوا قتل أعظم رجل في أمة الإسلام في وقته: علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفي سبيل ذلك: نشرتُ رسالة «ظاهرة الغلو في التكفير» التي تبتنها «الجماعة الإسلامية» في جامعة القاهرة، وصدرت في سلسلتها «صوت الحق» ووزعت منها عشرات الألوف. وقد كنت نشرتها أولا بوصفها «مقالة» في مجلة «المسلم المعاصر» ثم نشرتها بوصفها «فتوى» في الجزء الأول من كتابي «فتاوى معاصرة»، ثم رأيت أن أنشرها مستقلة، لتعميم النفع بها.

وكان الذي يهمني هو نقض فكرة «التكفير» لا الرد على صاحبها، فقد كنت حريصا على ألاّ أنقد سيد قطب في هذا الوقت خاصة، لأن السلطة الحاكمة وأبواقها المختلفة كانت تهاجمه، فلم أكن أحب أن يذكر اسمي مع هؤلاء. كما أن كثيرا من الإسلاميين كانوا يحسبون انتقاد سيد قطب، كأنما هو اتهام له في إيمانه، أو تشكيك في بطولته وشهادته رحمه الله وغفر له، ولكن عندما يلتبس الحق بالباطل يجب على أهل العلم: البيان، وإقامة الحجة، والإعذار إلى الله سبحانه.

كما رددت على بعض الشباب الذي استفتاني عن مدى مشروعية هجر الصلاة في مساجد المسلمين بحسبانها من معابد الجاهلية، واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد، تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي... وقد رددت عليها بفتوى رأي بعض الإخوة نشرها في هذا الملحق، للتنوير وتعميم الفائدة، ورأيت أن أكتفي بأن أنصح بالرجوع إليها في كتاب «الفتاوى».

كما رددت على رأي سيد رحمه الله، في جدوى الاجتهاد الفقهي وجديته، وأن الأمة في حاجة إلى أن «تُسْلم» أولا قبل أن تبحث في إحياء الاجتهاد، وتطوير الفقه وما إلى ذلك. وقد ناقشنا هذا الرأي الغريب في كتابنا عن «الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية».

وكذلك فندت رأيه في «الجهاد» الذي يتبنى فيه قتال العالم كله، حتى من سالم المسلمين، ولم يمد إليهم يدا ولا لسانا بالسوء، وهو ما خالفه جل علماء العصر، إن لم نقل: كلهم.

على أن المهم هنا: أن بعض الإخوة الذين قرءوا مذكراتي وافقوني على الفكرة، ولكنهم قالوا: ليس هذا وقت إثارتها! فإن كانوا يضمنون عمرى، حتى يأتى الوقت المناسب أجلتها. ومتى يكون الوقت مناسبا؟! وبعض آخر من الإخوة المخلصين وقفوا متحيرين: هل صحيح أن سيد قطب يكفر «مسلمي اليوم» جميعا إلا فئة قليلة منهم؟! إن بعضهم قرأ الكثير من كتب سيد قطب، ولم يلحظ فيها ذلك. كما قال الأخ الإعلامي اللامع في قناة «الجزيرة» ـ أحمد منصور ـ للأستاذ فريد عبد الخالق القيادي الإخواني: إنه قرأ كتب سيد قطب، ولم يجد فيها شيئا مما ذكره أو يذكره الآخرون!! وقال بعضهم بصراحة: ليت الشيخ يأتي لنا بـ «نصوص واضحة» من كتب سيد قطب، لنحاكمه إليها، ونبني موقفنا منه على بينة من أمرنا، وبصيرة في ديننا. فليس في العلم كبير، والحق أحق أن يتبع. وإذا كنا نحب سيد قطب، فالحق أحب إلينا منه.

واستجابة لهؤلاء الإخوة الأحبة، والأبناء الأعزة: أضع أمامهم هذه «النصوص الحاسمة» التي هي أوضح من الشمس في رابعة النهار، في تبني فكرة «التكفير» وهي من ثلاثة كتب للشهيد رحمه الله، برغم ما أكنه لأديبنا وداعيتنا ومفكرنا الكبير من حب وإعزاز، ولكن العواطف شيء، والحقائق شيء آخر، وهذه الكتب هي:

١ـ في ظلال القرآن في طبعته الثانية.

٢ ـ معالم في الطريق. الذي اعتمده منهاجا لإنشاء العصبة المسلمة الجديدة.

٣ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام، في الفصل الذي أضافه إليها ليحمل أفكاره الجديدة.

وهناك نصوص أخرى في كتب أخرى، ولكن في النقول من هذه الثلاثة ما يكفي.

وسأكتفي من «ظلال القرآن» بنقول من جزأين فيه، أحدهما من القرآن المكي،

وهو «الجزء السابع» الذي يتضمن أرباعا من سورة الأنعام المكية، مع شيء من سورة المائدة، ولكنا سنكتفي منه بالنقل عن «الأنعام».

والثاني من القرآن المدني، وهو «الجزء العاشر» ويتضمن ربعين من سورة الأنفال، وتتمته من سورة التوبة.

وفي هذه النقول كلها نصوص صريحة كل الصراحة لا مجال فيها للبس أو احتمال أو تأويل.

وسأنقل من «المعالم» أصرح الألفاظ وأبينها في الدلالة على فكرة التكفير. وكتاب «المعالم» هو الذي أثار الزوبعة على الشهيد قبل أن يعرف الناس ما في الظلال، والحقيقة: أن جل المعالم في جوهره مقتبس من الظلال.

وأما «العدالة الاجتماعية في الإسلام» فقد ألفه سيد قبل تطوره إلى المرحلة الأخيرة من فكره، وكان خاليا تماما من فكرة التكفير، وكان أكثر ما يعاب عليه فيه: تحامله الشديد على بني أمية، حتى كاد يجردهم من كل عنصر أخلاقي، وقد مس في هذا عددا من الصحابة، أهمهم الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه.

ولكن سيدا ـ رحمه الله ـ أبى إلا أن يضيف إلى الكتاب في طبعاته الأخيرة: فصلا يحمل أفكاره الجديدة إلى قارئه، سماه «حاضر الإسلام ومستقبلة»، وعن هذا الفصل ننقل النص المقصود.

وأحيل الإخوة القراء إلى النصوص المنقولة من مصادرها المنشورة بحروفها، دون حذف أو إضافة أو تبديل في هذه «الملاحق».

ملحق رقم (٣)

نصوص من كتب الشهيد سيد قطب
تحمل تكفير مسلمي اليوم(*)

(أ) نصوص من «ظلال القرآن».

(ب) نص من «معالم في الطريق».

(جـ) نص من «العدالة الاجتماعية في الإسلام».

أولا: نصوص من ظلال القرآن

من قرأ «ظلال القرآن» لسيد قطب ـ رحمه الله ـ في طبعته الأولى لم يجد فيه شيئا يدل على هذه الفكرة: تكفير المسلمين الذين يعيشون في العالم الإسلامي اليوم.

ولكن من قرأ الأجزاء الأخيرة منه، التي كتبها وهو في السجن، بعد تغير اتجاهه الفكري، وكذلك الأجزاء الأولى التي عدلها، وظهر ذلك في طبعته الثانية وما بعدها: يجد هذه الفكرة المحورية تسري في الكتاب في عشرات المواضع، بل في مئاتها، يذكرها ويؤكدها كلما جاءت مناسبة، بل في أدنى مناسبة لها.

(*) يعز عليّ والله أن أضع هذه النصوص الناطقة أمام القارىء الكريم، فوالذى نفسى بيده، ما أردت أن أسيء إلى رجل قدم عنقه فى سبيل الإسلام، ولكنها الأمانة والميثاق الذى أخذه الله على أهل العلم ليُبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه. ونقول ما قال الحافظ الذهبى عن ابن تيمية: شيخ الإسلام حبيب إلينا، ولكن الحق أحب إلينا منه!

وسنكتفي هنا بالاقتباس من تفسير سورة الأنعام، من الجزء السابع، ومن سورة الأنفال والتوبة من الجزء العاشر، باعتبار أن سورة الأنعام من القرآن المكي، وسورتي الأنفال والتوبة من القرآن المدني.

١ ـ في تفسير ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾:

وحسبنا هذا النص الصريح المعبر عن فكرة الشهيد رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأنعام: ٥٥).

قال رحمه الله:

«إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح. واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات. ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشا وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم. فهما صفحتان متقابلتان، وطريقان مفترقتان.. ولا بد من وضوح الألوان والخطوط.

ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين؛ ووضع العنوان المميز للمؤمنين، والعنوان المميز للمجرمين، في عالم الواقع لا في عالم النظريات. فيعرف أصحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون، بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم، وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم، بحيث لا يختلط السبيلان ولا يتشابه العنوانان، ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين..

وهذا التحديد كان قائما، وهذا الوضوح كان كاملا، يوم كان الإسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربية. فكانت سبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه. وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين.. ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن يتنزل

وكان الله ـ سبحانه ـ يفصل الآيات على ذلك النحو الذي سبقت منه نماذج في السورة ـ ومنها ذلك النموذج الأخير ـ لتستبين سبيل المجرمين!

وحيثما واجه الإسلام الشرك والوثنية والإلحاد والديانات المنحرفة المتخلفة في الديانات ذات الأصل السماوي بعد ما بدلتها وأفسدتها التحريفات البشرية . . حيثما واجه الإسلام هذه الطوائف والملل: كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة، وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك . . لا يجدي معها التلبيس!

ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا . . **إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين، في أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام**، يسيطر عليها دين الله، وتحكم بشريعته . . ثم إذا هذه الأرض، وإذا هذه الأقوام، تهجر الإسلام حقيقة، وتعلنه اسما . وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادا وواقعا . وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادا! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله . . وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله ـ وحده ـ هو خالق هذا الكون المتصرف فيه . وأن الله ـ وحده ـ هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله .

وأن الله ـ وحده ـ هو الذي يتلقى من العباد الشرائع، ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله . . وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله ـ بهذا المدلول ـ **فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد**، كائنا ما كان اسمه ولقبه ونسبه . **وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله ـ بهذا المدلول ـ فهي أرض لم تدن بدين الله، ولم تدخل في الإسلام بعد . .**

وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين؛ وهم من سلالات المسلمين . وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام . . ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله ـ بذلك المدلول ـ ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول . .

وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام!

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله، ومدلول الإسلام في جانب؛ وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر.

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين، وطريق المشركين المجرمين؛ واختلاط الشارات والعناوين؛ والتباس الأسماء والصفات؛ والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق!

ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة. فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا. حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام! . . **تهمة تكفير «المسلمين»**!!! ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم، لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله!

هذه هي المشقة الكبرى. . وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل!

يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين. . ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة على الله في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة. وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف؛ وألا تقعدهم عنها لومة لائم، ولا صيحة صائح: انظروا! إنهم يكفرون المسلمين!

إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون! إن الإسلام بين والكفر بين. . الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله - بذلك المدلول - فمن لم يشهدها على هذا النحو؛ ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو، فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين. . المجرمين. . ﴿ **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ (الأنعام: ٥٥).

أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى الله هذه العقبة؛ وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة؛ كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل الله لا تصدها شبهة، ولا يعوقها غبش، ولا يميعها لبس. فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقين أنهم هم «المسلمون» وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل الله هم «المجرمون». كذلك فإنهم لن يتحملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنها قضية كفر وإيمان. وأنهم وقومهم على مفرق الطريق، وأنهم على ملة وقومهم على ملة. وأنهم في دين وقومهم في دين:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾»[1]. انتهى.

هذا هو الرجل يصرح - بل يصرخ - بما لا يدع مجالا للشك والاحتمال: أن الأوطان التي كانت تُعَدّ في يوم من الأيام «دارا للإسلام» وأن هؤلاء الأقوام «من سلالات المسلمين» أن الذين كان أجدادهم مسلمين في يوم من الأيام: لم يعودوا مسلمين، وإن ظنوا أنهم يدينون بالإسلام اعتقادا، في حين أنهم ليسوا مسلمين لا عملا ولا اعتقادا، لأنهم لم يشهدوا أن «لا إله إلا الله» بمدلولها الحقيقي كما حدده هو. وأشق ما تعانيه الحركات الإسلامية: أنها لم يتضح لها هذا المفهوم الجديد: أن الذين يظنون أنفسهم مسلمين اليوم هم كفار في الحقيقة، وهو يريد من هذه الحركات ودعاتها: أن يجهروا بكلمة الفصل ولا يبالوا بـ «تهمة تكفير المسلمين» فالحقيقة أنهم ليسوا مسلمين!!

٢- في تفسير: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾:

وفي موضع آخر من تفسير السورة عند قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (الأنعام: ٦٥) قال رحمه الله:

«وهذا يقودنا إلى موقف العصبة المسلمة في الأرض، وضرورة مسارعتها

---

(١) في ظلال القرآن ج ٧ ص٢٣٨، ٢٤٠ طبعة عيسى الحلبي الثانية.

بالتميز عن الجاهلية المحيطة بها - والجاهلية: كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة الله وحدها، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية - وضرورة مفاصلتها للجاهلية من حولها؛ **باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذين يؤثرون البقاء في الجاهلية**، والتقيد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمها.

إنه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل الأرض من أن يقع عليها هذا العذاب: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾. إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيديا وشعوريا ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها - حتى يأذن الله لها بقيام «دار إسلام» تعتصم بها - **وإلا أن تشعر شعورا كاملا بأنها هي «الأمة المسلمة» وأن ما حولها ومن حولها، ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه: جاهلية وأهل جاهلية**. وأن تفاصل قومها على العقيدة والمنهج؛ وأن تطلب بعد ذلك من الله أن يفتح بينها وبين قومها بالحق وهو خير الفاتحين.

فإذا لم تفاصل هذه المفاصلة، ولم تتميز هذا التميز: حق عليها وعيد الله هذا. وهو أن تظل شيعة من الشيع في المجتمع، شيعة تتلبس بغيرها من الشيع، ولا تتبين نفسها، ولا يتبينها الناس مما حولها، وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد؛ دون أن يدركها فتح الله الموعود!

إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات.. غير أن هذه التضحيات والمشقات، لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب، الذي يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه، ونتيجة اندغامها وتميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حولها..

ومراجعة تاريخ الدعوة إلى الله على أيدي جميع رسل الله، يعطينا اليقين الجازم بأن فتح الله ونصره، وتحقيق وعده بغلبة رسله والذين آمنوا معهم.. لم يقع في مرة واحدة، قبل تميز العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة وعلى منهج الحياة - أي الدين - وانفصالها بعقيدتها ودينها عن عقيدة الجاهلية ودينها - أي

نظام حياتها ـ وأن هذه كانت هي نقطة الفصل ومفرق الطريق في الدعوات جميعا[1]». انتهى.

النص واضح تمام الوضوح: إن الكاتب لا يَعُدّ مسلما إلا من آمن بفكرته هذه، وهي الفئه التي يسميها «العصبة المسلمة» وهي التي يجب أن تشعر بأنها وحدها هي «الأمة المسلمة» وأن ما حولها ومن حولها، ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه: جاهلية وأهل جاهلية، أي هم مشركون وكفار، ليس لهم في الإسلام نصيب، وإن كانوا يصلون ويصومون ويزكون ويحجون! فكأنما المسلمون جميعا بمثابة مشركي مكة عند البعثة المحمدية، وكأنما دعوته بمثابة دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، من آمن بها دخل في الإسلام، ومن لم يؤمن بها فهو جاهلي كافر حلال الدم!!

ومن أجل ذلك أكد سيد قطب مرات ومرات: العناية بدعوة الناس الذين «يسمون أنفسهم مسلمين» إلى اعتناق العقيدة قبل كل شيء، قبل أن تدعوهم إلى التشريع الإسلامي، أو النظام الإسلامي، بل الواجب الأساس: أن ندعوهم ليسلموا أولا، ليشهدوا أن لا إله إلا الله بمفهومها القطبي الجديد، وبهذا يخرجون من الجاهلية التي ارتكسوا فيها، ويدخلون في الإسلام.

والحق أننا لم نر الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا الصحابة، ولا التابعين، ولا أحدا من السلف أو الخلف، فسر كلمة التوحيد بما فسرها به سيد قطب رحمه الله. إنما كانوا يدعون الناس من العرب والعجم إلى «لا إله إلا الله». التي يعرف الناس مدلولها بفطرتهم، فحين يدعى المجوسي إلى «لا إله إلا الله» يفهم أن معناها: أن يترك عبادة النار، وأن لا يقول بإلهين اثنين، إله للخير والنور، وإله للشر والظلمة، ويتجه بصلاته ونسكه وتذلله لله وحده.

والهندوسي حينما يدعى إلى «لا إله إلا الله» يفهم منها: أن يدع عبادة البقر وغيرها من الحيوانات وقوى الطبيعة المختلفة، ويتجه بعبادته لله رب العالمين.

---

(١) الظلال ج٧ ص٢٦٩.

ونتقل هنا هذا النص من تقديم سورة الأنعام، يقرر هذا المعنى الذي ألمحنا إليه. قال صاحب الظلال:

«والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ قوالب نظام، وأن يصوغ تشريعات حياة.. بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شريعة الله وحدها ورفض كل شريعة سواها، مع تملكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفذه.. الذين يريدون من الإسلام ذلك لا يدركون طبيعة هذا الدين، ولا كيف يعمل في الحياة، كما يريد له الله.

إنهم يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه أنظمة بشرية، ومناهج بشرية. ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم، إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة.. إنهم يريدون منه أن يصوغ نفسه في قالب فروض، تواجه مستقبلا غير موجود.. والله يريد لهذا الدين أن يكون كما أراده: عقيدة تملأ القلب، وتفرض سلطانها على الضمير، عقيدة مقتضاها ألا يخضع الناس إلا لله، ولا يتلقوا الشرائع إلا من الله. وبعد أن يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم، ويصبح لهم السلطان في مجتمعهم تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية، وتنظيم حياتهم الواقعية كذلك.

كذلك يجب أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية، أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين، **يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة - حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين! وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون -** يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولا إقرار عقيدة: لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقي، وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم.. إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم، وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم.

ولتكن هذه القضية هي أساس دعوة الناس إلى الإسلام، كما كانت هي أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة. . هذه الدعوة التي تكفل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عاما كاملة.

فإذا دخل في هذا الدين - بمفهومه هذا الأصيل - عصبة من الناس، فهذه العصبة هي التي تصلح لمزاولة النظام الإسلامى في حياتها الاجتماعية، لأنها قررت بينها وبين نفسها أن تقوم حياتها على هذا الأساس، وألا تحكم في حياتها كلها إلا الله[1]». انتهى.

النص من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تعليق، فالكاتب ينظر إلى مسلمي اليوم نظرته إلى مشركي العرب في الجاهلية تماما عند البعثة، لا فرق بين هؤلاء ولا أولئك، إلا أن هؤلاء يسمون أنفسهم مسلمين وهذه لا تغني عنهم شيئا، ولهذا كان على أصحاب الدعوة الإسلامية: أن يدعوا الناس إلى اعتناق العقيدة أولا، حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين، وتشهد لهم شهادات الميلاد أنهم مسلمون!

وقد اعتسف الشهيد رحمه الله في إلزامه الناس جميعا بتفسيره لكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» والمسلمون جميعا يفهمون معناها: أنه لا معبود بحق إلا الله. والعبادة تعرفها الأمم جميعا، فمنهم من يوجهها إلى الله وحده وهم المسلمون، ومنهم من يشرك مع الله غيره، ومنهم من يعبد هذا الغير من دون الله، ولا يمكن أن نسوي بين المسلم والهندوسي الذي يعبد البقرة، أو البوذي الذي يعبد (بوذا)!

ومشكلة الأستاذ سيد قطب: أنه لا يعرف إلا الإيمان أو الكفر، ولكن يوجد بينهما منزلة هي الفسوق والعصيان، فقد يوجد اليوم مئات الملايين من المسلين ولكنهم - كلهم أو جلهم - عصاة مفرطون، في حاجة إلى أن يتوبوا، أو جهلة بدينهم في حاجة إلى أن يعلّموا.

---

(١) في ظلال القرآن ج٧ ص٨٧.

فلو قال الأستاذ سيد قطب: لا يوجد مسلمون كاملون في إسلامهم فهما وسلوكا إلا القليل: لكان كلامه مقبولا، أما أن يقول: لا يوجد مسلمون قط، وإنما يوجد أقوام من سلالات المسلمين، وأن الوجود الإسلامي قد انتهى أو توقف من زمن طويل، فهذا إسراف في النظر إلى الأمة، التي لم تكفر بربها ولا بقرآنها ولا برسولها، ولا تزال تتجمع بالملايين في شهر رمضان لصلاة التراويح، وفي مواسم الحج والعمرة.

فمن يقول: إن هؤلاء جميعا كفار؟! بل نقول ما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (فاطر: ٣٢).

٣ ـ نص من سورة الأنفال، تعقيبا على آية تقسيم الغنيمة:

وفي تفسيره لآية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ (الأنفال: ٤١)، من سورة الأنفال، وإشارته إلى ما روي فيها من خلافات حول توزيع الخمس الذي يبقى بعد أخذ المقاتلين أربعة أخماسهم، وما ورد فيه من أقوال، يقول رحمه الله:

«ونحن على ـ طريقتنا في هذه الظلال ـ لا ندخل في هذه التفريعات الفقهية التي يحسن أن تطلب في مباحثها.. هذا بصفة عامة.. وبصفة خاصة فإن موضوع الغنائم بجملته ليس واقعا إسلاميا يواجهنا اليوم أصلا.. فنحن اليوم لسنا أمام قضية واقعة، لسنا أمام دولة مسلمة وإمامة مسلمة وأمة مسلمة تجاهد في سبيل الله، ثم تقع لها غنائم تحتاج إلى التصرف فيها! لقد استدار الزمان كهيئة يوم جاء هذا الدين إلى البشرية أول مرة؛ ورجع الناس إلى الجاهلية التي كانوا عليها، فأشركوا مع الله أربابا أخرى تصرف حياتهم بشرائعها البشرية! ولقد عاد هذا الدين أدراجه ليدعو الناس من جديد إلى الدخول فيه.. إلى

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . إلى إفراد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية والسلطان. والتلقي في هذا الشأن عن رسول الله وحده! وإلى التجمع تحت قيادة مسلمة تعمل لإعادة إنشاء هذا الدين في حياة البشر، والتوجه بالولاء كله لهذا التجمع ولقيادته المسلمة؛ ونزع هذا الولاء من المجتمعات الجاهلية وقيادتها جميعا.

هذه هي القضية الحية الواقعية التي تواجه اليوم هذا الدين؛ وليس هناك - في البدء - قضية أخرى سواها . . ليس هناك قضية جهاد! بل ليس هناك قضية تنظيمية واحدة، لا في العلاقات الداخلية ولا في العلاقات الخارجية، وذلك لسبب بسيط: هو أنه ليس هناك مجتمع إسلامي ذو كيان قائم مستقل، يحتاج إلى الأحكام التي تضبط العلاقات فيه والعلاقات بينه وبين غيره من المجتمعات الأخرى!!!

والمنهج الإسلامي منهج واقعي، لا يشتغل بقضايا ليست قائمة بالفعل؛ ومن ثم لا يشتغل أصلا بأحكام تتعلق بهذه القضايا التي لا وجود لها من ناحية الواقع! . . إنه منهج أكثر جدية وواقعية من أن يشتغل بالأحكام! هذا ليس منهج هذا الدين. هذا منهج الفارغين الذين ينفقون أوقات الفراغ في البحوث النظرية وفي الأحكام الفقهية، حيث لا مقابل لها من الواقع أصلا! بدلا من أن ينفقوا هذه الجهود في إعادة إنشاء المجتمع المسلم وفق المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين نفسه: دعوة إلى لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؛ ينشأ عنها دخول فئة في هذا الدين من جديد - كما دخل فيه الناس أول مرة - كما ينشأ عن هذا الدخول في الدين تجمع حركي ذو قيادة مسلمة وذو ولاء خاص به وذو كينونة مستقلة عن المجتمعات الجاهلية . . ثم يفتح الله بينه وبين قومه بالحق . . ثم يحتاج حينئذ - وحينئذ فقط - إلى الأحكام التي تنظم علاقاته فيما بينه وبينهم؛ كما يحتاج إلى الأحكام التي تنظم علاقاته مع غيره . . وحينئذ - وحينئذ فقط - يجتهد المجتهدون فيه لاستنباط الأحكام التي تواجه قضاياه الواقعية - في الداخل وفي الخارج - وحينئذ - وحينئذ فقط - تكون لهذا الاجتهاد قيمته، لأنه تكون لهذا الاجتهاد جديته وواقعيته!

من أجل هذا الإدراك لجدية المنهج الحي الواقعي الحركي لهذا الدين، لا ندخل في تلك التفصيلات الفقهية الخاصة بالأنفال والغنائم؛ حتى يحين وقتها عندما يشاء الله؛ وينشأ المجتمع الإسلامي، ويواجه حالة جهاد فعلي، تنشأ عنه غنائم تحتاج إلى أحكام!»[1]. انتهى.

وأود أن أقول للأستاذ سيد قطب هنا: إن الحاكمية التي يلح عليها ويستدل عليها بآيات القرآن تعني أمرين: الحاكمية الكونية، والحاكمية الشرعية، فمن أقر بالحاكمية الكونية القدرية، فقد أقر بالحاكمية، ولم يعطل اللفظ عن معناه، بمعنى: أنه لا يتصرف في الكون كله إلا الله، إذا قضى أمرا، إنما يقول له: كن فيكون، على أن المرء قد يقر بحاكمية الله الأمرية التشريعية وبنصه ولا ينفذ أحكامه. وهي قضية علاقة الإيمان بالعمل.

٤ ـ ومن تعقيباته على آية الجزية:

وفي تعقيباته على تفسير آية الجزية من سورة التوبة، يقول رحمه الله:

«ولا نحب أن نستطرد هنا إلى الخلافات الفقهية حول من تؤخذ منهم الجزية ومن لا تؤخذ منهم. ولا عن مقادير هذه الجزية. ولا عن طرق ربطها ومواضع هذا الربط. ذلك أن هذه القضية برمتها ليست معروضة علينا اليوم، كما كانت معروضة على عهود الفقهاء الذين أفتوا فيها واجتهدوا رأيهم في وقتها.

إنها قضية تُعَدّ اليوم «تاريخية» وليست «واقعية». . إن المسلمين اليوم لا يجاهدون! . . **ذلك أن المسلمين اليوم لا يوجدون! . . إن قضية «وجود» الإسلام ووجود المسلمين هي التي تحتاج اليوم إلى علاج!**

والمنهج الإسلامي ـ كما قلنا مرارا ـ منهج واقعي جاد؛ يأبى أن يناقش القضايا المعلقة في الفضاء؛ ويرفض أن يتحول إلى مباحث فقهية لا تطبق في عالم الواقع ـ

---

(١) في ظلال القرآن ج١٠ ص١٠، ١١ ـ طبعة الحلبي الثانية.

لأن الواقع لا يضم مجتمعا مسلما تحكمه شريعة الله، ويصرف حياته الفقه الإسلامي - ويحتقر الذين يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بمثل هذا المباحث في أقضية لا وجود لها بالفعل؛ ويسميهم «الأرأيتيين» الذين يقولون: «أرأيت لو أن كذا وقع فما هو الحكم؟».

إن نقطة البدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الإسلام.. أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق؛ فيشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.. ومن ثم يدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع؛ ويطبقون هذا في واقع الحياة.. ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الإعلان العام لتحرير الإنسان.. ويومئذ - ويومئذ فقط - سيكون هناك مجال لتطبيق النصوص القرآنية والأحكام الإسلامية في مجال العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات.. ويومئذ - ويومئذ فقط - يجوز الدخول في تلك المباحث الفقهية، والاشتغال بصياغة الأحكام، والتقنين للحالات الواقعة التي يواجهها الإسلام بالفعل، لا في علم النظريات!

وإذا كنا قد تعرضنا لتفسير هذه الآية - من ناحية الأصل والمبدأ - فإنما فعلنا هذا لأنها تتعلق بمسألة اعتقادية وترتبط بطبيعة المنهج الإسلامي. وعند هذا الحد نقف، فلا نتطرق وراءه إلى المباحث الفقهية الفرعية احتراما لجدية المنهج الإسلامي وواقعيته وترفعه على هذا الهزال»[١].

وقد ناقشنا الشهيد رحمه الله مناقشة مفصلة حول هذه النقطة حينما عرضنا لرأيه في «إحياء الفقه الإسلامي»، وتجديد الاجتهاد فيه ومدى جديته وجدواه، وبينا انفراده رحمه الله عن سائر علماء الأمة بهذا الرأي الذي يتبنى فيه جانب الغلو والتعسير على الأمة، ولكنه لا يرى الأمة موجودة، حتى تستحق منه التيسير لا التعسير، وأنصح قارئي أن يراجع هذه المناقشة في كتابي

---

(١) في ظلال القرآن ج١٠ ص١٩٠، ١٩١ طبعة عيسى البابي الحلبي الثانية.

«الاجتهاد في الشريعة الإسلامية» أو كتابي «الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط» .

٥- في التعقيب على آية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ﴾:

وفي تفسير قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة : ٣١) . نقل ما رواه أحمد والترمذي وابن جرير عن عدي بن حاتم (وكان قد تنصر في الجاهلية) لما سمع الآية من النبي صلى الله عليه وسلم يتلوها، قال : يا رسول الله! إنهم لم يعبدوهم! قال : «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم . . » .

والحديث - وإن بلغ درجة الصحة - قد اعتمده المفسرون، وقبله العلماء في الجملة، ونقلوه بعضهم عن بعض .

وقد كان هذا الحديث عمدة وركيزة أساسية عند الشهيد، وبنى عليه ما بنى، وهو من ناحية سنده كما ترى، قال في الظلال :

«ومن النص القرآني الواضح الدلالة، ومن تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو فصل الخطاب - ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين : تخلص لنا حقائق في العقائد والدين ذات أهمية، نشير إليها هنا بغاية الاختصار :

- أن العبادة هي الاتباع في الشرائع، بنص القرآن وتفسير الرسول . . فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابا، بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم، أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم . . ومع هذا حكم الله سبحانه عليهم بالشرك في هذه الآية، وبالكفر في آية تالية في السياق؛ لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها . .

ـ أن النص القرآني يسوي في الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه، وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقادا وقدموا إليه الشعائر في العبادة. فهذه كتلك سواء في اعتبار فاعلها مشركا بالله، الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين . .

ـ أن الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده؛ ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهيته؛ ولا تقديم الشعائر التعبدية له . . كما هو واضح من الفقرة السابقة . . ولكنا إنما نزيدها هنا بيانا!

وهذه الحقائق ـ وإن كان المقصود الأول بها في السياق هو مواجهة الملابسات التي كانت قائمة في المجتمع المسلم يومذاك من التردد والتهيب للمعركة مع الروم، وجلاء شبهة أنهم مؤمنون بالله لأنهم أهل كتاب ـ هي كذلك حقائق مطلقة تفيدنا في تقرير «حقيقة الدين» عامة . .

إن دين الحق الذي لا يقبل الله من الناس كلهم دينا غيره هو «الإسلام» . . والإسلام لا يقوم إلا باتباع الله وحده في الشريعة ـ بعد الاعتقاد بألوهيته وحده وتقديم الشعائر التعبدية له وحده ـ **فإذا اتبع الناس شريعة غير شريعة الله**: صح فيهم ما صح في اليهود والنصارى من أنهم مشركون لا يؤمنون بالله ـ مهما كانت دعواهم في الإيمان ـ **لأن هذا الوصف يلحقهم بمجرد اتباعهم لتشريع العباد لهم من دون الله، بغير إنكار منهم يثبت منه أنهم لا يتبعون إلا عن إكراه واقع بهم، لا طاقة لهم بدفعه،** وأنهم لا يقرون هذا الافتئات على الله . .

إن مصطلح «الدين» قد انحسر في نفوس الناس اليوم، حتى باتوا يحسبونه عقيدة في الضمير، وشعائر تعبدية تقام! وهذا ما كان عليه اليهود الذين يقرر هذا النص المحكم ـ ويقرر تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أنهم لم يكونوا يؤمنون بالله، وأنهم أشركوا به، وأنهم خالفوا عن أمره بألا يعبدوا إلا إلها واحدا، وأنهم اتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله .

إن المعنى الأول للدين هو الدينونة - أي الخضوع والاستسلام والاتباع - وهذا يتجلى في اتباع الشرائع كما يتجلى في تقديم الشعائر. والأمر جد **لا يقبل هذا التميع في اعتبار من يتبعون شرائع غير الله - دون إنكار منهم يثبتون به عدم الرضا عن الافتئات على سلطان الله - مؤمنين بالله، مسلمين لمجرد أنهم يعتقدون بألوهية الله سبحانه ويقدمون له وحده الشعائر**.. وهذا التميع هو أخطر ما يعانيه هذا الدين في هذه الحقبة من التاريخ؛ وهو أفتك الأسلحة التي يحارب بها أعداؤه؛ الذين يحرصون على تثبيت لافتة «الإسلام» على أوضاع، وعلى أشخاص، يقرر الله سبحانه في أمثالهم أنهم مشركون لا يدينون دين الحق، وأنهم يتخذون أربابا من دون الله.. وإذا كان أعداء هذا الدين يحرصون على تثبيت لافتة الإسلام على تلك الأوضاع وهؤلاء الأشخاص؛ فواجب حماة هذا الدين أن ينزعوا هذه اللافتات الخادعة؛ وأن يكشفوا ما تحتها من شرك وكفر واتخاذ أرباب من دون الله.. ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣١)[1]». انتهى.

إن سيد قطب أديب من كبار أدباء العربية، وله قدرة هائلة على التعبير عن الفكرة الواحدة، بصيغ متعددة، وأساليب شتى، فلا عجب أن نرى «الظلال» حافلا بفكرته المحورية عن انقطاع الإسلام من الأرض، وغياب أمته من الوجود، برغم وجود مئات الملايين الذين ينسبون إلى الإسلام، ويزعمون أنهم مسلمون!

لا يخدعنا عنوان الإسلام:

ويعد حديث عن اللافتات التي تحمل عنوان الإسلام، لتوضع على المجتمعات والدول والأوضاع والمؤسسات، يحذر الشهيد رحمه الله من الانخداع بهذه العناوين الكاذبة والمضللة. يقول في «الظلال»:

---

(١) الظلال ج١٠/ ٢٠٣-٢٠٥.

«والسذج ممن يدعون أنفسهم «مسلمين» يخدعون في هذه اللافتة. . ومن هؤلاء السذج كثير من الدعاة إلى الإسلام في الأرض! فيتحرجون من إنزالها عن «الجاهلية» القائمة تحتها، ويتحرجون من وصف هذه الأوضاع بصفتها الحقيقية التي تحجبها هذه اللافتة الخادعة. . صفة الشرك والكفر الصريحة. . ويتحرجون من وصف الناس الراضين بهذه الأوضاع بصفتهم الحقيقية كذلك! وكل هذا يحول دون الانطلاق الحقيقي الكامل لمواجهة هذه الجاهلية مواجهة صريحة؛ لا تحرج فيها ولا تأثم من و صفها بصفتها الحقيقية الواقعة!

بذلك تقوم تلك اللافتة بعملية تحذير خطرة لحركات البعث الإسلامي؛ كما تقوم حاجزا دون الوعي الحقيقي، ودون الانطلاق الحقيقي لمواجهة جاهلية القرن العشرين التي تتصدى لسحق الجذور الباقية لهذا الدين[1].

هؤلاء السذج - من الدعاة إلى الإسلام - أخطر في نظري على حركات البعث الإسلامي من أعداء هذا الدين الواعين، الذين يرفعون لافتة الإسلام على الأوضاع والحركات والاتجاهات والأفكار والقيم والتقاليد التي يقيمونها ويكفلونها لتسحق لهم هذا الدين!

إن هذا الدين يغلب دائما عندما يصل الوعي بحقيقته وحقيقة الجاهلية إلى درجة معينة في نفوس العصبة المؤمنة - في أي زمان وفي أي مكان - والخطر الحقيقي على هذا الدين ليس كامنا في أن يكون له أعداء أقوياء واعون مدربون؛ بقدر ما يكمن في أن يكون له أصدقاء سذج مخدوعون، يتحرجون في غير تحرج؛ ويقبلون أن يتترس أعداؤهم بلافتة خادعة من الإسلام؛ بينما هم يرمون الإسلام من وراء هذه اللافتة الخادعة!

إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض، أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية، والتي تحمي هذه الأوضاع المقامة لسحق

---

(١) راجع كتاب: «جاهلية القرن العشرين» لمحمد قطب.

جذور هذا الدين في الأرض جميعا! وإن نقطة البدء في أي حركة إسلامية هي: تعرية الجاهلية من ردائها الزائف؛ وإظهارها على حقيقتها .. **شركا وكفرا** .. ووصف الناس بالوصف الذي يمثل واقعهم؛ كيما تواجههم الحركة الإسلامية بالطلاقة الكاملة.. بل كيما ينتبه هؤلاء الناس أنفسهم إلى حقيقة ما انتهى إليه حالهم ـ وهي الحقيقة التي انتهى إليها حال أهل الكتاب كما يقررها الحكيم الخبير»[1]. انتهى.

---

(١) من (ظلال القرآن) ج١٠/ ٢١٤، ٢١٥ طبعة الحلبي الثانية.

ثانيا: نص من «المعالم»

ويعود الشهيد سيد قطب إلى الموضوع في كتابه «معالم في الطريق» ليتحدث عنه في أكثر من مناسبة. ونختار هنا فقرات من فصل «لا إله إلا الله منهج حياة» يقول رحمه الله:

ولكن ما هو «المجتمع الجاهلي»؟ وما هو منهج الإسلام في مواجهته؟

«إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم! وإذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا: إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده.. متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية..

وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار «المجتمع الجاهلي» جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلا!!

تدخل فيه المجتمعات الشيوعية.. أولا: بإلحادها في الله - سبحانه - وبإنكار وجوده أصلا، ورجع الفاعلية في هذا الوجود إلى «المادة» أو «الطبيعة»، ورجع الفاعلية في حياة الإنسان وتاريخه إلى «الاقتصاد» أو «أدوات الإنتاج». ثانيا: بإقامة نظام العبودية فيه للحزب - على فرض أن القيادة الجماعية في هذا النظام حقيقة واقعة! - لا لله سبحانه!

وتدخل فيه المجتمعات الوثنية - وهي ما تزال قائمة في الهند واليابان والفلبين وإفريقية - تدخل فيه - أولا: بتصورها الاعتقادي القائم على تأليه غير الله - معه أو

من دونه ـ وتدخل فيه ثانيا : بتقديم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات التي تعتقد بألوهيتها . . كذلك تدخل فيه بإقامة أنظمة وشرائع ، المرجع فيها لغير الله وشريعته . سواء استمدت هذه الأنظمة والشرائع من المعابد والكهنة والسدنة والسحرة والشيوخ ، أو استمدتها من هيئات مدنية «علمانية» تملك سلطة التشريع دون الرجوع إلى شريعة الله . .

وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية في أرجاء الأرض جميعا . . تدخل فيه هذه المجتمعات أولا : بتصورها الاعتقادي المحرف ، الذي لا يفرد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية بل يجعل له شركاء في صورة من صور الشرك ، سواء بالبنوة أو بالتثليث ، أو بتصور الله سبحانه على غير حقيقته ، وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها» .

«وأخيرا يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها «مسلمة» !

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله ، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضا ، ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها . فهي ـ وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله ـ تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله ، فتدين بحاكمية غير الله ، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها ، وشرائعها وقيمها ، وموازينها ، وعاداتها وتقاليدها . . وكل مقومات حياتها تقريبا ! .

كما أنه ـ سبحانه ـ قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده ، واتخاذ الأحبار والرهبان أربابا من دونه ، لمجرد أن جعلوا للأحبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن أنفسهم إنهم «مسلمون» لناس منهم ! واعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركا كاتخاذهم عيسى بن مريم ربا يؤلهونه ويعبدونه سواء . فهذه كتلك خروج من العبودية لله وحده ، فهي خروج من دين الله ، ومن شهادة أن لا إله إلا الله .

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة «علمانيته» وعدم علاقته بالدين أصلا، وبعضها يعلن أنه «يحترم الدين» ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلا، ويقول: إنه ينكر «الغيبية» ويقيم نظامه على «العلمية» باعتبار أن العلمية تناقض الغيبية! وهو زعم جاهل لا يقول به إلا الجهال، وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ويشرع ما يشاء ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه: هذه شريعة الله!.. وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده..

وإذا تعين هذا، فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة:

إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره.

إن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التي تحملها هذه المجتمعات على اختلافها.. إنها كلها تلتقي في حقيقة واحدة.. وهي أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده. وهي من ثم تلتقي - مع سائر المجتمعات الأخرى - في صفة واحدة.. صفة «الجاهلية»[1].

---

(١) معالم في الطريق ص ٨٨-٩٣ طبعة دار الشروق ١٩٦٨م.

ثالثا: نص من «العدالة الاجتماعية في الإسلام»

ولا تقتصر النصوص التي تحمل معنى تكفير مسلمي اليوم في مشارق الأرض ومغاربها - إلا من آمن بأفكار الشهيد حول معنى «لا إله إلا الله» وما يتعلق بالحاكمية، ودخل فيما دخلت فيه العصبة المؤمنة التي تقوم بما قام به الصحابة من قبل، على «الظلال» و «المعالم»، بل نجد ذلك في كتب أخرى كثيرة. ومنها: كتاب (العدالة الاجتماعية في الإسلام» الذي ألفه في المرحلة السابقة على مرحلته الأخيرة هذه، ولكنه أضاف إليه فصلا مهما ضمنه أفكاره الأخيرة تحت عنوان «حاضر الإسلام ومستقبله»، ونكتفي هنا بنقل فقرات منه قال:

«نحن ندعو إلى استئناف حياة إسلامية، في مجتمع إسلامي، تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي، كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي.

ونحن نعلم أن الحياة الإسلامية - على هذا النحو - قد توقفت منذ فترة طويلة في جميع أنحاء الأرض؛ وأن «وجود» الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك!

ونحن نجهر بهذه الحقيقة الأخيرة - على الرغم مما قد تحدثه من صدمة وذعر وخيبة أمل للكثيرين ممن لا يزالون يحبون أن يكونوا «مسلمين»[1]! - ونجهر بها على هذا النحو في الوقت الذي ندعو فيه إلى استئناف حياة إسلامية، في مجتمع إسلامي، تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام

(١) هم إذن ليسوا مسلمين!!

الإسلامي. ولا نرى أن في رؤية تلك الحقيقة والجهر بها كذلك ما يدعو إلى خيبة الأمل؛ أو اليأس من هذه الدعوة ومن هذه المحاولة. على العكس نرى أن الجهر بهذه الحقيقة المؤلمة ـ حقيقة أن الحياة الإسلامية قد توقفت منذ فترة طويلة في جميع أنحاء الأرض، وأن «وجود» الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك ـ نرى أن الجهر بهذه الحقيقة ضرورة من ضرورات الدعوة إلى الإسلام، ومحاولة استئناف حياة إسلامية.. ضرورة لا مفر منها.

إن الأمر المستيقن في هذا الدين أنه لا يمكن أن يقوم في الضمير «عقيدة»، ولا في واقع الحياة «دينا» إلا أن يشهد الناس: أن لا إله إلا الله. أي لا «حاكمية» إلا الله.. حاكمية تتمثل في قضائه وقدره كما تتمثل في شرعه و أمره ـ وهذه كلها سواء في كونها أساسا للعقيدة لا تقوم ـ ابتداء ـ في الضمير إلا به. كذلك هو لا يمكن أن يقوم في واقع الحياة «دينا» إلا أن تتمثل العقيدة في نظام واقعي للحياة هو «الدين»، فتفرد فيه شريعة الله بالهيمنة على حياة الناس جملة وتفصيلا؛ ويبرأ فيه الحاكم والمحكوم من ادعاء حق «الألوهية» عن طريق ادعاء حق «الحاكمية» ومزاولة التشريع فعلا بما لم يأذن به الله؛ مما يتخذه البشر لأنفسهم من أنظمة وأوضاع وتشريعات وقوانين؛ غير مستمدة من شريعة الله، نصا حين يوجد النص، واجتهادا ـ في حدود المبادئ العامة ـ حين لا يوجد نص. طاعة لأمر الله سبحانه: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (النساء: ٥٩).

ونحن لا نحدد مدلول «الدين» ولا مفهوم «الإسلام» على هذا النحو من عند أنفسنا.. ففي مثل هذا الأمر الخطير، الذي يترتب عليه تقرير مفهوم لدين الله؛ كما يترتب عليه الحكم بتوقف «وجود» الإسلام في الأرض اليوم؛ وإعادة النظر في دعوى مئات الملايين من الناس أنهم «مسلمون».. في مثل هذا الأمر لا يجوز أن يفتي الإنسان فيما يقصم الظهر في الدنيا والآخرة جميعا!

إنما الذي يحدد مدلول «الدين» على هذا النحو، ومفهوم «الإسلام» هو الله ـ

سبحانه - إله هذا الدين ورب هذا الإسلام. . وذلك في نصوص قاطعة لا سبيل إلى تأويلها ولا الاحتيال عليها:

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (يوسف: ٤٠).

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة: ٤٩).

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المائدة: ٤٤).

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (النساء: ٥٩).

وكلها تقرر حقيقة واحدة. أنه لا إسلام ولا إيمان بغير الإقرار بالحاكمية لله وحده؛ والرجوع إليه فيما يقع عليه التنازع - مما لم يرد به نص - إذ لا رأي مع النص ولا نزاع - والحكم بما أنزل - دون سواه - في كل شئون الحياة؛ والرضا بهذا الحكم رضا قلبيا بعد الاستسلام له عمليا. . وأن هذا هو «الدين القيم». . وهذا هو «الإسلام» الذي أراده الله من الناس.

وحين نستعرض وجه الأرض كله اليوم - على ضوء هذا التقرير الإلهي لمفهوم الدين والإسلام - لا نرى لهذا الدين «وجودا». . إن هذا الوجود قد توقف منذ أن تخلت آخر مجموعة من المسلمين عن إفراد الله سبحانه بالحاكمية في حياة البشر؛ وذلك يوم أن تخلت عن الحكم بشريعته وحدها في كل شؤون الحياة.

ويجب أن نقرر هذه الحقيقة الأليمة، وأن نجهر بها، وألا نخشى خيبة الأمل التي تحدثها في قلوب الكثيرين الذين يحبون أن يكونوا «مسلمين». . فهؤلاء من حقهم أن يستيقنوا: كيف يكونون مسلمين!

إن أعداء هذا الدين بذلوا طوال قرون كثيرة وما يزالون يبذلون، جهودا ضخمة ماكرة خبيثة، ليستغلوا إشفاق الكثيرين الذين يحبون أن يكونوا مسلمين، من وقع هذه الحقيقة المريرة، ومن مواجهتها في النور! وتحرجهم كذلك من إعلان أن «وجود» هذا الدين قد توقف، منذ أن تخلت آخر مجموعة مسلمة في الأرض عن تحكيم شريعة الله في أمرها كله؛ فتخلت بذلك عن إفراد الله سبحانه بالحاكمية ـ[أو بالألوهية]ـ فهذه مرادفة لتلك، أو لازمة لها لا تتخلف.

هؤلاء الأعداء الماكرون الخبثاء يستغلون ذلك الإشفاق وهذا التحرج لتخدير مشاعر الكثيرين في الأرض، الذين يحبون أن يكونوا «مسلمين» وإيهامهم أنهم ما يزالون «مسلمين» فعلا! وأن «الإسلام بخير»! وأن الناس يمكن أن يكونوا «مسلمين» دون أن تحكمهم شريعة هذا الدين؛ بل دون أن يعتقدوا أن الحاكمية لله وحده، من ادعاها لنفسه فقد ادعى الألوهية، وكفر، وخرج من هذا الدين!

وكذلك ينبغي أن نجهر نحن بالحقيقة المقابلة، التي قد يشفق منها الكثيرون ممن يحبون أن يكونوا مسلمين؛ وممن يتحرجون أن يعلنوا أن وجود هذا الدين قد توقف . . لنبطل مفعول «المخدر» الخبيث، الذي يخدر به أعداء هذا الدين محبي هذا الدين!!!»[1]. انتهى.

الإسلام إذن غير موجود اليوم على الأرض، والمسلمون غير موجودين، وإن كان الكثيرون منهم يحبون أن يكونوا مسلمين، ولكن يجب أن نصارحهم بالحقيقة المرة ـ وإن كانت مؤلمة ـ أنهم ليسوا مسلمين، هم إذن كفار ومشركون، ويجب أن يدخلوا في الإسلام من جديد، على أساس جديد!!!

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام: ص٢٤٤ ـ ٢٤٧ الطبعة السابعة ١٩٦٧م.

الفهـــرس

(١) السنة الدراسية ١٩٦٥ـ١٩٦٦م

(٢) السنة الدراسية ١٩٦٦ـ ١٩٦٧م

(٣) السنة الدراسية ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨م

(٤) السنة الدراسية ١٩٦٨ - ١٩٦٩م

(٥) السنة الدراسية ١٩٦٩ - ١٩٧٠م

(٦) السنة الدراسية ١٩٧٠ - ١٩٧١م

(٧) السنة الدراسية ١٩٧١ - ١٩٧٢م

(٨) السنة الدراسية ١٩٧٢ - ١٩٧٣م

(٩) السنتان الدراسيتان ١٩٧٣ - ١٩٧٤، ١٩٧٤ - ١٩٧٥م

العام الدراسى ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥م

(١٠) السنة الدراسية ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦م

(١١) السنة الدراسية ١٩٧٦ - ١٩٧٧م

الملاحق

رقم الإيداع ١٧٢٧٣/ ٢٠٠٥
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 1344 -B

ابن القرية والكُتّاب

ملامح سيرة ومسيرة

هذا الجزء الثالث من سيرة «ابن القرية والكُتَّاب» ومسيرته، تضم مرحلة مهمة من حياتي من سنة ١٩٦٥ إلى سنة ١٩٧٧م. وفيها وقعت أحداث ذات بال، على المستوى الشخصي، وعلى المستوى العام.

على المستوى الشخصي: رزقتُ بأبنائي الذكور الثلاثة: محمد وعبد الرحمن وأسامة. ودخل أولادي جميعا المدارس، وظهر تفوقهم مبكرا، بحمد الله. وحصلتُ على الدكتوراه من الأزهر بعد أن أيست منها. ونقلت من المعهد الديني إلى جامعة قطر، لأكون أول عميد مؤسس لكلية الشريعة بها. وبدأت الخروج من عزلتي لأنطلق إلى أنحاء العالم، مَدْعوا من الجامعات والمؤسسات، ومشاركا في الندوات والمؤتمرات.

وعلى المستوى العام: وقعت محنة الإخوان في مصر سنة ١٩٦٥م، وإعدام سيد قطب ١٩٦٦ ونكبة يونيو ١٩٦٧ وموت عبد الناصر ١٩٧٠ وانتصار ١٠ من رمضان ١٣٩٣هـ (٦ أكتوبر ١٩٧٣) وزيارة السادات لتل أبيب ١٩٧٧، وما أعقبها من توقيع معاهدة كامب ديفيد ١٩٧٨، وبروز الصحوة الإسلامية بقوة منذ أواسط السبعينيات.



وقد اقتضاني موقفي، بوصفي شاهدا على العصر، أن أقول كلمتي معقبا على
الأحداث الكبيرة، فأغضبت شهادتي على عهد عبد الناصر: الناصريين، وأ
شهادتي على فكر سيد قطب: الإسلاميين! وما أردت بكلامي إرضاء
إسخاطه، ولكنها شهادة أقمتها لله وأمانة أديتها لوجه الله. وحسبي رضا
وإن سخط الخلق. وقديما قالوا: رضا الناس غاية لا تُدرك.

ومن في الناس يُرضي كل نفس   وبين هوى النفوس مدى بعيد

يوسف القرضاوي



دار الشروق

www.shorouk.com